

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



كلية الآداب واللغات والفنون
قسم: اللغة العربية و آدابها

رسالة التخرج لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي

مشروع: نظرية الأدب والمناهج النقدية المعاصرة

خِطَابُ الرَّحَلَاتِ فِي التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ

خِطَابُ الرَّحَلَةِ الْجَزَائِرِيَّةِ فِي الْعَهْدِ الْعُثْمَانِيِّ أَنْمُودَجًا

*إشراف: أ.د. شُميسة غربي

*إعداد الطالب: طارق تركي

- أ.د. عمارة بوجمعة..... جامعة س. بلعباس..... رئيسة.....
أ.د. شُميسة غربي..... جامعة س. بلعباس..... مشرفا ومقررا
د. عبد القادر جلال..... جامعة س. بلعباس..... عضوا مناقشا
أ.د. محمد بن سعيد..... جامعة وهـران..... عضوا مناقشا
أ.د. حبيب بوزوادة..... جامعة معسكر..... عضوا مناقشا
أ.د. عز الدين حفار..... جامعة مستغانم..... عضوا مناقشا

*** دُعَاء ***

«اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْهَزِيمَةَ عَلَى الرَّشَدِ

وَنَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ وَحَسَنَ عِبَادَتِكَ
وَنَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا

وَلِسَانًا صَادِقًا، وَنَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ،
وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا
تَعْلَمُ إِنَّكَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»

إهداء

أهدي ثمرة نجاحي إلى من سهر الليالي من أجلي

إلى والديّ الحبيين

وإلى إخوتي (سفيان - محمد أمين)

وإلى كل عائلة (تركي) وعائلة (عياد)

وإلى الأستاذة المشرفة (غربي شميصة)

التي تحملت مسؤولية الإشراف على هذا العمل

وإلى رئيس المشروع: أ.د. عمارة بوجمعة

وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



مقدمة

مقدمة

أدّى الرّحالة العرب وغيرهم مهمّة سامية للأجيال اللاحقة، إذ أسهمت كتاباتهم في نقل كثير من الصّور الجميلة والمشاهد المميزة لكثير من البلدان وطبيعتها الجغرافية وظروفها المعيشة وسلّطوا الضوء على تاريخ هذه البلدان وأفكار سكّانها وعاداتهم وتقاليدهم قد تختلف وقد تتفق عن عادات البلاد التي جاء منها هؤلاء الرّحالة فأسهّموا بذلك في نقل بعض ثقافات الشعوب الأخرى وإثارة الاهتمام بها، وتشجيع المهتمين من العلماء وطلبة العلم على زيارة تلك البلاد للأخذ من معارفها وعلومها.

وبذلك خلّف هؤلاء الرحالة تراثاً ضخماً من التآليف يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد؛ إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم الأديب والفقير والمؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع...، فقد كان لرحلاتهم دور في صقل منهجهم وتأكيد الوقائع والأحداث بالمشاهدة والملاحظة وأدت بالتالي إلى اتساع أفق أصحابها لكثرة ما زاروه من البلدان واختلاطهم بالعلماء وأصحاب المعرفة فجاءت بذلك في أسلوب أدبي رفيع ذي خصوصية تميزه عن غيره من الألوان الأدبية الثرية الأخرى، سمي مع مرور الزمن بـ: "خطاب الرحلات"

فخطاب الرحلات يعد أحد منابع الثرية لمختلف العلوم، وهي في مجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة. ولعل هذا ما جعل العديد من الدّراسات العلمية والنقدية تشتغل على مادتها الوفيرة، رغم أنه لم يحظ في عالمنا بذلك الاهتمام الذي حظيت به فنون الأدب الأخرى كالقصة والمسرحية والرواية والمقالة...، وغيرها من الفنون التي كتبت فيها الدراسات والأبحاث، وأعدت بشأنها الرسائل والأطروحات. "فخطاب الرحلات" بالرغم من أنه يعتبر من الفنون التراثية المتجذرة في الأدب العربي، وبرغم ما كتب فيه من مؤلفات، وما أنجز حوله من دراسات، يبقى في الكثير من الأحيان فناً مهمشاً إلى حد ما، و في حاجة ماسة إلى مزيد من الجهد والدراسة، حتى يكشف عن حقيقته، وتستقيم النظرة إليه، وتتجه أقلام النقاد والباحثين نحوه فتدرسه وتحلله، وتبعث من جديد الحياة فيه.

ويسمح لنا تتبع هذه الرحلات، ولاسيما في العصر الحديث أن نقول: إن الرحلة الجزائرية كانت الأقل دراسة إذا ما قورنت بغيرها من رحلات المشرق و المغرب، إضافة إلى قلة اهتمام الباحثين الجزائريين بفن الرحلة رغم تميزه ، و سيطرة نظرة معينة عليهم حين تناوله ، وهي تركيزهم في دراسته و تحليله غالبا على المضمون الاجتماعي بمختلف مكوناته ، دون التفاهم إلى الجانب الفني الذي يميزه ، و في مقابل ذلك، يقف على مدى اهتمام النقاد في المغرب خاصة بدراسة هذا الفن و تحليله وفق المناهج الحديثة، مع التركيز في ذلك على مكونات البنية الفنية فيه.

إن هذا التباين في الاهتمام بالرحلات ، و في طبيعة ما يقدم حولها من دراسات عندنا و عندهم، أمر واقع و ملفت للانتباه حقا ، و لا أخفي سرا إذا قلت أن ذلك كان من الدوافع التي دفعتني لاختيار موضوع الرحلة موضوعا للبحث ، رغبة في دراستها من أجل استنطاقها ، و كشف صورة البيئة التي جرت فيها ، و طبيعة المجتمعات التي نقلت صورتها، سواء تلك التي انطلقت منها أو اتجهت نحوها ، وسعيا كذلك للبحث في الجوانب الفنية فيها ، و محاولة إبرازها فنا قائما بذاته ، له منطق و بناؤه ، ومكوناته و آليات دراسته ، و طرق تناوله الخاصة به ، والتي تميزه عن غيره من الفنون الأخرى.

و لما كان من متطلبات البحث الوضوح ، والتحديد ، والدقة ، فقد ارتأينا أن يقتصر مجال بحثنا على الرحلة الجزائرية في فترة زمنية محددة ، هي فترة العهد العثماني ، و قد آثرنا أن يكون موسوما بالعنوان التالي : **خطاب الرحلات في التراث العربي - خطاب الرحلة الجزائرية في العهد العثماني نموذجا-**

وعلى الرغم من أن بعض الدارسين والباحثين رأوا أن الدراسات اللغوية والأدبية في العهد العثماني نادرة مقارنة بالعصور التي سبقتها أو تلتها، ذلك لأن العهد العثماني في جميع مظاهره السياسية والاقتصادية والثقافية واللغوية زُعم عنه أنه تميز بالركود والجمود الثقافي والعلمي، إلا أنه في المقابل هناك ما يدل على رقي الدراسات اللغوية والأدبية في الجزائر خلال هذا العهد. فلقد أنجبت الجزائر في مجال اللغة والأدب العديد من الأعلام المتميزين، ومن أمثال هؤلاء: أحمد المقرئ التلمساني، وابن حمادوش الجزائري، وأبو راس العسكري... وغيرهم من علماء ذلك العصر الذين كانوا ولا يزالون مفخرة للتراث الأدبي الجزائري.

ورغم غناء تراثنا الجزائري بالكثير من الرحالة العلماء، فإننا اقتصرنا على هؤلاء الأعلام الثلاثة لأنهم سيكونون نماذج هذه الدراسة، ولأن نطاق بحثنا يضيق عن تناول كل الرحالة الجزائريين في العهد العثماني.

إن فضل اختيار هذا الموضوع حقيقةً يعود إلى الأستاذة المشرفة "شميسة غربي" وذلك بعد أن عرضته عليّ فصادفني قبولا حسنا ورغبة صادقة في تناوله. كما أن اختيار الرحلة الجزائرية كفن نثري دون غيرها من الفنون، وفي هذا العهد بالذات، وقفت وراءه عوامل أخرى يمكن إجمالها في أمور أهمها:

- الشغف الشديد لمعرفة خبايا وأسرار الرحلات وما تحمله من مغامرات وعادات الشعوب وتقاليدهم. إضافة إلى ولعي بإحياء التراث، وبخاصة التراث الجزائري اللغوي والأدبي في هذه الحقبة التي لا زالت لحد الآن مجهولة من بعض الجوانب.

- الرغبة في المساهمة في إثراء الدراسات المتعلقة بالفنون النثرية التراثية، خاصة أننا نرى كثيرا من الباحثين انحازوا للبحث في الشعر على حساب النثر.

- التعريف بهذا الجنس، والتعريف بمدونة الرحلة الجزائرية، وإبراز القيمة الكبيرة التي يحتلها نص الرحلة الجزائرية، وإبراز تاريخ الجزائر إبان هذه المرحلة التاريخية، وتعريف العالم العربي بمادة النصوص الأدبية التي تحفل بها الجزائر.

- الرد على من يدعي أن العهد العثماني هو عصر الجمود العلمي، الأمر الذي شكّل عائقا صرف كثيرا من الدارسين عن هذه المرحلة تعميماً للوصمة، مما حجب عنه الكثير من الطاقات الإبداعية، وشكل ضربة قوية للتواصل الثقافي، وهذا العائق نفسه تحول لديّ إلى حافز يدعو إلى الاستكشاف والمغامرة في هذه الحقبة من تراثنا الأدبي المطمور، الذي قل من التفت إليه لينفض عنه غبار النسيان والضياع، ويولّيه من العناية والدراسة ما يستحق. كما يمكننا تصحيح الانطباع الذي قد يتركه لدينا طابع السلطة العثمانية العسكري وإنعكاس ذلك على الجانبين العلمي والثقافي.

- الرغبة في الاقتراب من العهد العثماني، بغية الاطلاع و التعامل مع ما أنتج فيه من أدب ، والوقوف خاصة على فن الرحلة فيه، باعتبار أن الجزائريين في هذه الفترة اشتهروا بتعدد رحلاتهم وتنوعها.

- الرغبة في تقديم عمل يساهم في إقناع الباحثين أن حوض غمار البحث في ما أنتجه أدباء العهد العثماني ممكن - بل واجب - و هو لا ينقص من قيمة البحث شيئاً ، نقول هذا الكلام، لما نلاحظه من عزوف الدارسين عن البحث في هذا العهد ، متحججين بضعف الإنتاج الأدبي فيه.

- وفوق هذا و ذلك، الرغبة في تناول الرحلة الجزائرية بطريقة جديدة ، غير تلك التي تناولتها الدراسات السابقة، وذلك من خلال دراسة الجانب اللغوي والأدبي والنقدي، دون إهمال الجانب التاريخي، فالهدف من هذه الدراسة بالدرجة الأولى ، هو محاولة دراسة الجانب الفني للرحلة الجزائرية خلال العهد العثماني، مع إبراز أهم الخصائص التي تميزها ، انطلاقاً من دراسة وتحليل بعضها من نماذجها.

- قلة الدراسات الأكاديمية التي عُنت بالرحلات الجزائرية، وبالضبط في هذه الفترة الحساسة من فترات تاريخ الجزائر، ولاسيما رحلة ابن حمادوش، ورحلة أبي راس التي يجهلها الكثير من طلابنا اليوم.

وقد أثارت هذه الدراسة مجموعة من التساؤلات لعل أبرزها: ما هو خطاب الرحلة؟ وما هي أهم الدوافع التي دُوّن لأجلها؟ وما هي الفنون الأدبية التي يمكن لهذا الفن أن يتقاطع معها؟

وكيف سائرت الرحلة الجزائرية ظروفَ المرحلة ومعطياتها في ظل الحكم العثماني والوعي الثقافي وتجاذبات الصراع المحلي؟ وكيف تجاوزت مع الاختلاف الثقافي والحضاري الذي ميّز المناطق المختلفة بالمنطقة الجزائرية.

وما هي أهم الجوانب والموضوعات التي عُني بها رحالتنا الجزائريون في تلك الفترة؟ وما هي الخصائص التي ميزت كل رحلة عن غيرها؟ وهل استطاع الرحالة الجزائري أن يحفظ ويؤرخ لتراث الأمة التي قصدها؟ وما هي قيمة الرحلات الجزائرية في الأدب العربي؟

ومن أجل الإجابة عن كل هذه الأسئلة و غيرها، سار البحث على خطة كان تقسيمها كالاتي:

ثلاثة فصول يسبقها مقدمة ومدخل، وتلحقهما خاتمة وملحق.

أما المقدمة فقد تضمنت موضوع البحث، وأسباب اختياره، والمنهج المتبع، وخطة الدراسة. ثم المدخل: وضحت فيه بعض المصطلحات التي لها علاقة بالبحث، والتي سيتكرر ذكرها كثيراً، وهي كالاتي: (الخطاب، والرحلة، والجغرافيا، والوصف، والسرد، والمكان، والزمان) ثم الفصل الأول: بعنوان: خطاب الرحلة. المفهوم، الدوافع والأقسام، وجاء مقسماً بحسب عنوانه إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ماهية خطاب الرحلة: تطرقت فيه إلى تحديد مفهوم خطاب الرحلة، إضافة إلى تبيان العلاقة الموجودة بينه وبين أدب السيرة وأدب الجغرافيا وذلك لاشتراكهم في العديد من الخصائص.

المبحث الثاني: تناولت فيه الدوافع التي أدت بالرحالة إلى القيام بهذا النشاط ودواعي تدوينه. المبحث الثالث: تضمن أقسام خطاب الرحلات بين رحلة نثرية ورحلة شعرية، ورحلة واقعية (فعلية) ورحلة خيالية، إضافة إلى مكونات الخطاب الرحلي وعناصره.

أما الفصل الثاني: فخصصته للرحلات العربية بين المشرق والمغرب والجزائر، ولأنها كثيرة ولا يمكنني التفصيل فيها جميعاً، فقد أوجزت في كل رحلة. وقد جاء الفصل بعنوان خطاب الرحلة في التراث العربي، وانقسم بدوره إلى ثلاثة مباحث كل مبحث تضمن مميزات وخصائص كل رحلة.

فالمبحث الأول: خُصص للحديث عن الرحلات المشرقية من بداية مسارها في منتصف القرن الثاني الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري.

المبحث الثاني: خُصص للحديث عن الرحلات المغاربية ابتداء من القرن الخامس إلى القرن الثالث عشر هجري.

والمبحث الثالث: شمل الحديث عن الرحلات الجزائرية في التراث العربي، والتي مرت بثلاث مراحل (حكم الدويلات ثم الحكم العثماني ثم الإستعمار الفرنسي)

أما الفصل الثالث: فهو فصل تطبيقي مكمل للمبحث الثالث من الفصل الثاني، حيث خصصته للرحلات الجزائرية في العهد العثماني، وقد انتقيت ثلاث رحلات جاءت مرتبة ترتيباً زمنياً بحسب المباحث التالية:

المبحث الأول: خطاب الرحلة في كتاب: (نَفْحُ الطَّيِّبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ) لأحمد المقرئ التلمساني (ق11هـ/17م)

المبحث الثاني: خطاب الرحلة في كتاب: (لِسَانُ المَقَالِ فِي النِّبَا عَنِ النَّسَبِ وَالحَسَبِ وَالحَالِ) لعبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري (ق12هـ/18م).

المبحث الثالث: خطاب الرحلة في كتاب: (فَتْحُ الإِلَهِ وَمِنْتَهُ فِي التَّحَدُّثِ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ) لأبي راس المعسكري (ق13هـ/19م).

كان التركيز في كل مبحث من هذه المباحث على أهم السمات والظواهر الفنية التي تميزت بها كل رحلة، وذلك من خلال الكشف عن سبب تسمية الرحلة، ودوافع التأليف؛ والمصادر المعتمدة؛ والمنهج المتبع؛ والجوانب التي عُني بها كل رحلة، مع القيمة العلمية والأدبية لكل من هذه الرحلات الثلاث.

وقد ذيلت هذا الفصل بثلاثة جداول تضمنت موازنة بين الرحالة الثلاثة من حيث:

الأول: أسباب التأليف، وأسلوب المؤلف في التدوين ومنهجه الذي سار عليه.

الثاني: الجوانب التي عني بها كل رحال.

الثالث: سير خط الرحلات

وختمت هذه الدراسة بجائمة عرضت فيها أبرز النتائج التي توصلت إليها، مع تقديم بعض الاقتراحات التي قد تسهم إسهاماً ولو متواضعاً في مجال الدراسات الأدبية التطبيقية لخطاب الرحلة، والتي لا تزال مكتبتنا الجزائرية بحاجة إليها.

ثم أتبع الرسالة بملحق يحتوي على سيرة مختصرة لحياة كل من الرحالة الثلاثة.

ولما كانت طبيعة الموضوع تقتضي مني التحليل والوصف في بعض الحالات، فقد اتبعت المنهج التحليلي الوصفي، كما استعنت في بعض المواضع بالمنهج التاريخي وقد تمثل ذلك في اتباع

التسلسل الزمني للرحلات والكشف عن الجوانب السياسية والإقتصادية والإجتماعية والجغرافية للرحلات.

وقد سمح لنا اتباع هذا المنهج أن نقرأ النص الرحلي من داخله و من خلال علاقته بصاحبه، وبالبيئة التي أنتجته ؛ فهذه الرحلات يمكننا أن نرى من خلالها ومن خلال رؤية الرحالين الذين قاموا بها ، و دونوا أحداثها قيما للجماعات وأعرافها وتقاليدها ، ومدى وعيها بما يحيط بها ، سواء تعلق الأمر بالجماعة التي انطلقوا منها ، أو تلك التي اتجهوا إليها.

ولكي يصل هذا العمل إلى المبتغى ، فقد اعتمدنا على مجموعة من المصادر أبرزها الرحلات الثلاث التي ستكون نماذج هذا البحث، بالإضافة إلى بعض المراجع الجزائرية أهمها: (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) و(تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م) و(تجارب في الأدب والرحلة) لأبي القاسم سعد الله، و(في الأدب الجزائري الحديث) لعمر بن قينة، و (الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري) لسميرة أنساعد.

وبعض المراجع العربية ك: (أدب الرحلة في التراث العربي) لفؤاد قنديل، و(الرحلات)، لشوقي ضيف و(الرحلة في الأدب العربي) لناصر عبد الرزاق المواقى، و(أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري) لنوال عبد الرحمن الشوابكة، و(أدب الرحلة)، حسين نصار، إضافة إلى مراجع أخرى.

كما لا تخلو الساحة من دراسات سابقة سواء في مجال الرحلات العربية أو الجزائرية والتي كانت عوناً لي في بحثي هذا، والتي من بينها:

- إسماعيل زردومي، (فن الرحلة في الأدب المغربي القديم)، جامعة الحاج لخضر، (باتنة-الجزائر).
- جميلة روباش، (أدب الرحلة في المغرب العربي)، جامعة محمد خيضر، (بسكرة- الجزائر)
- عيسى بختي، (أدب الرحلة الجزائري الحديث - سياق النص وخطاب الأنساق-)، جامعة يلقايد أبي بكر جامعة، (تلمسان- الجزائر)،
- حافظ محمد بادشاه، (الحجاز في أدب الرحلة العربي)، الجامعة الوطنية للغات الحديثة (إسلام آباد- باكستان)،

- عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي، (أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية)، جامعة أم القرى، (المملكة العربية السعودية).

ولقد واجهتني - كأبي باحث - أثناء التحضير للمادة ، وأثناء الانجاز ، مجموعة من الصعوبات يأتي على رأسها:

- صعوبة الحصول على الرحلات التي تنتمي إلى العهد العثماني ؛ إذ أن كثيرا منها ما زال مخطوطا حبيس الخزائن، و حتى الذي حقق منها وطبع ، لم يكن بصورة جيدة ، حيث كثرت فيه الأخطاء ، والبتور ، والاضطراب في ترتيب الصفحات، ما حتم جهدا إضافيا و عملا شاقا.

- قلة المصادر و المراجع فيما يتعلق بالعهد العثماني ، و ندرة البحوث و الدراسات التي تناولت الرحلات الجزائرية عموما وفي هذا العهد على وجه الخصوص ، أعني تلك الدراسات التي تتعلق بدراسة الجانب الفني للرحلة، فمعظم الدراسات التي وقفت عليها اهتمت بالجانب الجمالي أو التاريخي؛ فلم يقع بين يدي ما يمكن أن أستأنس به ، ويكون مرشدا لي لأبني أو استند عليه في انجاز هذا العمل.

وفي الأخير، لا يسعني إلا أن أتوجه إلى المولى عز وجلّ بالدعاء أن أكون وفقت فيما قدمت في هذا البحث، فالحمد لله أولا وآخرا ، و الشكر كل الشكر ، لكل من كان لي عوناً ، من قريب أو من بعيد ، في انجاز هذا العمل المتواضع ، خاصة الأستاذة التي تبنت فكرة الموضوع ، وتبعت خطواته ، وأشرفت عليه ، الأستاذة الدكتورة شميصة غربي أدام الله عطاءها، ثم لا أنسى تقديم الشكر والثناء لرئيس المشروع: الأستاذ الدكتور عمارة بوجمعة وفقه الله تعالى إلى طريق الخير ولما يحبه ويرضاه ، وأيضاً لجامعتنا التي كان لها الفضل في إتاحة هذه الفرصة الأكاديمية، جامعة الجليلي ليايس، وكليتها كلية الآداب واللغات والفنون بمسؤوليها، وإداريها، وأساتذتها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

طارق تُركي

في: 06 ربيع الأول 1441هـ

03 نوفمبر 2019م

مطبخ

مفاهيم أساسية في خطاب الرحلة

لا بُد قبل الولوج في صلب هذه الدراسة من معرفة مفهوم بعض الألفاظ التي سيتكرر ذكرها؛
موجها أكبر اهتمامنا على المفهوم اللغوي والأدبي دون سواهما؛ فأول هذه الألفاظ:

1- الخطاب: [Discours]

أ- لغة:

إن مصطلح "خطاب" [Discours]، اسم مشتق من مادة (خ. ط. ب)، تردد في القرآن الكريم بصيغة المصدر في ثلاث آيات. قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص-20]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَإِلَى نَعَجَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾⁽¹⁾

[ص-23]، وقال تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبا-28].

وورد بصيغة الفعل في ثلاث آيات أيضاً وهي: قوله تعالى: ﴿وَعِبَادَ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [الفرقان-63]
وقال تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود-37]، وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلْكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون-27]

ويصعب إحصاء عد ورود هذا المصطلح في كتب الحديث والسيرة. لكن نذكر بعض ما ورد عنه ﷺ.

(1) عَزَّنِي فِي الْخِطَابِ: غلبي في الجدل. ينظر: جلال الدين السيوطي، جلال الدين أحمد بن محمد الخلي، (تفسير الجلالين)، تح: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، (دمشق - سوريا)، د. ط، ص: 455.

"فَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أَخْبَرَهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ أَنْصِتْ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ، فَقَدْ لَعَوْتُ» وقوله: أَنْصِتْ: أي الإصغاء مع السكوت، يَخْطُبُ: يعظ النَّاسَ، لَعَوْتُ: أَعْرَضْتُ عَنْ اسْتِمَاعِ الْخُطْبَةِ وَتَكَلَّمْتُ بِمَا لَا يَنْبَغِي"⁽²⁾

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ أَنَّ رَجُلًا خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ. وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بئسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ. قُلْ: وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». وَخَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَعْنِي فِي عَقْدِ النِّكَاحِ أَوْ بَيْنَ يَدِ وَفْدٍ وَليْسَ فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ"⁽³⁾.

أما من حيث المعنى المعجمي فقد ورد في "اللسان" لابن منظور (ت.711هـ) في مادة [خ. ط. ب] أن الْخِطَابَ وَالْمُخَاطَبَةَ: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً وخطاباً. وهما يتخاطبان. قال تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود-37]، وفي حديث الْحِجَّاجِ: "أَمِنْ أَهْلِ الْمَحَاشِدِ وَالْمَخَاطِبِ" أراد بـ: (الْمَخَاطِبِ) الْخُطْبَ جُمِعَ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ كَالْمَشَابِهِ وَالْمَلَامِحِ، وَقِيلَ هُوَ جَمْعُ مَخْطَبَةٍ، وَالْمَخْطَبَةُ: الْخُطْبَةُ وَالْمُخَاطَبَةُ: مُفَاعَلَةٌ مِنَ الْخِطَابِ وَالْمُشَاوَرَةِ، أَرَادَ أَنَّتَ مِنَ الَّذِينَ يُخَاطَبُونَ النَّاسَ وَيُحْتُونَهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ وَالِاجْتِمَاعِ لِلْفِتَنِ"⁽⁴⁾، قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُرَ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص-20]، الْحِكْمَةَ: النُّبُوَّةَ. ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾: الْبَيَانُ الشَّافِي فِي كُلِّ قَصْدٍ.. وَقَالَ شُرَيْحُ الْقَاضِي وَالشَّعْبِيُّ: الشُّهُودُ وَالْأَيْمَانُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: شَاهِدَانِ عَلَى الْمُدْعَى، أَوْ يَمِينِ الْمُدْعَى عَلَيْهِ، هُوَ فَصْلُ الْخِطَابِ الَّذِي فَصَّلَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلَ (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)

- أو قال المؤمنون الصالحون- وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة. وقال مُجَاهِدٌ أَيْضًا هُوَ الْفَصْلُ فِي الْكَلَامِ وَفِي الْحُكْمِ. أَي الْفَصْلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ الْحُكْمِ وَضَدُّهُ. قَالَ

⁽²⁾ ينظر: محمد أمين بن عبد الله الهروي الشافعي، (شرح صحيح مسلم. الكوكب الوهاج والروض البهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، تح: هاشم محمد علي مهدي، دار المنهاج (جدة- المملكة العربية السعودية)، دار طوق النجاة (بيروت- لبنان)، 1430هـ/2009م، ط1، باب الجمعة ص: 284/10

⁽³⁾ المصدر السابق، باب الجمعة، ص: 349/10

⁽⁴⁾ ابن منظور، (لسان العرب)، تح: عبد الله علي كبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، (القاهرة- مصر)، مادة: خطب. وينظر: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، (تاج العروس من جواهر القاموس)، تح: علي الهالبي، مطبعة حكومة الكويت، (الكويت)، 1407هـ/1987م، ط2، مادة: خطب

الشعبي: فصل الخُطَاب: أَمَّا بَعْدُ، وداود(عَلَيْهِ السَّلَام) أول من قال أَمَّا بَعْدُ، قال أبو العباس ويعني أَمَّا بَعْدُ ما مَضَى من الكلام فهو كذا وكذا⁽⁵⁾.

والخُطْبُ: "الشَّانُ، وما خَطْبُكَ؟ أي ما شَأْنُكَ الذي تَخْطُبُهُ وهو مجاز، والخُطْبُ: الحال، وقيل: هو سبب الأمر، يُقال: ما خَطْبُكَ؟ أي ما أَمْرُكَ، وتقول: هذا خَطْبٌ جليل، وخَطْبٌ يسيرٌ، والخُطْبُ: الأمر الذي يقع فيه المُخاطبة، وجلَّ الخُطْبُ أي عَظَمَ الأمر والشَّانُ، وفي حديث عُمر (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) « وقد أَفْطَرُوا فِي يَوْمِ غَيْمٍ فِي رَمَضَانَ فَقَالَ: الخُطْبُ يَسِيرٌ»، وفي التَّنْزِيلِ العَرِيزِ: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر-57]، [الذاريات-31]⁽⁶⁾.

قال اللَّيْثُ⁽⁷⁾: والخُطْبَةُ مصدرُ الخُطِيبِ، وخَطَبَ الخَاطِبُ على المِنْبَرِ، واخْتَطَبَ يَخْطُبُ خُطَابَةً، واسم الكلام: الخُطْبَةُ؛ قال أبو منصور: والذي قال اللَّيْثُ إِنَّ الخُطْبَةَ مصدرُ الخُطِيبِ لا يجوز إلا على وجه واحد، وهو أَنَّ الخُطْبَةَ اسمٌ للكلام، الذي يتكلم به الخُطِيبُ، فيُوضَع موضع المصدر.

قال الجوهري: "خَطَبْتُ على المِنْبَرِ خُطْبَةً، بالضَّمِّ، وخَطَبْتُ المرأةَ خُطْبَةً، بالكسْرِ، واخْتَطَبَ فيهما. وذهب أبو إسحاق إلى أَنَّ الخُطْبَةَ عند العرب: الكلام المنثور المُسَجَّع ونحوه. والخُطْبَةُ مثل الرسالة التي لها أوَّلٌ وآخر.

ورجلٌ خَطِيبٌ: حسنُ الخُطْبَةِ، وجمع الخُطِيبِ خُطَبَاءُ. وخَطَبَ بالضَّمِّ، خُطَابَةً بِالْفَتْحِ: صار خُطِيبًا"⁽⁸⁾.

قال الخَلِيلُ (ت170هـ) الخُطَابُ: مراجعة الكلام، والخُطْبَةُ: مصدر الخُطِيبِ، والخُطْبُ: سبب الأمر. وفلانٌ يَخْطُبُ امرأةً وَيَخْطُبُهَا خُطْبَةً، ولو قيل خِطِيبِي جاز.

⁽⁵⁾ أحمد شاكر، (عمدة التفسير عن الحفاظ ابن كثير مختصر تفسير القرآن العظيم)، تح: أنور الباز، دار الوفاء، (الإسكندرية- مصر)، 1426هـ/2005م، ط2، ص: 165/3

⁽⁶⁾ ابن منظور، (لسان العرب)، م.م.س، مادة: خطب. ويُنظر: الزبيدي، (تاج العروس من جواهر القاموس)، م.م.س، مادة: خطب
⁽⁷⁾ اللَّيْثُ: هو الليث بن نصر بن سيار الخرساني. قال الأزهري: "الليث بن المظفر الذي نحل عن الخليل بن أحمد تأليف كتاب العين جملة لينفق كتابه باسمه ويرغب فيه من حوله". قال بن المعتز: "كان من أكتب الناس في زمانه، بارعاً في الأدب، بصيراً بالشعر والغريب والنحو". ينظر: أحمد الأزهري، (تهذيب اللغة)، م.م.س، ص: 25/1. وينظر: أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي، (مراتب النحوين)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة هضبة مصر، (القاهرة- مصر)، د.ط، ص: 31

⁽⁸⁾ ابن منظور، (لسان العرب)، م.م.س، مادة: خطب. ويُنظر: الزبيدي، (تاج العروس من جواهر القاموس)، م.م.س، مادة: خطب

والخَطِيبِيَّ مُرَحَمَةَ الْيَاءِ عَلَى بِنَاءِ خَلِيفَى. وكان الرجل في الجاهلية إذا أراد الخطبة قام في النادي فقال: خِطْبُ. ومن أرادَه قال: نِكْحُ، وهي كلمة كانت العرب تتزوج بها. والأَخْطَبُ: لون إلى الكُدْرَةِ مُشْرَبٌ حُمْرَةً فِي صُفْرَةٍ كَلَوْنَ الحَنْظَلَةَ الخَطْبَاءَ قَبْلَ أَنْ تَبَيَسَ، وَكَلَوْنَ بَعْضَ حُمْرِ الوَحْشِ، وَالجَمِيعُ: خُطْبَانٌ⁽⁹⁾.

قال علقمة بن عبدة:

يَظَلُّ فِي الحَنْظَلِ الخُطْبَانِ يَنْقُفُهُ وَمَا اسْتَطَفَّ مِنَ التُّؤْمِ مَخْدُومٌ⁽¹⁰⁾

والأَخْطَبُ: الحِمَارُ تَعْلُوهُ خُضْرَةٌ. قال الفراء: الخَطْبَاءُ: الأَتَانُ لَهَا خَطٌّ أَسْوَدٌ عَلَى مَتْنِهَا، وَالذَكَرُ أَخْطَبٌ. وَالخَطْبَائِيَّةُ: قَوْمٌ مِنَ الرَّافِضَةِ، يُنسَبُونَ إِلَى أَبِي الخَطَّابِ الأَسَدِيِّ⁽¹¹⁾

ب- اصطلاحًا:

الخطاب على المستوى العام: "نصٌ يُنقل من مرسل إلى مرسل إليه، يتضمن عادةً أبناء لا تخص سواهما. وكانت الخطابات في البدء موجزةً، ثم أسهب بها الكتاب والأدباء حتى غدت فنًا قائمًا بذاته، يعتني به كاتبه"⁽¹²⁾.

ويعد مصطلح الخطاب من المصطلحات التي ارتبط ظهورها في الثقافة العربية بحقل علم الأصول، هذا الحقل الذي أصبح بمثابة الدائرة التي تمحورت حولها القراءات الخاصة بالثقافة العربية فكانت المصطلحات التي تركز عليها في دراستها متأثرة به. وما الخطاب إلا أحد أبرز النماذج الدالة على الأثر التي تركته الأصول في توجيه هذا المصطلح.

وإذا بحثنا عن مفهوم الخطاب في التراث العربي، وجدناه يحمل مدلول الرسالة أو الكلام، فيقال: هذا خطاب فلان لفلان، ويرتبط الخطاب بالخطابة في النصوص التراثية، فالخطابة في ميدان النشر

⁽⁹⁾ الخليل بن أحمد الفراهيدي، (العين)، تح: مهدي الخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، 1424هـ، ط1، ص: 222/4. باب الخاء، مادة: خطب

⁽¹⁰⁾ السيد أحمد صقر (شرح ديوان علقمة الفحل)، د.ت، المطبعة الخمودية، (القاهرة- مصر)، 1353هـ/1935م، ط1، ص: 63

⁽¹¹⁾ إسماعيل بن حماد الجوهري، (الصِّحاح. تاج اللغة وصِّحاح العربية)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، 1379هـ/1956م، دار العلم للملايين، (بيروت- لبنان)، 1379هـ/1956م، ط1، مادة: خطب. وينظر: ابن منظور، (لسان العرب)، م.م.س، مادة: خطب، ويُنظر: الزبيدي، (تاج العروس من جواهر القاموس)، م.م.س، ص: مادة: خطب

⁽¹²⁾ مجدي وهبه، كامل المهندس، (معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب)، مكتبة لبنان، (بيروت- لبنان)، 1984م، ط2، ص: 159

بمترلة القصيد في ميدان الشعر، فهي الإطار الأمثل الذي تتجلى فيه البلاغة النثرية، و من ثم فإن الجاحظ إذا تكلم في بعض النصوص عن الخطابة والسياق، فهو يقصد البلاغة⁽¹³⁾، ولم يذكروا بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة، وليس معنى هذا أنه لا يفرق بينهما، ولكنه يتصور العلاقة بينهما على هذا الشكل ليس أكثر، ولو أردنا التعبير عن هذه العلاقة، لقلنا: هو الكاشف عن العلاقة التي تجعل البلاغة جنسا، والخطابة نوعا، أي: كل خطابة بلاغة، وليس كل بلاغة خطابة⁽¹⁴⁾.

وأما في الدراسات الحديثة فقد شهد هذا المصطلح إقبالا واسعا من قبل الدارسين والباحثين، فالخطاب ليس بالمصطلح الجديد ولكنه كيان متجدد يولد في كل زمن ولادة جديدة تنسجم وخصوصية المرحلة، وهو كمفهوم لساني يمتد حضوره إلى النصوص المتعاليات من قرآن كريم وشعر جاهلي.

وقد بدأ هذا المصطلح يرتسم في مناخه الدلالي بعد ظهور كتاب فرديناند دي سوسير (Ferdinand de Saussure) "محاضرات في اللسانيات العامة" لما فيه من مبادئ أساسية ساهمت في وضوح مفهوم الخطاب، ومن بين التعاريف التي قدمت للإحاطة بالمصطلح والتي تبدو في عمومها تعاريف جزئية تضيء جوانب مفردة من هذا المفهوم، إلا أن تقديمها معاً لا ينم عن الاختلاف الموجود بينها بقدر ما ينم عن تكامل متدرج يصبو إلى الإفصاح عن ماهية الخطاب.

وقد اختلفت تعاريف الخطاب باختلاف المنطلقات الأدبية واللسانية المقاربة للمفهوم، ومن بينها:

- الخطاب مرادف للكلام، أي الانجاز الفعلي للغة بمعنى "اللغة في طور العمل أو اللسان الذي تنجزه ذات معينة كما أنه يتكون من متتالية تشكل مرسلتها بداية ونهاية"⁽¹⁵⁾

⁽¹³⁾ عبد القادر شرشار، (تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص)، منشورات إتحاد كتاب العرب، (دمشق- سوريا)، 2006م، د.ط، ص: 9
⁽¹⁴⁾ أبو عمرو الجاحظ، (البيان والتبيين)، تح: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، (القاهرة- مصر)، 1998/هـ1418، ط7، 27/3، 28.
⁽¹⁵⁾ ينظر: سعيد يقطين، (تحليل الخطاب الروائي)، المركز الثقافي العربي، (بيروت-لبنان)، (الدار البيضاء- المغرب)، 1997م، ط3، ص: 21

- الخطاب "مدونة كلامية ذي وظائف متعددة، يتصل بزمان ومكان، وهو تواصل يهدف إلى توصيل معلومات ومعارف، ثم هو تفاعلي يساهم في إقامة علاقات بين أفراد المجتمع"⁽¹⁶⁾

ومن حيث العدد: "الخطاب كل كلام يتجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوباً أو ملفوظاً"⁽¹⁷⁾. وهو حسب عبد السلام المسدي، "تعريف يقوم على رؤية أسلوبية للخطاب، حيث يعد إنجازاً لغوياً يرتبط باستعمال الفرد للغة، فيضفي عليه بذلك خاصية الفردية في الاستعمال التي يعمد القارئ إلى الكشف عنها وإبراز خصائصها"⁽¹⁸⁾.

ويذهب بنفنيست (E. Benveniste) أنه كل تلفظ يفترض متحدثاً ومستمعاً، تكون للطرف الأول نية التأثير في الطرف الثاني بشكل من الأشكال. ومن ثم يميز (بنفنيست) بين نظامين للتلفظ هما الخطاب والحكاية التاريخية، فالخطاب قوامه جملة الخطابات الشفوية المتنوعة ذات المستويات العديدة، وجملة الكتابات التي تنقل خطابات شفوية أو تستعير طبيعتها وهدفها شأن المراسلات والمذكرات والمسرح والأعمال التعليمية⁽¹⁹⁾.

والحكاية التاريخية هنا ليس الحكاية التي تنقل حدثاً تاريخياً - فذلك مما يمكن اعتباره خطاباً - وإنما هي كل حدث ما ينقل بطريقة تقريرية هدفها هو تاريخية الحدث في حد ذاته.

وتعطي خلود العموش للخطاب تعريفاً تواصلياً، إذ تقول: " نجد أن الخطاب كلمة تستخدم للدلالة على كل كلام متصل اتصالاً يمكنه أن ينقل رسالة كلامية من المتكلم أو الكاتب"⁽²⁰⁾

كما نجدها تذكر العلاقة القائمة بين الخطاب والنص، فتقول: "... وليس كل خطاب نصّاً وإن كان كل نص بالضرورة خطاباً؛ فالكلام المتصل خطاب، ولكنّه لا يكون نصّاً إلاّ إذا اكتمل ببداية ونهاية وعبر عن موضوعه ببناء متماسك منسجم"⁽²¹⁾

⁽¹⁶⁾ ينظر: محمد مفتاح، (تحليل الخطاب الشعري-إستراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، (بيروت- لبنان)، (الدار البيضاء- المغرب)، 1985م، ط1، ص: 120

⁽¹⁷⁾ ميجان الرويلي وسعد البازعي، (دليل الناقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي، (بيروت- لبنان)، (الدار البيضاء- المغرب)، 2002م، ط3، ص: 155

⁽¹⁸⁾ عبد السلام المسدي، (النقد و الحداثة)، دار الطليعة للطباعة والنشر، (بيروت- لبنان)، ط1، ص: 57

⁽¹⁹⁾ ينظر: محمد الباردي، (انشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة)، منشورات إتحاد كتاب العرب، (دمشق- سوريا)، 2000م، د.ط، ص: 8

⁽²⁰⁾ خلود العموش، (الخطاب القرآني)، عالم الكتب الحديث، (الأردن)، 2008، ط1، ص: 24

ومما سقناه يتضح أنّ الخطاب ألصق بالظاهرة الكلامية، التي ترتبط بالفرد، والذي يسعى إلى إفهام مُخاطبه والتأثير فيه قصد إقناعه والوصول به إلى مرتبة اليقين. أو هو بناء علاقة تلفظية بين طرفين: مخاطب و مخاطب، "فالخطاب في هذا الفهم ذو طابع كلي وشمولي لا يتوقف على البعد اللساني وحده، و لا على البعد الاجتماعي و التاريخي الذي يعتبر النص انعكاسا لحركة الدلالة في التاريخ، كما لا يقتصر على البعد التداولي المعني بالتواصل في موقف محدد، ولكنه يمازج بين هذه الأبعاد نظرا و تطبيقا"⁽²²⁾.

ولا يزال الحديث عن الخطاب وخصوصياته الأدبية، والبحث في أسراره ومكوناته موضع اهتمام الدراسات الأدبية على تعاقب الأزمنة، وتباين الأمكنة، وأخذ النقاد يتكلمون عنه بصيغة طغى عليها المدّ والجزر، فبين متمسك بالتراث وبين لاهث على درب الحداثة، وفق مناهج شتى من أسلوبية ولسانية وشعرية وبنوية وسيميائية في محاولة لعلمنة منهج دراسة هذا الخطاب.

2- الرحلة:

الرحلة مصطلح مشترك، ارتبط بالكثير من المعاني والدلالات، التي ولدت لنا مجالات من البحث مختلفة، فكان نتيجة هذا ورود مصطلحات ومفاهيم عدّة، في مجملها تضع الرحلة مركزاً لها، لكن الاهتمام بها يختلف باختلاف الزاوية التي يُنظر إليها، فنجد مثلا: الرحلة والجغرافيا، الرحلة والاستكشاف، الرحلة والتاريخ، الرحلة والأدب... إلى غير ذلك من مجالات البحث المختلفة التي تتخذ من الرحلة مادة دسمة لها.

ولتوضيح الرؤية أكثر، علينا أن نحاول الإلمام بمفهوم الرحلة من جوانب عدة، في مقدمتها: ما المقصود بالرحلة لغويا واصطلاحياً؟ وما هي المعاني والمقاصد التي وردت بها في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والمؤلفات العربية؟

⁽²¹⁾ ينظر: جبار جينيت، (خطاب الحكاية)، تر، محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمر حلي، المجلس الأعلى لثقافة، 1997م، ط2، ص: 38، 39

⁽²²⁾ محمد عبد الباسط عيد، (النص والخطاب قراءة في علوم القرآن)، مكتبة الآداب علي حسن، (القاهرة- مصر)، 2009م، ط1، ص: 18

أ- لغة:

لم يدع الإسلام وسيلة من وسائل الخير التي تفيد الإنسان إلا وحثه على فعلها، ومنها الرحلة، سواء أكانت الرحلة للعلم أو الهجرة بالدين من أرض الشرك إلى أرض الإسلام أو الحج أو التجارة.

ففي بداية الحديث عن الرحلة من الجانب اللغوي لا بد من النظر إلى أولى الرحلات الثابتة لدينا والمستقاة من أوثق مصادرنا الإسلامية وهو القرآن الكريم، فقد حفل القرآن الكريم بالأمثلة العديدة لكل نوع منها على رغم من عدم ورود لفظ "رحلة" إلا مرة واحدة بصيغة المصدر، قال تعالى:

﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ ۖ إِيَّاهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قریش-2،1] أي ما كانوا

يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم⁽²³⁾. ووردت ثلاث مرات بصيغة اسم الذات في سورة يوسف، قال

تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِحَالِ أَخِيهِ ثُمَّ أذَّنَ

مُؤَدِّنُ أَيْتِهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ ﴿قَالُوا جَزَأُوهُدٍ مِّنْ وُجْدٍ فِي رِحَالِهِ ۖ فَهُوَ جَزَأُوهُدٍ

كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف-62،70،75]. الرِّحَالُ، جمع: رِحَال: وعاء يضع

فيه المسافر زاده ومتاعه⁽²⁴⁾.

⁽²³⁾ أحمد شاکر، (عمدة التفسیر عن الحافظ ابن کثیر- مختصر تفسیر القرآن العظيم)، م.م.س، ص: 735/3. ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، (المعجم

المفهرس لألفاظ القرآن)، دار الحديث، (القاهرة- مصر)، 1364هـ/1945م، د.ط، ص: 304/2

⁽²⁴⁾ أحمد مختار عمر، (المعجم الموسوعي في ألفاظ القرآن الكريم وقراءاته)، مؤسسة سطور المعرفة، (الرياض- المملكة العربية السعودية)،

1423هـ/2002م، ط1، ص: 203

كما أن هناك إشارات عدّة لمعنى الرحلة والارتحال في آيات عديدة، كان الغرض منها متنوعاً، من ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۗ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك- 15] أي: "فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا في

أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً، إلا أن ييسره الله لكم⁽²⁵⁾" وهذه دعوة صريحة لشد الرحال والارتحال قصد الانتفاع مهما كانت هذه المنفعة. وفي الحديث: عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ قال: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالَ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى»⁽²⁶⁾

وكما تكاد المعاجم اللغوية أن تتفق حول معنى الرحلة، في أنها تعني الارتحال والانتقال من مكان لآخر، تتخذ الراحلة وسيلة لها وقد وردت في معجم لسان العرب بأن "الرحلة من التَّرحُل والارتحال، الانتقال وهو: الرَّحْلَةُ والرُّحْلَةُ. وَالرَّحْلَةُ: اسم للارتحال للمسير. يُقال: دَنَتْ رِحْلَتُنَا وَرَحَلَ فُلَانٌ وَارْتَحَلَ وَتَرَحَّلَ... وتقول: أَرَحَلْتِ الْإِبِلَ: سَمِنْتَ بَعْدَ هُرْأَلٍ فَأَطَاقَتْ الرَّحْلَةَ. وَرَاحَلْتُ فُلَانًا إِذَا عَاوَنْتَهُ عَلَى رِحْلَتِهِ. وَأَرَحَلْتُهُ إِذَا أَعْطَيْتَهُ رَاحِلَةً. وَرُحْلَةٌ، بِالضَّمِّ: الْوَجْهَ الَّذِي تَأْخُذُ فِيهِ وَتُرِيدُهُ، تقول: أَنْتُمْ رُحَلْتِي أَي الَّذِينَ أَرْتَجِلُ إِلَيْهِمْ"⁽²⁷⁾

وجاء في العين، "رَحَلَ: الرَّاحِلَةُ: المركب من الإبل من الذكر أو الأنثى... والرَّحِيلُ: اسم الارتحال للمسير... وتَرَحَّلَ القوم: وهو ارتحال في مُهْلَةٍ، وَرَحَلَ الرجل: منزله ومسكنه... والمُرْحَلُ: ضرب

⁽²⁵⁾ عماد الدين بن كثير، (تفسير القرآن العظيم)، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، (المملكة العربية السعودية)، 1418هـ/1997م، ط1، ص: 179/8

⁽²⁶⁾ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، (صحيح البخاري)، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية)، 1422هـ، د.ط، (كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة)، [باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة]، الحديث رقم: 1189

⁽²⁷⁾ ابن منظور، (لسان العرب)، م.م.س، مادة: رحل

من بُرود اليمن، سُمِّيَ به لأنَّ عليه تصاوير رَحْلٍ وما يُشبهه، ورَاحيل: اسم أمِّ يوسف عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيْنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، والمُرْتَحَلُ: نقيضُ المَحَلِّ،⁽²⁸⁾ قال الأعشى:

إِنَّ مَحَلًّا وَإِنَّ مُرْتَحَلًا وَإِنَّ فِي السَّفَرِ مَا مَضَى مَهَلًا⁽²⁹⁾

أما بالنسبة للمعاجم الحديثة فهي لم تتعد عن هذه المعاني، نذكر ما ذكره أحمد مختار عمر في: (معجم اللغة العربية المعاصرة) في مادة [رَحَلْ]، قال: "رَحَلَ: يَرِحُلُ، رَحَلًا، وَرِحْلَةً، فهو رَاحِلٌ، والمفعول مَرْحُولٌ. رَحَلَ الإِبِلُ: وضع على ظهرها رَحَلًا أو سَرَجًا لِلحِمْلِ والرُّكُوبِ. أرحلَ الشَّخْصُ: كثرت أسفاره"⁽³⁰⁾... وارْتَحَلَ الطفل أباه: رَكِبَ ظهره كما ركب الرجل راحلته رِحْلَةً: ج:(رحلات): انتقال إلى مكان آخر، ويكثر في الدلالة على الخروج للخروج والترويح عن النفس "رحلة سياحية/علمية"⁽³¹⁾.

ب- اصطلاحاً:

إذا حاولنا تحديد الرحلة اصطلاحاً، فإننا لا نجد تعريفاً متفقاً عليه من قبل الدارسين، فالتعاريف قد تعددت، وهذا بسبب اتجاه كل باحث وخلفية، وزاوية اهتمامه بها، فهذا الإمام الغزالي يعرفها - الرحلة والسفر - بأنَّهما: "نوع حركة ومخالطة"، أو "نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة"⁽³²⁾، كما أوضح أن الفوائد الباعثة على الرحلة لا تخلو من هرب أو طلب، وأنَّ الإنسان لا يسافر إلا في غرض، وهذا الغرض هو المحرك للإنسان.

وعرفها بطرس البستاني بأنَّها: "انتقال واحد - أو جماعة - من مكان إلى مكان آخر لمقاصد مختلفة، وأسباب متعددة"⁽³³⁾

⁽²⁸⁾ الخليل بن أحمد الفراهيدي، (كتاب العين)، م.م.س.ص: 208/3. باب الحاء والراء واللام معهما رح ل يستعمل فقط
⁽²⁹⁾ محمد حسين، (شرح ديوان الأعشى)، مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية، د.ط، (القاهرة- مصر)، ص: 68. وينظر: ندى عبد الرحمن يوسف الشايع،

(معجم لغة دواوين شعراء معلقات العشر)، مكتبة لبنان ناشرون، (بيروت- لبنان)، 1993م، د.ط، ص: 124

⁽³⁰⁾ أحمد مختار عمر، (معجم اللغة العربية المعاصرة)، عالم الكتب، (القاهرة- مصر)، 2008م، ط1، ص: 869.870/2

⁽³¹⁾ المرجع نفسه، ص: 871/2

⁽³²⁾ أبو حامد الغزالي، (إحياء علوم الدين)، تح: زين الدين أبي الفضل العراقي، (بيروت- لبنان)، 1426هـ/2005م، ط1، ص: 713

⁽³³⁾ بطرس البستاني، (دائرة المعارف العربية)، مطبعة المعارف، (بيروت- لبنان)، 1884م، د.ط، ص: 564/8

وتقول عواطف محمد يوسف نواب عن الرحلة والرحالة: "الشخص الذي قام بالرحلة، قد ترك موطنه، وانتقل إلى مكان آخر، وسافر من موطنه وقصد جهة أخرى غير موطنه وسار إليها، لذا كان لفظ رحلة أعم وأشمل ما يطلق على المسافر من مكان إلى آخر، فالرحال صفة مشتقة من الفعل الذي قام به وهو الرحلة"⁽³⁴⁾

ويعرفها صلاح الدين الشامي على أنّها "إنجاز أو فعل فرديّ أو جماعيّ لما يعنيه اختراق حاجز المسافة، وإسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر، ويأتي هذا الإنجاز من أجل هدف معين، ويجاوب هذا الهدف إرادة الإنسان وحركة الحياة على الأرض بشكل مباشر أو غير مباشر... وقد تكون الرحلة هواية تشبع حاجة الإنسان وترضيه، ولكنه تكون - في الحالتين - استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محددة تدعو بكل الإلحاح للحركة والتنقل"⁽³⁵⁾.

ويزيد ناصر عبد الرزاق الموائى أنّ الرحلة جوهرها الحركة، باعتبارها- الحركة- مكون أصيل من مكونات الإنسان، لأنّ الحركة دليل الحياة، فهي "أوضح برهان على كل موجود حسي" وليست كل حركة رحلة. فما يميز الرحلة عن غيرها أنّها غاية لذاتها، أي أنّها حركة من أجل الحركة ذاتها ابتداءً، ولأنّ الرحلة حركة أصلية فإنّ الرحالين يتغاضون عن وصف فترات التوقف والسكون العارض لعذر قاهر، بل إنّ كثير من الرحالين أعلن ضيقه وملله الذي يحل به من جراء طول المقام في مكان واحد، مما دفعه إلى استتراف كل طاقات المكان الذي حل به. وهذه الحركة ليست على المستوى البدني فحسب، وإنّما يجب أن تشمل المستويات كافة، لا بد أن تعمل جميع الحواس بطاقتها القصوى حتى ينعكس ذلك إيجابياً على وصف الرحلة"⁽³⁶⁾.

فإذا ما حاولنا التقريب بين هذه التعريفات نجدها تصب في مصب واحد، هو أنّ الرحلة هي الحركة والانتقال من مكان إلى آخر قصد هدف معين، ويكون ذلك إما بدوافع ذاتية أو أسباب عامة.

⁽³⁴⁾ عواطف محمد يوسف نواب، (الرحلات المغربية والأندلسية- دراسة تحليلية مقارنة-)، مكتبة الملك فهد الوطنية، (الرياض- المملكة العربية السعودية)، 1996م، د.ط، ص: 41، 40.

⁽³⁵⁾ ينظر: صلاح الدين الشامي، مجلة (الرحلة العربية في المحيط الهندي)، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، (الكويت)، العدد: الرابع، يناير 1983م، ص: 13.

⁽³⁶⁾ ناصر عبد الرزاق الموائى، (الرحلة في الأدب العربي - حتى نهاية القرن الرابع الهجري-)، دار النشر لجامعات المصرية، (القاهرة- مصر)، 1415هـ/1995م، ط1، ص: 24، 25، 26.

وإذا ما انتقلنا من هذه التعريفات إلى تصنيف الرحلات وتقسيمها عند الباحثين المعاصرين فإننا نجد اختلافاً واضحاً في تقسيمهم، ففريق اتبع النهج التاريخي، فلجأ إلى الفترة الزمنية كحكم، وفريق اتبع المنهج الجغرافي، وفريق جمع بين المنهجين التاريخي والجغرافي.

فمثلاً: نجد شوقي ضيف قسم الرحلة إلى: (رحلات جغرافية، ورحلات بحرية، ورحلات في الأمم والبلدان)⁽³⁷⁾.

ويقسمها محمد الفاسي في كتاب: (الإكسير في فكاك الأسير) إلى خمسة عشر نوعاً هي: (الرحلات الحجازية- السياحية- الرسمية- الدراسية- الأثرية- الاستكشافية- الزيارية- السياسية- العلمية- المقامية- البلدانية- الخيالية- الفهرسية- العامة- السفارية)⁽³⁸⁾

ويبدو لنا واضحاً الخلط الشديد في هذا التصنيف؛ فبعض الرحلات يمكن أن تفكك وتجزء، فما الفرق -مثلاً- بين الرحلات الرسمية والسياسية والسفارية؟ وما الفرق بين الرحلات الأثرية والسياحية والاستكشافية؟

أما الدكتور ناصر عبد الرزاق الموافي فيقسمها إلى: (رحلة رسمية، ورحلة التجارة والعجائب، ورحلة علمية، ورحلة دينية)⁽³⁹⁾.

وقد تشتمل رحلة واحدة على نوعين من أنواع الرحلة، إذ يتم إدراجها في النوع الذي يغلب عليها، وقد تخرج بعض الرحلات عن هذا التصنيف، ويمكن - حينئذ - وضعها في نوع قريب منها. وأما بداية الارتحال وتاريخ الرحلات؛ فمند أن وضع آدم (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ السَّلَامُ) قدمه على ظهر هذه الأرض والإنسان يسعى لاكتشاف كل ما يحيط به، ولم يكن ليتوقف عند هذا الحد؛ بل إن نفسه أخذت تتوق إلى اكتشاف محيطه الأبعد؛ فأخذ ينجز رحلات استكشافية يستجلي بها غوامض الكون من حوله، ولم يزل على تلك الحال إلى يومنا هذا.

⁽³⁷⁾ شوقي ضيف، (الرحلات)، دار المعارف، (القاهرة - مصر)، ط4، ص: 5

⁽³⁸⁾ ينظر: محمد بن عثمان المكناسي، (الإكسير في فكاك الأسير)، تح: محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، (الرباط- المغرب)، 1965م، د.ط، ص: مقدمة

⁽³⁹⁾ ناصر عبد الرزاق الموافي، (الرحلة في الأدب العربي)، م.م.س، ط1، ص: 34

3- الجغرافيا:

هو علم يدرس ظواهر سطح الأرض الطبيعية، ويدرس توزيع الحياة النباتية والحيوانية والبشرية، وآثار النشاط الإنساني في مختلف بقاع الأرض، وميدان هذا العلم الطبقة العليا من قشرة الأرض والطبقة السفلى من الجو "مصور الجغرافيا الطبيعية"، فهناك:

- جغرافيا اقتصادية: مختصة بدراسة الظواهر الاقتصادية
- جغرافيا بشرية: أو علم السكان: أي ما يتعلق بالظواهر البشرية
- جغرافيا حيوانية: مختصة بتوزيع الحياة الحيوانية
- جغرافيا حيوية: مختصة بدراسة توزيع النبات والحيوان على الأرض وأسبابه
- جغرافيا سياسية: مختصة بدراسة العلاقات القائمة بين المعطيات الطبيعية للجغرافيا وسياسة الدول.

- جغرافيا تاريخية: علم الأجناس واللغات وحدود الممالك والمؤسسات
- جغرافيا رياضية: علم موقع الأرض بين الأجرام السماوية من نجوم وكواكب
- جغرافيا لغوية: دراسة الفروق المحلية أو الإقليمية للأنماط اللغوية⁽⁴⁰⁾

ومن ميزات هذا العلم أنه غير قابل للدس والوضع أو التحريف، فهو علم مكشوف ظاهر، فإن وجد من يضع فيه ما يوافق هواه فإن من يأتي بعده سيكذبه، ويثبت - بالمشاهدة والرسم - غلط من قبله، بخلاف علم التأريخ والأدب، فقد يتوصل صاحب الغرض إلى غرضه فيهما بوضع ما يُوافق هواه أو دسه⁽⁴¹⁾.

⁽⁴⁰⁾ أحمد مختار عمر، (معجم اللغة العربية المعاصرة)، م.م.س، م2، ص: 871. وينظر: جبران مسعود، (الرائد - معجم لغوي عصري)، ط7، 1992م،

دار العلم للملايين، (بيروت- لبنان) ص: 277

⁽⁴¹⁾ عاتق بن غيث البلادي، (معجم العالم الجغرافية في السيرة النبوية)، ط1، 1402هـ/1982م، دار مكة، (مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية)،

فقارئ الجغرافيا قد يستغني - مثلاً أثناء قراءته- عن التأريخ والشعر ونحوهما، ولكن لا أحداً مما يبحث في التأريخ والأدب يستطيع أن يتخلص من الجغرافيا أثناء بحثه، فهذا المؤرخ - مثلاً- يعترضه اسم "ذو الحليفة"⁽⁴²⁾ أو "حمراء الأسد"⁽⁴³⁾، فيجد أنه بحاجة إلى معرفة موقع هذا العلم وتحديدته في أي أرض يقع؟⁽⁴⁴⁾ ولأن دراسة الموقع الجغرافي لأي منطقة أو مدينة يُفسر للباحث الكثير من الأبعاد الاقتصادية، والتجارية، والسياسية، والحضارية لهذه المنطقة المدروسة، فلذلك لا يجب إغفال هذا الجانب المهم من أجل فهم تاريخ منطقة معينة.

4- الوصف:

يعد الوصف من الأغراض التقليدية المتجددة تُعبر بها الفطرة الإنسانية عما تريد أن تنقله وما مر بخبرتها، فهو وسيلة لدى الأمم لنقل أحاسيسها ومشاعرها اتجاه ما حولها⁽⁴⁵⁾.

ومع تقدم الزمن، أصبح الوصف باباً في معظم الفنون الأدبية، شعراً كان أم نثراً، بل أوسعها، وذلك لأن هذا الغرض أشبه ما يكون محوراً رئيساً تدور حوله الفنون الأدبية، وقد مر هذا الغرض بأطوار من الاستقلالية جعلته غرضاً قائماً بذاته، بعد أن كان متداخلاً مع الموضوعات الأخرى، وبالتالي يُمكن القارئ من رسم صورةٍ لمجتمعٍ ما لم يعيشه ولم يعاصره. "فوصف لازم طبيعة النفس البشرية منذ طور البداوة، حيث استبدت نزعة التقليد، فالبداوي ينسخ مظاهر الطبيعة"⁽⁴⁶⁾، ويصف ما يرى حوله، ببعض الرسوم والإشارات على الجدران والكهوف والمغاور، وكل ما وصلت إليه يده أثناء تنقلاته وارتحلاته.

أ- لغة:

تكاد تتفق كتب اللغة حول مادة "وصف" على أنه: الكشف والإظهار، فإذا قلنا: وصف الثوب الجسم فقد أردنا أنه نم عليه ولم يستره⁽⁴⁷⁾. وجاء في اللسان: وصف الشيء له وعليه وصفاً

⁽⁴²⁾ ذو الحليفة: وهو ميقات أهل المدينة ومن مر به من غيرهم، يبعد عن المدينة على طريق مكة، تسعة أميال جنوباً، وتسمى اليوم: بلدة عامرة، فيها مسجده صلى الله عليه وسلم، وتعرف عند العامة "بيتر علي". ينظر: عاتق بن غيث البلادي، (معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية)، م.س.ص: 103

⁽⁴³⁾ حمراء الأسد: وهي منطقة تقع في الجنوب الغربي من المدينة المنورة على ثمانية أميال، وقعت فيها غزوة حمراء الأسد بين المسلمين والمشركين في السنة الثالثة للهجرة

ينظر: عاتق بن غيث البلادي، (معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية)، م.س.ص: 105

⁽⁴⁴⁾ المرجع نفسه، ص: 7

⁽⁴⁵⁾ محمد التونجي، (المعجم المفصل في الأدب)، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1419هـ/1999م، ط2، ص: 883/2

⁽⁴⁶⁾ حاوي إلبا، (فن الوصف وتطوره في الشعر العربي)، دار الكتاب اللبناني، (بيروت- لبنان)، 1967م، ط1، ص: 7

⁽⁴⁷⁾ محمد التونجي، (المعجم المفصل في الأدب)، م.م.س، ص: 883/2

وصِفَةً: حَلَّاهُ، والهَاءُ عوضٌ من الواو، وقيل: الوَصْفُ المصدر والِصْفَةُ الحَلِيَّةُ، قال الليث: الوَصْفُ وَصْفَكَ الشَّيْءَ بِحَلِيَّتِهِ وَنَعْتِهِ. وَتَوَصَّفُوا الشَّيْءَ مِنَ الوَصْفِ، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء- 112]؛ أراد ما تصفونه من الكذب. ويُقال للمُهْرِ إذا توجَّهَ شَيْءٌ من حُسْنِ السَّيْرِ، قد وَصَفَ، معناه أَنَّهُ قد وصف المَشْيَ. يُقال: مَهْرٌ حين وَصَفَ. ووصف المَهْرُ إذا جاد مَشْيُهُ⁽⁴⁸⁾. قال ابن فارس: وأما قولهم: وَصَفْتُ النَّاقَةَ وَصُوفًا إذا أجادت السَّيْرَ، فهو من قولهم للخادم وَصِيفَ، وللخادمة وَصِيفَةٌ⁽⁴⁹⁾.

وفي تعريف (المعجم الوسيط) نجد أن معنى "وَصَفَ الشَّيْءَ: وَصَفًا، وَصِفَةً: نَعْتَهُ بما فيه. و [وَصَفَ] الطَّيِّبَ الدَّوَاءَ: عَيَّنَهُ بِاسْمِهِ وَمِقْدَارِهِ. وَالخَيْرَ حَكَاهُ. وَالثَّوبَ الجِسْمَ: أَظْهَرَ حَالَهُ وَبَيَّنَ هَيْئَتَهُ. وفي حديث عُمرَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): «إِلَّا يَشِفُّ فَإِنَّهُ يَصِفُّ»⁽⁵⁰⁾. "يريد الثوب الرقيق إن لم يَبَيِّنْ منه الجَسَدَ فَإِنَّهُ لَرَقْتَهُ يَصِفُّ البَدْنَ، فَيَظْهَرُ منه حِجْمُ الأَعْضَاءِ. وَأَوْصَفَ الغَلامَ أو الفتاة: بَلَغَ أَوْانَ الخِدْمَةِ"⁽⁵¹⁾.

ب- اصطلاحاً:

ليس الوصف في معناه الواسع حكراً على الأدب دون غيره. ذلك أنه يتصل بمجالات كثيرة وبعيدة عن الأدب كالعلوم الطبيعية والفيزياء والتاريخ والجغرافيا والفلك لأن الوصف يتعلق باستقراء الظواهر المميزة لمكان طبيعي حقيقي أو مصنوع في الخيال وتتبع الجزئيات. كما يقوم على استخدام الحواس، ولاسيما النظر والسمع لملاحظة الأشكال والألوان، والحركات والأصوات⁽⁵²⁾.

⁽⁴⁸⁾ ابن منظور، (لسان العرب)، م.م.س، مادة وصف

⁽⁴⁹⁾ أحمد ابن فارس، (معجم مقاييس اللغة)، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (بيروت- لبنان)، 1399هـ/1979م، مادة وصف

⁽⁵⁰⁾ إبراهيم أنيس، وأحمد الزيات وآخرون، (المعجم الوسيط)، مجمع اللغة العربية- مكتبة الشروق الدولية- (القاهرة- مصر)، 1425هـ/2004م، ط4،

مادة وصف. والحديث: أخبرنا أحمد بن الحسن القاضي وأبو زكريا بن أبي إسحاق المزكي قالا: ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا بحر بن نصر، ثنا بن وهب، حدثني يحيى بن أيوب عن مسلم بن أبي مريم ومحمد بن عجلان عن عبد الله بن أبي سلمة: "أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كسا الناس القباطي ثم قال: لا تدر عنها نساؤكم فقال: رجل يا أمير المؤمنين قد ألبستها امرأتى فأقبلت في البيت وأدبرت فلم أره يشف، فقال عمر: إن لم يكن يشف فإنه يصف". ينظر: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، (السنن الكبرى)، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 2003م/1424هـ،

ط3، [كتاب الصلاة]، الحديث رقم: 3263، ص: 332/2

⁽⁵¹⁾ ابن منظور، (لسان العرب)، م.م.س، مادة وصف.

⁽⁵²⁾ عيسى فتوح، (دراسات في الأدب والنقد)، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، (دمشق- سوريا)، 1991م، ص: 69

يعرف قدامه بن جعفر الوصف بقوله: "الوصف إنما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات، ولما كان وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني، كان أحسنهم وصفاً من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها، ثم بإظهارها فيه، وأولها حتى يحكيها بشعره ويمثله للحس بنعته"⁽⁵³⁾.

ويزيد على ذلك أبو الهلال العسكري بقوله: "أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصب عينيك"⁽⁵⁴⁾.

ويؤكد ابن الرشيقي من جهته أن: "أحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع" و زاد بعض المتأخرين: "أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرًا"⁽⁵⁵⁾. من ذلك ما قاله النابغة الجعدي يصف ذئباً افترس جُوذراً⁽⁵⁶⁾:

فَبَاتَ يُذَكِّيهِ بغيرِ حَديِدةٍ أَخُو قَنَصٍ يُمسي وَيُصْبِحُ مُفْطِراً
إِذَا مَا رَأَى مِنْهُ كَرَاعاً تَحَرَّكَتْ أَصَابَ مَكَانَ الْقَلْبِ مِنْهُ فَفَرَّقَراً

فالوصف إذن هو "تشكيل صورة ذهنية عن مشهد أو شخص أو زمان أو مكان أو... للقارئ أو المستمع حتى يظن أنها أمامه حقيقة"⁽⁵⁷⁾

ولبلوغ الغاية في هذا التصوير الذهني وجب الاحتكام إلى معايير مخصوصة في تقسيم العملية الوصفية، والحكم عليها بالرداءة أو الجودة. وتأتي في مقدمة هذه المعايير: الاحتكام إلى التجربة العينية المباشرة، وكذا المعرفة المستقاة من ملاحظة الواقع والتعامل المباشر مع المحيط⁽⁵⁸⁾، فابن الرشيقي يقول: "الوصف لما يرى أصوب من وصف ما لا يرى... وخير الكلام الحقائق، وأحسن الشعر ما

⁽⁵³⁾ قدامة بن جعفر، (نقد الشعر)، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، ص: 130

⁽⁵⁴⁾ أبو هلال العسكري، (كتاب الصناعتين)، تح: مفيد قميصا، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1989م، ط2، ص: 145

⁽⁵⁵⁾ ابن رشيد القيرواني، (العمدة في صناعة الشعر ونقده)، تح: محي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت، 1986م، ط5، ص: 294/2، 295

⁽⁵⁶⁾ جُوذراً: ولد البقرة الوحشية، والكلمة فارسية في قول ابن سيده. إبراهيم أنيس، وأحمد الزيات وآخرون، (المعجم الوسيط)، م.م.س، حرف الجيم
⁽⁵⁷⁾ مليكة بوجفجوف، (بنية الوصف ووظائفه في ألف ليلة وليلة)، كلية الأدب واللغات، جامعة منتوري (قسنطينة- الجزائر)، 2008/2009م،

ص: 12. وينظر: النابغة الجعدي، (الديوان)، تح: واضح الصمد، دار صادر، (بيروت- لبنان)، 1998م، ط1، ص: 60

⁽⁵⁸⁾ ابن رشيد القيرواني، (العمدة في صناعة الشعر ونقده)، م.م.س. ص: 294/2.

قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب الحقيقة فيه وأصح الكلام عندي ما قام عليه الدليل⁽⁵⁹⁾

وكما أن الناس يتفاضلون في سائر الأصناف، فإنهم يتفاضلون في الأوصاف، فمنهم من يجيد وصف شيء ولا يجيد وصف آخر، ومنهم من يجيد الأوصاف كلها وإن غلبت عليه الإجابة في بعضها كأمري القيس قديماً، وأبي نواس في عصره، والبحثري وابن الرومي في وقتها وغيرهم، فإن هؤلاء كانوا متصرفين مجيدين الأوصاف⁽⁶⁰⁾.

ومحمل الكلام أن الوصف أداة فنية تصويرية إخبارية تمثلها الدلالة الناتجة عن إلحاق صفة أو مجموعة من الصفات إلى موصوف معين كما ذكرنا آنفاً، ويشترط في هذه الصفات أن تخاطب الحواس كحاسة السمع والنظر.

5- السرد:

يعد مصطلح "السرد" من أكثر المصطلحات إثارة للجدل، بسبب الاختلافات الكثيرة التي تصور مفهومه، والمجالات المتعددة التي تنازعه، سواء على الساحة النقدية العربية أم على الساحة الغربية، فهناك العديد من المفاهيم المختلفة التي استخدم فيها هذا المصطلح هنا وهناك، وهناك مجالات كثيرة ذابت خلالها الحدود الاصطلاحية التي تحدد لنا أين يتدنى السرد وأين ينتهي، لذلك يطلق كثير من الباحثين مصطلح "السرد" بوصفه مرادفاً لمصطلح "القص" ولمصطلح "الحكي" ولمصطلح "الخطاب" ولا يكاد فريق آخر يحدد له مجالاً واضحاً، فمرة يطلقونه على المستوى اللغوي في الرواية، ومرة يقولون عن عمل المؤرخ في صياغة الأحداث سرداً، ومرة ثلاثة يذهبون به ليشمل السينما، والصور، واللوحات وغير ذلك⁽⁶¹⁾

أ- لغة:

السرد في اللغة: تَقْدِمة شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ تَأْتِي بِهِ مُتَّسِقاً بَعْضُهُ فِي إِثْرِ بَعْضٍ مُتَّابِعاً. يقال: سَرَدَ الْحَدِيثَ وَنَحْوَهُ يَسْرُدُهُ سَرْدًا إِذَا تَابَعَهُ. وفلان يَسْرُدُ الْحَدِيثَ سَرْدًا إِذَا كَانَ جَيِّدَ السِّيَاقِ لَهُ. وفي

⁽⁵⁹⁾ المرجع نفسه، ص: 61/2

⁽⁶⁰⁾ مليكة بوجحوف، (بنية الوصف ووظائفه في ألف ليلة وليلة)، م.م.س، ص: 12

⁽⁶¹⁾ عبد الرحيم الكردي، (السرد في الرواية المعاصرة)، دار الثقافة، (القاهرة- مصر)، 1412هـ/1992م، ط1، ص: 105، 106

صفة كلامه ﷺ: لم يكن يسرُّد الحديثَ سرِّداً، أي يُتابعه ويستعجل فيه. وسرِّد القرآن: تابع قراءته في حذرٍ منه. والسرِّد: المتتابع. وسرِّد فلان الصومَ إذا والاه وتابعه؛ وفي الحديث: عن عائشة أن حمزة بن عمرو الأسلمي (رضي الله عنه) قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم): إني أسرُّد الصيام في السفر، فقال: «إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ»... وسرِّد الشيءَ سرِّداً وسرِّده وأسرِّده: ثَقَبَهُ. والسرِّادُ والمسرِّدُ: النَّعْلُ المَخْصُوفَةُ اللِّسَانَ⁽⁶²⁾.

وجاء في (مقاييس اللغة) أنَّ كلمة (سرد) تدل على "توالي أشياء كثيرة يتصل بعضها ببعض من ذلك السرِّدُ اسم: جامعٌ للدروع و ما أشبهها من عمل الحلق [جمع حلقة] قال الله تعالى: في شأن داود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرِّدِ﴾ قالوا: معناه ليكن ذلك مقدراً، لا يكون الثَّقْبُ ضيقاً والمسمار غليظاً ولا يكون المسمار دقيقاً والثقب واسعاً، بل يكون على التقدير⁽⁶³⁾.

فالسرد في معناه اللغوي، إنما يعني التتابع وإجادة السياق

ب- اصطلاحاً:

السرد بشكل عام قص أحداث أو أخبار، سواء تعلق الأمر بالأحداث التي وقعت فعلاً، أو بتلك التي ابتكرها الخيال، وهي العملية التي يقوم بها السارد أو الحاكي أو الراوي، وينتج عنها النص القصصي المشتمل على اللفظ القصصي و الحكاية أي الملفوظ القصصي⁽⁶⁴⁾.

يعرفه عبد المالك مرتاض⁽⁶⁵⁾ "أنه الطريقة التي يختارها الروائي أو القاص وحتى المبدع الشعبي/الحاكي، ليقدم بها الحدث إلى الملتقي فكأن السرد إذن هو نسيج الكلام ولكن في صورة حكي⁽⁶⁵⁾".

⁽⁶²⁾ ابن منظور، (لسان العرب)، م.م.س، مادة سرد. وينظر: الحديث: أبو عيسى محمد ابن عيسى الترمذي، (الجامع الكبير)، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب

الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1996م، ط1، باب الصوم، الحديث: 19

⁽⁶³⁾ أحمد ابن فارس، (معجم مقاييس اللغة)، م.م.س، مادة سرد

⁽⁶⁴⁾ سمير مرزوقي، جميل شاكر، (مدخل إلى نظرية القصة)، الدار التونسية للنشر، (تونس)، 1985م، ط1، ص: 77، 78

⁽⁶⁵⁾ سهام سديرة، (بنية الزمان والمكان في قصص الحديث النبوي الشريف)، 2006/2005م، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري، (قسنطينة- الجزائر)، ص: 11.

نقلًا عن: عبد المالك مرتاض، (ألف ليلة و ليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حَمَال بغداد)، د.ط، 1993م، ديوان المطبوعات الجامعية، ص: 84

ويرى حميد حميداني "أن السرد هو الطريقة التي تروى بها القصة عن طريقة قناة "الراوي و المروي له"، و في رأيه أن القصة لا تتحدد بمضمونها فحسب و لكن بالشكل والطريقة التي يقدم بها ذلك المضمون"⁽⁶⁶⁾

وهذه الطريقة هي "السرد"، الذي يعتمد عليه في أنماط الحكى وهو الكيفية والطريقة التي تحكى بها القصة، بحيث يتكفل السارد بانتقاء واختيار الوسائل التي بها يقدم للقارئ، المادة المحكية، "فهو يتطلب عقدا يتجمع فيه أربعة أقطاب :الكاتب، القارئ، الشخصية، اللغة، وكما اختفى واحد من هذه الأقطاب، انتفى العقد وبطل السرد"⁽⁶⁷⁾

فالسرد إعادة متجددة للحياة، تجتمع فيه أسس الحياة من شخصيات و أحداث وما يؤطرهما معا من زمان ومكان، تدخل في صراع يحافظ على حياة السرد وسيرورة الحكى وفق تعدد لغوي وإيديولوجي وفكري، يتسع ليشمل خطابات متعددة ومختلفة فهو كما يقول بارت **Bart**: "فعل لا حدود له يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية، يبدعه الإنسان أينما وجد، وحيثما كان، يمكن أن يؤدي الحكى بواسطة اللغة المستعملة شفاهية كانت أو كتابية، و بواسطة الصورة، ثابتة أو متحركة، وبالحرارة، وبواسطة الامتزاج المنظم لكل هذه المواد، إنه حاضر في الأسطورة والخرافة، والحكاية والقصة، والتاريخ والمأساة والملهات والإيماء، واللوحة المرسومة، وفي الزجاج المزوق والسينما والأنشوطات والمنوعات والمحادثات"⁽⁶⁸⁾

وبالجملة يمكن تعريف السرد، "أنه عرض حدث أو سلسلة أحداث متتابعة أو أخبار واقعية أو خيالية بواسطة اللغة. أو بعبارة أخرى هو "نقل حادثة من صورتها الواقعية إلى صورة لغوية"⁽⁶⁹⁾، و كل سرد يشترط حدثا و شخصيات تنشط ضمن زمان و مكان معينين، وبواسطة سارد ينقل كل ذلك إلى السامع أو القارئ.

⁽⁶⁶⁾ ينظر: حميد حميداني، (بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي، (بيروت- لبنان)، 2000م، ط3، ص: 45

⁽⁶⁷⁾ محمد ساري، (نظرية السرد الحديثة)، مجلة السرديات، جامعة متوري، (قسنطينة- الجزائر)، العدد: 1، جانفي 2004م، ص: 17

⁽⁶⁸⁾ سعيد يقطين، (الكلام و الخير، مقدمة للسرد العربي)، المركز الثقافي العربي، (بيروت- لبنان)، 1997م، ط1، ص: 19

⁽⁶⁹⁾ آمنة يوسف، (تقنيات السرد بين النظرية والتطبيق)، دار الحوار، (سوريا)، 1997م، ط1، ص: 28

6- المكان:

يعد المكان أحد العناصر الجوهرية التي تسهم في بناء الخطاب الأدبي. وتأتيه هذه الأهمية بحكم وظيفته التأطيرية للمساحة التي تقع فيها الأحداث، فيعود على الحدث بالقيمة الاجتماعية التي تربط به، وبحكم وظيفته الجمالية التي تضيف على الحدث قيمةً فنية. وهذا ما جعل العديد من الدراسات تتناوله من جهات مختلفة عن الأخرى ابتداءً من المعنى المعجمي واللغوي منتهية إلى المعنى الفني والاصطلاحي.

أ- لغة:

جاءت لفظة مكان في القرآن الكريم في إحدى وثلاثين موضعاً بدلالة حسية أحياناً، وبدلالات معنوية أحياناً أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم-16]، أي: اعتزلتهم وتحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس، ودلالة معنوية في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة-60]، أي: مما تظنون بنا⁽⁷⁰⁾.

وكل هذه المعاني التي وردت في النص القرآني كانت في نطاق (المحل، الموضع، المنزلة، المكانة، البدل) مثل قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق-41] أي من محل أو موضع قريب (وهو صخرة بيت المقدس)⁽⁷¹⁾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتِنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ [النساء-20]، وهنا يقصد به بدل زوج، أي: إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها، فلا يأخذ، مما أصدق الأولى شيئاً، ولو كان قنطاراً من مال⁽⁷²⁾.

⁽⁷⁰⁾ أحمد شاكر، (عمدة التفسير عن الحفاظ ابن كثير مختصر تفسير القرآن العظيم)، م.م.س.ص: 500/2

⁽⁷¹⁾ المرجع نفسه، ص: 375/3. وينظر: [فصلت - 44]، [سبا - 51.52.53]، [الحج - 26.31]، [مريم - 23]

⁽⁷²⁾ أحمد شاكر، (عمدة التفسير عن الحفاظ ابن كثير مختصر تفسير القرآن العظيم)، م.م.س.ص: 478/1. وللمزيد ينظر: [يوسف-78]، [القصاص-

وإذا رجعنا إلى جميع المعاجم العربية نجد أنها تتفق على أن لفظة "مَكَان" مشتقة من المادة اللغوية ذات الأصل الثلاثي (م.ك.ن). فقد جاء في اللسان "أنَّ المكانَ والمكانةَ واحد. قال الليث: مكانٌ في أصل تقدير الفعل (مَفْعَلٌ) لأنَّه موضعٌ لكيونَته الشيء فيه. غير أنَّه لما كَثُرَ أَجْرَوُهُ في التصريف مجرى (فَعَال) فقالوا: مَكَّنَّا له وقد تَمَكَّنَ" (73).

قال ابن سيده: "المكانة: المنزلة عند الملك... والمكان الموضع، والجمع: أمكنة كقذالٍ وأقذلة (74)، وأماكن جمع الجمع (75)".

وبذلك نجد أن المفهوم اللغوي للمكان لا يخرج في كل أحواله عن معنى الإحاطة والشمول سواء كانت هذه الإحاطة والشمول مادية مثل دلالة على الموضع والموقع، أو معنوية مثل دلالة على المكانة والمنزلة والبديلة.

ب- اصطلاحاً:

مع أن التعريف اللغوي حاول أن يضبط مصطلح المكان ككلمة، إلا أن مفهومه الاصطلاحي يبدو أنه قد حمل أكثر من دلالة، - ولاسيما في الدراسات الحديثة- ذلك لارتباطه بما هو موجود سواء كان محسوساً أو مدركاً، فالمكان يأخذ تعريفه من الدراسة التي تناوله، إلا أن جميع الدراسات تتفق في كونها تخرجه من إطاره الجغرافي الجامد، إلى إطار آخر يُكَيِّفه الخيال والفكر فيحمل بدوره دلالتها، إذ نجد أن هناك من ربط مفهوم المكان بالوضع الاجتماعي الذي يعيشه الفرد على اعتبار أن المكان هو "المكان الاجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمع" (76).

كما يعرفه بعضهم على أنه سلسلة من الأشياء المتوزعة التي تحتل حيزاً، ولها أبعادها وخصائصها المادية، ففهم المكان قائم أولاً على الخبرة والتجربة، أن نفهم المكان يعني أن نجربه، وبذلك

(73) ابن منظور، (لسان العرب)، م.م.س، مادة: مكن. ينظر: أحمد الأزهرى، (تهذيب اللغة)، م.م.س. مادة: (مكن)

(74) القذال: مؤخر الرأس من الإنسان والفرس. والجمع: أقذلة، وقذُل. ينظر: ابن سيده، (المحكم واخيط الأعظم)، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب

العلمية، (بيروت- لبنان)، 1421هـ/2000م، مادة: قذل في باب [القاف والذال واللام]

(75) المرجع نفسه، مادة: (مكن)

(76) أسماء شاهين، (جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا)، دار الفارس (الأردن)، 2000م، ط1، ص: 12

يصبح المكان إطاراً للأشياء، ينطوي عليها ويبرزها، ويصبح التعبير تعبيراً عن خصائص الموضوعات المادية المحيطة بنا التي سرعان ما تتكون صلتنا بها"⁽⁷⁷⁾

ويرى حسن مجراوي فيرى "أنَّ المكان شبكة من العلاقات والرؤيات ووجهات النظر التي تتضامن مع بعضها لتشيّد الفضاء الروائي الذي ستجري فيه الأحداث"⁽⁷⁸⁾

وتعرفه سيزا قاسم بقولها: "إنَّ المكان هو الإطار الذي تقع فيه الأحداث"⁽⁷⁹⁾ لذلك عدّ المكان من الأهمية بمكان في العمل الأدبي كونه يشكل أهم دعائم العمل الفني.

وعليه فإنَّ تعدد وجهات النظر بالنسبة للمكان يدل على أهميته وتعدد دلالاته، كيف لا وقد تناولته أكثر من دراسة، وأكثر من وجهة رأي للعديد من العلماء والباحثين في المجالات كافة سواء الاجتماعية، أو النفسية، أو الجغرافية، أو الأدبية، وما يهمنا هنا هو الدراسات الأدبية بطبيعة الحال.

ومما تقدّم نستنتج أن للمكان أهمية خاصة في النص الأدبي لا بذاته وإنما بما يؤدي من وظائف يسخرها الأديب لخدمة مبتغاه؛ لذلك شكّل المكان العمود الفقري في العمل الإبداعي ليس بوصفه ذلك المكان الذي يتمثل في الأرضية التي تتوزع عليها خارطة الأحداث، وإنما ذلك الشيء الذي يستحيل الفن بدونه أن يسمى فناً⁽⁸⁰⁾، وعلى الفن _ أي فن _ أن يحتوي المكان، إذ إنه لو ابتعد عن احتواء المكان لفقد المكان واقعيته ولو تنكر للمكان لعاش بلا تاريخ إذ لم يكن المكان يوماً إلا حاجة فكرية لمعرفة مصداقية الفنان⁽⁸¹⁾، ومدى قدرته على توظيف الخيال في خدمة المكان؛ لأن (الخيال بالنسبة للمكان يلغي موضوعية الظاهرة المكانية _ أي كونها ظاهرة هندسية _ ويحل محلها ديناميته الخاصة _ المفارقة _ وعندما يتحول الخيال إلى شعر فهو يلغي السببية ليحل محلها التسامي

⁽⁷⁷⁾ طاهر عبد مسلم، (عقريّة الصورة والمكان)، دار الشروق، (عمان-الأردن)، 2002م، ط1، ص: 16

⁽⁷⁸⁾ حسن مجراوي، (بنية الشكل الروائي)، المركز الثقافي العربي، (بيروت-لبنان)، 1990م، ط1، ص: 32

⁽⁷⁹⁾ سيزا القاسم، (بناء الرواية - دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة-مصر)، 1984م، ص: 76

⁽⁸⁰⁾ ياسين النصير، (الرواية والمكان)، سلسلة الموسوعة الصغيرة، (بغداد-العراق)، 1980م، د.ط، ص: 15

⁽⁸¹⁾ غني صكبان سلمان، (الزمان والمكان في العصر العباسي الأول)، رسالة دكتوراه، كلية التربية ابن رشد، (جامعة بغداد-العراق)، 2001م،

المحض⁽⁸²⁾، وعلى هذا يمكن القول: إنَّ المكان في العمل الفني يتعد عن المكان الواقعي، إلا أنَّه لا ينفصل عنه تماماً، فثمة علاقة أكثر وشيخة بين الاثنين؛ ذلك أن درجة التأثير التي يعكسها مكان ما له ملامحه، وحضوره وكيانه على الفن تكون أشدَّ من سواه؛ ولذا يمكن أن يكون ثمة تشابه كبير هنا ولا يكون هناك⁽⁸³⁾، مما يعني أن المكان يحمل طموحات المؤلفين الأدبية الثقافية؛ وذلك بأن يجعله أمام امتحان ثقافي مع العصر ويتحول الفعل في المكان لدى الأديب إلى فعل في البحث عن الشخصية المستقبلية والمنطلقة إلى الواقع كما لو كان قدرها المرتبطة به⁽⁸⁴⁾.

وبعد الذي تقدّم يمكن القول بأن المكان يشكّل طابعاً أساسياً للأدب، وإن جماليته لا تبرز إلا في النصوص الأدبية التي يحسن أصحابها المبدعون تحويل الأمكنة الطبيعية والاعتيادية إلى أمكنة فنية عن طريق الاستخدام الأمثل لألفاظ اللغة، وذلك بانزياح مفرداتها وكسوتها ملامح شعرية، وإلغاء المسافات بين الأشياء المكانية أو توحيدها أي إلغاء الحدود الهندسية للمكان فيتولد حينذاك مكان خاص بالنص الأدبي، وهو المكان المتخيل الذي أنتجه الخيال الشعري والنثري للمبدع، معبراً فيه عن رؤيته الخاصة وإحساسه بالمكان.

7- الزمان:

لا يختلف اثنان في مدى أهمية هذا العنصر الحيوي في حياة الإنسان بمظاهره الأدبية و الفنية والنحوية والرياضية وتظهر هذه الأهمية في تقدير الناس للزمن ومحافظتهم عليه، فقد صار مصطلح الزمان في الدراسات الحديثة كمادة أساسية في الدراسات النصية، بعدما كان في أحضان الدرس الفيزيائي والفلسفي.

أ- لغة:

هنالك ألفاظ عديدة ذكرت في المعاجم العربية تقع في دائرة الزمن أو أجزائه مثل: (الوقت، العصر، الآن، الحين، اللحظة، اليوم، الليل، الساعة، النهار، السنة، العام، الحول، أسبوع، الشهر، البعثة،

⁽⁸²⁾ غاستون باشلار، (جماليات المكان)، تر: غالب هلسا، ط2، 1984م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (بيروت- لبنان)، ص: 101

⁽⁸³⁾ ينظر: غاستون باشلار، (جماليات المكان)، م.م.س، ص: 17، 18

⁽⁸⁴⁾ ينظر: ياسين النصير، (إشكالية المكان في النص الأدبي)، دار الشؤون الثقافية، (بغداد- العراق)، 1986م، ص: 18

لمح البصر ...). من ذلك ما جاء في (اللسان): أن لفظة (الزمن والزمان): "اسم لقليل الوقت وكثيره"⁽⁸⁵⁾.

وفي (المقاييس) "الزاء والميم والنون أصل واحد يدل على وقتٍ من الوقت. من ذلك الزَّمان، وهو الحين، قليله وكثيره. يُقال: زَمَانٌ وَزَمَنٌ، والجمع أَزْمَانٌ وَأَزْمِنَةٌ"⁽⁸⁶⁾.

وفي (المحكم): الزَّمنُ والزَّمانُ: العَصْرُ، والجمع أَزْمُنٌ وَأَزْمَانٌ وَأَزْمِنَةٌ، وَزَمَنٌ زَامِنٌ: شَدِيدٌ وَأَزْمِنُ الشَّيْءِ طَال عَلَيْهِ الزَّمَانُ، والاسم من ذلك الزَّمنُ والزُّمْنَةُ، وَأَزْمَنَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ بِهِ زَمَانًا، وَالزُّمْنَةُ: الْبُرْهَةُ⁽⁸⁷⁾.

فالزمن يمثل عنصراً أساساً في النص اللغوي، ولعله من أكثر العناصر ظهوراً من خلال الجملة الفعلية، وليس ذلك فحسب بل ثمة ألفاظ في اللغة لها دلالات زمنية، ففي القرآن الكريم - مثلاً - نجد أن بعض الألفاظ التي تفضي إلى مدلولات زمنية أو وقتية لها علاقة بالتقويم أو العبادات أو تغيرات الطبيعة ومراحل العمر، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ^ط﴾ [البقرة- 189].

قال أبو جعفر، عن ربيع، عن أبي العالية: بَلَّغْنَا أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا خُلِقَتِ الْأَهْلَةُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ^ط﴾. يقول: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم، وعدة نسائهم، ومحل دينهم⁽⁸⁸⁾.

ومن معاني الزمن - أيضاً- (العَصْرُ أو الدَّهْرُ). قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر-

⁽⁸⁵⁾ ابن منظور، (لسان العرب)، م.م.س، مادة: (زمن).

⁽⁸⁶⁾ أحمد ابن فارس، (معجم مقاييس اللغة)، م.م.س، مادة: (زمن)

⁽⁸⁷⁾ ابن سيده، (المحكم والمحيط الأعظم)، م.م.س. مادة: (زمن)

⁽⁸⁸⁾ عماد الدين بن كثير، (تفسير القرآن العظيم)، م.م.س، ص: 522/1. وينظر: أحمد شاكر، (عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير مختصر تفسير القرآن العظيم)، م.م.س، ص: 232/1.

3,2,1]. قال الفراء: العصرُ الدهرُ⁽⁸⁹⁾. وقال ابن كثير: العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم، من خير وشر⁽⁹⁰⁾.

ومن معاني الزمن - أيضاً- (الوقت) الذي هو "مقدار من الزمان وكل شيء قدرت له حيناً، فهو مؤقت، وكذلك ما قدرت غايته، فهو مؤقت... الوقت مقدار من الدهر معروف وأكثر ما يستعمل في الماضي، وقد استعمل في المستقبل والجمع أوقات وهو الميقات ووقت موقوت ومؤقت: محدود وفي التزليل العزيز: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء-103]. أي مفروضا في هذه الأوقات⁽⁹¹⁾، وقال ابن مسعود (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): إِنَّ للصَّلَاةِ وَقْتًا كَوَقْتِ الْحَجِّ⁽⁹²⁾.

أما لفظة (الحين) فتعني الوقت الذي يصلح لجميع الأزمنة طالت أو قصرت ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان-1]، وجمع الحين أَحْيَانٌ ثم تجمع على أَحْيَانٍ، وإذا باعدوا بين الوقتين قالوا حينئذٍ.

أما قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم-25]، قيل: غُدوة وعشيًا. وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة⁽⁹³⁾.

أما إذا نظرنا في أحاديث النبي ﷺ فإننا نجد أن لفظة (الزمان) وردت عنه بكثرة -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فعن الزُّبَيْرِ بنِ عَدِيِّ قَالَ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ فَشَكُونَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى مِنَ الْحِجَابِ، فَقَالَ: "اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقُوا رَبَّكُمْ، سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)". فقوله: "لا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ" أي: في تسلط

⁽⁸⁹⁾ ابن منظور، (لسان العرب)، م.م.س، مادة: (عصر).

⁽⁹⁰⁾ عماد الدين بن كثير، (تفسير القرآن العظيم)، م.س. ص: 480/8

⁽⁹¹⁾ ابن منظور، (لسان العرب)، م.م.س، مادة: (وقت).

⁽⁹²⁾ عماد الدين بن كثير، (تفسير القرآن العظيم)، م.س. ص: 403/2

⁽⁹³⁾ ابن منظور، (لسان العرب)، م.س، مادة: (حين). وينظر: عماد الدين بن كثير، (تفسير القرآن العظيم)، م.س. ص: 493/4

الولاية وتفكك الأمة، فقد يأتي مثلاً زمانٌ خيرٌ من الذي قبله، لكن هذا لا ينافي التابع؛ لأنَّ زماننا واحداً في ضمن مائة زمان ليس بشيء، فلو نظرنا إلى هذا وجدنا أنَّ زمنَ عُمَرَ بن عبد العزيز زمانه خيرٌ من الذي قبله بكثير، والذي بعده فيه شرٌّ لكن هذا لا ينفي ما قاله النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ لأنَّ المراد في "الجملة". ثم إنَّ الشرَّ قد يكونُ بحسب العموم، وقد يكونُ بحسبِ جُزءٍ من الأرض أو من الأمة فيصدق عليه أنَّه شرٌّ مما قبله⁽⁹⁴⁾.

ب- اصطلاحاً:

للزمان معانٍ مختلفة ومتنوعة، ولو أراد الباحث معرفة ماهية الزمن على وجه الدقة واليقين، لأضنى زماناً طويلاً، ولن يقف على الحقيقة في معنى (الزمن) أو (الزمان).

إن الزمن يمكن اعتباره، بمعنى من المعاني مطلقاً، أي أنه لا يمكن تفسيره أو تعريفه بمصطلحات أساسية؛ لأنه هو نفسه أحد الوجوه الأولية التي لا يمكن اختزالها، وبالعكس يمكن اعتباره نسبياً، أي أنَّ له قيمة معرفية فقط عندما ينسب إلى ظواهر محسوسة.

فزمن بصفة عامة كما عرفه محمد الجرجاني بقوله: "الزَّمان هو مقدار حركة الفلك"⁽⁹⁵⁾ أو "ساعات الليل والنهار، يقال ذلك للطويل من المدة والقصير منها. أو أنه علاقة تنجم عن حركة الأرض حول الشمس، وحول نفسها"⁽⁹⁶⁾.

ويقول محمد العيد "إنَّ الزمن هو الحركة"⁽⁹⁷⁾ هذه الحركة التي تتجلى بوضوح في التغير الذي يطرأ على كل ما هو حي، حيث تظهر على الإنسان بالدرجة الأولى في أنشطته وسلوكاته وأعماله فهو الحياة تارة، والموت تارة أخرى، وهو السكون وهو الحركة مرة أخرى.

⁽⁹⁴⁾ محمد بن صالح العثيمين، (شرح صحيح البخاري)، تح: قسم التحقيق والبحث العلمي بالمكتبة الإسلامية، 1428هـ/2008م، ط1، النبلاء للكتاب (مراكش - المغرب)، المكتبة الإسلامية (القاهرة - مصر)، (كتاب الفتن)، ص: 499/9، وينظر: البخاري، (صحيح البخاري)، (كتاب الفتن)، [باب لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه]، الحديث رقم: 7068

⁽⁹⁵⁾ علي بن محمد الجرجاني، (التعريفات)، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، (القاهرة - مصر)، د.ط، ص: 119

⁽⁹⁶⁾ الطبري محمد بن جرير، (تاريخ الطبري) تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، (القاهرة - مصر)، 1960م، ط1، ص: 9

⁽⁹⁷⁾ محمد العيد تاورته، (بناء الزمن الروائي عند سيزا قاسم)، مجلة الأدب، جامعة منتوري، (قسنطينة)، 1421هـ/2000م، العدد: 5، ص243

أما مارسيل بروسست فيرى أن "الزمن يمثل وعاء تجاربنا وخبراتنا وذواتنا، فهو يحمل في جوفه مظاهر الحياة كلها وصنوف المرئيات كلها، فحجم الزمن -هنا- ليس مجرد كم من الدقائق وإنما هو أشياء محسوسة"⁽⁹⁸⁾

ومنهم من يربطه بالفعل اللغوي؛ لأنه ذو مراتب زمنية مختلفة ولعل ربط الزمن بالأفعال الثلاثة المعروفة (ماضي، مضارع، أمر) إنما مرده لتمييز الفعل عن الاسم والحرف؛ "لأنَّ الفعل بوقوعه حقيقة، لا ينفك عن الزمان على الإطلاق، إذ إن الفعل حالي عند وقوعه ويصبح ماضيًا بعد وقوعه حقيقة وهو مستقبل ما لم يقع"⁽⁹⁹⁾

وقد أثار النص القرآني الطرح الزمني مما يدل على أن الزمن مخلوق مع الكون، إلا أن القرآن وظفه بطريقة معجزة تجاوزت مفهومه الدنيوي المتعلق باليوم والشهر والسنة من ذلك قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج- 4]

في هذا النص القرآني يخرج الزمن عن تقديره الطبيعي في حياتنا اليومية الدنيوية إلى تقدير يختلف في حياة الآخرة فبدل أن يكون مقدار اليوم أربعاً وعشرين ساعة يصبح مقداره كما وصفته الآية الكريمة "خمسين ألف سنة"، لذا يبقى مفهوم الزمن مبهما مهما بلغ العلماء والمفكرون من البحث فيه ودراسته، فإن الوصول إلى ماهيته يبقى أمراً صعباً⁽¹⁰⁰⁾

وهذا التصور يتوجه أيضاً إلى القصص النبوي حيث يأخذ الزمن رؤية جديدة لمفهومه فيتناول نص الحديث أبعداً زمنية أخرى تشير إلى دلالات لا نجدتها في القصة الفنية أو الرواية و هذا ما سوف نتناوله في الفصول القادمة.

أما في القصة والرواية فيحقق الزمن عملاً جمالياً بحثاً، بحيث يحاول الكاتب اللعب بالأزمنة وبالتتابع الزمني والمنطقي لأحداث القصة من حيث التقديم والتأخير⁽¹⁰¹⁾ وهذا للتأثير الفني

⁽⁹⁸⁾ سعد عبد العزيز، (الزمن التراجمي في الرواية المعاصرة)، المطبعة الفنية الحديثة، (القاهرة- مصر)، 1970م، ط1، ص: 52

⁽⁹⁹⁾ أيلان فريد الدين، (الأزمنة في اللغة العربية)، دار العبر للطباعة، (اسطنبول- تركيا)، 1997م، د.ط، ص: 122

⁽¹⁰⁰⁾ شارف مزارى، (مستويات السرد الإعجازي في القرآن الكريم)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (دمشق- سوريا)، 2001م، ص: 113، 114

⁽¹⁰¹⁾ ينظر: عبد الصمد رايد، (مفهوم الزمن و دلالاته في الرواية العربية المعاصرة)، د.ط، 1988م، الدار العربية للكتاب، (تونس)، ص: 7

على القراء، مما يجعل فهم المتلقي للأحداث أمراً صعباً فيخلق عنصر التشويق الناتج من التعامل الفني مع الزمن.

وعليه فإنَّ للزمان والمكان جذور راسخة، وقدم ثابتة في تاريخ أدبنا العربي، ذلك التراث الثري الذي تناولته أقلام الكتاب والدارسين بكتب ودراسات لا يمكن حصرها، وما زال ذلك العصر مَثار إعجاب الباحثين؛ لامتلاكه بريقاً خاصاً لا يخفى على العين الناقدة والذائقة الأدبية.

وجملة القول من هذه التعريفات- التي سبق ذكرها في هذا المدخل- هو أن توقفنا عند المفاهيم الأولية لخطاب الرحلات، ينطلق من الإشكال الذي مازال مقترنا بالرحلة، والذي يرتبط بكيفية صدور خطابها وتكونه (طريقة سردا ووصفا)، ذلك أنه ناتج عن فعل الانتقال من مكان إلى آخر، في مدة زمنية معينة، وعليه يجدر أن نميز بين الرحلة كفعل والرحلة كخطاب، "إذ أن فعل الانتقال (الرحلة) مسند إلى شخص حقيقي له مرجعية واقعية مثل المقرئ، أو ابن عمار، أو ابن حمدوش...- كما سيأتي لاحقاً- أما الخطاب فينجزه مرسل ينتج ملفوظاته وفق قواعد وغايات محدودة تتعلق بالمرسل إليه"⁽¹⁰²⁾

وإذا كان من البديهي أن الرحلة كفعل تسبق الرحلة كخطاب فإن التاريخ الأدبي يبرز هذا التالي على مستوى تشكل الأنواع الأدبية كما يذكر بذلك شعيب حليفي حين يلح على أن الرحلة كفعل تمثل مرحلة سابقة للرحلة كخطاب، حيث كانت الرحلة تحضر في نصوص أدبية كعنصر مكون لبنيتها، كالقصيدة، والمقامة وسرد الأخبار ومجالس السمر وغيرها، ثم ما لبثت أن أصبحت نوعاً أدبياً قائماً بذاته، عندما بدأ تدوينها وكتابتها كنص سردي يحكي هذه التنقلات⁽¹⁰³⁾ وبالتالي انتقلت الرحلة من كونها فعلاً متجسداً في الزمان، عبر الانتقال من مكان إلى آخر مع حدوث أفعال ووقائع، إلى الرحلة باعتبارها فعلاً محكياً يختزل تجربة الفعل السابق ويدونه في شكل سرود بضمير المتكلم.

⁽¹⁰²⁾ ينظر: سعيد يقطين، (السرد العربي- مفاهيم وتحليلات-)، دار رؤية للنشر والتوزيع، (القاهرة- مصر)، 2006م، ط1، ص: 200

⁽¹⁰³⁾ شعيب حليفي، (الرحلة في الأدب العربي)، رؤية للنشر والتوزيع، (القاهرة- مصر)، 2006م، ط1، ص: 120

الفصل الأول:

خِطَابُ الرَّحْلَةِ. الْمَفْهُومُ، الدَّوَاغِعُ وَالْأَقْسَامُ

- المبحث الأول: ماهية الخطاب الرحلي
- المبحث الثاني: دواغِعُ الخطابِ الرحلي ودَوَاعِي التَّدْوِينِ
- المبحث الثالث: أقسامُ الخطابِ الرحلي ومُكَوِّنَاتِهِ

المبحث الأول: ماهية الخطاب الرحلي

يمثل خطاب الرحلات رافدا من روافد الأدب العربي على مر التاريخ إذ يجمع في أثنائه عناصر التشويق في الحكوي، والجنوح إلى الغرابة، مما جعله مجالا للتحليل الأدبي وإن كان هؤلاء الرحالة ليسوا من أرباب صناعة الأقلام، ومع ذلك اكتست مادة الرحلات شهرة وتداولوا واسعا بين القراء، كما حظيت أعمال الرحالة بقدر كبير من الشهرة وذلك لما احتوت عليه مادة الرحلات من عناصر الفن والإبداع، ولما في موادها-على حد قول حسني محمود حسين-"من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترتقي بها إلى مستوى الخيال الفني، مع الابتعاد عن الأسلوب الأكاديمي الجاف والمادة التجريدية إذ يتنوع الأسلوب فيها بين السرد القصصي والحوار والوصف"⁽¹⁰⁴⁾.

كما يعد خطاب الرحلة لونا أدبيا له بواعثه، وخصائصه، وأهدافه، وله أدواته الفنية، ورؤاه المضمونية، وكل ذلك يتشكل مع كل رحلة أدبية، وفق غايتها وقدرة صاحبها ومهاراته الأدبية في الملاحظة والرصد. فهو "ضرب من السيرة الذاتية في مواجهة ظروف وأوضاع، وفي اكتشاف معالم وأقطار، وبلدان، ووصفها، والحكم عليها وعلى المجتمع فيها، وهو وصف في النهاية لكل ما انطبع في ذهن الرحالة عبر مسار رحلته وفي احتكاكه بالمحيط، يتآزر في ذلك الواقع والخيال، وأسلوب القص والحقائق العلمية التاريخية والجغرافية والاجتماعية والنفسية وغيرها"⁽¹⁰⁵⁾.

ومن هنا كانت الرحلة الأدبية ارتحالاً في ذات الأديب، قبل أن تكون نقلاً مجرداً لمعالم الدول والقارات. ومن جانب آخر فقد أسهمت إسهاماً كبيراً في قراءة بعض مظاهر الحضارات، وتقديمها للمتلقي العربي دون تهويل أو تهميش، ومع أن هذه القراءات تختلف إيجازاً وتفصيلاً، إلا أنها كانت تعتمد على المشاهدة والمعاشة، وتتميز كثيراً بموضوعية نقدها، المبني على ثقافة الرحال وقدرته على الوصف والتحليل. وهذا ما أدى بالكثير من الدارسين للنظر إلى الرحلات على أنها مدونات

⁽¹⁰⁴⁾ ينظر: حسني محمد حسين، (أدب الرحلة عند العرب)، ط2، 1403هـ/1983م، دار الأندلس، (بيروت- لبنان)، ص: 8،9

⁽¹⁰⁵⁾ سميرة انساعد، (الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري - دراسة في النشأة والتطور والبنية-)، دار الهدى، (عين مليلة- الجزائر)،

د.ط، 2009، ص: 3

ووثائق هامة خاصة في الجانب الجغرافي والتاريخي والإثنوغرافي⁽¹⁰⁶⁾، إلى جانب بنائها الفني والمضمون الذاتي، ورغم هذا الامتداد تظل الرحلة مشدودة إلى دائرة الأدب نظراً للأسئلة التي تطرحها (الماهية، النوع والمضمون)

1- خطاب الرحلة:

يُرد الخطاب الرَّحلي بتسميات أو مصطلحات مختلفة عند النقاد والباحثين، وإن تعددت هذه التسميات وتجاوزت، فإنها تقع على المحيط الدلالي لدائرة أدبية واسعة تتخذ من المكوّن المكاني مركزاً لها. ومن بين هذه التسميات نجد ما يلي: خطاب الرحلة - أدب الرحلة - أدب المذكرات والسير الذاتية - الأدب السياحي - الأدب المكتوب - ولعل أكثر هذه التسميات تداولاً هو خطاب الرحلة، أو أدب الرحلات.

فلو تبينا بعض التعريفات نجدها تقربنا من تحديد الهدف المصبو إليه في هذه الدراسة. فخطاب الرحلة، أو خطاب الرحلات هو "مجموعة من الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة. وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته، مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"⁽¹⁰⁷⁾.

ويذهب ناصر موافي إلى أنه "ذلك النثر الذي يصف رحلة - ورحلات - واقعية، قام بها رحال متميز، موازنا بين الذات والموضوع، من خلال مضمون وشكل مرنين، بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه"⁽¹⁰⁸⁾

وتقول أسماء أبو بكر: "نص الرحلة فن من فنون القول العربي، يصف مجالات الحياة عند الرحالة الذي سجل رحلته، أو حكاها لغيره ثم سجلها"⁽¹⁰⁹⁾

⁽¹⁰⁶⁾ الإثنوغرافيا: هو علم وصف الشعوب، ينصب على دراسة المظاهر المادية للنشاط الإنساني من عادات وتقاليد كالمأكل والمشرب والملبس. ينظر: أحمد مختار عمر، (معجم اللغة العربية المعاصرة)، م.م.ي، ص: 63/1

⁽¹⁰⁷⁾ مجدي وهبه، كامل المهندس، (معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب)، م.م.س، ص: 17

⁽¹⁰⁸⁾ ناصر عبد الرزاق الموافي، (الرحلة في الأدب العربي - حتى نهاية القرن الرابع الهجري-)، م.م.س، ص: 41

⁽¹⁰⁹⁾ أسماء أبو بكر، (ابن بطوطة- الرجل والرحلة-)، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1992م، ط1، ص: 11

ويزيد عبد الباسط بدر بقوله: "ذلك التأليف الثري المطول الذي يتحدث الأديب فيه عن رحلة تجشم مشاقها، ومر خلالها بمدن وقرى، وعبر بحارا وأودية وصحاري، وواجه أحداثاً، ولقي مفجآت وغرائب لا يعرفها في بيئته"⁽¹¹⁰⁾

فخطاب الرحلة- حسب تحديد ما سبق من هذه التعاريف - هو تلك المؤلفات التي تتحدث عن مغامرات واقعية قام بها الرحالة، وتعرف من خلالها على أحوال البلاد التي زارها وعادات أهلها وسلوكاتهم التي نقلها لنا من خلال مؤلفه. ذلك أن الرحالة وهو يجوب مختلف الأقاليم يتأثر بما يلاحظه ويسمعه من مظاهر مختلفة.

في حين يعرفه شوقي ضيف بقوله: "الرحلة تعد من أهم فنون الأدب العربي، تتضمن أحداثاً ومغامرات عدّة تصاغ في أسلوب قصصي بديع يؤكد الواقع أحياناً وينشئ لنا عوالم خيالية أخرى"⁽¹¹¹⁾

نلاحظ في هذا التعريف شيئين مهمين؛ الأول: أنّ التعريف الذي قدمه شوقي ضيف لأدب الرحلة اعتمد على الطريقة التي يدون بها الرحّال رحلته، فهو قد ربط بين أدب الرحلة وفن القصة جاعلاً منه "خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب ونقصد تهمه قصوره في فن القصة"⁽¹¹²⁾

لكن المتأمل في النصوص الرحلية، والنصوص القصصية سيجد فوارق عدّة بينهما؛ لعلّ أبرزها: أنّ النص الرحلي أشمل من القصة، فهو يملك سمة جعلته يتقاطع مع الكثير من النصوص السردية كالسيرة والمقامة والقصة، أما هذه الأخيرة فلها سماتها الأساسية البارزة بعيدة عن الاهتمام بالنص الرحلي بشكل تام.

أما الملاحظة الثانية، فهي إشارة شوقي ضيف إلى ارتباط فن الرحلة بالخيال، وهذه إشارة إلى ارتباط الرحلة بالأسطورة والخرافة وكل ما هو عجائبي، والمقصود هنا تلك النصوص التي تتعلق بالخيال و"الأخبار التي كان يروجها القصاص بين أوساط العوام، خصوصاً بعد انفتاح الثقافة

⁽¹¹⁰⁾ عبد الباسط بدر، مجلة الأدب الإسلامي، رابطة الأدب الإسلامية العالمية، (بيروت- لبنان)، العدد: 3، ربيع الأول 1415هـ، ص: 12

⁽¹¹¹⁾ ينظر: شوقي ضيف، (الرحلات)، م.م.س، ص: 5

⁽¹¹²⁾ ينظر: مرجع نفسه، ص: 6

العربية على نظيرتها الفارسية التي أفرزت دخول نصوص تتأسس على الخيال ... وترمي إلى تمتيع القارئ ... وسرعان ما تسربت هذه القصص إلى الثقافة الرسمية وكان من الطبيعي أن تتسرب النصوص الرحلية التي تفتح عادة على كل ما هو غريب وعجيب" (113)

ويقول سعيد بن سعيد العلوي: "إنه جنس أدبي له من الصفات والخصائص ما يكفي لتمييزه عن الأجناس الأدبية، كونه خطاباً مخصوصاً له منطقته الذاتي وبنائوه ومكوناته وعناصره، يجمع بين الإفادة عندما يخبرنا عما يراه، والإمتاع لما يرصد لنا ما هو عجيب. الأمر الذي يجعل الرحلة يتقمص شخصية السارد أو القاص" (114). فهو يفيد القارئ من جهة، ويمتعه من جهة أخرى بما يتضمنه من مشاهد وحقائق جديدة.

وهناك من يعرف خطاب الرحلات بأنه "نمط تعبيرى يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد، إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم مؤرخو الجغرافيا وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب... فالرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور" (115). ويمكن القول بأن هذا النمط "قد لا يرقى إلى مستوى الفن القائم بذاته كفن القصة أو الشعر أو المسرحية أو المقالة الأدبية، ففيه تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها من غير أن تضبطه معاييرها أو أن يخضع لمقاييسها" (116)

بناءً على هذا التعريف نجد أن خطاب الرحلة هو الفن الذي تنصهر فيه مجموعة من الخطابات الأدبية لتتزاوج فيما بينها، وتعطي لنا مادة دسمة تتزاوج بين المعلومة والفنية في التقديم، كما أنها مادة متعددة الجوانب، وهذا ما يذهب إليه مؤرخ الأدب الجغرافي بقوله: "لقد أثار هذا الأدب اهتماماً بالغاً بسبب تنوعه وغنى مادته، فهو تارة علمي وتارة شعبي وهو طوراً واقعي وأسطوري على السواء، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة" (117)

(113) أحمد بوغلا، (الرحلة الأندلسية - الأنواع والخصائص)، دار أبي رقراق، (الرباط- المغرب) 2008م، ط1، ص: 65-66

(114) ينظر: سعيد بن سعيد العلوي، (أوروبا في مرآة الرحلة- صورة الآخري في أدب الرحلة المغربية المعاصرة-)، مطبعة النجاح الجديدة، (الدار البيضاء- المغرب)، 1995م، ط1، ص: 14

(115) ينظر: حسني محمد حسين، (أدب الرحلة عند العرب)، م.م.س، ص: 6

(116) ينظر: مرجع نفسه، ص: 9

(117) إغناطيوس كراتشكوفسكي، (تاريخ الأدب الجغرافي)، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية (جامعة الدول العربية)، 1957م، ص: 7/1

والباحث من خلال تجوله بين مؤلفات هذا الفن بإمكانه رصد الكثير من التعريفات التي تختلف من دارس إلى آخر والتي لا يمكن أن نعرضها جميعاً، إلا أنَّها في الغالب تصب في قالب واحد يمكن تلخيصه في ما عرفته الموسوعة العربية العالمية: "أنَّ أدب الرحلة هو الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان، وتعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية والتصوير المباشر..."⁽¹¹⁸⁾. أو بمعنى آخر تلك الكتب والمؤلفات الرحلية التي سجل فيها أصحابها مشاهداتهم، وحوادثهم ورؤاهم على اختلافها وتنوعها، من خلال شعورهم بها ورؤيتهم لها في لغة أدبية موحية.

أو كما يلخصه لنا إنعام الحق غازي في عناصر مهمة أهمها:

- الرحلة هي تلك الكتابات الأدبية التي تتميز بالسرد والتي يجمع الرحالة مادتها خلال مشاهداته الأراضي التي زارها.
- تتضمن الرحلة الأحوال والانطباعات والمعلومات التي تتراكم لدى الرحالة خلال سفره.
- تتكون الرحلة من أفكار وعواطف وآثار سلبية وإيجابية
- كلما تمتع الرحالة بدقة النظر وعمق الفكر، كثرت تفاصيله، فالناظر العادي يذوب في تحديد المنظر الجغرافي وبيان سماته الخارجية، والحديث عن أهل البلد مركزاً على الإحصائيات وما شابه ذلك من معلومات.
- يضم الرحالة عواطفه العميقة إلى الأوضاع الخارجية وبذلك يعبر عما يدور في قلبه، ومن هنا يتميز أسلوب الرحلة حيث يصبح أسلوباً مؤثراً⁽¹¹⁹⁾

ولم يأخذ هذا النوع من النشر - خطاب الرحلات - في بداية الأمر اسم "رحلة" وهذا ما لا نجده في كثير من المؤلفات الرحلية مثل: كتاب (البلدان) لليعقوبي (ت284هـ)، ومن بعده المسعودي صاحب كتاب (مروج الذهب)، جامعين بين المادة التاريخية والجغرافية والإطار الأدبي الفني. إلى

⁽¹¹⁸⁾ الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، مكتبة الملك فهد الوطنية، (الرياض - المملكة العربية السعودية)،

1419/1999م، ط2 ص: 11/141

⁽¹¹⁹⁾ ينظر: حافظ محمد بادشاه، (الحجاز في أدب الرحلة العربي)، رسالة دكتوراه، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، (إسلام آباد - باكستان)،

2009م/2013، ص: 14. نقلاً عن: إنعام الحق غازي، (صورة شبه القارة الهندية - الباكستانية عند الرحالة العرب)، 2010م، ص: 4

جانب "أبي حامد الأندلسي (ت564هـ) بكتابه (تحفة الأصحاب ونخبة الأعجاب) و البيروني بكتابه (الآثار الباقية)، والإدريسي بكتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق).⁽¹²⁰⁾

أما لفظ (رحلة) فأول من أطلقها على مؤلفه هو: أبو بكر بن العربي(ت543هـ). يقول فؤاد قنديل: "كان أول من استخدم لفظ رحلة في عنوان مؤلفه، حيث وضع كتابا سماه (تَرْتِيبُ الرِّحْلَةِ لِلتَّرْغِيبِ فِي المَلَّة) ويعتبر بهذا أول من وضع أدب الرحلات بالصورة الفنية المأمولة، وهو يقدم لنا مادة ضخمة تحفل بالمعلومات الثقافية والاجتماعية عن البلاد التي طاف بها. وقد مثل الرحلة الأندلسي محمد ابن جبير (ت614هـ) أحسن تمثيل للاتجاه الأدبي برحلته المعنونة (تذكار الأخبار عن اتفاقات الأسفار) حيث اهتم بالصياغة الأدبية إلى جانب المعلومات التاريخية والجغرافية⁽¹²¹⁾. وقد جاء بعده رحلة كثر استخدموا مصطلح "الرحلة" في مؤلفاتهم أمثال: (الرحلة المَغْرِبِيَّة) لمحمد العبدري (ت725هـ)، (ومستفاد الرحلة والاعتراب) لعلي التُّجَيْبِي السبتي (ت730هـ) و(نَحْلَةُ اللَّيْبِ فِي أَخْبَارِ الرِّحْلَةِ إِلَى الحَبِيبِ) لأحمد بن عمار الجزائري (ت1206هـ)

تأسيسا لما سبق؛ وبعد أن تجلت لنا معالم خطاب الرحلة، لأبّد من تبيان الفرق الموجود بين هذا المصطلح -خطاب الرحلة-، ومصطلحي: (أدب السيرة الذاتية) و(أدب الجغرافيا)، لأنّ من غير الممكن أن نذكر خطاب الرحلات دون أن نخرج على أدب الجغرافيا أو السيرة الذاتية، -وهذا ما وجدته في غالب المصنفات التي وقفت عليها-، وذلك بغية معرفة الروابط والصلات المشتركة بينهم، حتى يتسنى للقارئ معرفة العلاقة التي تجمع بين خطاب الرحلات وبين هذين الجنسين الأدبيين وعدم الخلط بينهم. فماذا نقصد بالأدب الجغرافي؟ وماذا نقصد بأدب السيرة الذاتية؟ وما هي العلاقة بينهما؟

2- أدب السيرة الذاتية:

يصعب في بعض الأحيان التمييز بين خطاب الرحلة والسيرة الذاتية، فهما يمتزجان أحيانا وتتداخل بعضهما مع بعض، بحيث لا تدري أيها الغالب في القالب الواحد، خطاب الرحلة أم السيرة الذاتية؟

⁽¹²⁰⁾ ينظر : سيد حامد الساج، (أدب الرحلات في حياتنا الثقافية)، مجلة العربي، (الكويت)، 01 يناير، 1987م، العدد: 338، ص: 113

⁽¹²¹⁾ ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، 2002م، (القاهرة- مصر)، ص: 75، 76

وإن كان خطاب الرحلة في الحقيقة قالباً فنياً، والسيرة الذاتية قالباً آخر مستقل عنه إلا أن النماذج الكثيرة في التراث العربي تفرض علينا سؤالاً: هل يمكن اعتبار خطاب الرحلة سيرة ذاتية، والسيرة الذاتية خطاب رحلة في آن واحد؟

وللإجابة على هذا السؤال يتوجب علينا التعرف عن ماهية فن السيرة الذاتية وخصائصه التي تميزه عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى.

يعد أدب السيرة الذاتية فناً متميزاً، ينتمي إلى الفنون السردية على مستوى الشكل، والبناء وتمثل السيرة في الأدب العربي، غني في الجوانب النفسية الحية و المضمين المتجددة فهي صورة صادقة شفافة للتجربة الإنسانية، على اختلاف زمانها ومكانها، وهي مصدر غني من مصادر المعرفة والمتعة؛ المتعة في الاطلاع على دخائل النفس البشرية، وأسرارها، وصراعها مع الحياة والمجتمع في إطار فني متماسك، يضمن استمرار المشاركة الإنسانية التي يروجها المؤلف من القارئ.

تعددت التعاريف وتباينت حول مصطلح السيرة الذاتية عند الأدباء والمفكرين، حيث أصبح كل واحد منهم يضع تعريفاً خاصاً به، وفقاً لفهمه لطبيعة هذا الفن، "ولعل هذا راجع لمرونة هذا الجنس الأدبي، وضعف الحدود الفاصلة بينه وبين الأجناس الأدبية الأخرى"⁽¹²²⁾، إلا أن هذه التعاريف يمكن أن تجري مجرى واحداً، لعلنا يمكن أن نحصرها في بعض ما نذكره من تعاريف. فمحمد عبد الغني يرى أن السيرة الذاتية "هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته، وما جرى له فيها من أحداث تعظم أو تضؤل تبعاً لأهميتها"⁽¹²³⁾

ويذهب عبد الرزاق حسين إلى نفس ما ذهب إليه محمد عبد الغني فيقول: إنَّ السيرة الذاتية "هي التي يقوم بها صاحبها بالكتابة عن نفسه، فهو الذي يروي لنا تاريخ حياته مرحلة مرحلة بتجرد وصدق، ووعي في ثوب أخاذ"⁽¹²⁴⁾

⁽¹²²⁾ حازم فارس علي أبو شارب، (فن السيرة في الأدب الأيوبي)، مذكرة ماجستير، جامعة الشرق الأوسط، (عمان- الأردن)، 2011/2010م، ص:

⁽¹²³⁾ محمد عبد الغني، (التراجم والسير)، دار المعارف، (القاهرة - مصر)، ط3، ص: 23

⁽¹²⁴⁾ عبد الرزاق حسين، (فن النثر المتجدد)، دار العلم الثقافية، (المملكة العربية السعودية)، 1998م، ط1، ص: 44

وعرفها إحسان عباس في أثناء حديثه عن نشأتها، فقال: "تعرض للفرد في نطاق المجتمع وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة، أو منعكسة فيها، أو متأثرة بها، فإنَّ السيرة في هذا الوضع تحقق غاية تاريخية"⁽¹²⁵⁾

وقال أيضا: "هي الرغبة في تأريخ حياة فرد من الأفراد أو جانب كبير من حياته تحقيقا لنظرة خاصة"⁽¹²⁶⁾

فالسيرة الذاتية حسب إحسان عباس نابعة من التاريخ، يجمع بينهما الواقع والحقيقة، لكن السيرة أقرب إلى النفوس، فهي تسجل الدقائق الجزئية للانفعالات البشرية، والعواطف الرقيقة، بينما التاريخ يصور وقائع وحقائق، ليس للمشاعر الإنسانية دور فيها، ولا تخلف وراءها أي أثر أو انفعال.

ويعرفها محمد التونجي على أنها "سرد قصصي يتناول فيه الكاتب ترجمة حاله وما يعترض حاله من معضلات وشدائد، محاولا تتبع الأحداث زمنياً وأهميةً، ولا يذكر إلا ما يشاء أن يذكره عن حياته، وما يريد أن يوضحه عن الناس حوله"⁽¹²⁷⁾

وهناك من يعمد إلى تعريف السيرة الذاتية عن طريق الصفات المشتركة بينها وبين الفنون الأدبية الخرى، ومثال ذلك ما ذكره أنيس المقدسي بقوله "هو نوع من الأدب، يجمع بين التحري التاريخي، والإمتاع القصصي، ويراد به دراسة حياة فرد من الأفراد، ورسم صورة دقيقة لشخصيته الكاملة"⁽¹²⁸⁾

ويتحدث شوقي ضيف بصورة عامة عن الأمور الأساسية التي يجب أن تتوفر في أدب السير وهي أربعة أمور:

– أن يكتب المؤلف عن نفسه

– أن يكتب جزءاً من حياته أو حياته كلها

⁽¹²⁵⁾ إحسان عباس، (فن السيرة)، دار الشروق، (عمان-أردن)، 1996م، ط1، ص: 11

⁽¹²⁶⁾ إحسان عباس، (فن السيرة)، م.س، ص: 73

⁽¹²⁷⁾ محمد التونجي، (المعجم المفصل في الأدب)، م.م.س، ص: 536

⁽¹²⁸⁾ أنيس المقدسي، (الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة)، دار العلم للملايين، (بيروت-لبنان)، 2000م، ط6، ص: 547

- التركيز على الحياة الشخصية وعدم التطرق للأحداث العامة

- الصراحة والصدق (129)

ويحددها إبراهيم عبد الدايم بقوله: "هي التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة على أساس من الوحدة والاتساق... في أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافيا كاملا من تأريخه الشخصي، على نحو موجز حافل بالتجارب والخبرات المنوعة والخصبة، وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض، وحسن التقسيم، وعضوبة العبارة، وحلاوة النص الأدبي، والحركة في تصوير الوقائع والشخصيات، وفيما يتمثله في حوار، مستعينا بعناصر ضئيلة من الخيال لربط أجزاء عمله حتى تبدو ترجمته الذاتية في صور متماسكة محكمة، على ألا يسترسل مع التخيل حتى لا ينأى عن الترجمة الذاتية" (130)

ومن خلال هذه التعريفات لأدب السيرة الذاتية يمكن أن نلخص معالم هذا الفن في ثلاثة عناصر هي:

- أنه يعتبر فن نثري أدبي

- أنه ذو بناء محدد وواضح، ومصوغ صياغة فنية جيدة

- أنه تُسجل فيه الأحداث المهمة للكاتب والابتعاد عن التفاصيل (131)

ومن نماذج هذا الفن في التراث العربي ما ظهر في القرن الخامس للهجري، ككتاب (الاعتبار) لأسامة بن المنقذ (ت584هـ) وكتاب (النكت العصرية) لعمارة اليميني، ومن أهل الأندلس والمغرب ممن تحدث عن نفسه وترجم لها بطريقة أو بأخرى نذكر ابن شُهد (ت466هـ) في بعض رسائله التي نقلها ابن بسام في كتابه (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)، وكذلك ابن حزم الأندلسي (ت466هـ) في كتابه (طوق الحمامة) الذي توفر على كثير من المواقف والتجارب الذاتية، وكذلك نذكر عبد الواحد المراكشي في كتابه (المعجب في تلخيص أخبار المغرب)، وابن الأحرر في

¹²⁹ شوقي ضيف، (الترجمة الشخصية)، دار المعارف، (القاهرة- مصر)، 1956م، ط4، ص: 6-11

¹³⁰ يحيى إبراهيم عبد الدايم، (الترجمة الذاتية في الأدب العربي)، دار إحياء التراث العربي، (بيروت- لبنان)، د.ط، ص: 10

¹³¹ ينظر: مريم حماد عليان الحسنات، (السيرة الذاتية في الأدب الإسلامي)، مذكرة ماجستير، الجامعة الإسلامية، (غزة- فلسطين)، ص: 16

كتابه (مستودع العلامة)، وابن قُنفد القسنطيني (ت810هـ) في كتابه (أنس الفقير وعز الحقيين)⁽¹³²⁾

كما يمكن أن نجد في بعض المصنفات تمازج بين أدب السيرة الذاتية وبين خطاب الرحلات في مصنف واحد، وحقيقة ذلك أن الرحالة يتناولون في رحلاتهم، تلك المراحل التي يقطعونها والمناظر التي يرونها والحوادث التي يتعرضون لها، ولكن إضافة إلى ذلك فهم يسردون الكثير من أخبار سلوكاتهم وتجاربهم الشخصية الذاتية. وهذا التمازج بين الجنسين يدخل ضمن نطاق ما يسمى بنصوص "المتاخمة"، وكأنها سيرة ذاتية داخل سيرة⁽¹³³⁾؛ ويمكن ملاحظة ذلك بصورة قوية وعميقة في رحلتي عَلمين كبيرين من أعلام القرن الثامن الهجري وهما "ابن خلدون" (ت808هـ) في كتابه (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا) و"لسان الدين بن الخطيب"⁽¹³⁴⁾ (ت776هـ) في كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة) والرجلان يلتقيان في جوانب كثيرة، فقد ضمهما عصر واحد، وقطر يكاد يكون واحدا، ومرت بهما ظروف متشابهة جدا إضافة إلى ما كان يربطهما من علاقات صداقة، وتجمع بينهما مشاهبات أدبية ومادية.

فابن خلدون في كتابه (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا) يركز على ترجمة ذاتية مستقلة لحياته ابتداء بذكر سلفه وأوائل أجداده، ووالديه وشيوخه، ووظائفه، ورحلاته، ومؤلفاته...، وكونه قصة حياة فهو كذلك يضمه أيضا جانبا من رحلاته بين المشرق والمغرب وما تحويه هذه الرحلات من جوانب هامة في شخصية ابن خلدون.

⁽¹³²⁾ محمد غزلاوي، (التوليف بين الرحلة والسيرة الذاتية - الأدب المغربي القديم نموذجًا)، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، (غرداية- الجزائر) العدد: 16، 2012م، ص: 40

⁽¹³³⁾ شميسة غربي، (سرديات من التراث الجزائري: قراءة تأملية في النصوص المتاخمة)، 8/11/2017م/18/2/1439هـ،

https://www.alukah.net/literature_language/0/122482/#ixzz69zCvgGZH

⁽¹³⁴⁾ لسان الدين ابن الخطيب: هو لسان الدين أبو عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد ابن علي بن أحمد السلماني، والسلماني نسبة إلى سلمان، وهو حي من اليمن القحطانية، وقد دخل الأندلس عقب الفتح، وأما لقب "لسان الدين" فقد ذكر ابن الخطيب أنه من الألقاب المشرقية، ولم يقل في أي ظرف أسبغ عليه هذا اللقب. ولد ابن الخطيب عام 713هـ بمدينة لوشة، نشأ في غرناطة التي كانت أعظم مركز للعلماء والأدباء آنذاك، درس عند عدة علماء مثل: أبي عبد الله بن الفخار، وأبي القاسم محمد بن علي الحسيني السبتي، وأخذ الأدب والشعر عن الوزير أبي عبد الله بن الحكيم اللخمي وغيرهم، أما وفاته فقد توفي مقتولا مع ولده الأكبر سنة 776هـ. من مؤلفاته: (اللمحة البيدرية في الدولة النصرية)، (أوصاف الناس في التواريخ والصلوات)، (معايير الاختيار في معاهد الاعتبار). ينظر: لسان الدين بن الخطيب، (الإحاطة في أخبار غرناطة)، م.م.س، ص: 18/1، 20، 22. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، (بيروت- لبنان)، 2002م، ط5، ص:

ويمكن القول أن كتاب ابن خلدون ينسب إلى خطاب الرحلات كما ينسب إلى أدب السيرة الذاتية، لكن ما فيه من خطاب رحلات أدنى مما فيه من أدب السير الذاتية. "ولعل هذا الجمع بين الفنين يظهر في عنوان مؤلفه، أي "التعريف" و"الرحلة" وكل منهما يمثل لونا أدبيا خاصا، له مقوماته ومميزاته وقد جمع المؤلف بينهما في كتاب" (135).

ولا نبتعد عن هذا الطرح عند ابن الخطيب، فكتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة) ترجم فيه لنفسه وغطت هذه الترجمة تلك الفترة من حياته التي قضاها بالمغرب، وقدم فيها كثيرا عن المواقف الذاتية والتجارب النفسية، والتفكير في العبور إلى الأراضي المقدسة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية سرد مراحل سيره في أرجاء المغرب، وتنقله بين بلداته وجباله وسهوله، ووصف لعمرانه وآثاره.

وقارئ الكتاب يلاحظ تداخل عناصر الرحلة بعناصر السيرة الذاتية في كونه وصفا للمراحل والمشاهد وتعبير عن جوانب ذاتية شخصية من حيث صاحبه، وصوره عن نفسه الحائرة المضطربة القلقة في تلك الفترة التي كان قد فقد فيها وزارته وفقد زوجته.

وبهذا نكون قد خلصنا بعض ذكر هذين النموذجين إلى وجود عناصر الرحلة وعناصر السيرة الذاتية في مؤلفات واحدة، وإن كان في بعض الأحيان يطغى أحد الفنين على الآخر.

3- الأدب الجغرافي:

لو حاولنا البحث في التراث العربي قبل القرن الثالث للهجرة عن مصنفات جغرافية فإننا لا نجد ذلك، وبمجيء عصر المأمون بن هارون الرشيد، بدأ تأسيس علم الجغرافية العربية، ليشرع بعد ذلك العرب في التأليف الجغرافي بوصف دولتهم الكبيرة التي امتدت من الهند وحدود الصين إلى إسبانيا وجبال البرانس، ومن القوقاز وآسيا الصغرى إلى السودان ومجاهل إفريقيا، كما يصفون الإمبراطوريات والشعوب المجاورة لهم" (136)

واتبع جغرافيوهم طريقة ممتعة في وصف عالمهم والعوالم المحيطة بهم، إذ عُنوا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب وطباعها وما بديارها من آثار وعجائب وقصص ما عندها من أساطير وخرافات.

(135) ينظر: صالح المغربي، (الترجمة الذاتية وفن الرحلة)، حويلات الجامعة التونسية، 1973م، العدد: 10، ص: 73

(136) شوقي ضيف، (الرحلات)، م.م.س، ص: 11

وبذلك أصبحت كتبهم الجغرافية كتباً أدبية، تعتمد على المشاهدة وحكاية ما رآه الجغرافي، وهي من هذه الناحية أقرب إلى أن تكون كتب رحلات منها إلى أن تكون كتباً جغرافية بالمعنى الذي نفهمه اليوم.

ولما كانت الدولة تحتاج من جهة الخراج والإدارة إلى معرفة الطرق والمسالك في البر لتنظيم البريد والاتصال بالبلاد المختلفة، عُني الجغرافيون بهذا الجانب، وزاد في عنايتهم به حاجة الحجاج إلى معرفة محطات القوافل في طريقهم إلى مكة. ومن هنا سُموا كثيراً من كتبهم باسم "المسالك والممالك"، ولذلك يغلب عليها الطابع القصصي، إذ تنتقل بين أخبار جغرافية وتاريخية وقصصية ومشاهدات يرويها الجغرافيون عن أنفسهم.⁽¹³⁷⁾

إذاً فالأدب الجغرافي ذلك الأدب الذي "يهتم بوصف العوالم وما يتصل بها من عادات الأمم وطبائعها وما بديارها من آثار وعجائب... يعتمد على المشاهدة وحكاية ما رآه الجغرافي"⁽¹³⁸⁾، وذلك في أسلوب يزاوج بين تقديم المعلومة والفنية في الطرح فهو من ناحية يولي وجهه شطر العلوم، أعني العلوم الدقيقة وذلك بالمعنى الذي نفهمه حالياً، ومن ناحية أخرى فهو يولي وجهه شطر الأدب الفني بالغاً ببعض آثاره...⁽¹³⁹⁾. أي وبعبارة أخرى هو ذلك العلم الذي يتبع النهج العلمي، ولكن بأسلوب أدبي، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر وبحيث تظل شخصية الرحال بين آن وآخر، لتقييم نوعاً من التوازن بين الموضوع والذات بحيث يتعلم القارئ ويستمتع في آن واحد. إنها ازدواجية تهدف إلى التقديم غير المباشر للمعلومة، أو لتخفيف حدتها وجفافها، بحيث لا يمل القارئ⁽¹⁴⁰⁾

وقد شكل الأدب الجغرافي عنصراً أساسياً في الموروث العربي يتخذ صوراً متنوعة، فهو أحياناً ذو طابع شعبي، وأحياناً يكسو طابعاً خيالياً، وهذا ما جعله مادة متعددة الجوانب، فهو يروي الكثير من مغامرات البر والبحر كقصة السندباد، أو قصص عجائب المخلوقات... وذلك باعتبارها ألفت

⁽¹³⁷⁾ شوقي صيف، (الرحلات)، م.م.س، ص: 12

⁽¹³⁸⁾ مرجع نفسه، ص: 11، 12

⁽¹³⁹⁾ إغناطيوس كراتشكوفسكي، (تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب)، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، ص: 18/1

⁽¹⁴⁰⁾ ناصر عبد الرزاق الموفي، (الرحلة العربية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع)، م.م.س، ص: 37

لجمهرة القراء، لم يقصد بها مؤلفوها جمع الخرافات، بل إلى التحدث بغرائب الموجودات، تبعاً لنظري كل واحد في النظر إلى هذه الغرائب وفهمها ومقدار ما له من العلم بها... (141)

كما تتفاوت مؤلفات الأدب الجغرافي من حيث الحقائق العلمية، والخيال، والمهاترة، ولكنها جميعها لا تخلو من هذه العناصر، ففيها يجد المعدم كل مفقود، حتى وإن كنا ننظر إلى بعض منها على أنها مجرد تسلية، فإننا نقف أمامها متأملين نستنتج أن هذه الرحلات التي فيها كثير من الخيال أو هي خيال كلها "تقوم على التعاون التطوعي للقارئ الذي استهوته مهارة المؤلف، وفقدانه حس الزمان والمكان، وبهرجة الألوان، وغرابة المخلوقات، وسحر المغامرات، فأصبح وعلى نحو تلقائي شريكا للمؤلف... فيقوم ذهنياً بترجمة أو إيضاح ما يقدم له من خلال شفرة شفافة وواضحة" (142). كما أن مؤلفي هذا النوع كانوا يعتقدون أنهم يكتبون في الأدب بمعناه الواسع، وهو الأخذ من كل فن بطرف، فإذا أضفنا إلى ذلك كل غريب وعجيب تبين لنا سر إعجاب الناس به وبخاصة العامة منهم، ولعله بذلك بقي خاضعاً لمقاييس فطرية يعتمد عليها المؤلفون بعيداً عن تناول النقاد والمنظرين. وعليه فإن نقطة ارتكاز هذا الأدب تقديم المعلومة وإن كانت في بعض الأحيان بعيدة عن الصواب تخلق في سماء الخرافة والأسطورة. "وقد بلغ الأدب الجغرافي في القرن الرابع هجري (العاشر ميلادي) أوجه تطوره الخلاق كحركة مستقلة بذاتها، وهو يذخر بمصنفات هامة في محيط الجغرافية الإقليمية، غير أن الإنتاج الأدبي فيه لم يقف عند هذا الحد، فقد تم في هذا القرن أيضاً تشكيل ما يسمى بالمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية... (143) وعلى رأسهم شمس الدين المقدسي (ت390هـ)

وبعد أن حددنا مفهوم مصطلح كل من خطاب الرحلة والسيرة الذاتية وأدب الجغرافيا، فإنه بإمكاننا أن ندرك نوع النص إذا ما كان يصنف في خطاب الرحلات، أو في أدب السيرة، أو ضمن الأدب الجغرافي.

والجدول التالي يلخص لنا خصائص كل فن:

(141) حسين فوزي، (حديث السندباد القديم)، دار الكتاب اللبناني، (بيروت- لبنان)، دار الكتاب المصري، (القاهرة - مصر) 1977م، ط1، ص: 34.
(142) جورج ماي، (طريق واحد ذو اتجاهين - الآراء والاعتبارات الخاصة بالرحلات الخيالية-)، تر: سميرة سعد الدين الوليلي، مجلة "مصباح الفكر"،

1992م العدد: 152/96 ص: 5

(143) ينظر: عبد الفتاح محمد وهيب، (مكانة الجغرافيا من الثقافة الإسلامية)، جامعة بيروت، 1979م، (لبنان) ص: 8، 9.

- الأدب الجغرافي	- أدب السيرة الذاتية	- خطاب الرحلة
<p>- إنتاج رحلات واقعية خيالية</p> <p>- الموازنة بين الذات والموضوع</p> <p>- موضوعه: وصف العوالم ومسالك البلدان، وما يتصل بها من عادات الأمم وتقاليدها</p>	<p>- إنتاج رحلات واقعية يكسوه بعض الخيال</p> <p>- ذاتية (باعتبارها متعلقة بشخصية المؤلف)</p> <p>- موضوعه: حياة المؤلف وتاريخه وعدم التطرق للأحداث العامة</p> <p>- شخص واحد يكون بطل الحديث وهو المؤلف نفسه</p>	<p>- إنتاج رحلات واقعية</p> <p>- الموازنة بين الذات والموضوع</p> <p>- موضوعه: سرد أخبار الرحلات بين مختلف البلدان</p> <p>- تحتوي مصنفات خطاب الرحلة على عدة شخصيات (بطل)</p> <p>يمازج بين العديدة من الجوانب كالسرد، الحكايات، الرسائل.</p>

من خلال هذا الجدول يمكن ملاحظة أوجه التشابه والاختلاف بين كل من هذه الأجناس الأدبية. فكل واحد من هذه الفنون يشترك في تجربة واقعية عاشها الرحال والجغرافي وكاتب السير، فإذا حاول الرحال أن يوازن بين الموضوع والذات فإن عمله يصنف على أنه أدب جغرافي، وأما إذا طغت العناصر الأدبية الذاتية فإن عمله يصنف على أنه "خطاب رحلة" يتتبع خط سير الرحلات. "فالجغرافي يبحث عن صحة المعلومات، ويستقصي ويحقق ويحاول أن يشمل كل جزء من المنطقة التي يعرض لدرسها، أما الرحالة فينقل ما يشاهد، وتكون صورته التي يرسمها جزئية، ولكنها ثمينة"⁽¹⁴⁴⁾. وكثيرا ما يزيد من ثرائها إضافة شيء من التاريخ أو من السياسة أو من عادات الشعوب تعرض في أسلوب قصصي بديع⁽¹⁴⁵⁾. لهذا فالجغرافي حين يصف، يجب عليه الاهتمام بدقائق الأمور فإن سقط منه وصف شيء أتمم بالتقصير، هذا لأنه مطالب بأن يكون متقصيا للحقيقة ودقيقا في كتاباته، أما الرحال إن حدث له ذلك فلا يتهم بالجهل والتقصير، هذا لأنه معبر عن ذاته الشخصية، وما هي إلا قراءة شخصية لواقع مرّ به.

⁽¹⁴⁴⁾ نقولا زيادة، (الجغرافيا والرحلات عند العرب)، الشركة العالمية للكتاب طباعة ونشر وتوزيع، بيروت- لبنان، 1987م، د.ط، ص: 16

⁽¹⁴⁵⁾ عبد الفتاح محمد وهيب، (جغرافية المسعودي بين النظرية والتطبيق- من الأدب الجغرافي في التراث العربي-)، منشأة المعارف، (الإسكندرية- مصر)، 1995م، د.ط، ص: 9

إذن فخطاب الرحلات ليس بحثاً في التاريخ ولا وصفاً جغرافياً... كما أنه ليس قصة، أو رواية، أو قصيدة شعر، وإنما هو هذا وذاك، ومن ثم يكتسب خصائصه المتميزة وطعمه العذب، وقدرته في الوقت نفسه على تلبية مطالب المؤرخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون لمعاينة الوقائع والأحداث.

كما إننا اليوم وفي ظل هذه النهضة الاتصالية المتطورة بأمس الحاجة إلى هذا الفن. ذلك أن العالم العربي أصبح مستقبلاً لكثير من الحضارات، ذات القيم والعادات المختلفة، والتي تهدد الهوية الإسلامية والعربية، من خلال القنوات الاتصالية المتعددة، مما أننا بحاجة إلى الرحالة الواعي الذي يقدم لنا رؤيته عن هذه الحضارات بعيداً عن الانخداع أو التزوير، وبيان خطورة الظواهر التي تضر بالقيم المجتمع الإسلامي وتهدد أخلاقياته.

وعليه فإننا لو حاولنا حصر هذا المبحث في خلاصة نقول: أن خطاب الرحلات هو "شكل أدبي هجين يمتاز بتعدد أوجهه وألوانه، وأساليب ومضامين كتابية؛ لأن المتعمق فيه يجده زاخراً بمواضيع ومعارف عديدة كالتاريخ، الثقافة، الدين، الاقتصاد... الخ، إضافة إلى المدقق فيه من الناحية الخطابية سيجد فيه خطابات أدبية متنوعة كالسرد، الحكايات، الرسائل، وكذا الشعر. فهو يمنح الرحالة حرية قل ما تتوفر لغيره في الألوان الأدبية الأخرى، وهي حرية تتمثل في اختيار المشاهد، ورصد الحوادث، مما يمكنه غالباً من تلوين أساليبه وموضوعاته الرحلية، كما يمكنه من الإفادة من ثقافته المختلفة، وقدراته الإبداعية، نثراً وشعراً⁽¹⁴⁶⁾.

لذا فإننا نجد المؤلفات الرحلية قد أصبحت محل دراسة من طرف "اتجاهات مختلفة تبعاً لاهتمام الدارس، فلا أحد ينكر ما أفاده المثقفون منذ أقدم العصور من خطاب الرحلات، فتنوع موضوعاتها جعلها قبلة تتجاوزها مستويات عدة واتجاهات مختلفة (جغرافية والتاريخية والشعرية...)"⁽¹⁴⁷⁾، لكن وبالرغم من هذا التنوع في خطاب الرحلة، إلا أنه وجب الحديث عن نشأة ودوافع هذا الفن حتى نستطيع التحدث عن جنس أدبي قائم بذاته.

⁽¹⁴⁶⁾ عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي، (أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية)، جامعة أم القرى، (المملكة العربية السعودية)، 1997م/1418هـ،

ص: 1

⁽¹⁴⁷⁾ عبد النبي ذاكر، (المختم في الرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا والبلاد الروسية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت- لبنان)، ودار السويدي للنشر والتوزيع، (الإمارات العربية المتحدة)، 2005م، د.ط، ص: 21

المبحث الثاني: دَوَافِعُ الْخِطَابِ الرَّحَلِيِّ وَدَوَاعِي التَّدْوِينِ

إنَّ العمل يصدر عن الإنسان بإرادة وقصد وعزم عن طريق العقل الذي ميزه الله عز وجل به عن غيره من مخلوقاته، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج-46]، فكان هذا الإنسان يفكر ويتدبر، قبل أن يخطو أي خطوة في اتجاه أي فعل أو أي حركة. والمعلوم أن الرحلة فعل أساسه الحركة والانتقال من نقطة أولى تمثل الانطلاق، إلى نقطة ثانية تمثل الوصول، وهذا يعني أن يغادر ليتجه، وينطلق ليصل، ويصل ليُحصل.

ومما لا شك فيه أن الإنسان بعقله ونفسه ووجدانه لا يغادر مكانا عاش فيه وألفه، ولا يفارق قوما نشأ بينهم واطمأن إليهم، دون دافع يبين يدفعه إلى ذلك، أو هدف واضح يريد الوصول إليه، فالإنسان إذا لا يمارس الرحلة إلا بدوافع قد تكون ذاتية، وقد تكون عامة أو تكليفية (ضرورية)، ومن أجل غايات قد تكون سامية، وقد تكون وضيعة، وقد يرضى ويقتنع بها قوم فيستحسنوها، ويشمئز منها آخرون فيستهجنونها.

أولاً: دوافع الخطاب الرحلي:

وإذا حاولنا الاطلاع على دوافع الرحالة نجدها كثيرة ومتنوعة، فلكل رحالة دافع حفزه للقيام برحلته، والذي يختلف عن دافع رحالة آخر. ويمكننا أن نحدد دوافع الرحلة في النقاط التالية:

1- الدوافع غير المباشرة

- الدافع الحتمي (الضرورة):

عرف الإنسان الرحلة منذ أن عرف الحياة على الأرض، وحملته اليابسة، وارتبط بها، إلا أنه قد يتعرض لعارض يدفعه لهجر وطنه فيغادره هرباً من تلك المصيبة كالجفاف، وانتشار الأمراض، والحروب والترعات الأهلية وظروف اجتماعية قاسية، وويلات ونكبات، فكانت الرحلة إحدى

السبل والطرق الضرورية التي يسلكها الإنسان إنقاذاً لنفسه ونجاة من المكائد (148).

من ذلك ما أمر به سبحانه وتعالى الصحابة (رَضِوانَ اللهُ عَلَيْهِم) الذين كانوا مع رسول الله ﷺ ونصروه في مكة - قبل الفتح- أن يهاجروا إلى المدينة ولا يرضخوا لما سببه إليهم مشركي قريش من أذى. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ أَلْمَلَيْكَةَ ظَالِمِيْ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأَوْلَيْتِكُمْ مَّاؤُلَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ [النساء-97]، قال الحافظ بن كثير: «الآية عامة في كل من أقام بين ظهري المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع، وبنص هذه الآية. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ أَلْمَلَيْكَةَ ظَالِمِيْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: بترك الهجرة، ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا نقدر على الخروج من البلد ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأَوْلَيْتِكُمْ مَّاؤُلَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾» (149).

وقال تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِيْ وَسِعَةٌ فَيَأْتِيْ فَأَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت-

56]، قال البغوي (150) (رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى): «سبب نزول هذه الآية: في المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا، نادهم الله باسم الإيمان» (151)

(148) نوال عبد الرحمن الشوابكة، (أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، دارا المأمون، (عمان)، 1428هـ/2008م، ط1،

ص: 21

(149) ابن كثير، (تفسير القرآن العظيم)، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، (الرياض- المملكة العربية السعودية)، 1418هـ/1997م، ط1،

ص: 389/2

(150) البغوي: هو الإمام أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي المعروف بـ: "ابن بنت منيع" ومولده سنة 214هـ، وتوفي سنة 317هـ، وله من

الكتب: كتاب (المعجم الكبير)، (المعجم الصغير)، (المسند)، (السنن على مذاهب الفقهاء)، ينظر: ابن النديم، (الفهرست)، تح: إبراهيم رمضان، دار

المعرفة، (بيروت- لبنان)، 1417هـ/1997م، ط2، ص: 325

(151) محمد بن عبد الوهاب، (الأصول الثلاثة وأدلتها)، تح: عبد المحسن القاسم، مكتبة الملك فهد الوطنية، (الرياض- المملكة العربية السعودية)،

1430هـ/2009م، ط1، ص: 23-24

ومن الرحالة الذين أجبرتهم الضرورة على شد الرحال إلى وجهة أخرى أبو بكر بن العربيّ الذي غادر إشبيلية مع والده أبي محمد عبد الله بن العربي متوجهين إلى مصر، وكان ذلك بسبب الظروف القاسية التي شهدتها الأندلس بسقوط الدولة العبادية عام 484هـ على يد المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين⁽¹⁵²⁾. فالعامل الأساسي الذي دفع ابن العربي يبدو جليا من خلال مواضع متفرقة ذكرها في كتابه: (قانون التأويل) حين قال: "فدعت الضرورة إلى الرحلة، فخرجنا والأعداء يشتمون بنا... فخرجنا مكرمين أو قُل مُكرهين"⁽¹⁵³⁾، وزاد محمد السليمانى - محقق كتاب: (قانون التأويل) - في توضيحه لسبب ترك ابن العربي إشبيلية بقوله: "ولم يكذب يبلغ السابعة عشرة من عمره، حتى قدر الله لدولة بني عباد أن تسقط، واستولى المرابطون على إشبيلية، وصادروا أموال أمرائها ووزرائها... فما كان من الوالد إلا أن ترك البلاد مع ولده"⁽¹⁵⁴⁾، إلى غير ذلك من العبارات الدالة على أن رحلة ابن العربي كانت اضطرارية محتمة، لامناص من القيام بها.

وقد عانى الكثير من الأدباء من ظروف قاسية أحاطت بهم أرغمتهم على مغادرة البلاد مكرهين، وهم يحملون وطنهم في قلوبهم، حيث كان للظروف السياسية؛ الداخلية والخارجية أثر بالغ في إقامة الكثير من أعلام الرحلة في أوطان غير الأوطان التي كانت مسقط رأسهم ونشأتهم، والسبب الرئيسي كان تلك الانقلابات والدسائس والمؤامرات والحروب التي شهدتها بلادهم.

2- الدوافع المباشرة

أ- الدافع الديني:

يعد الدافع الديني من أبرز العوامل التي تدفع بالرحالة إلى شد رحاله نحو المشرق الإسلامي مثلهم مثل أي مسلم أتى من كل حدب وصوب لأداء فريضة الحج، قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج-27]

يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ [الحج-27]

⁽¹⁵²⁾ يوسف بن تاشفين: هو أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم الصنهاجي الحميري اللمتوني الربري المثلثم، ويعرف: بأمير المرابطين، ولد بصحراء موريتانيا سنة 400هـ تقريبا وقيل بعد ذلك، حكم المغرب أكثر من خمسين سنة، أنشأ مدينة مراكش وجعلها عاصمة ملكه سنة 465هـ، وحد المغرب الأوسط والأقصى في دولة واحدة من الجزائر إلى طنجة إلى مراكش إلى مايعرف اليوم بدولة مالي، انتصر على النصارى في معركة عظيمة هي الزلاقة سنة 1087/479م. توفي في مراكش عام 500هـ وله بضع وثمانون سنة. ينظر: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (سير أعلام النبلاء)، م.م.س، ص: 252/19، 254. وينظر: ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 222/8

⁽¹⁵³⁾ ابن العربي، (قانون التأويل)، تح: محمد السليمانى، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1990م، ط2، ص: 77

⁽¹⁵⁴⁾ المصدر نفسه، ص: 7

والتي هي - فريضة الحج - واجبة على كل مسلم ما لم يعقه عائق، وقال تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ^ط وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ^ط وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ^ط وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ [آل عمران - 97]، وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن يونس، عن الحسن قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قالوا يا رسول الله ما السبيل؟ قال: «الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ» (155)

كما يقتضي هذا العامل الديني - أيضا - شد الرحال إلى بقاع أخرى كالمسجد النبوي بالمدينة المنورة والمسجد الأقصى بالقدس، ودليل قول النبي ﷺ - والحديث تقدم معنا- «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى» (156)

فالدافع الديني يعتبر من أهم "الجسور والوصلات التي ربطت بين المشرق والمغرب، وعملت على توحيد الثقافة في سائر أنحاء البلاد الإسلامية، على الرغم من المسافات الطويلة والشاسعة التي تفصلها عن الحجاز" (157) والتي لم تستطع أن تكون حائلا بين الرحالة وهذا المكان المقدس؛ وبين هذه المسافات الطويلة تحركت أقلام هؤلاء الرحالة لتدوين كثير من الأخبار والقصص سمعوها في طريقهم، ووصف المشاهدات التي رأوها في سبيلهم، لينتفع بتجارهم سائر المسلمين، ولتساعدهم على أداء مناسكهم. ومن ثم زحرت مؤلفاتهم بأحوال سكان البلاد، وطبيعة مزاجهم، وأسس اقتصادهم، وينايع ثروتهم" (158).

فمن الرحالة الذين كان العامل الديني سببا لخروجهم من وطنهم، ابن بطوطة الذي أخبرنا عن سبب خروجه من مسقط رأسه متجها إلى المشرق في مقدمة كتابه، قال: " كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة

(155) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (تفسير الطبري)، محمود محمد شاكر، وأحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، (القاهرة- مصر)، ط2، ص: 40/7

(156) البخاري، (صحيح البخاري)، م.م.س، [باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة]، الحديث: 1189

(157) ينظر: نوال عبد الرحمن الشوابكة، (أدب الرحلة الأندلسية والمغربية)، م.م.س، ص: 27

(158) ينظر: إبراهيم أحمد العدوي، (ابن بطوطة في العالم الإسلامي)، دارا المعارف، (القاهرة- مصر)، 1954م، د.ط، ص: 8

معتمدا حج بيت الله الحرام...» (159).

وهناك رحالين كثيرون كان شأنهم شأن ابن بطوطة كما هو حال ابن جبير الذي قال قصيدته الشهيرة حين وصل إلى مشارف المدينة المنورة، والتي كان مطلعها:

أَقُولُ وَأَنْسْتُ بِاللَّيْلِ نَارًا لَعَلَّ سِرَّاجَ الْهُدَى قَدْ أَنْارًا
وَالْإِمَامَ بَالُ أَفْقِ الدُّجَى كَأَنَّ سَنَا الْبَرْقِ فِيهِ اسْتِطَارًا
وَنَحْنُ مِنَ اللَّيْلِ فِي حِنْدَس فَمَا بَالُهُ قَدْ تَجَلَّى نَهَارًا (160)

فقد كان دافع خروج ابن جبير ورحلته إلى المشرق، أداء فريضة الحج، فحجَّ وسمع من بعض علماء الشام ثم عاد إلى المغرب، وكان له أكثر من رحلة إلى المشرق.

كما أن بعض الرحالة اتخذ رحلته الحجازية لغاية الوعظ والتعليم والتدريس، "فالرحلات أكثر المدارس تثقيفا للإنسان وإغناء لفكره، وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين، مهما اختلفت دوافعهما وتباينت وسائل السفر وتنوعت مادتها" (161)، وهذا ما فعله عبد الله بن الصَّبَّاح الأندلسي (162) حين يسرد أخبار رحلاته في رحلته المسماة (مُنشَاب الأَخْبَارِ وَتَذَكْرَةُ الأَخْيَارِ) للمسلمين بالأندلس بعد سقوطها في يد النصارى (الإسبان)، فالتعريف بأرض الإسلام، غاية قصده المؤلف بلوغها، لذا فقد عمد صاحب الرحلة إلى التأكيد على بعض المظاهر الإسلامية لتعزيزها في نفوس أبناء بلده من الأندلسيين، وذلك باتباع منهج تعليمي تلقيني، يظهر من خلال كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية والسنة النبوية، والتذكير بواجبات المسلم من صلاة وصوم وزكاة وحج، إضافة إلى تعرضه لبعض القضايا الأخرى، كالجهاد والعبادة، وأيهما أفضل؟ وقضية بقاء المسلم تحت حكم النصارى بالأندلس.

(159) ابن بطوطة، (تُحْفَةُ التَّائِبِ فِي غَرَائِبِ الأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الأَسْفَارِ)، تح: محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، (بيروت- لبنان)،

1407/1987م، ط1، ص: 33/1

(160) لسان الدين بن الخطيب، (الإحاطة في أخبار غرناطة)، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، (القاهرة- مصر)، 1394هـ/1974م، ط1، ص:

335/2

(161) ينظر: نوال عبد الرحمن الشوابكة، (أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، م.م.س، ص: 30

(162) ابن الصَّبَّاح الأندلسي: هو عبد الله بن صباح الأصبحي، لا نجد له ذكر في كتب التراجم، ينتمي إلى قبيلة عربية قحطانية من الجنوب هي قبيلة الصباحين اليمانية، وهي إحدى القبائل التي دخلت الأندلس عند فتحها في نهاية ق7/1م. وهو من سكان المرية واستمر بالإقامة بها حتى سقوطها عام 895هـ. ينظر: جمعة شيخة، (بعض المظاهر الدينية في رحلة عبد الله بن الصَّبَّاح الأندلسي)، مجلة دراسات أندلسية، العدد: 12، 1415هـ/1994م، (تونس)

ص: 36

كما لا تخلو رحلة ابن صباح من فوائد كثيرة تتعلق بالعمران والاقتصاد، إضافة إلى تقديم صورة عن المستوى الثقافي السائد في القرن التاسع الهجري.

فالدافع الديني - إذن - كان أبرز الدوافع التي تحث الرحالة على التزوح نحو الشرق بصفة مستدامة، وهذا ما نلاحظه بكثرة عند أشهر الرحالة، ولاسيما المغاربة كالعبدري وابن بطوطة وابن جبير.

ب-الدافع العلمي (الثقافي):

ما هو ملاحظ أن هذا الدافع مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدافع الذي سبقه (الدافع الديني)، لأن الدين الإسلامي نفسه يدعو إلى طلب العلم والرحلة في سبيله، كما ورد في حديث النبي ﷺ: «... وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» (163)

كما أن الإسلام مجد العلماء، ورفع من شأنهم، وقدس مكانتهم؛ واعتبرهم أقرب الناس للأنبياء حتى أنهم أصبحوا ورثتهم في الأرض، كما جاء في حديث الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» (164)، والدليل من القرآن على عظمة منزلت العلم والعلماء، قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَدْشُرُوا فَأَدْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة - 11]

فقد كانت رحلة الحج إحدى السبل التي لجأ إليها الرحالة بغية طلب العلم وملافاة العلماء والفقهاء ومحاورتهم والاستفادة منهم، إضافة إلى زيارة المراكز العلمية، وتسجيل أسماء مشايخهم، ومروياتهم، والترجمة لعدد كبير منهم، مما أضحت الصبغة العلمية على رحلاتهم، فغدت كتباً علمية أدبية.

(163) محمد بن صالح العثيمين، (شرح الأربعين النووية)، دار الفرياء للنشر، (عنيزة- المملكة العربية السعودية)، 1425هـ/2004م، ط3، ص: 384
(164) محي الدين أبو زكريا بن شرف النووي، (رياض الصالحين)، تح: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، (دمشق- سوريا)، 1412هـ/1992م، ط1، ص: 479

وهناك رحلات كان غرضها الأول طلب العلم والجلوس بين يدي أهله، في أي وطن من الأوطان، أي أن العلم ضرورة لازمة في الرحلة، كما يقول ابن خلدون: "إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، وذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعلماً وإلقاءً، وتارة محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً، وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها"⁽¹⁶⁵⁾. فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد ومباشرة المشايخ وأهل العلم.

وتحدثنا كتب الرحلات وغيرها، عن العديد من الرحالين الذين ارتحلوا في سبيل العلم،"الذين كانوا يقطعون البراري والصحاري القفار، ويلقون في سبيله المعاطب والأخطار، وكانوا يجوعون في سبيله ويعرون، ويظمأون ويضحون، لا يشتكون الفاقة والنصب، ولا يعدون الراحة إلا للتعب"⁽¹⁶⁶⁾

ويكفي أن نشير في هذا الصدد العلمي إلى بعض الرحالة الذين كانوا متعطشين للقاء العلماء والمشايخ في أي بلد يحيطون به، أمثال خالد بن عيسى البلوي الأندلسي⁽¹⁶⁷⁾ (ت765هـ)، فقد كان في شوق دائم إلى لقاء العلماء حيثما حل يسرع للبحث عنهم، من ذلك ما قاله عند دخوله القسطنطينية: "وبادرت إلى لقاء الفضلاء، ومباحثة النبلاء، أجتلي وأجتني ولا أجتنب وأنا والطرس في ملأ أنتقي منهم وأنتخب..."⁽¹⁶⁸⁾

⁽¹⁶⁵⁾ عبد الرحمن ابن خلدون، (مقدمة ابن خلدون)، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، (دمشق- سوريا)، 1425هـ/2004م، ط1، ص: 358/2

⁽¹⁶⁶⁾ محمد البشير الإبراهيمي، (آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي)، تقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، 1997م، ط1، ص: 216

⁽¹⁶⁷⁾ خالد بن عيسى البلوي: هو أبو البقاء خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي القتوري، ولد بقتورية، من قرى المرية بالأندلس عام 713هـ، درس القراءات السبع على اثني عشر شيخاً، وتولى القضاء بمرشانة، أما وفاته فقد جعلها بعضهم سنة 765هـ. ينظر: البلوي، (تاج الفرق في تحلية علماء المشرق)، تح: الحسن السائح، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، (فاس- المملكة المغربية)، 1964م، ص: 3. وينظر: أحمد بن أحمد بن محمد

المقري، (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، تح: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت- لبنان)، 1408هـ/1988م، ط1، ص: 532/2

⁽¹⁶⁸⁾ البلوي، (تاج الفرق)، م.م.س، ص: 21

كما أخذ يجوب عواصم الأندلس بحثاً عن الشيوخ والعلماء، ثم انتقل إلى غرناطة ثم مالقة، كما ارتحل إلى تلمسان وتونس والإسكندرية والقاهرة، والقدس، ثم عاد إلى مسقط رأسه قاتورية، ليتم كتابه في كتابه: (تأجُ المَفرِقُ في تحلِية أهلِ المَشرِقِ).

وأما العلوم التي سيطرت عليها الرحلات الجزائرية في العهد العثماني، هي العلوم الدينية واللغوية بالدرجة الأولى، أما باقي العلوم الأخرى كالفلك والرياضيات والطب وغيرها، فقد كان الاهتمام بها أقل، ولم نجد لها صورة واضحة إلا في بعض الإشارات ككتاب: (رَوْضَةُ الأزهار) في الفلك لابن حمادوش الجزائري.

كما نجد عاشور بن موسى القسنطيني⁽¹⁶⁹⁾ (ت1087هـ) الذي شد الرحال طالباً للعلم في رحلة دامت عشرين سنة قضاها متنقلاً بين بلدان مختلفة، "فقد جال في ملك الله إلى أن توغل في أرض السودان، ولقي بها أجلة من علماء، وعندما رجع إلى بلاده، أخبر بغرائب ما شاهد، وعجائب ما رأى وما أخذ من أولئك العلماء، وأرباب الأسرار وحصل منهم فن القراءات، وجانباً عظيماً من الأدب"⁽¹⁷⁰⁾

إذن فالرحلة في طلب العلم تحتل أهمية كبيرة، وتشكل سمة بارزة في حياة الرحالين، فهي تؤكد على التواصل العلمي والفكري والثقافي والاجتماعي، فالمصادر والمؤلفات الرحلية نجدها تزخر بأخبار وأسماء عدد كبير من الرحالين الذين كانوا يطلبون العلم في أي فج وفي أي قطر من العالم، وجلّ أمنيتهم كانت الجلوس بين يدي العلماء والأخذ عنهم في جميع مجالات العلوم.

ج-الدافع السياسي:

يندرج تحت الدافع السياسي عدة عوامل كالجانب الإداري، والجانب الأمني، وجانب السفارة:

1. جانب إداري:

فالجانب الإداري يتمثل في الرحلات الرسمية التي يقوم بها الرحالة بطلب من الحاكم لقضاء حاجة قد تتعلق بشؤون الدولة "كمعرفة الطرق والأقاليم ونظام البريد والمواصلات، وقد ألفت في هذا

⁽¹⁶⁹⁾ عاشور بن موسى القسنطيني: ويعرف ب: الفكريين، كان والده من علماء قسنطينة، تنقل كثيرا في الأرض، فدخل السودان وتونس وتولى وظائف التدريس، أما وفاته فقد أدركته المنية مهاجرا في مكة المكرمة عام1087هـ. ينظر: أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي 1500 - 1830م)،

م.م.س، ص: 430/2

⁽¹⁷⁰⁾ المرجع نفسه، ص: 43/2

المجال كتب عديدة لعل أشهرها كان: (المسالك والممالك) لابن حوقل (ت367هـ)، و(أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي (ت390هـ)، و(نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للإدريسي (ت560هـ) وغيرها⁽¹⁷¹⁾

2. جانب أمني:

والجانب الأمني يكون إما بهدف الفتوحات وبسط السيطرة على الرقعة المراد فتحها، وإما بهدف التحسس والاستطلاع "كرحلة سلام الترجمان عام 227هـ/841م، والتي كانت بتكليف من الخليفة الواثق بالله، قصد البحث عن سد الصين الكبير"⁽¹⁷²⁾. أو قد يتمثل أيضا في طلب العون والامدادات من دول مجاورة صديقة إما بسبب الجوع والجفاف أو بسبب التعرض للغزو الأجنبي كإرسال الخليفة الغني بالله⁽¹⁷³⁾ لسان الدين ابن الخطيب سفيرا إلى المغرب يستنجد بأبي عنان المريني⁽¹⁷⁴⁾ (ت759هـ)، طالبا منه مددا لحرب النصراري في الأندلس، فأنشده لسان الدين ابن الخطيب قصيدته وهو قائم:

خَلِيفَةَ اللَّهِ سَاعَدَ الْقَدْرُ عُنَاكَ مَا لَاحَ فِي الدُّجَى قَمَرُ
وَدَفَعْتَ عَنْكَ كَفُّ قَدْرَتِهِ مَا لَيْسَ يَسْتَطِيعُ دَفْعَهُ الْبَشَرُ
وَجْهُكَ فِي النَّائِبَاتِ بَدْرُ دُجَى لَنَا وَفِي الْمَحَلِّ كَفُّكَ الْمَرُ

فما كان من سلطان المغرب إلا أن قال له: "ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم"⁽¹⁷⁵⁾

⁽¹⁷¹⁾ ينظر: إسماعيل زردومي، (فن الرحلة في الأدب المغربي القديم)، جامعة الحاج لخضر (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، باتنة-الجزائر)، 2005م، ص: 21

⁽¹⁷²⁾ شوقي صيف، (الرحلات)، م.م.س، ص: 9

⁽¹⁷³⁾ الغني بالله: هو الخليفة الأندلس محمد الخامس بن يوسف الأول، ولي الملك بعد أبيه. ينظر: أحمد بن محمد المقرئ، (نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، تح: إحسان عباس، م.م.س، ص: 321/1. وينظر: لسان الدين بن الخطيب، (الإحاطة في أخبار غرناطة)، تح: محمد عبد الله عنان، م.م.س، ص: 13/2

⁽¹⁷⁴⁾ أبو عنان المريني: هو فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، أبو عدنان، المتوكل على الله: من ملوك الدولة المرينية بالمغرب. ولد بفاس الجديدة (المدينة البيضاء) ونشأ محبوبا في قومه، لفضله وعلمه، وولاه أبوه إمارة " تلمسان " ثم ثار على أبيه، وبويع في حياته سنة 749 هـ ولما مات أبوه سنة 752 هـ استتب أمره، فبدأ بإخضاع بني عبد الواد (وكانوا أمراء زناتة، بتلمسان) فقاتلوه فظفر بهم ودخل تلمسان. وانتظم له أمر المغرب الأوسط.

توفي عام 759هـ. ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 128، 127/5

⁽¹⁷⁵⁾ ينظر: المقرئ، (نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، م.م.س، ص: 98، 99/5

3. جانب سفاري:

وجانب السفارة هو نوع من الرحلات الرسمية، يوكل بها الرحالة من قبل الحاكم، ورسالة يتنافس في أدائها من يكلفون بها، فقد كانت السفارات لا تنقطع بين الدول الإسلامية وما جاورها من الدول الغير الإسلامية، بقصد الصلح وفك الأسرى، أو لتصفية الأجواء السياسية، وقد تكون وليدة علاقات دبلوماسية لربط العلاقات السياسية، وليس هذا وحسب، بل لعبت دورا ملحوظا في توسيع نطاق المعلومات الجغرافية⁽¹⁷⁶⁾. ولاسيما مع ألمانيا والسويد والبرتغال والكثير من الدول، وكان كلا الطرفين حريصا على اختيار سفراء ذوي ثقافة عالية، وحنكة ودهاء وذكاء وفتنة، فكان عاملا مهما من العوامل التي تساعد على إنجاز المساعي التي يقومون بها، إلى جانب التقارب الثقافي بين الطرفين من خلال إعجاب الملوك بثقافة من يفد إليهم من هؤلاء السفراء، وخاصة أن بعض هؤلاء السفراء كان يقيم مدة طويلة في بلاط الملك الذي ينتدب إليه⁽¹⁷⁷⁾.

ولعل أكثر هذه السفارات شهرة، تلك التي قام بها البيروني(ت440هـ) إلى بلاد الهند من قبل السلطان محمود الغزنوي، وقد أثمرت عن معرفة شاملة ومباشرة بأحوال الهند الثقافية والبشرية والدينية كما ظهرت في كتابه"- المذكور سابقاً-(تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة). وأيضا رحلة ابن فضلان والتي كانت رحلة سياسية تعليمية، "بطلب من ملك الصقالبة بعد إسلامه إلى الخليفة العباسي يسأله أن يرسل إليه من يفقه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام ويبيني له مسجدا..."(178)

وكذلك ابن بطوطة الذي عُرف برحلته الدينية، لغرض أداء مناسك الحج ولكن رغبته في السفر جعلته يواصل الرحلة بعد فريضة الحج، لينتخاره سلطان الهند كسفير له في الصين، يقول: "بعث إلي السلطان خيلا مسرحة وجواري وغلما ووثابا ونفقة، فلبست ثيابه وقصيدته ... ولما وصلت إلى السلطان زاد في إكرامي على ما كنت أعهدده، وقال لي: إنما بعثت إليك لتتوجه عني رسولا إلى

⁽¹⁷⁶⁾ إغناطيوس كراتشكوفسكي، (تاريخ الأدب الجغرافي)، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، م.م.س، ص:151/1

⁽¹⁷⁷⁾ جزار صلاح، (زمان الوصل)، المؤسسة العربية لدراسات والنشر، (بيروت- لبنان)، دار الفارس للنشر (عمان)، 2004م، ط1، ص: 23، 24

⁽¹⁷⁸⁾ ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 164

ملك الصين، فإني أعلم حبك للأسفار والجولان. فجهزي بما أحتاج له...»⁽¹⁷⁹⁾ فقد كانت رحلته ذات دافع ديني في الوهلة الأولى لتشمل بعد ذلك جانبا إداريا علميا.

ولا شك في أن هذه السفارات كانت كثيرة بين الخلافة الإسلامية والدول المجاورة وهي باقية حتى يومنا هذا. كما أن جميع هذه الجوانب الثلاثة كانت تشترك في كونها تقوم على طلب من حاكم الدولة، بحسب الظروف والأوضاع التي تفرضها البلاد.

د- الدافع الاقتصادي:

ويبدو أن التجارة كانت الجانب الأبرز في هذا العامل، فمنذ قديم الزمان كانت التجارة تقتضي القيام بسفر من أجل تأمين سبل العيش والكسب، سواء كان السفر في البر أم في البحر، فالموقع الاستراتيجي الذي كانت تحتله البلاد العربية وكونها مركزا لالتقاء الطرق التجارية بين القارات، شجع العرب على ممارسة الترحال من خلال ما سمي برحلي الشتاء والصيف⁽¹⁸⁰⁾؛ قال تعالى:

﴿إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [فريش - 2]، كما أبحرت سفنهم في مياه المحيطات

الكبرى؛ قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ

كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء - 66]، قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في

تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيلها لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى

إقليم؛ ولهذا قال: ﴿كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: إنما فعل هذا بكم، من فضله عليكم، ورحمته

بكم»⁽¹⁸¹⁾.

ولعل أهم شخصية بارزة في هذا الجانب هو سليمان التاجر رائد الرحلات البحرية في العالم العربي، فهو لم يكن فلكيا أو جغرافيا أو سفيرا أو أميرا، وإنما كان تاجرا، اعتاد السفر إلى الهند والصين لجلب مختلف السلع والمنتجات التي تنتج أو تباع في هذه البلدان، وعرضها في أسواق

⁽¹⁷⁹⁾ ابن بطوطة، (مُحَقَّةُ النَّاطِرِ فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ)، م.م.س، ص: 541/2

⁽¹⁸⁰⁾ نوال عبد الرحمن الشوابكة، (أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، م.م.س، ص: 46

⁽¹⁸¹⁾ ابن كثير، (تفسير القرآن العظيم)، تح: سامي بن محمد السلامة، م.م.س، ص: 95/5

الأقطار العربية خاصة العراق، وكان سبيله إلى ذلك السفر بحرا، يبدأ من الخليج الفارسي إلى المحيط الهندي وشرقا إلى المحيط الهادي.

ولعل الأهم من هذا كله أن سليمان لم يفعل كما تعود التجار أن يفعلوا بأن يقصوا قصصهم ومشاهداتهم على ذويهم، "ولكنه دون جميع أخبار رحلاته في مذكرات عام 237هـ، احتفظ لنا بها أبو زيد السيرافي في كتابه (سلسلة التواريخ) ومن بعده المسعودي في (مروج الذهب)" (182).

كما اشتغل كثيرون من الرحالة بالعلم والتعليم أثناء رحلاتهم التجارية، مثل: "موفق الدين عبد اللطيف ابن يونس البغدادي (ت 629هـ) الذي اشتغل في دمشق بالعلم وإقراء الناس بالجامع الأموي، وفي القاهرة بإقراء الناس بالجامع الأزهر" (183)

فالتجارة كانت أهم عامل دفع الرحالة إلى تدوين رحلاتهم حتى يعين القارئ على معرفة طرق التجارة البرية والبحرية، ولعل أول ما ارتبطت به الرحلات، علم تقويم البلدان والمسالك والممالك لوصف الطرق، والمناخ، والعديد من الأمور الأخرى، مثل معرفة الطرق إلى مكة للقيام بفريضة الحج، وتسهيل عملية التجارة في مختلف البلدان والبقاع. يقول حسن زكي محمد: "...والحق أن ازدهار الحضارة الإسلامية، وسيادة المسلمين في البر والبحر، وطبيعة الدين الإسلامي، كل ذلك من شأنه أن يشجع على الأسفار والرحلات..." (184)، فكانت التجارة في موسم الحج ضرورة من ضرورات الحاج والمسافر، إذ لا بد من الحصول على موارد مالية لتغطية نفقات الرحلة، فقد تتجاوز الرحلة المدة المحددة لها.

وفي إطار هذه الدوافع التي دعت إلى القيام بالرحلة، هناك دافع آخر يجدر التلميح إليه، وهو حب الترحال والأسفار أو ما يسمى بالدافع السياحي، لا لشيء، إلا لأجل الاطلاع ورغبة في اكتشاف المجهول والأصقاع، والابتعاد عن المألوف.

(182) ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 98

(183) حسين نصار، (أدب الرحلة)، الشركة العالمية للنشر، (القاهرة- مصر)، 1991م، ط1، ص: 11

(184) حسن زكي محمد، (الرحالة المسلمون في العصور الوسطى)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، (القاهرة- مصر)، 2013م، د.ط، ص: 1

إذن فقد تعددت دوافع الرحالة وتداخلت لتأتي جملة متكاملة من العوامل، تأتلف ليجتمع بعضها، كاجتماع العامل الديني مع العامل العلمي، أو العامل الديني مع الاقتصادي، أو العامل السياسي مع العلمي أو... فهي وإن تعددت، فقد جاءت نسقا متكاملًا يلتقي مع كل النشاطات الإنسانية، التي تشكل الحضارة بكل أبعادها.

ثانياً: تدوين الرحلات:

1- الرحلة والكتابة:

التدوين مرحلة حضارية ينتقل فيها الإنسان من الاعتماد على الذاكرة إلى الكتابة، وعلى مر التاريخ أجريت الكثير من الرحلات ولكن المؤسف منها أنه لم تدون من جملتها سوى القليل، فالكثير من الرحالين كانوا يرون مشاهداتهم، والقلة هي التي دونت ما شاهدت بأقلامها، وفي عصر الفتوحات الإسلامية كثرت الرحلات المدونة وتعددت، مدفوعة إلى ذلك بالحاجة إلى معرفة المسالك والأقاليم؛ وذلك بعد أن اتسعت رقعت الدولة الإسلامية بسبب الفتوحات، "فأصبحت الرحلات تتوالى واصفة المسالك والممالك بين الدول، كما ظهرت حاجة أخرى دينية تمثلت في رسم الطرق التي تؤدي بالمسلمين إلى الأماكن المقدسة، خاصة مكة المكرمة لأداء فريضة الحج لتسهيل مشقة الطرق في سبيل أداء هذه الفريضة"⁽¹⁸⁵⁾.

ولنا هنا أن نتساءل عن طرق تدوين الرحلات المتبعة، فهل كانت تكتب الرحلات جملة واحدة بعد انتهاء الرحلة؟ أو أنها تكتب من خلال مذكرات يومية يكتبها الرحالة على نية الرجوع إليها والانتخاب منها؟. وإذا كان الرحالة يزور بلدانا وأما. فيتعرف من خلال رحلته هذه على مختلف مظاهر البلاد التي زارها (الدينية والاجتماعية والثقافية)، فما أهمية تدوينه لهذه الرحلة؟ أو بعبارة أخرى، ما الذي يدفع الرحالة إلى سرد أحداث رحلته ونقلها إلى القارئ؟

لقد اتخذ تدوين الرحلات طرقاً عدة؛ فكتب أكثرها بصورة ملاحظات أو تعليقات أو أوصاف دونت أثناء الرحلة (رحلات كتبت في السفر)، كما دونت بعض الرحلات على هيئة أحداث يومية؛ تعتمد التوثيق اليومي للأحداث، واتفكاً البعض الآخر ممن كتب الرحلات على تدوين

⁽¹⁸⁵⁾ ينظر: شوقي ضيف، (الرحلات)، م.م.س، ص: 8,9

اللاحق للمشاهد والأحداث؛ فلم تكن كتابتها متزامنة مع أحداث الرحلة بل كتبت فيما يتخلل الرحلة من أوقات الراحة. ويمكن تقسيم طرق التدوين إلى ثلاثة أقسام هي:

أ/- **رحلات كتبت في السفر:** كان بعض الرحالة يكتبون ما يشاهدونه ويعاينونه أثناء أسفارهم منذ اليوم الأول، فهذا رفاعه الطهطاوي يعلن "أنه ما إن ودع أقاربه ومحبيه في القاهرة، عصر يوم الجمعة ثامن يوم من شعبان سنة واحد وأربعين ومائتين بعد الألف من الهجرة/1826م حتى راح وهو على ظهر النيل يعدُّ نفسه لتدوين ملاحظاته أثناء رحلاته"⁽¹⁸⁶⁾

ونفس الشيء ينطبق على بولس الأنطاكي، الذي دون رحلته منذ اليوم الأول ولم ينقطع عن ذلك إلا بعد رجوعه إلى أرض الوطن، كما يصرح بذلك كراتشكوفسكي في قوله: "بدأ بولس تسجيل مدوناته منذ اليوم الأول للرحلة..."⁽¹⁸⁷⁾

ب/- **رحلات كتبت من المذكرات:** إذ يعتمد فيها الرحال إلى تسجيل ما يمكن أن يفوته، على أن يتم التدوين النهائي بعد اكتمال الصورة الذهنية للرحلة، وقد تكون الرحلة كلها عبارة عن مذكرات، أو ذكريات قريبة من السيرة الذاتية، وفي هذا الحال ربما قد تعرض الأحداث من منظور ذاتي، وقد يتأخر تدوين أخبار الرحلة بعد السفر بزمن، كمحمد بن علي التَّجِيبي السبتي⁽¹⁸⁸⁾ (ت730هـ) يشير إلى أحداث وقعت سنة 704هـ مع أن الرحلة كانت سنة 696هـ.

ج/- **رحلات كتبت من الذاكرة (بعد السفر):** اعتمد بعض الرحالة على الذاكرة في كتابة رحلاتهم، فتكون إما مروية شفها كما حصل مع أبو دُلف وابن بطوطة، يقول كراتشكوفسكي عن أبي دلف: "...إنه قد ثبت أن روايته لا تمثل يوميات أو وصفا للطريق، بل تم تدوينها من الذاكرة، وبعد مدة طويلة من حدوث الرحلة على ما يظهر"⁽¹⁸⁹⁾. وهذا ما ينطبق على ابن بطوطة الذي سرد تفاصيل رحلته حتى يدونها ابن جزى الكلي عام 755هـ.

⁽¹⁸⁶⁾ ينظر: حسين نصار، (أدب الرحلة)، م.م.س، ص: 59

⁽¹⁸⁷⁾ نفس المرجع، ص: 59. وينظر: إغناطيوس كراتشكوفسكي، (تاريخ الأدب الجغرافي)، م.م.س، ص: 786/2

⁽¹⁸⁸⁾ التَّجِيبي: هو القاسم بن يوسف بن محمد بن علي التَّجِيبي السبتي، ولد بسبته سنة 1271هـ/1271م، ونشأ فيها، وحفظ القرآن بقراءته المختلفة، ودرس كتب التفسير والحديث الشريف وعلومه المختلفة، والفقه والتصوف، وعلوم العربية على مشايخ بلده. توفي سنة 1329هـ/1329م. ينظر: علي

إبراهيم كردي، (أدب الرحل في المغرب والأندلس)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، (دمشق - سوريا)، 2013م، د.ط، ص: 58

⁽¹⁸⁹⁾ حسين نصار، (أدب الرحلة)، م.م.س، ص: 62. وينظر: إغناطيوس كراتشكوفسكي، (تاريخ الأدب الجغرافي)، م.م.س، ص: 62/1

ولكن لا يخفى ما قد تتعرض إليه الذاكرة في أكثر الأحيان من الخلط والنسيان على الرغم من قوة الحافظة التي اشتهر بها علماء العرب، وقد يتسرب إليها الخطأ، وقد اعترف الهروي بذلك في قوله: "زرت أماكن ودخلت بلاداً من سنين كثيرة، وقد نسيت أكثر ما رأيته، وشدت عن أكثر ما عاينته..." (190).

ولعل من أبرز مزايا هذه الطريقة أنها تمنح الرحالة فرصة أكبر للتنسيق والتنظيم، خاصة في التسلسل التاريخي على خلاف الرحلات التي تلتزم بما دونه الرحالة أثناء أسفاره.

2- الرحلة والكاتب (المؤلف):

من خلال ما سبق تبين لنا أن الرحلات دونت من قبل فاعليها، أو من غيرهم كما هو في التفصيل الموالي:

أ- رحلات كتبت من قبل مؤلفيها:

في غالب الأحيان يشير المؤلفون في مقدمات رحلاتهم إلى تاريخ بدء التدوين والانهاء منه، كما نجد ذلك عند العبدري، والعياشي وغيرهم.

ب- رحلات كتبت أو نسقت من غير فاعليها:

وهذا ما فعله ابن جزي مع رحلة ابن بطوطة، حيث أضاف إليها ما رآه مناسبا من جماليات فنية، وتراجم وتفسيرات للألفاظ، وأمثلة لغوية وحكاية (191)، وكذلك رحلة ابن رُشيد السبتي (192) فرغم أن صاحبها حرص على تدوين الكثير من أخبارها أثناء سفره وتحواله، إلا أنه لو لا اعتناء عبد المهيمن الحضرمي (193) بها وتبعه لفوائدها وأخبارها، لما عرفت الشهرة التي شهدتها، وكان لها شأن آخر ومصير مختلف، ولقد تحدث ابن رُشيد عن دور الحضرمي في تنقيح الرحلة وإخراجها

(190) ينظر: حسين نصار، (أدب الرحلة)، م.م.س، ص: 62

(191) ينظر: الطائع الحدادي، (النص الواصف لابن جزي - صيغة الخبرية وأماطه الخطابية-)، دراسات مغاربية، مجلة البحث والبيبلوغرافيا، جامعة الحسن الثاني، (المحمدية- المغرب)، 1999م، العدد: 10، ص: 3

(192) ابن رشيد السبتي، هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن محمد بن إدريس بن سعيد بن مسعود بن حسين بن محمد بن عمر بن رُشيد الفهري السبتي، ولد بمدينة سبتة في رمضان من سنة 657هـ / 1259م، وتوفي بمدينة فاس في الثالث والعشرين من محرم سنة 721هـ / 1321م. سمي رحلته: (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجهة إلى الحرمين مكة وطيبة)، وهي في سبعة أجزاء، طبع منها الثاني والثالث والخامس، وما تبقى مازال قيد التحقيق عدا الجزء الأول الذي ما زال مفقوداً، كما ترك ابن رُشيد عدداً من المؤلفات في العلوم المختلفة كالنحو والبلاغة والعروض والتراجم والفقه والفهارس والأسانيد. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 314/6.

(193) عبد المهيمن الحضرمي: هو عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن محمد الحضرمي، ولد سنة 676هـ، شارك أستاذه ابن رُشيد في كثير من شيوخه في المغرب والمشرق كابن منظور وابن الدارج وابن النحاس، توفي سنة 749هـ. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 169/4

حين قال: "واعتنى باكتسابها لنفسه واكتتابها، ولم يحملها أحد عني كما حملها... ولو لا عزمه في تخليصها ما خلصتها ولا خرجتها ولا أظهرتها لعدم الراغب وقلة الطالب" (194).

ج/- رحلات لم يخطط لها الكتاب لكنهم شاركوا فيها: مثل ما فعل ابن الحاج النميري (195) الذي صاحب السلطان أبا العنان المريني إلى قسنطينة فسجل رحلتها بعنوان: (فيضُ العباب وإفاضة قدام الآداب في حركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب)

3- الرحلة ومنهج التدوين:

إن منهج تدوين الرحلة يقودنا إلى السؤال عن كيفية ترتيب مواد الرحلة، أهو تسلسل زمني؟ أم تسلسل مكاني؟ أم تسلسل موضوعي؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة يمكننا تقسيم مناهج الرحلة في تدوين رحلاتهم إلى:

أ/- التسلسل الزمني:

يحدد فيه الرحال بداية الرحلة ونهايتها، وقد يقسم رحلاته إلى وحدات زمنية معتمدا على اليوم، أو الأسبوع، أو الشهر... (196) وفي هذا الإطار إما أن يعنون الفصل بالزمن أو يذيله به، وربما قدم الرحلة ما حقه التأخير زمني أو آخر ما حقه التقديم لضرورة اقتضته، منبها على ذلك، كأن يورد مشهدا وقع له في رحلة أخرى كانت بعد الرحلة التي أوردتها، لكن مقام القول والإخبار ألزمه تقديمه أو العكس.

ومن أمثلة الرحلات التي خضعت للترتيب الزمني رحلة التجاني (197) الذي حرص على تسجيل الأيام تسجيلا دقيقا، حتى إننا نستطيع أن نحسب أيام كل فترة قضاها في مكان ما، وهو يشير إلى زمن الرحلة في بداية المرحلة أو في آخرها أو في ثناياها.

(194) ابن رُشيد السبي، (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجبهة إلى الحرمين مكة وطيبة)، تح: محمد الحبيب خوجة، الدار التونسية للنشر، تونس)، 1402هـ/1982م، د.ط، ص: 4/6

(195) ابن الحاج النميري: هو أبو القاسم، برهان الدين إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أسد بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز الثميري الغرناطي المعروف "بابن الحاج". ولد سنة 713هـ. كان كاتب السلطان أبي عنان المريني، مؤلفاته كثيرة جدا نذكر بعض منها: (إفاضة الكرام بأخبار المنام)، (الزهرة وإجالة النظرات)، إضافة إلى رحلته المسماة، (فيضُ العباب)، أما وفاته في بعد 774هـ. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 49/1. وينظر: ابن الحاج النميري، (فيضُ العباب وإفاضة قدام الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب)، تح: محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1990م، ط 1 ص: 24، 25.

(196) ينظر: ناصر عبد الرزاق المواقف، (الرحلة في الأدب العربي - حتى نهاية القرن الرابع الهجري-)، م.م.س، ص: 64

(197) أحمد التجاني: هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، من قبيلة تجان من قبائل المغرب الأقصى، ولد عام 670هـ. اهتم عبد الله التجاني باقتناء الكتب المختلفة النادرة، وورث عن عائلته التي عرفت بالعلم مجموعة قيمة منها فكان يعود إليها وينقل عنها. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 324/5.

أما بعض الرحالة فقد اهتموا بذكر الساعات فضلا عن الأيام مثل: ابن هطال التلمساني في كتابه المعنون تحت: (رحلة محمد الكبير - باي الغرب الجزائري الى الجنوب الصحراوي الجزائري)⁽¹⁹⁸⁾

ب/- التسلسل المكاني: يحدد فيه الرحال التسلسل المكاني للرحلة من خط البداية إلى خط النهاية، وهو ما يسمى عند القدامى بمراحل الطريق، إلا أن هناك أماكن تشغل أهمية الرحال أكثر من مكان آخر، فيكون له نصيب أكبر في التدوين، ويمكن في تعامله مع هذا المكان أن يصفه وصفا ذاتيا، مع تدعيمه بمشاهدات وأوصاف غيره من الرحالين والمؤرخين والأدباء.

وأهم اتجاهات التدوين المكاني:

- إتباع التسلسل الطبيعي أثناء الرحلة، من خلال الوحدات المكانية الصغيرة.
 - إتباع التقسيمات السياسية، ووصف كل دولة أو مملكة على حدة مع اتباع خط السير حيناً وإغفاله أحياناً.
 - الاختيار الداخلي، وذلك باتباع طريقة التدوين المكاني مع التركيز على موضوع بعينه في كل مكان يحلّه الرحال: كالصناعة، أو المرأة، أو الثقافة... إلخ
- وقد يختلط الترتيب المكاني مع الزمني، فيخصص ذكر يوم واحد لزيارة مكان معين. ومن الرحلات التي اعتمدت على التسلسل المكاني رحلة الغزّال المسماة: (نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد)، وكذلك هناك رحلة العياشي، ورحلة الورتيلاني، إلا أن رحلتها ممزوجة ببعض الموضوعات.

ج/- التسلسل الموضوعي: ويقوم على اختيار موضوعات معينة تخص لقاء ما مع أحد الملوك، أو وصف لبلد أو مكان معين... ويمكن أن يراعي في ذلك التسلسل الزمني أو المكاني، وقد يندرج تحت هذه الموضوعات الأساسية موضوعات فرعية أخرى⁽¹⁹⁹⁾.

وينظر: أحمد النجاني، (رحلة النجاني)، تح: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، (ليبيا، تونس)، 1981م، د.ط، ص: مو. وينظر: علي إبراهيم كردي،

(أدب الرحل في المغرب والأندلس)، م.م.س، ص: 40

⁽¹⁹⁸⁾ ابن هطال التلمساني، (رحلة محمد الكبير - باي الغرب الجزائري الى الجنوب الصحراوي الجزائري)، تح: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر

اللسلسلة، (بيروت - لبنان)، 2004م، ط1، ص: 1

⁽¹⁹⁹⁾ ينظر: ناصر عبد الرزاق الموافي، (الرحلة في الأدب العربي)، م.م.س، ص: 65، 66

وقد خضعت معظم الرحلات إلى "عمليات تدقيق وتهذيب قام بها كتابها في أثناء أسفارهم أو بعد الفراغ منها"، ولكن بعضا منها قد وصلنا كما دون في المرحلة الأولى، دون أدنى تبييض أو تنقيح؛ حيث أن بعض الرحلات يكثر فيه تكرار الألفاظ والأحداث، كما هو الحال في رحلة ابن الجيعة⁽²⁰⁰⁾ بعنوان: (القول المستظرف في سفر مولانا الأشرف).

كما تنوعت طرق جمع معلومات الرحلة بين: المشاهدة والمعينة والنقل من المقروء أو المسموع، وقد صرح بذلك كثير من الرحالين، حيث أنه قد سمع ورأى، وحدث عما شاهد من المدن والقرى، ووصف جميع ما رأت عيناه، وإلى جانب الرؤية والمشاهدة تأتي رواية الأخبار عن طريق السماع في الدرجة الثانية⁽²⁰¹⁾.

وقد لا يكتفي الرحال بالخبر المسموع فيذهب للتحري والاستقصاء من مذاهب شتى، فإن لم يستطع التأكد من صحة الخبر، أخرج مخرج الشك لا مخرج اليقين، "فالحركة المهيمنة للأفعال في الرحلة تتراوح بين أفعال اليقين المتضمنة للأحكام والرؤية والمشاهدة في صياغات تقريرية تأكيدية... وبين الأفعال الاحتمالية التي يتوخاها الراوي حتى يتسنى له الحديث بشكل افتراضي يقول من خلاله ما يعجز عن تأكيده فيتركه في منطقة الاحتمال والافتراض والشك، وعادة ما تأتي هذه الجمل ذات حمولة أدبية رقيقة غير جافة..."⁽²⁰²⁾

4- الرحلة ومباني النص:

لكل نص في بناؤه الخاص، "فالنص الرحلي يبني تارة على عرض مشاهد منتقاة يُصورها الرحالة كما يراها.. وتارة يعكف على تدوين أخبار متنوعة، قد يكون لها صلة بالسبب الذي جعل الرحالة يشد الرحال، فينبري إما واصفا، أو محللا، أو معبرا عن رؤية معينة استلهمها من خصوصية رحلته"⁽²⁰³⁾

ولنصوص الخطاب الرحلي مجموعة من الأبنية، يمكن إجمالها بمايلي:

⁽²⁰⁰⁾ ابن الجيعة: هو يحيى بن شاکر بن عبد الغني بن الدين ابن الجيعة، أصله من دمياط، ومولده ووفاته بالقاهرة، من مؤلفاته: (التحفة السنوية بأسماء

البلاد المصرية)، و(القول المستظرف في سفر مولانا الأشرف) ويسمى أيضا: (تاريخ قايناي). ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 149/8

⁽²⁰¹⁾ أحمد بن المهدي الغزال، (نتيجة الإجتهد في المهادة والجهاد)، تح: إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر)، د.ط، ص: 45

⁽²⁰²⁾ شعيب حليفي، (الرحلة في الأدب العربي)، م.م.س، ص: 161

⁽²⁰³⁾ شميصة غربي، (الذات والوعي بالتاريخ - قراءة في المنجز السردى لشعيب حليفي)، تيمقاد للنشر، 2014/هـ 1435م، ط1، ص: 47

1/- البناء النمطي: وهو البناء الذي يسعى إلى مواكبة الرحلة منذ بدايتها وحتى

نهايتها⁽²⁰⁴⁾، وينبغي أن يشتمل على أربع وحدات أساسية، هي:

أ/- المقدمة أو التمهيد: وتعد هذه الوحدة مفتاح الرحلة الأساسي، وينبغي أن تكون قصيرة

بحيث لا تفسد شوق المتلقي إلى قراءة تفاصيل الرحلة.

ب/- رحلة الذهاب: وتبدأ منذ الاستعداد للرحلة وتنتهي بالوصول إلى المكان المقصود، وتكثر في

هذه الوحدة ذكر الأوصاف والأخبار والتفاصيل.

ج/- وصف هدف الرحلة: ويُفصح الرحال فيها عن أهدافه التي تحمل لأجلها مشاق السفر،

وتعد هذه الوحدة أساس الرحلة وذروة سنامها.

د/- رحلة العودة والخاتمة: جاءت الوحدات السابقة على هيئة متسلسلة فلن يبقى لاكتمال البنية

سوى مرحلة العودة والختام، وللرحالة الخيار بين أن يتوسع فيها إذا كانت الرحلة مختلفة عن

الانطلاق، وبين أن يختصرها إذا كانت تشبه رحلة الانطلاق⁽²⁰⁵⁾

وغالبا ما يكون الوصول إلى نقطة الانطلاق دافعا أساسيا في تحريك مشاعر الرحالة تجاه وطنه

وأهله الذين غادرهم في ظروف متعددة سبق ذكرها.

ومن هذا التسلسل الزمني والمكاني والفني، يستمد هذا البناء منطقيته وتماسكه. ويعد البناء

النمطي أيسر الأبنية في خطاب الرحلات.

وقد يكون البناء النمطي زمانيا بحتا؛ يُقسّم فيه الرحالة نصه إلى وحدات زمانية تعتمد التوقيت

اليومي أو الأسبوعي أو الشهري، وهنا إما أن تعنون الوحدة بالزمن أو تحتّم به.

2/- البناء المحوري: وفيه يركز الرحالة على محور أو محاور محددة في جميع أحوال الرحلة

تكون خاضعة لشخص الرحال وتخصّصه العلمي، ولهذا البناء أن ينتظم أكثر من رحلة، كما يمكن

لهذا البناء أن يستقل بنفسه، وعلى الرحالة مرعاة الصلة بين المحاور وطرحها بشكل منطقي

متماسك.

⁽²⁰⁴⁾ محمد الحاتمي، (الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي)، مطبعة المعارف الجديدة، (الرباط- المملكة المغربية)، 2006م، ط1، ص: 24

⁽²⁰⁵⁾ ينظر: المواقي، (الرحلة في الأدب العربي)، م.م.س، ص: 73

وفيه يهتم الرحالة بعلماء كل بلد يحله أو أدبائه، وهناك من تجذبه المناظر الطبيعية، أو المذاهب الفكرية، أو الثروات الطبيعية، وهناك من يبحث عن كل غريب وعجيب.. إلى آخر هذه الاهتمامات⁽²⁰⁶⁾.

ويشبه هذا البناء إلى حد بعيد البحث العلمي، لذا فإن على مدون الرحلة المعتمد على هذا البناء أن يتجنب الإسراف في استخدام اللغة العلمية التقريرية.

3/- البناء الانتقائي: لا شك أن جميع النصوص الرحلية تتعرض لعملية انتقاء؛ فالرحلة ينتخب من مجمل رحلاته ما يراه مناسباً لتحقيق غايته، كما أن الانتقاء قد يكون مبنياً على أساس تتبّع موضوع معين أو ظاهرة محددة، ويمكن لغير الرحالة أن ينتقي ما يراه أهلاً للانتقاء من بين عدة رحلات.

ولكن لا بد من القول بأن هذا النوع من البناء لن يسلم من فجوات مُخَلَّةٍ، زمانية ومكانية يمكن للمتلقي أن يملأها بذوقه وحسه، كما أن لوحدة الهدف ووحدة الموضوع دوراً في المحافظة على تماسك البناء ومنطقيته⁽²⁰⁷⁾.

4/- البناء التضميني: هي تلك التي ترتبط بأنواع أدبية أخرى، وتستخدم أدواتها وقد يكون هذا المزج بين نوعين أدبيين مفيداً، كما أنه قد يرجع بالضرر على النوعين معاً؛ بحيث تُندرس معالم كل منهما بتبعيته للآخر⁽²⁰⁸⁾.

وعلى مدون الرحلة - أياً كان بناء رحلته - أن يجتهد في وضع خطة محكمة تكفل لرحلته الترابط والتسلسل، وتحقق الهدف المرجو من تدوينها.

إن تعدد أغراض الرحلة والارتجال كانت سبباً قوياً في تدوين هذه الرحلات مما أفرز فناً ثرياً أدبياً عرف بالخطاب الرحلي أو أدب الرحلات.

⁽²⁰⁶⁾ المواقي، (الرحلة في الأدب العربي)، م.م.س، ص: 73

⁽²⁰⁷⁾ ينظر: المرجع نفسه، ص: 73

⁽²⁰⁸⁾ ينظر: المرجع نفسه، ص: 74

وقد كانت هذه جملة مختصرة حول دوافع الخطاب الرحلي ودواعي تدوينه في التراث العربي، ولعل ما سيأتي لاحقاً - الفصل الثاني - من خصائص الخطاب الرحلي وأنواعه، سيعطينا صورة أكثر وضوحاً ودقة عن هذا اللون الأدبي.

المبحث الثالث: أقسام الخطاب الرحلي ومكوناته

إنَّ الدوافع الأساسية للخطاب الرحلي التي سبق ذكرها؛ مكنت العديد من الباحثين والدارسين من تصنيف الرحلات وحصرها حسب تلك الدوافع، حيث قدموا أنواعا كثيرة، فالرحلة الدينية نتيجة دافع ديني، والرحلة العلمية تكون نتيجة دافع علمي معرفي، والرحلة السياسية تكون نتيجة دافع أمني أو سفاري أو إداري، والرحلة الاقتصادية تكون نتيجة دافع تجاري... إلى غير ذلك من دوافع الرحلات.

يقول صلاح الشامي: "إنَّ الرحلة اعتبارا من القرن السادس الهجري (العاشر الميلادي) انطلقت على أوسع مدى، وتجاوزت ديار المسلمين، على أمل أن تحقق أهدافا متنوعة؛ اقتصادية وهي تعمل لحساب التجارة، ودينية وهي تعمل لحساب فريضة الحج، وإدارية وهي تعمل لحساب العلاقات بين الدول الإسلامية ومجتمع الدول الخارجي، وعلمية وهي تعمل لحساب العلم وطلب المعرفة"⁽²⁰⁹⁾

أولا: أقسام خطاب الرحلة:

يمكن إدراج الكثير من هذه الأنواع تحت عنوان واحد شامل كالرحلات الرسمية التي تضم السياسية والسفارية، ويمكن التركيز على أكثر الأنواع شيوعا، كالرحلات العلمية، والدينية، والرسمية، والتجارية. لكن ما يهمنا في هذا المبحث هو الجانب الأدبي للخطاب الرحلي، فإذا نظرنا إلى تشكيل اللغة قسمنا الرحلة إلى رحلة نثرية ورحلة شعرية، وإذا نظرنا إلى العناصر التي تشتمل عليها الرحلة في علاقتها بالواقع قسمنا الرحلات إلى واقعية وخيالية.

● القسم الأول: رحلة نثرية ورحلة شعرية

1/ - الرحلة النثرية: يعد النثر الوعاء الطبيعي لخطاب الرحلات، فهو المجال الفسيح الذي لا حدود له، فغالب الرحلات دُونت نثرا لا شعرا، ولذلك يمكن أن نجد فيه أشكالا فنية مختلفة وأنماطا متعددة. فأول هذه الأشكال:

⁽²⁰⁹⁾ صلاح الدين الشامي، (الرحلة عين الجغرافيا المبصرة)، منشأة المعارف الإسكندرية، (القاهرة- مصر)، 1999م، ط2، ص: 114

أ- الرسائل: أي الكتابات التي يدونها الرحال ويبعثها إلى صديق أو قريب، وفي بعض الأحيان إلى أحد الحكام، كما هو الحال في رحلة أبي دلف مسعر بن المهلهل إلى الصين، حيث يصف رحلته في شكل رسالتين، مخاطبا من لهما الفضل عليه، يقول في مقدمة الرسالة الثانية: "فإني جوّدت لكما يامن أنا عبدكما أدام الله لكما العز والتأييد، والقدرة والتمكين، جملة من سفري كان من بخارى إلى الصين... ورأيت الآن تجريد رسالة شافية تجمع عامة ما شاهدته"⁽²¹⁰⁾؛ ويؤكد بولغاكوف أن الرسالة الثانية كتبت عام 341هـ، وذلك على حد قول أبي دلف بأنه دونها أثناء رحلته الثانية عند توجهه إلى طبرستان⁽²¹¹⁾، وعليه يبدو أنه دون رحلته الأولى قبل سفره في رحلته الثانية، فرمما دونها أثناء وجوده بسجستان التي حكمها أبي جعفر محمد بن أحمد بن الليث، أو أنه دونها أثناء وجوده بأصبهان عندما كان يتردد على الصاحب بن عباد الذي شجعه على تدوين رسالته الثانية التي تعد متممة لرسالة الأولى⁽²¹²⁾.

كما نجد رحلة المختار بن المحسن المعروف "بابن بطلان" (ت458هـ) الذي تنقل بين بغداد وحلب وأنطاكية واللاذقية والقاهرة، ثم بعث إلى صديقه هلال بن المحسن الصافي رسالة وصف فيها انطباعاته عن الطريق من العراق إلى شمال الشام، ويذكر لنا حسين النصار "أن هذه الرسالة حفظها محمد بن هلال بن محسن في كتاب: (الربيع). وعنه نقل ياقوت الحموي والقفطي مقتطفات هي التي وصلت إلينا"⁽²¹³⁾

وهذا ما فعله أيضا إبراهيم الحكيم الحلبي أثناء سفره من حلب إلى مصر سنة 1173هـ (1760م) وأقام بها سنتين، وفي رسالة طويلة له بعث بها إلى أحد أصدقائه، وصف هذه الرحلة التي اجتاز فيها لبنان، ثم ركب سفينة من بيروت إلى دُمياط واصفا انطباعاته في القاهرة⁽²¹⁴⁾.

⁽²¹⁰⁾ أبو دلف، (الرسالة الأولى لأبي دلف مسعر بن المهلهل)، تح: مريزن سعيد مريزن عسيري، جامعة أم القرى، مكتبة الملك فهد الوطنية، مكة- المملكة العربية السعودية، 1415هـ/1995م، د.ط، ص: 17

⁽²¹¹⁾ أبو دلف، (الرسالة الثانية لأبي دلف مسعر بن المهلهل)، تح: بطرس بولغاكوف وانس خالدوف، عالم الكتب، (الرياض- المملكة العربية السعودية، د.ط، ص: 26

⁽²¹²⁾ ينظر: كراتشوفسكي، (تاريخ الأدب الجغرافي)، م.م.س، ص: 188/1

⁽²¹³⁾ ينظر: حسين نصار، (أدب الرحلة)، م.م.س، ص: 104

⁽²¹⁴⁾ ينظر: المرجع نفسه، ص: 104

كما وصف عبد الوهاب عزام (ت1387هـ/1959م) أربعا من رحلاته إلى بناته، غير أنه في وصفه لم يكن يتتبع مراحل طريق رحلته، ولا يلتزم ترتيب أحداثها- كما فعل سابقوه- وإنما يختار منها مشهدا أو عددا من المشاهد، تجتذب اهتمامه لسبب ما، فيمنحها انتباهه ومشاعره وفكره، فيتحدث عما جاش بوجدانه وثار في ذهنه، فيتحدث عن نفسه أكثر مما يتحدث عما حوله، ولكنه لا يغفل مواطن الجمال، ولا يغفل ذكرياته وشوقه إلى بناته؛ فيصوغ ذلك في أسلوب أدبي رفيع وفي الشكل المعهود للرسائل.

يقول في رسالته إلى "بُثينة" - وهي إحدى بناته:-

"أحدثك عن رحلتي راجيا ألا تكلفيني ترتيب الحديث على ترتيب المشاهد، فإنما هي فرص تنتهز، فأبدأ بالحديث عن سويسرا قبل الحديث عما رأيت في الطريق إليها"⁽²¹⁵⁾

ويقول إلى ابنته "عَلِيَّة":

"يا بنيتي الحبيبة. ها أنذا على شاطئ البحر قد انتبذت مكانا قصيا، وفررت من الناس لأظفر بنفسي...وقد توارت الشمس بحجابها، وذات اليسار جزر الأمراء جاثمة على الأمواج، وذات اليمين تلوح في خلال الأشجار... " وختمها قائلا: "ها أنذا ألقى القلم فسلام عليك"⁽²¹⁶⁾

ب- التقارير الرسمية: هي مدونات يسجل فيها الرحالة بعد عودته تقريرا عن مهمته التي كانت لأجلها الرحلة، وينطبق هذا الشكل على الرحلات الرسمية⁽²¹⁷⁾، كالرحلات السياسية، والسفارية والأمنية، وغالبا ما تكون أمرا رسميا من حاكم الدولة. ولعل أشهر رحلة نمثل بها لهذا الشكل هي رحلة سلام الترجمان التي رفعها تقريرا إلى الخليفة الواثق بالله، وذلك بعد أن بعثه لمعاينة سد يأجوج ومأجوج.

ويحدثنا ابن خُرْدَاذْبَه في كتابه (المسالك والممالك) بما حدثه سلام الترجمان عن سبب رحلته هاته، فيقول: " فحدثني سلام الترجمان أن الواثق بالله لما رأى في منامه كأن السد الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج ومأجوج قد انفتح، فطلب يخرج به إلى الموضع فيستخبر خبره، فقال أشناس ما

⁽²¹⁵⁾ عبد الوهاب عزام، (رحلات)، مطبعة الرسالة، (القاهرة- مصر)، 1358هـ/1939م، د.ط، ص: 61/1

⁽²¹⁶⁾ المرجع نفسه، ص: 406/2

⁽²¹⁷⁾ ينظر: حسين نصار، (أدب الرحلة)، م.م.س، ص: 103

ها هنا أحد يصلح إلا سلام الترجمان وكان يتكلم بثلاثين لسانا، فقال: فدعا بي الوثائق، وقال: أريد أن تخرج إلى السد حتى تعينه وتجيئني بخبره وضم إلي خمسين رجلا شباب أقوياء ووصلني بخمسة آلاف دينار وأعطاني ديتي عشرة آلاف درهم، وأمر فأعطي كل رجل من الخمسين ألف درهم... وكان وصولنا إلى السد في ستة عشر شهرا، ورجعنا في اثني عشر شهرا وأيام" (218)

وانتهى خُرْدَاذْبَه بقوله: "فحدثني سلام الترجمان بجملة هذا الخبر، ثم أملاه عليّ من كتاب كان كتبه للوثائق بالله" (219)

وبوسعنا أن نلاحظ تركيز سلام الترجمان على الهدف من رحلته، وهو تقديم تقرير مفصل عن حالة السد بعد معاينته، دون أن يصف لنا أحوال أهل البلدان أو المشاهدات والعمران التي مر بها.

ومن الجدير بالذكر أن هناك بعض المستشرقين أمثال: أشبرنجر (Ahbrnger)، وجريجوريف (Greggurev)، ومينورسكي (Meanorski)، مَنْ شككوا في رحلة الترجمان وقالوا إنّها مجرد أسطورة، ليس لها من الحقيقة نصيب (220).

إلا أنّ ما قدمه فؤاد قنديل يجعلنا نعتقد أنّ الرحلة حقيقية ووقعت بالفعل لعدة أسباب منها: أولا: أن ابن خرداذبة بوصفه أحد رواة رحلة سلام الترجمان وباعتباره معاصرا له، ومن المدينة نفسها؛ إضافة إلى ذلك أنه نقلها عنه نقلا مباشرا.

ثانيا: كان بصحبة سلام في هذه الرحلة رحالة آخر هو محمد بن موسى المنجم (221) (ت259هـ)، وقد ارتحل الرجل وحده في أكثر من رحلة وقصصها وغيرها على مواطنه آنذاك، فهل هي الأخرى أسطورة.

ثالثا: أنّها تمت في عهد الوثائق بالله، وقد كان معروفا عنه حبه للعلم والمعرفة ومحاولاته أن يعيد

(218) ابن خُرْدَاذْبَه، (المسالك والممالك)، مطبعة بريل، دار صادر، (بيروت- لبنان)، 1889م، د.ط، ص: 162، 163

(219) المرجع نفسه، ص: 170

(220) ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي): م.م.س، ص: 96

(221) محمد بن موسى المنجم: أحد خاصة المتوكل، قدم معه دمشق، وذكر أبو الحسن محمد بن أحمد بن القواي الوراق أنه توفي يوم الإثنين النصف من شهر ربيع الأول سنة 259هـ. ينظر: ابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله، (تاريخ مدينة دمشق)، تح: عمر بن غرامة العمراوي، دار الفكر، (بيروت-

لبنان)، 1418هـ/1997م، ط1، ص: 82/56

عصر المأمون وكان حريصاً على تقليده ولهذا تحمس لفكرة البعث التي يمكن أن تضيف إلى عهده وجهاً من وجوه المجد.

رابعاً: اعتاد الكثير من الرحالة حشو مصنفاتهم بالغرائب والعجائب جذبا للانتباه وإمتاع القراء والسامعين، وهذا ما لا نجد في نص الترجمان، وإذا كانت مجرد تقرير يقدم إلى الحاكم فما الذي يدفع بعض المستشرقين إلى اعتبارها أسطورة؟⁽²²²⁾

ج- المذكرات: وهي الشكل الأكثر انتشاراً، يعتمد فيها الرحالة على تدوين ما يمكن أن يفوته خلال تنقلاته بين الأمصار وتسجيله، كما فعل العبدري وابن بطوطة في رحلتهم، وسليمان التاجر ورفيقه ابن وهب اللذان استطاعا تدوين رحلتهما البحرية في مذكرات عام 237هـ، ذكرها أبو زيد السيرافي (ت303هـ)، ونقلها عنهما ومحص روايتهما في كتابه (من أخبار الصين والهند)، وفيه يصف أمور التجارة عن طريق البحر وقصص الأسفار للبحارة العرب والفرس مع بلاد الهند وأرخبيل والصين، "وذكر بعض عادات الأمم وعجائبها كإحراق أهل الهند أنفسهم، ولبس ملوكهم الأقراط ونحوها، وطريقة أهل الصين في بناء بيوتهم، وحذقهم في دقيق الصناعات كصناعة الحرير وغيره"⁽²²³⁾.

ولا يخلو العصر الحديث من هذا النوع، ككتاب (مذكرات الرحالة يونس بحري) لخالد عبد المنعم العاني الذي دوّن أخبار يونس بحري⁽²²⁴⁾ (ت1399هـ/1979م) في سجن أبو غريب مع رجال العهد الملكي في العراق بعد مجزرة الرحاب عام 1377هـ (1958م)، كما يسرد أخبار رحلته من بيروت إلى السجن والأحداث الذي دارت في المعتقل، وتقليده لخطب هتلر، وأسباب الإقامة الجبرية...⁽²²⁵⁾

⁽²²²⁾ ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي): م.م.س، ص: 97

⁽²²³⁾ ينظر: أبو زيد السيرافي، (من أخبار الصين والهند)، المجمع الثقافي، (أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة)، 1999م، د.ط، ص: 3

⁽²²⁴⁾ يونس بحري: هو يونس صالح بحري الجبوري، إعلامي عراقي، تعرف إليه الملك عبد العزيز آل سعود وكلفه بمهمة نشر الإسلام في مناطق جنوبي شرق آسيا، كان خطيباً مفوهاً، وهذا ما سهل عليه النجاح فيما كُلف به، أصدر يونس بحري حوالي ستة عشر كتاباً منها: (العراق اليوم)، (هنا برلين حي العرب)، (سبعة أشهر في سجون قاسم)، له ابنين وبنتان، البكر: هو الدكتور لؤي بحري، وهو أستاذ في جامعة الجزائر للعلوم السياسية. توفي يونس بحري ببغداد في مارس عام 1979م. ينظر: خالد عبد المنعم العاني، (مذكرات الرحالة يونس بحري)، الدار العربية للموسوعات، (بيروت- لبنان)،

1426هـ/2005م، ط1، ص: 5، 8

⁽²²⁵⁾ ينظر: عبد المنعم العاني، (مذكرات الرحالة يونس بحري)، م.م.س، ص: 1

2- الرحلة الشعرية: إذا كنا نقصد بخطاب الرحلة ذلك الفن الثري الذي يتخذ الرحلة موضوعاً له. فإن هناك كذلك رحلات شعرية كان لها صدى واهتمام من قبل الدارسين والباحثين.

كانت القصيدة في الشعر تبدأ في أغلب القصائد الجاهلية بمقدمات مختلفة: "فقد تكون بكاءً على الديار، ووقوفاً عليها، أو غزلاً بالأحباب وحنيناً إليهم، أو وصفاً للطيف الطارق وما يطويه من الأرض، أو وصفاً للرحلة والظعائن"⁽²²⁶⁾... يتخلص الشاعر منها إلى ناقتة التي ضربت في الأرض واعتسفت الفلوات والقفار، ليخرج إلى المديح أو غيره. فالرحلة في الشعر، إما رحلة الشاعر على ناقتة، وإما رحلة الظعائن أمامه.

والحديث عن الرحلة يكون وصفاً مادياً لكل ما يراه، وقد يكون وصفاً معنوياً لكل ما يعانيه من مشقة، ووجد، وبحث عن المحبوبة أو الكلاً".

وقد عرف التراث العربي أراجيز وقصائد كانت تسبق الرحلات الواقعية، "فروح الشعر عند بعض الرحالة قد حلت محلها براعة النثر"⁽²²⁷⁾.

ولو أردنا أن نمثل للرحلات الشعرية، فلا يمكننا إلا أن نذكر ماجد السعدي النجدي الذي دون تجاربه البحرية في مصنف ضخيم سماه (الأرجوزة الحجازية)، وضم أكثر من ألف بيت، وصف فيها الملاحة على سواحل البحر في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).

أما ابنه أحمد بن ماجد (ت904هـ) فقد صنف ألفية أخرى، ومجموعة من المنظومات الأخرى دعاها بالأراجيز تفاوتت أبياتها بين عشرين وستمئة. وفي معظم الأحوال وصف في كل واحدة منها طريقاً معيناً، فكانت في عصرها أشبه بالمرشديات البحرية⁽²²⁸⁾.

أما الرحلات الشعرية الجزائرية فبعضها كان مكتوباً بالشعر الفصيح وبعضها الآخر كان مكتوباً بالشعر الملحون. ومما كتب بالفصيح قصيدة محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني التآزي

⁽²²⁶⁾ محمد التونجي، (المعجم المفصل في الأدب)، م.م.س، ص: 476/2، 477

⁽²²⁷⁾ أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي - 1500 - 1830)، دار الغرب الإسلامي، (بيروت - لبنان)، 1998م، ط1، ص: 388/2

⁽²²⁸⁾ حسين نصار، (أدب الرحلة)، م.م.س، ص: 101، 102

(ت. بعد 1162هـ) التي فرغ منها سنة 1152هـ (1748م) وهي قصيدة همزية وصف فيها مراحل رحلته من مقر إقامته تازة إلى الحرمين الشريفين، ثم منهما إلى الشام. والقصيدة مطلعها:
أَزْمَعُ السَّيْرَ إِنْ دَهَتْ أَدْوَاءُ لَشْفِيعِ الْأَنَامِ فَهُوَ الدَّوَاءُ⁽²²⁹⁾

كما نجد عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي الذي نظم رحلته من مجاجة إلى مكة المكرمة في قصيدة مطولة فصيحة سنة 1063هـ (1653م)، والتي مطلعها:
نَشَقُّ الْفِيَّافِي فَذَفْدًا بَعْدَ فَذَفْدٍ⁽²³⁰⁾ جَبَالًا وَأَوْعَارًا وَأَرْضًا وَطِيَّةً⁽²³¹⁾

وأما الرحلات التي كتبت شعرا ملحونا، نذكر قصيدة محمد بن مسائب التلمساني في القرن الثاني عشر. فقد نظم قصيدته التي قص فيها رحلته من تلمسان إلى مكة المكرمة عبر مدن الجزائر وقراها من غربها إلى شرقها ماراً بالطريق التقليدي الذي كان يسلكه حجاج الغرب (مليانة ثم البليدة ثم الجزائر العاصمة ثم مجانة ثم قصر الطير ثم قسنطينة ثم الكاف ثم تونس). وتبدأ رحلة ابن مسائب الشعرية بـ:

يا الْوَرَشَانَ⁽²³²⁾ أَقْصِدْ طِيَّهَ وَسَلِّمْ عَلَى السَّاكِنِ فِيهَا

يقول أبو القاسم سعد الله: "وكان لابن مسائب رفيقان في هذا الفن هما: ابن التريكي والزناقي فكلاهما رحل مثله من تلمسان إلى مكة، وكلاهما كتب مثله رحلته شعرا ملحونا"⁽²³³⁾

إن هذه الرحلات الشعرية لم تأخذ نصيبتها في خطاب الرحلات؛ لأن الرحلات المصطلح عليها عادة هي الرحلات النثرية لا الشعرية، ذلك أن الأولى هي التي يسجل فيها أصحابها انطباعاتهم عما شاهدوه وسمعوه ليس فقط في الحجاز ولكن في مختلف المدن والأقطار التي مروا بها من الجزائر إلى بغداد، مرورا بتونس وطرابلس ومصر والجزيرة العربية وسوريا والقدس. ولعل هذا يرجع إلى أن الرحالة يتعذر عليه وصف كل ما يراه ويشاهده نظما، بخلاف النثر الذي يبقى أوسع من النظم.

⁽²²⁹⁾ ينظر: عبد السلام بن سودة المري، (دليل مؤرخ المغرب)، دار الفكر، (بيروت- لبنان)، 1418هـ/1997م، ط1، ص: 301. وينظر: أبو القاسم

سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي- 1500-1830)، م.م.س، ص: 388/2

⁽²³⁰⁾ الْفِيَّافِي: مفردها: الْفَيْفُ: الصحراء الواسعة المستوية، والطريق بين جبلين يسمى: أْفِيَّاف/ فَذَفْدًا: الْفَذَفْدُ: الأرض الواسعة المستوية لا شيء بها.

وَفَذَفْدًا: علا صوته، واشتد وطؤه فوق الأرض مرحا ونشاطا. ينظر: إبراهيم أنيس، وأحمد الزيات وآخرون، (المعجم الوسيط)، م.م.س، حرف الفاء

⁽²³¹⁾ ينظر: أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي- 1500-1830)، م.م.س، ص: 388/2

⁽²³²⁾ الْوَرَشَانَ: طائر من الفصيلة الحمامية، أكبر قليلا من الحمامة المعروفة يستوطن أوروبا، ويهاجر في جماعات. ينظر: إبراهيم أنيس، وأحمد الزيات

وآخرون، (المعجم الوسيط)، م.م.س، حرف الواو

⁽²³³⁾ ينظر: أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي- 1500-1830)، م.م.س، ص: 389/2

● القسم الثاني: رحلة واقعية ورحلة خيالية

1- الرحلة الواقعية: وتسمى أيضا "الرحلة الفعلية" أي هي رحلات يقوم بها الرحال حقيقة في مسيرة حياته الدنيوية، تكون إما خارجية أو داخلية، تستند إلى مرجعية ملموسة في الزمان والمكان وأحداث واقعية، ذات خصوصيات مشتركة.

إنَّ غالب الرحلات الواقعية تكون إما رحلات علمية أو دينية أو سياسية أو إقتصادية أو إكتشافية أو جغرافية. وقد بدأت الرحلات العربية الأولى مكانيةً جغرافيةً تهدف إلى التعريف بطرق والمسالك والممالك، كرحلات ابن حوقل والمسعودي والمقدسي والإدريسي وغيرهم من طليعة هذه الكوكبة الذين كانوا أشهر أعلام خطاب الرحلات خاصة من جانبه العلمي الجغرافي، "وإن كان بعض الباحثين ينفي أن تصنف هذه المصنفات ضمن الخطاب الرحلي باعتبارها أنها لا تحتوي إلا على المعلومات العلمية ولا تندرج تحت خطاب الرحلات إلا بعض أخبار بعض الأمصار وأحداثها"⁽²³⁴⁾.

وأقدم رحلة واقعية كانت سفارية هي تلك التي لخصها ابن دحية⁽²³⁵⁾ (ت633هـ) في كتابه (المطرب من أشعار أهل المغرب)، وفيه يسرد سفر يحيى الغزال⁽²³⁶⁾ (ت250هـ) موفدا من قبل الخليفة الأموي عبد الرحمن بن الحكم (ت238هـ) إلى ملك النورماندين⁽²³⁷⁾ عام208هـ، وذلك بعد وفود رُسل هذا الأخير على الخليفة عبد الرحمن بن الحكم يطلب فيه الصلح بعد خروجهم من إشبيلية وهزيمتهم بها، فرأى الخليفة أن يراجعهم بالقبول، واختار الغزال أن يمشي برسالته مع رُسل

⁽²³⁴⁾ ينظر: إسماعيل زردومي، (فن الرحلة في الأدب المغربي القديم)، م.م.س، ص: 21

⁽²³⁵⁾ ابن دحية: هو عمر بن الحسن بن دحية بن خليفة بن فروة الكلبي الأندلسي البلنسي، المعروف ب: "ذي النسين"، ولد سنة 544هـ، كان بصيراً بالحديث متقناً به، له حظ وافر من اللغة ومشاركة في العربية، له تصانيف منها: (تاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم)، (التنوير في مولد السراج المنير)، مات 14 ربيع الأول سنة 633هـ. ينظر: أحمد بن خلكان، (وفيات الأعيان)، تح: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت- لبنان)، 1978م/1398هـ، د.ط، ص: 448/3. وينظر: ابن دحية، (المطرب من أشعار أهل المغرب)، تح: إبراهيم الأبياري/حامد عبد المجيد، دار العلم للنجم، (بيروت- لبنان)، ص: و (المقدمة)

⁽²³⁶⁾ يحيى الغزال: هو يحيى بن حكم البكري الجبالي، المعروف بالغزال. فالبكري نسبة إلى بكر بن وائل، والجبالي نسبة إلى مدينة جبّان بالأندلس، والغزال لقب له لُقب به لحسنه وجماله، من مصنفاته المعروفة هو ديوان شعره، توفي عام 250هـ. ينظر: يحيى بن الحكم الغزال، (ديوان الغزال)، تح: محمد رُضوان الداية، دار الفكر المعاصر، (بيروت- لبنان)، 1993م/1413هـ، ط1، ص: 7.

⁽²³⁷⁾ النورماندين: يطلق عليهم مصطلح النورمان أو الفايكينغ، وهم الماجوس كما اقتصت به تقريبا كل المصادر العربية لأنهم كانوا من عباد النار، وكلمة النورمان nordmanni تنقسم إلى قسمين: nord = الشمال = manni = رجال، أي: رجال الشمال نسبة إلى موطنهم الأصلي وهو شبه جزيرة اسكندناوة وحوض بحر البلطيق. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، (معجم المصطلحات والألقاب التاريخية)، مؤسسة الرسالة، (بيروت- لبنان)،

1996هـ/1416، ط1، ص: 427

ملكهم، وذلك لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر، وبديهة الرأي، وحسن الجواب والنجدة والإقدام والدخول والخروج من كل باب، وقد أُشِيءَ لهما مركب كامل الآلة والتعداد، ولما ساروا في البحر هاج عليهم، وعصفت بهم ريح شديدة وصفها الغزال في قوله:

قَالَ لِي يَحْيَى وَصِرُّ
وَتَوَلَّيْنَا رِيَّاحٌ
نَا بَيْنَ مَوْجِ كَالْجِبَالِ
مِنْ دُبُورٍ وَشَمَالِ
شَقَّتِ الْقَلْعَيْنِ وَإِنْ
بَتَّتْ عُرَا تِلْكَ الْجِبَالِ (238)

كما ذكر ابن دحية مقام الغزال ببلاد النورماندين، ووصف تقاليد أهلها وأخبارهم وعاداتهم باعتبارهم كانوا من عباد النار.

أما الرحلات الواقعية الجزائرية، فتُعد رحلة ابن هطال التلمساني من أهم رحلات أواخر القرن الثامن عشر هجري باعتبارها رحلة سياسية عسكرية، جسّدت وقائع وأخبار جغرافية وتاريخية، وصوّرت أوضاعاً اجتماعية وسياسية وأدبية، كما ترجع أهمية الرحلة إلى أنّ صاحبها ابن هطال كان مصاحباً لأبرز شخصيات القرن الثامن عشر، وهو باي الغرب الجزائري محمد بن عثمان الكردي، وقد كتبها ابن هطال تنفيذاً لرغبة الباي حين نهض انطلاقاً من وهران يوم الخميس التاسع من ربيع الأول عام 1199هـ (1785/01/19م) في حملة لإخضاع بعض مناطق الصحراء الجزائرية إلى سلطة "الداي"، وانتهت الرحلة يوم الأربعاء الثامن والعشرون من شهر ربيع الثاني عام 1199هـ (1785/03/09م) (239).

ويبدو أن ابن هطال نحا في تحرير رحلته نحواً تقريرياً، جعلها أقرب إلى عرض حال عن الغزوة وما صاحبها من عناء. وتتضمن الرحلة ذكر الأعمال والمراحل والساعات والمناهل والقبائل التي طوعت لسلطة الداي، كما اتسمت بترتيبها الزمني والمكاني الدقيق من ابتدائها حتى انتهائها.

وكذا رحلة الورتلاني ذات الطابع العلمي، الديني، بعنوان: (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) المعروفة باسم: (الرحلة الورتلانية)، ولئن حفلت هذه الرحلة بكلام عن تنقله إلى جهات مختلفة داخل الوطن، من غربه (تلمسان) إلى شرقه (عنابة)، ومن شماله (دلس وبجاية ومدينة

(238) ينظر: ابن دحية، (المطرب من أشعار أهل المغرب)، م.م.س، ص: 138، 139

(239) ابن هطال التلمساني، (رحلة محمد الكبير - باي الغرب الجزائري الى الجنوب الصحراوي الجزائري)، م.م.س، ص: 1

الجزائر)، إلى جنوبه (المسيلة)، فإن الحديث تركز أيضاً على حجه، "حيث حج ثلاث مرات، الأولى سنة 1153هـ (1740م)، والثانية سنة 1166هـ (1753م)، والثالثة سنة 1179هـ (1765م). وفي إحدى هذه الحجّات ذكر أنه اضطر إلى الرجوع من تونس، وكان قد سافر بالبر، وقد انتهى من تدوين هذه الرحلة المكونة في الحقيقة من عدة رحلات سنة 1182هـ (1768م)⁽²⁴⁰⁾.

تعد رحلة الورتلاني من أحسن ما أنتجه القرن الثامن عشر الهجري، ليس لمادتها الجغرافية والتاريخية، وطابعها الفكري والأدبي فحسب، بل لما انعكس فيها من أوضاع مختلفة في الوطن العربي اقتصادية وثقافية واجتماعية وسياسية ودينية.

وهناك - أيضاً - رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي ذات الطابع الجغرافي، التاريخي، وهي بعنوان: (رحلة الأغواطي في شمال إفريقيا والسودان والدرعية). كُتبت الرحلة بالعربية في حدود 1241-1245هـ (1826-1829م) بناءً على طلب وليام هيدسون (Hudson William)⁽²⁴¹⁾ مساعد القنصل الأمريكي في الجزائر في الفترة 1240-1245هـ (1825-1829م)، مقابل مبلغ مالي. فأبرز الأغواطي عمله هذا وقبض الثمن من هودسون ذي النزعة الاستشراقية الحريص على جمع معلومات جغرافية وتاريخية ولغوية، خصوصاً عن البربرية. ترجم هذه الرحلة إلى الإنجليزية، وقد بقي النص العربي مجهولاً⁽²⁴²⁾، وهو ما حفز الدكتور "أبو القاسم سعد الله" على إعادة النص إلى العربية في نحو عشرة صفحات.

جمعت هذه الرحلة في مسارها بين الداخل والخارج، وقد حاول أن يعين مسالك، ويوضح معالم، ويحدد مسافات بين مناطق ومدن. ويجلّي طبيعة هذه الجغرافيا، وهندسة بناء، ونظام حكم وتقاليد اجتماعية وغيرها، فعمّقت بذلك الرحلة كثيراً من الأوضاع المختلفة، التاريخية والجغرافية

⁽²⁴⁰⁾ أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر النقابي - 1500-1830)، م.م.س.ص: 395/2

⁽²⁴¹⁾ وليام هودسون: هو مساعد القنصل الأمريكي وليام شيلر (William Schiller)، وكانت خيرة هودسون باللغات الشرقية هي التي أهلتها لهذه المهمة، وقد بقي في الجزائر سنة 1829م، وأثناء هذه الفترة كرس جهوده لاتقان اللغة العربية والتركية والتعرف على البربرية. ينظر: أبو القاسم سعد الله،

(رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين - مجموع رحلات-)، المعرفة الدولية للنشر، (الحراش - الجزائر)، 2011م، د.ط، ص: 81

⁽²⁴²⁾ ينظر: أبو القاسم سعد الله، (رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين - مجموع رحلات-)، م.م.س.ص: 80، 81

والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية. إنها رحلة برؤية استطلاعية غلب عليها الجانب الجغرافي التاريخي عن مواقع المدن، وأحوال الناس، لغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وأزياءهم.

تمثل الرحلات الجزائرية بوجه عام، وبغض النظر عن طابعها الأدبي، وثيقة حية ومصدر هام لا يستغنى عنه لمعرفة طبيعة حياة الرحالة الجزائري بمختلف جوانبها السياسية والاجتماعية والثقافية والتاريخية والجغرافية...

وانطلاقاً من هذه النماذج الرحلية فإنه يمكننا أن ندرج في خطاب الرحلات كل نصٍ يصف رحلة أو رحلات واقعية قام بها رحال متميز حقيقة، "موازننا بين الذات والموضوع من خلال مضمون وشكل بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه" (243).

2- رحلة خيالية: إذا كانت الرحلة الواقعية هي رحلة قام بها الرحالة حقيقة، ووقعت ضمن مكان وزمان معينين؛ فإن الرحلة الخيالية خلاف ذلك، فهي من نسيج خيال الكاتب، تحدث ضمن مكان وزمان متخيلين "يقوم بها الإنسان في مناطق غير حقيقية وتصور مغامرات خارقة بقصد التسلية وإثارة الخيال" (244). ولعل هذا ما دفع شوقي ضيف إلى القول: "بأن الإنسان ولد راحلاً، وإن أعجزته الرحلة تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال" (245)

أو هي كما عرفها محمد التونجي: نوع من القصص الخرافي والأسطوري كتبه الأدباء معتمدين على خيالات مجنحة، وأساليب مشوقة قصدوا من ذلك التسلية وإثارة المغامرة وتوسيع الخيال... (246)

وعرّف محمد الفاسي الرحلات الخيالية بأنها "رحلات وضعها مؤلفوها على لسان رحالة وهمي

سافر في الماضي إلى إحدى حواضر العلم والثقافة، ووصف أحوالها وشخص مدينتها، وهي طريقة لتقريب شؤون الحياة الماضية لأذهان المعاصرين" (247)

(243) ناصر عبد الرزاق المواقي، (الرحلة العربية في الأدب العربي)، م.م.س، ص: 40

(244) مجدي وهبه، كامل المهندس، (معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب)، م.م.س، ص: 176

(245) شوقي ضيف، (الرحلات)، م.م.س، ص: 7

(246) محمد التونجي، (المعجم المفصل في الأدب)، م.م.س، ص: 476/2

(247) حسين نصار، (أدب الرحلة)، م.م.س، ص: 49/48

وذكر الدكتور حسني محمود حسين "أن الإنسان توسع برحلاته على مدى الدهور، ولم يعد يقصرها على سطح الكرة الأرضية فراح يتشوف رحلات أعجزته قدرته عن تحقيقها بالفعل، فلجأ إلى خياله وفكره يجوس بهما خلال عوالم ودُنَى أخرى" (248)

وفي الأدب العربي وتاريخه رحلات خيالية كثيرة، فمنها ما يمكن ردها إلى حقولها الأصلية؛ من القصص الخيالية الشعبية، "كرحلة السندباد البحري" وهي حكاية من حكايات "ألف ليلة وليلة" (249)، يقص فيها السندباد البحري على "الهندباد الحمال" رحلاته البحرية السبعة، وهي: الرحلة الأولى (الجزيرة المتحركة)، الرحلة الثانية (وادي الألماس)، الرحلة الثالثة (الغول الأسود)، الرحلة الرابعة (السندباد يدفن حيا)، الرحلة الخامسة (شيخ البحر)، الرحلة السادسة (رحلة نهرية في كهف)، الرحلة السابعة (مقبرة الفيلة). حيث سرد سندباد ما لقيه خلال هذه الرحلات من أهوال البحار ومخاطر الجزائر والأمصار، وكيف تمكن من النجاة من ملوك ووحوش وغفاريت وغيلان،...، وكيف استطاع بعد جهد وعناء أن يجمع الثروة الطائلة التي ظنها الهندباد أتمته بلا تعب ولا اجتهاد.

ومنها ما يرد إلى القصص الأدبية، كرحلة محمد المويلحي (250) (ت1348هـ) المسماة: (حديث عيسى بن هشام)، والتي ذاع صيتها كثيرا في العصر الحديث، حيث كان الهدف الرئيسي من تأليفها هو تسليط الضوء على الظواهر السلبية، التخلف والرجعية، الانحطاط والفساد والتقليد الأعمى التي كانت تتخبط بها الدولة بمؤسساتها والمجتمع بشقيه السلطوي والشعبي (في مصر). حيث بدأ الكاتب بأسلوب قصصي سارد من خلال رحلة قام بها ابن هشام مع أمير من عهود سابقة خرج لتوه من القبر ليفجع بتلك الحال التي تناهت إليها الأمة، - وبغض النظر عن صيغة المقامة الغالبة التي تفوح بعطر مقامات الهمذاني - تعرض لما يريد انتقاده من ظواهر عبر المشاكل التي وقعت لصديقه الأمير.. فهو بعد ذلك تخلى عن هذا الأسلوب واعتمد النقد المباشر بعيدا عن

(248) ينظر: حسني محمد حسين، (أدب الرحلة عند العرب)، م.م.س، ص: 5

(249) ينظر: كامل كيلاني، (السندباد البحري- قصص من ألف ليلة وليلة-)، دار المعارف، (القاهرة- مصر)، ط26، ص: 6

(250) محمد المويلحي: محمد بن إبراهيم بن عبد الخالق ابن إبراهيم المويلحي: أديب.. اشتهر بكتابه (عيسى بن هشام) ونشر أبحاثا ومقالات كثيرة في الصحف المصرية. نسبته إلى مويلح (من تغور الحجاز) ومولده في القاهرة. تعلم في الأزهر ثم في مدرسة الأنجال (أنجال الخديوي إسماعيل) ونشأ في نعمة، مع والده (السابقة ترجمته) وولي مناصبا في وزارة "الحقانية" بمصر سنة 1881م لمدة سنتين. ينظر: الزركلي، (الأعلام، م.م.س، ص: 305/5.

السرد القصصي المتعلق بتطور الأحداث مع صديقه، فصار هو والأمير العين التي ترقب وتمحص وتدقق وتستنكر الظواهر والأماكن والشخوص؛ يقول المويلحي على لسان عيسى بن هشام: "...فدخلنا فوجدنا النائب لا زال لاهيا في حديثه مع زائريه، وأشار لنا بالتقدم إلى الكاتب فتقدمت مع صاحبي وشرعت في بسط القضية، وبيان ما قاسيناه من سوء معاملة البوليس وقبح افتراءه، فالتفت النائب إلى الكاتب وقال له: لا تقبل كلاما في البوليس ولا تسمع فيه طعنا بل خذ بأقواله واستمسك بتحقيقه، ثم نظر في الساعة فوجد الميعاد قد حل، فأخذ عصاه ولبس طربوشه وخرج يهرول مع صاحبيه..."⁽²⁵¹⁾

وأحيانا أخرى نجد مصنفات رحلية تمازج بين الحقيقة والخيال، فهناك العديد من الرحالة عندما يسرد لنا الأحداث يمزج لنا الواقع بالخيال. أو بعبارة أخرى، "إنه يتخذ أساسا من الواقع ثم يدبر حوله وقائع مبتكرة"⁽²⁵²⁾ غالبا ما تكون جذورها الأصلية من أساطير الأمم القديمة.

وتمتاز هذه الأساطير عند العرب بأخبارهم خاصة في مجاهل البحار وما يقصونه عن هذه المجاهل، وهذا ما نجده منثورا في بعض كتب الرحلات ككتاب: (البلدان) لابن الفقيه⁽²⁵³⁾ (ت290هـ) في حديثه عن عجائب الإسكندرية، يقول: "كانت الإسكندرية بيضاء تضيء بالليل والنهار فكانوا إذا غربت الشمس لم يخرج منهم واحد من بيته، ومن خرج اختطف؛ وكان لهم راع يرعى الغنم على شاطئ البحر، وكان يخرج من البحر شيء فيأخذ من غنمه، فكمن له الراعي في بعض المواضع حتى خرج، فإذا جارية فتشبت بشعرها ومانعته فذهب بها إلى منزله، فأنست بهم فأرأهم لا يخرجون بعد غروب الشمس، فسألتهم عن ذلك فأخبروها أن من خرج في ذلك الوقت اختطف، فعملت لهم الطلسمات وكانت أول من وضع الطلسمات بمصر"⁽²⁵⁴⁾

⁽²⁵¹⁾ محمد المويلحي، (حديث عيسى ابن هشام)، كلمات الهنداوي للنشر، (القاهرة- مصر)، 2013م، د.ط، ص: 35

⁽²⁵²⁾ حسين نصار، (أدب الرحلة)، م.م.س، ص: 49

⁽²⁵³⁾ ابن الفقيه: هو أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني أبو عبد الله، المعروف بابن الفقيه، أحد أهل الأدب، روى عن أبيه وإبراهيم بن الحسين بن ديزيل ومحمد بن أيوب الرازي وأبي عبد الله محمد بن سرح الأبخاري. أما تاريخ ولادته فهي مجهولة في كتب التراجم. ينظر: ياقوت الحموي، (معجم الأدباء)،

تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1414هـ/1993م، ط1، ص: 459/2

⁽²⁵⁴⁾ ابن الفقيه الهمداني، (البلدان)، تح: يوسف الهادي، عالم الكتب، (بيروت- لبنان)، 1416هـ/1996م، ط1، ص: 126

وفي كتابي القزويني: (آثار البلاد وأخبار العباد) و(عجائب المخلوقات) كثير من الأساطير التي يرويها لنا، من ذلك ما يقصه عن بحيرة في الهند يجري وصفها في كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد) على هذا النحو:

"هي بحيرة مقدار عشرة فراسخ في مثلها، مأوها ينبع من أسفلها، لا يأتيها شيء من البحار، وفي تلك البحيرة حيوانات على صورة الإنسان، إذا كان الليل يخرج منها عدد كثير، يلعبون على ساحل البحر ويرقصون ويصفقون باليدين، وفيهم جوار حسناوات، ويخرج منها أيضا حيوانات على غير صورة الإنسان عجيبية الأشكال، والناس في الليلة القمراء يقعدون من بعيد وينظرون إليهم، وكلما كان النظر أكثر كان الخارجون أكثر، وربما جاءوا بالفواكه الكثيرة، وأكلوها، وتركوا ما فضل منهم على الساحل..." (255)

من عالم الواقع، انتقى منه الانطباعات المؤثرة القوية، ومزج ذلك بخياله الخصب الخلاق فأخرج لنا تركيبا رائعا تتحدد فيه روحه بالعالم، وتطغى عليه حياة جياشة بفضل ذاتيتها المتدفقة ليخرج لنا عملا ينتقل فيه من مستوى الحقيقة والاعتراف إلى المستوى الفني الأدبي.

كما يجمع الكتاب بين دفتيه من حين إلى حين غرائب الأخبار لا في الإنسان فحسب بل أيضا في الطير والحيوان البري والبحري والزواحف، ومن عجيب ما ذكره القزويني عن تين حلب: "ظهر بها سنة أربع وعشرين وستمائة تين بغلظ منارة وطول مفرط، ينساب على الأرض، يبلغ كل حيوان يجده، ويُخرج من فمه نارا تحرق ما تلقاه من شجر أو نبات، واجتاز على بيوت أحرقتها، والناس يهربون منه يمينا ويسارا، حتى انساب قدر اثني عشر فرسخا... وكان قد لف ذنبه في كلب، فرفع الكلب وهو يعوي في الهواء، والسحاب يمشي به والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين..." (256)

(255) زكريا محمود القزويني، (آثار البلاد وأخبار العباد)، د.ت، دار صادر، (بيروت-لبنان)، د.ط، ص: 129، 130

(256) المرجع نفسه، ص: 184

يقول شوقي ضيف: "وطبيعي أن تكون هذه القصة التي حكاها القزويني عن بعض الناس هناك ملفقة، فهي أدنى إلى الخرافة، ويمثلها كانت تروج هذه الكتب... إذ يجدون فيها مسلاة لهم. ودائما نلتقي عند القزويني يمثل هذا التخريف الطريف" (257)

ولو عدنا إلى مصنفات الرحلات الخيالية لوجدنا الكثير من الدارسين من بينهم حسين النصار ذهبوا بالقول إلى ضرورة إخراج هذا النوع من خطاب الرحلة وإدراجه ضمن فن القصة (258) لطغيان عنصر الخيال فيه. ولكن عنصر الخيال وحده لا يكفي، لأن هناك عناصر أخرى لا بد من توفرها.

وتنفي الخامسة علاوي تصنيف الرحلات الخيالية من خطاب الرحلة بقولها: "وبرأيي إن الرحلات المعنيّة في هذا النوع من الأدب هي الواقعية الفعلية المباشرة وما أكثرها، ولا أسلم البتّة بانضواء الرحلات الخيالية بكل أشكالها المشار إليها سابقاً، ولا حتى رحلات القراءة، تحت مسمى أدب الرحلات... لأنني أرى أن شرط الانتماء تحت هذا المسمى ليس مجرد حكاية رحلة... بل لا بد من الاهتمام بتفاصيلها، ذلك أن هذه التفاصيل هي التي تجعل القارئ متوحد الذات بذات الرحلة، فيصبح هو نفسه يقوم بالرحلة من خلال قراءته لتفاصيلها..." (259)

كما ينتقد فؤاد قنديل الكُتاب الذين يصنفون مؤلفات الرحلات الخيالية ضمن الأدب الرحلي، رغم أنها -حسب قوله- تعد عملاً أدبياً روائياً، وليس لها أي علاقة بخطاب الرحلات (260)

وتبقى الرحلات الخيالية خارج خطاب الرحلات؛ لاختلافها عنه من حيث أسلوب الكاتب في معالجة المشاهد والأخبار، أو منهجه في التدوين، أو من حيث الجمهور المقصود بالتدوين، إلى غير ذلك من الاختلافات والفوارق.

من خلال ما سبق يتجلى لنا أن الخطاب الرحلي معني بالرحلات الواقعية التي حدثت فعلاً في حيز المكان (جغرافيته)؛ فقد بدأت الرحلات العربية الأولى مكانية تهدف إلى التعريف بالمسالك والممالك.

(257) شوقي ضيف، (الرحلات)، م.م.س، ص: 25، 26

(258) حسين نصار، (أدب الرحلة)، م.م.س، ص: 49

(259) الخامسة علاوي، (أدب الرحلة الخيالية)، مجلة الغاؤون، (بيروت- لبنان)، كانون الثاني 2011م، العدد: 35، ص: 8

(260) ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي): م.م.س، ص: 19

إنَّ الواقعية أهم ما يميز الخطاب الرحلي عن غيره من فنون الأدب، ولكن ليس لعمل أدبي أن يقتصر على الواقع فقط؛ فلا بد في خطاب الرحلة من المراوحة بين الواقع والخيال السائغ؛ بحيث تكون الرحلة الواقعية هي أساس العمل وقوامه، ويكون عرض المشاهد والحوادث والشخصيات من خلال أسلوب متراح عن التقريرية والمباشرة، كما أنه لا يمكن إغفال دور المؤثرات الأخرى مثل: الأخبار والقراءات والتجارب. أي "أن الخيال في هذه الظروف يقوم بوظيفتين مختلفتين:

1- وظيفة الاختراع أو الابتكار الانتقالي الذي يساعد على سد نقص وفراغات الذاكرة.

2- عملية تحريف الذكرى، وهي إما إرادية، رغبة منه في تقديم صورة مثالية لذاته، أو لا إرادية حينما يعتقد أنه يقص حقيقة جربها"⁽²⁶¹⁾.

وفرق كبير بين أن يجمع الرحال بين الخيال والواقع بالمعنى السابق، وأن يجمع بين الواقع وما لا يقبله العقل.

وهذه الرحلات يقوم بها رحال متميز يتمتع بالقدرة على الوصف الدقيق والسرد السديد، ويمكن التعرف على هذا الرحال من خلال النماذج المشرقة للرحالة، يضاف إلى ذلك بعض التعريفات التي وردت على لسان الرحالين أنفسهم أحيانا، أو في كتابات نقدية في أحيان أخرى⁽²⁶²⁾.

ثانياً: مكونات خطاب الرحلة:

بعد حديثنا عن أنواع الرحلات، لا بد أن نتحدث عن مكونات الخطاب الرحلي التي يمكن حصرها كالآتي:

أ- المعرفة:

تزخر المصنفات الرحلية بالعديد من المعارف المتنوعة، منها ما هو ديني وما هو تاريخي، وما هو جغرافي، وما هو أدبي، وما هو اجتماعي... وغير ذلك، مما يجعل هذه المصنفات قبلة للعديد من الباحثين المختلفي المشارب؛ من أجل منح المعارف التي تمهمم والرحالة، وهو يقدم هذه المعارف، إنما يسعى إلى إفادة القارئ بما يظنه مفيدا له. والمعرفة التي يقدمها الرحالة تخضع لشخصيته وتكوينه الثقافي، وهكذا نجد الرحالة المؤرخ يولي اهتماما أكبر للمعرفة التاريخية، والرحالة الجغرافي يعتني كثيرا بالمعرفة الجغرافية وهكذا...

⁽²⁶¹⁾ ينظر: الموافي، (الرحلة العربية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع)، م.م.س، ص: 42

⁽²⁶²⁾ ينظر: المرجع نفسه، ص: 42

وتقديم المعارف في الرحلات ليس مستغرباً، "لأننا نجد كثيراً من الرحالين ينصون في مقدمات رحلاتهم على أن مقصديتهم هي إفادة القارئ بكثير من المعارف والإفادات وبهذا تحقق الرحلة هدفها، فهي تسعى لتعليم بعض الأشخاص بعض الأشياء"⁽²⁶³⁾

ب- السرد:

لا تنفك الكتابة الرحلية عن السرد، ولا يمكن أن تستغني عنه ما دامت تنقل إلى المتلقي أحداثاً وأفعالاً قامت بها الذات الكاتبة، وهذه الأحداث والأفعال هي الانتقال من نقطة الانطلاق ثم العودة إليها.

والسرد يبدأ مع بدء الرحلة، ويستمر إلى نهايتها، لتتكون المسيرة السردية من مقاطع سردية دائمة الحضور في كل الرحلات، ومقاطع سردية تحضر في بعض الرحلات وتغيب في أخرى، "والمسيرة السردية في الرحلات تتخللها محطات يتوقف فيها السرد ليفسح المجال لمكونات أخرى للاشتغال"⁽²⁶⁴⁾، وهكذا يوقف الراوي السرد ليقدم وصفاً أو ليقدم معلومات ومعارف، أو ليسوق شعراً، وبعد الانتهاء من هذا يعود السرد إلى جريانه.

ج- الوصف:

السرد والوصف نمطان خطايان يتناوبان على طول الخطاب الرحلي، فالراوي يسرد حين يتحدث عن المتحرك، ويصف حين يتحدث عن الساكن، وبعبارة أخرى يتم السرد بالحديث عن الفعل في الزمان، ويتم الوصف بالحديث عن المكان والأشياء أو الأشخاص. والوصف يتطلب انتباهاً ودقة ملاحظة من الواصف لكي "يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصور الموصوف لك، فتراه نصب عينيك"⁽²⁶⁵⁾ والموصوف الذي يلفت نظر الرحالة هو الأشياء الغريبة وغير المألوفة لديه، وتبعاً لهذا ستختلف الموصوفات في الرحلات حسب الأوساط التي

⁽²⁶³⁾ ينظر: جميلة روبا، (أدب الرحلة في المغرب العربي)، مذكرة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، (بسكرة- الجزائر)، 2015/2014م، ص: 17

⁽²⁶⁴⁾ ينظر: جميلة روبا، (أدب الرحلة في المغرب العربي)، م.س، ص: 17

⁽²⁶⁵⁾ أبو الهلال العسكري، (الصناعتين الكتابة والشعر)، تح: علي محمد البحاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، (بيروت- لبنان)،

1986/1406م، د.ط، ص: 128

عاش فيها الرحالة وما ألف مشاهدته فيها، لأن المؤلف معروف لا يحتاج الرحالة إلى إعادة التعريف به.

د- الشعر:

نجد كثيرا من الرحلات تطفح بالكثير من الأشعار المختلفة المضامين، والمتفاوتة في القيمة الفنية، وهذه الأشعار إما من إبداع الرحالة أو من إبداع غيره من الماضين أو المعاصرين الذين ينشدونهم وينشدونه، والرحالة وهو يجلي رحلته بالشعر إنما يفعل ذلك تحت تأثير المكانة العالية التي يحتلها الشعر في الثقافة العربية، "وكأني بالرحالة وهو يورد هذه الأشعار، بين الفينة والأخرى، يسعى إلى إمتاع القارئ بهذا الخطاب الشعري الجميل، وإلى رفع قيمة رحلته باحتوائها عددا وافرا من الأشعار التي توظف في أسيقة مختلفة"⁽²⁶⁶⁾

ثالثا: عناصر الخطاب الرحلي:

إن الرحلة حكي، وكل حكي يستلزم وجود أطراف ثلاثة: ذات حاكية (المرسل)، وخطاب محكي (الرسالة)، وموضوع محكي عنه (الموضوع)، ويمكن توضيح هذه المكونات في هذا الشكل:

- الرحالة	- الخطاب الرحلي	- المحكي عنه
(المؤلف أو السارد)	(المحكي)	(السفر أو الموضوع)

أ- الرحالة (المرسل): فالحاكي أو الراوي في الرحلة هو المؤلف نفسه، وهو الذات المركزية التي تقوم بفعل الرحلة، وتقوم بتلخيص تلك الرحلة. وهذه الذات، في انتقالها عبر الأماكن المزورة، لا تنفصل عن ثقافتها ومعتقداتها ورؤيتها للعالم، وشأن الرحالة شأن المساح الذي قال عنه الباحث عبد الفتاح كيليطو: "إنَّ المساح ليس مسافرا بدون أحمال، فهو يحمل أدوات لازمة تنظم عمله، والفضاء الذي يخترقه ليس مرثيا إلا عبر عيون شبكة ثقافية تحصره حصرا وثيقاً"⁽²⁶⁷⁾

⁽²⁶⁶⁾ ينظر: جميلة روبا، (أدب الرحلة في المغرب العربي)، م.س، ص: 19

⁽²⁶⁷⁾ عبد الفتاح كيليطو، (المقامات، السرد والأنساق الثقافية)، تر: عبد الكبير الشرفاوي، دار توبقال للنشر، (الدار البيضاء- المغرب)، 2001م، ط1،

ولهذا نجد الذات حاضرة باستمرار يمر من خلالها الحكيم (الحكاية)، فيصطبغ بأحاسيسها وميولاتها وعواطفها ومرجعيتها الثقافية، وهكذا فعندما يرحل الرحالة، لا يرحل بجسده فقط، بل بعقله وفكره وقلبه ووجدانه أيضا.

إن الراوي في الرحلة هو المؤلف ذاته، وهذه إحدى خصائص الكتابة الرحلية، وهذا الراوي يكون حاكيا وموضوعا للحكي، فهو حاكٍ عندما يصف، ويكون موضوعا للحكي عندما يسرد، وبهذا يقدم الراوي معرفة صحيحة أثناء الوصف، كما يقدم تجربة ذاتية أثناء السرد⁽²⁶⁸⁾.

ب- المحكي عنه: وهو السفر الذي أنجزه الرحالة فعليا، حيث يصبح السفر "بنية مهيمنة من جهة، ومن جهة ثانية بنية متحركة وجاذبة لباقي البنى إلى الحد الذي تخضع فيه هذه الأخيرة لبنية السفر"⁽²⁶⁹⁾ وبهذه الهيمنة التي تتمتع بها بنية السفر داخل الكتابة الرحلية يصبح السفر هو الناظم لمختلف مكونات الرحلة الأخرى من سرد ووصف وأخبار وحكايات وأشعار ومعارف متنوعة، بيد أنه ينبغي الانتباه والتفريق بين السفر عندما يكون بنية مهيمنة وناظمة، وبين السفر عندما يكون بنية ومكوناً كباقي المكونات؛ في الحالة الأولى نكون أمام جنس الرحلة، وفي الحالة الثانية نكون أمام أجناس أخرى، قد تكون تاريخيا أو سيرة ذاتية أو رواية أو غيرها. وهكذا أصبحت هيمنة بنية السفر "معيارا نقديا يتم فيه التمييز بين الرحلة وباقي نصوص السفر"⁽²⁷⁰⁾ إن هيمنة مكون السفر لا يعني أن الرحلة تخلو من باقي المكونات الأخرى، بل تعني أن السفر هو العنصر المؤطر لكل العناصر والمكونات الأخرى، ومن النادر جدا وجود رحلة اقتصر فيها مؤلفها على هذا المكون فقط.

بعد الوقوف على طرفي عملية الحكيم في حكاية الرحلة، وهما الذات الحاكية والموضوع المحكي، تنتقل إلى لب هذه العملية وقلبها، وهو الخطاب المحكي، وستتم الإشارة في الحديث عنه إلى بنائه، ثم مكوناته.

⁽²⁶⁸⁾ ينظر: عبد النبي ذاكر، (عنايت الكتابة، مقارنة لميثاق الحكيم الرحلي العربي)، منشورات البحث الأكاديمي في الأدب الشخصي، (المغرب)، 1998م،

د.ط، ص: 34

⁽²⁶⁹⁾ ينظر: عبد الرحيم مؤذن، (أدبية الرحلة)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (الدار البيضاء-المغرب)، 1996م، ط1، ص: 26

⁽²⁷⁰⁾ ينظر: المرجع نفسه، ص: 21

ج- خطاب الرحلة: أو المحكي، ومن المعلوم أن لكل خطاب طريقته الخاصة في البناء، بما يتميز عن غيره من الخطابات، وبما أن خطاب الرحلة موضوعه هو السفر الذي قام به الرحالة، فإن "خطاب الرحلة يتماهى مع الرحلة وعواملها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية، فهو يبتدئ بتحديد أسباب الرحلة ودوافعها، وزمن الخروج ومكانه، وكلما انتقل الرحالة في المكان واكب الخطاب هذه التحولات، وصولاً إلى النهاية (نهاية الرحلة)، والرجوع إلى نقطة الانطلاق، وبهذه المواكبة يكون خطاب الرحلة "عملية تليظ لفعل الرحلة. وبعملية التليظ هاته يختلف خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات المجاورة التي تقوم على أساس فعل الرحلة، ولكنها تستثمر جوانب منها، وتوظفها في خطاب مختلف"⁽²⁷¹⁾

هكذا تكون طريقة بناء الخطاب وسيلة لتمييز خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات، وبواسطته أيضا يمكن إخراج مؤلفات تصنف ضمن دائرة الرحلة من هذه الدائرة، ومنها، -مثلا- (الترجمة الكبرى)، لأبي القاسم الزياتي⁽²⁷²⁾ (ت1249هـ)، فالسفر في هذا المؤلف ليس بنية مهيمنة، وليس بنية ناظمة لباقي بنيات الكتاب، وعليه فالخطاب فيه لا يسير مع سير الزياتي في رحلاته الثلاث، فهو لا يبتدئ بالحديث عن لحظة الانطلاق، بل يبتدئ الحديث عن ميلاد المؤلف ثم شيوخه⁽²⁷³⁾، وبعد هذا سيأتي الحديث عن رحلته الأولى برفقة والده لأداء فريضة الحج، فتوقف بمصر لظروف اضطر معها إلى الرجوع، إن الحديث عن هذه الرحلة لا يمتد إلا على ما يقارب صفحتين ونصفا، مما يدل أن هدف الزياتي ليس تدوين الرحلة، بل الإشارة إلى بعض الأحداث الهامة في حياته، ويكفي للتدليل على هذا قوله: "ولما بلغنا مصر، وتعين سفر الركب إلى الحجاز..."⁽²⁷⁴⁾، فالمؤلف هنا لم يحدثنا عن منطلق الرحلة، ولا عن المراحل التي مرَّ منها قبل أن يصل إلى مصر. وهذا صنيعه عند حديثه عن الرجوع. وصنيعه أيضا في الرحلتين الباقيتين.

⁽²⁷¹⁾ سعيد يقطين، (السرد العربي، مفاهيم وتجليات)، م.م.س، ص: 200

⁽²⁷²⁾ أبو القاسم الزياتي: أحد أعلام المغرب الكبار في عصره، ولد بفاس عام 1147هـ، وبما تعلم. اتصل بالسلطان محمد بن عبد الله، وبالمولى سليمان من بعده، ونال حظوة كبيرة حتى لقب بذي الوزارتين، توفي عام 1249هـ، وترك العديد من المؤلفات، (أشهرها: الترجمة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا). ينظر: أبو القاسم الزياتي، (الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا)، تح: عبد الكريم الفيلاي، نشر وزارة الأنباء، (الرباط- المغرب)، 11، 12/1991م، ص: 11، 12

⁽²⁷³⁾ ينظر: أبو القاسم الزياتي، (الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا)، م.م.س، ص: 56، 57

⁽²⁷⁴⁾ الزياتي، (الترجمة الكبرى)، م.م.س، ص: 58

إنّ قصد المؤلف ليس تدوين الرحلة وأحداثها، بل إن الرحلة كانت وسيلة للحديث عن أشياء أخرى، وبهذا لا يكون خطاب الكتاب تليظاً لرحلات الزياتي، بدءاً من نقطة الانطلاق، ورجوعاً إليها، بل توظيفاً لهذه الرحلات إلى جانب مكونات أخرى، مما يجيد بالخطاب عن جنس الرحلة إلى جنس آخر قد يكون الخطاب التاريخي، أو الجغرافي، أو هما معا.

الفصل الثاني:

خِطَابُ الرَّحْلَةِ فِي التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ

- المبحث الأول: خِطَابُ الرَّحْلَةِ الْمَشْرِقِيَّةِ فِي التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ
- المبحث الثاني: خِطَابُ الرَّحْلَةِ الْمَغَارِبِيَّةِ فِي التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ
- المبحث الثالث: خِطَابُ الرَّحْلَةِ الْجَزَائِرِيَّةِ فِي التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ

المبحث الأول: خطابُ الرحلةِ المشْرِقيةِ في التُّراثِ العَرَبِيِّ

منذ أن درجَّ الإنسان على ظهر هذه الأرض وهو يحاول اكتشاف ما يحيط به من أسرار، بقصد التعرف والعيش، فالإنسان - كما يقول شوقي ضيف - "ولد راحلاً، وإن أعجزته الرحلة تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال"⁽²⁷⁵⁾. ولا غرابة في أن يكون الإنسان ميالاً إلى الرحلة، تواقاً إليها منذ القدم، فقد استطاع أن يوظفها من أجل أغراض خيرية لبني البشر، حين كان الأنبياء والمرسلون (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) يضربون في فجاج الأرض، ليس حبا في طلب العيش والراحة، بل من أجل إبلاغ البشر رسالة هي أشرف وأسمى من كل ذلك ألا وهي دعوة توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة، "فالرحلة وسيلة هامة من وسائل البناء والتعليم، وأسلوب عملي سلكه الأنبياء والمرسلون (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) من أجل تبليغ الدعوة ونشرها في كل بقعة من العالم، كما أن التاريخ الإسلامي يشهد أن كثيراً من العلماء المصلحين، كانوا يرتحلون من أجل غايات سامية تتعلق بإيقاظ الأمة، وتذكيرها بممارسة دورها الريادي الصحيح"⁽²⁷⁶⁾

لقد سجلت الرحلة انتشاراً واسعاً عند العرب منذ القديم بلونيتها: رحلة الطعائن والرحلة على الناقة، كانتشار القبائل في تلك الصحراء أو انتشارهم في الطلول ومواطن النجعة، إلا أن هذه الرحلات لم تتخذ شكل خطاب الرحلة، وإنما كانت أحد العناصر الأساسية في بناء القصيدة الجاهلية، المقدمة الطللية، وصف الرحلة، ثم الموضوع الأساسي. وهذا ما أشار إليه ابن قتيبة بقوله: " فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام"⁽²⁷⁷⁾

وبعد عصر الإسلام، اتخذت الرحلة منحى آخر في دوافعها "التي بدأت تتعدد ومقصدتها المتطور جداً، ثم في شكلها المتميز أدبياً وعلمياً بكونها عملاً مُدَوَّناً ذا طابع فكري- علمي بجوانبه التاريخية والجغرافية والاجتماعية والأدبية"⁽²⁷⁸⁾. ولاسيما تلك الرحلات الحجازية التي عرفت مصنفات كبيرة لا زالت تُعتمد إلى يومنا هذا.

⁽²⁷⁵⁾ شوقي ضيف، (الرحلات)، م.م.س، ص: 7

⁽²⁷⁶⁾ ينظر: عبد الله الوشيلي، (الرحلات والمخيمات وأثرها الدعوي والتعليمي والترابي)، مؤسسة الكتب الثقافية، (بيروت-لبنان)، 1408هـ، ص: 6

⁽²⁷⁷⁾ ابن قتيبة، (الشعر والشعراء)، تح: محمدشكر، دارالمعارف، (القاهرة-مصر)، 1369هـ/1950م، ط1، ص: 75/1-76

⁽²⁷⁸⁾ عمر بن قينة، (الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (دمشق-سوريا)، 1999م، د.ط، ص: 7

فقد شكل الحجاز أهمية خاصة لدى الرحالة، حيث حظي بنصيب وافر من دراستهم ومصنفاتهم. فكان الرحالة المشاركة الأكثر حظوة في دراستهم لهذا الإقليم؛ ونعني بالإقليم، تلك الدراسات المشرقية التي كانت في بدايتها ذات طابع جغرافي خاصة في ما يتعلق بذكر الطرق والمسالك والمحطات التي تنتشر على طول الطرق المؤدية إلى الحرمين الشريفين من الشام والعراق واليمن وشمال إفريقيا، واحتل وصف المدينتين المقدستين (مكة والمدينة) جزءاً لا بأس به من حديثهم عن الجزيرة العربية بصفة عامة.

وهذا لا يعني أن الرحالة المشاركة وُلّوا كل اهتمامهم ناحية الحجاز والجزيرة العربية، بل تعدى ذلك إلى وصف المغرب العربي والأندلس وأرض الحبشة وبلاد العجم وغيرها، وكل ما يتعلق بالحياة الحضارية من علمية واقتصادية واجتماعية في هذه البلدان. وهذا كله من خلال المناطق والأمصار التي كانوا يجوبونها برا وبحرا، ليلا ونهارا.

ولو تتبعنا مسار خطاب الرحلات في المشرق نجد أنه قد شهد منعطفات وتغيرات عبر العصور، حيث يرجع عصر تدوين الرحلة العربية إلى منتصف القرن الثاني الهجري؛ إذ دونت بعض الرحلات، وكان مدونها من أهل اللغة، يتقدمهم اللغوي هشام الكلبي⁽²⁷⁹⁾ (ت206هـ)؛ الذي صنف مجموعة من التصانيف، أهمها: كتاب (الأقاليم) و(البلدان الكبير) و(البلدان الصغير) و(أنساب البلدان)، ثم تبعه الأصمعيّ (ت216هـ) بكتابه (الأنواء) ورسالة (صفة الأرض والسماء والنباتات)، ثم خلفه تلميذه: أبو عثمان الضيرير⁽²⁸⁰⁾ (ت231هـ) فصنف كتاب (الأرضين والمياه والجبال والبحار).

⁽²⁷⁹⁾ هشام الكلبي: هو هشام بن محمد بن سائب بن بشر، عالم بالنسب وأخبار العرب وأيامها ووقائعها، أخذ عن أبيه وعن جماعة من الرواة. توفي سنة 206هـ، له مصنفات كثيرة منها: (صنائع قريش)، (المشاجرات)، (ملوك الطوائف)، (المنافلات)، (ملوك كنده). ينظر: ابن النديم، (الفهرست)، م.م.س، ص: 140. وينظر: الخطيب البغدادي، (تاريخ بغداد)، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1422هـ/2001م، ط1، ص: 68، 69/16

⁽²⁸⁰⁾ أبو عثمان الضيرير: سعدان بن مبارك البغدادي، العالم، النحوي، الكوفي، أخذ عن أبي عبيدة معمر بن المثنى. توفي سنة 231هـ، من مؤلفاته: (خلق الإنسان)، (كتاب الوحوش)، (النقائص). ينظر: ابن النديم، (الفهرست)، م.م.س، ص: 105، و ينظر: الخطيب البغدادي، م.م.س، (تاريخ بغداد)، ص: 201/9

وممن سار على نهجهم - أيضاً - عَرَّامُ بْنُ الْأَصْبَغِ⁽²⁸¹⁾ (ت275هـ) الذي ألف في شيخوخته كتاب (أَسْمَاءُ جِبَالِ تِهَامَةَ وَمَكَانِهَا)، وكان الكتاب كله نتاج خبرته ورحلاته؛ فلم يرجع فيه لأحد، ثم جاء السَّرْحَسِيُّ⁽²⁸²⁾ (ت286هـ) برسالة (البحار والمياه والجبال) وكتاب سماه: (المسالك والممالك).

ولم يظهر الحرص على تدوين الرحلات إلا مع نهاية القرن الثالث الهجري (ق9م)، فقد حفظ لنا تاريخ أدب الرحلة بعض أسماء الرحالة الذين برزوا خلال هذا القرن، نذكر منهم: ابن يعقوب أو اليعقوبي⁽²⁸³⁾ (ت284هـ) مؤلف كتاب: (البلدان)، هذا الذي نال عناية الكثير من الدارسين والباحثين لأمانته العلمية ودقته وابتعاده عن الغرائب والعجائب. "ويرجع تاريخ تأليف هذا الكتاب إلى حوالي 278هـ وقام بطبعه في لايدن المستشرق الهولندي دي خويه (Michael Jan de Goeje) عام 2457هـ (1892م) ضمن مكتبة الجغرافيين العرب"⁽²⁸⁴⁾. ووجد في المكتبة المركزية (مكتبة الملك عبد الله) بجامعة أم القرى كتاب (البلدان) مع كتاب (الأعلاق النفيسة) لابن رسته (ت300هـ) في نسخة واحدة، طبعة لايدن 2457هـ (1891م). في القسم الثاني من الكتاب.

وقد أجمع الباحثين كذلك على أن كتاب (البلدان) يشبه التقاويم الجغرافية الحديثة وقد تناثرت فيه محاولات لتقرير حقائق جغرافية طبيعية وجغرافية بشرية لجهات كثيرة لم يكن معاصراً لها

⁽²⁸¹⁾ عَرَّامُ بْنُ الْأَصْبَغِ: نسبه في بني سليم من أهل الحجاز، وكان خبيراً في مواضع بلاد العرب. كان ثقة في معرفة جبال "تهامة" وقراها وسكانها، ألف كتاب أسماء جبال تهامة وجبال مكة والمدينة). ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، م.م.س، ص: 223/4، وينظر: نور الدين أبو الحسن السمهودي (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى)، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، ط1، ص: 81/4

⁽²⁸²⁾ السرخسي: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مروان السرخسي، متأدب بليغ كثير الرواية، وله من الكتب: (السياسة)، (أدب الملوك)، (الدلالة على أسرار الغناء). ينظر: ابن النديم، (الفهرست)، م.م.س، ص: 213. وينظر: حاجي خليفة، (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)، تح: الغني محمد شرف الدين، رفعت بيلك الكليسي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت- لبنان)، 1941م، ص: 49/1.

⁽²⁸³⁾ ابن يعقوب: هو أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي. وله أيضاً كتاب (التاريخ الكبير)، و(أسماء الأمم السالفة)، (ومشكلة الناس لزمانهم). ياقوت الحموي، (معجم الأدياء)، تح: إحسان عباس، م.م.س، ص: 557/2

⁽²⁸⁴⁾ ياسين إبراهيم الجعفري، (اليعقوبي، المؤرخ والجغرافي)، وزارة الإعلام العراقية، دار الرشيد، (العراق)، 1980م، د.ط، ص: 42

فحسب. بل إنه شاهدها بعينه ووقف عليها بنفسه أو أثبتنا من ثقة، يقول: "ثم أثبت كل ما يجربني به، من أثق بصدقه..."⁽²⁸⁵⁾ ولذلك جاء كتابه كتاباً قيماً له مكانته العلمية عند العرب وعند الغربيين بلا منازع فوصفوه فيما وصفوه بالأمانة العلمية⁽²⁸⁶⁾.

لقد قدم ابن يعقوب تصوراً رائعاً وواضحاً عن البلدان التي كتب عنها، فإن من يقرأ في كتاب (البلدان) لليعقوبي يلاحظ أنه كتاب يمتاز بالدقة وحسن الحكمة، فقد ضبطت المسافات بين مدينة ومدينة حيث يعطي الحساب الدقيق بالفراسخ والأميال، ثم هو مرشد ودليل بطرق المواصلات المتنوعة برية وبحرية يقود إلى أحسن الطرق المسلوكة⁽²⁸⁷⁾.

وقد عُده ابن يعقوب "أول جغرافي من المسلمين وصف الممالك معتمداً على ملاحظاته الخاصة"⁽²⁸⁸⁾، فقد قام برحلات كثيرة امتدت شرقاً إلى الهند، وبلغت أقصاها غرباً برحلته إلى بلاد المغرب والأندلس.

وإلى جانب ابن يعقوب، شهد هذا القرن تسجيل أشهر رحلتين حفظتهم لنا كتب الرحلات هما: رحلة سلام الترجمان⁽²⁸⁹⁾ الذي قام برحلته بأمر من الخليفة الواثق بالله⁽²⁹⁰⁾ إلى بحر قزوين ليشاهد سد يأجوج ومأجوج، عام 227هـ، وقد مر بعدة بلدان حتى وصل إلى السد. والرحلة الثانية هي رحلة التاجر سليمان⁽²⁹¹⁾ الذي يعد رائد الرحلات البحرية وهو من تجار العراق الذين ينقلون

⁽²⁸⁵⁾ أحمد بن إسحاق اليعقوبي، (البلدان)، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1422هـ، ط1، ص: 9

⁽²⁸⁶⁾ علي محسن مال الله، (أدب الرحلات عند العرب في المشرق، نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري)، مطبعة الإرشاد، (بغداد- العراق)،

1978م، ص: 65

⁽²⁸⁷⁾ ينظر: المرجع نفسه، ص: 66

⁽²⁸⁸⁾ علية عبد الله سلطان، (العلوم عند العرب)، مجلة المنهل، (المملكة العربية السعودية)، جمادى الأولى وجمادى الثانية 1413هـ/نوفمبر

وديسمبر 1992م، العدد: 500، المجلد: 54، ص: 167

⁽²⁸⁹⁾ سلام الترجمان: سمي بترجمان لأنه اشتهر بإجادته العديد من اللغات، وهو من العراق عاش في زمن الخليفة العباسي الواثق بالله. ينظر: فؤاد قنديل،

(أدب الرحلة في التراث العربي)، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، 2002م، (القاهرة- مصر)، ص: 91

⁽²⁹⁰⁾ الواثق بالله: هو أبو جعفر هارون بن المعتصم، بويع بالخلافة عام 227هـ، بعد موت أبيه، في عهده فتح العرب جزيرة صقلية سنة 232هـ وكان عمره

ست وثلاثين سنة. وقد استولى أحمد بن أبي دؤاد على الواثق، وحمله على التشدد في الخنة، والدعاء إلى خلق القرآن، وقيل إنه رجع عن ذلك قبيل موته.

وكانت خلافته خمس سنين ونصفاً، وقد مات سنة 232هـ. ينظر: (سير أعلام النبلاء)، تح: شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، ط11، مؤسسة

الرسالة، 1417هـ/1996م، ص: 535/12، وينظر: أبو الفداء ابن كثير القرشي، (البداية والنهاية)، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر

للطباعة والنشر، (مصر)، 1424هـ / 2003م، ط1، ص: 289/14، 508

⁽²⁹¹⁾ سليمان التاجر: هو من مدينة سیراف محافظة في جنوب إيران، ولم يصل إلينا ما يشير إلى بقية اسمه أو جانب من حياته، دون رحلته في مذكرات، ولم

تصلنا في كتاب مستقل، وإنما وصلتنا في كتاب أبي زيد السیرافي، وقد ذيل على رحلة سليمان بطائفة من الأخبار عن أهل الهند والصين. ينظر: فؤاد

قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.س، ص: 98. وينظر: شوقي ضيف، (الرحلات، م.م.س، ص: 29

عروض الهند والصين إلى البلاد العربية، استطاع تدوين رحلاته البحرية في مذكرات عام 237هـ، ولكن لم

تصلنا في كتاب مستقل، وإنما وصلتنا في كتاب أبي زيد السيرافي⁽²⁹²⁾ (ت303هـ) في القرن الرابع الهجري.

وفي هذا القرن - أيضا - نجد ابن الفقيه الهمداني (ت290هـ) الذي ذاع صيته في عالم الرحلات والجغرافيا بفضل كتابه (البلدان) "وكان في ألفي صفحة موزعة على خمسة أجزاء، اختصر بعد حوالي مائة عام على يد علي بن جعفر الشيرازي عام 413هـ"⁽²⁹³⁾.

وقد تحدث ابن الفقيه في كتابه الذي يبدوه عادة في كل حديث بقوله: "حدثني" أو "حدثت" أو "ذكر" أو "سألناه"⁽²⁹⁴⁾، عن خط الاستواء وذكر أنه الخط الوحيد الذي يقسم الأرض إلى قسمين متساويين وهو أكبر خط في كرة الأرض، كما تطرق لكروية الأرض وأثبتها بطريقة علمية تدل على طول باعه في الجغرافية الرياضية⁽²⁹⁵⁾، إضافة إلى وصفه للبحار والأنهار في الصين والهند وبلاد العرب ومصر وبلاد المغرب والبربر والشام وفلسطين وما بين النهرين وبلاد الروم، وأفاض في وصف البصرة والكوفة، وقد نقل جملة من موضوعات كتابه عن أسفار فارسية قديمة.

ويجمع المؤرخون في العلوم أن كتاب (البلدان) لابن الفقيه يحتوي على معلومات ضرورية ونادرة لكل من الرحلات الجغرافية والأدب فهو من المصادر الهامة للباحثين في مجال الجغرافية والأدب ولكن سمعة ابن الفقيه في ميدان علم الجغرافية غلبت على شهرته في الأدب لأنه عُرف بين مؤرخي العلوم أنه من علماء الجغرافية المتميزين⁽²⁹⁶⁾

⁽²⁹²⁾ أبي زيد الحسن بن يزيد السيرافي، العالم الجغرافي، نزل البصرة بعد سيراف، له كتاب في (أخبار الصين والهند)، نقل فيه رحلة التاجر سليمان، توفي عام 303هـ. ينظر: المسعودي أبو الحسين علي بن الحسين، (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، (بيروت- لبنان)، 1393هـ/1973م، 5، ص: 113/1

⁽²⁹³⁾ فؤاد قنديل، (الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 140

⁽²⁹⁴⁾ ابن الفقيه الهمداني، (البلدان)، تح: يوسف الهادي، م.م.س، ص: 14

⁽²⁹⁵⁾ ينظر: عبد الرحمن حميده، (أعلام الجغرافيين ومقتطفات آثارهم)، دار الفكر، (بيروت- لبنان)، 1389هـ، ص: 131

⁽²⁹⁶⁾ علي عبد الله الدفاع، (رؤاد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية)، مكتبة التوبة، (الظهران- المملكة العربية السعودية)، ص: 84

ومن الأعلام الذين ذاع صيتهم في هذا القرن - أيضا - محمد بن خُرْدَاذْبَه⁽²⁹⁷⁾ (ت288هـ) الرحالة الجغرافي صاحب كتاب: (المسالك والممالك) الذي يرجح أنه له حيث نشره المستشرق الهولندي دي خويه في ليدن عام 2455هـ (1889م) وألحق نُبْدًا من كتاب (الخراج وصنعة الكتابة) لقدامة بن جعفر.

وقد ذكر عبد الرحمن حميدة أنه لم يهتد إلى السبب الذي من أجله ألحق دي خويه صفحات من كتاب (الخراج) بكتاب (المسالك والممالك)⁽²⁹⁸⁾. والسبب عندي ظاهر وهو مناسبة موضوع هذه الصفحات بموضوع كتاب (المسالك والممالك)، فموضوعهما واحد وهو الحديث عن المدن والكور والرباطات والمحاصيل الزراعية...⁽²⁹⁹⁾

وكان ابن خُرْدَاذْبَه أول من استعمل مصطلح "المسالك والممالك" والذي استخدمه من بعده كوكبة من العلماء⁽³⁰⁰⁾ كابن حوقل والاصطخري والمقدسي وغيرهم.

ولم يتعد ابن خرداذبة عن المواضيع الذي تناولها سابقه ابن الفقيه، حيث وصف شكل الأرض والبلدان مع العناية بذكر أبعاد الطرق وتحديد المسافات بين البلدان تحديداً دقيقاً، يقول في وصف شكل الأرض: "صورة الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة والنسيم حول الأرض وهو جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك..."⁽³⁰¹⁾

ورغم معيب بعض الباحثين على منهج ابن خرداذبة في تبويبه لموضوعات مصنفه وعدم تقديمها في نسق متجانس إلا أنه يبقى موسوعة موثقة في أخبار الرحلات وعلم الجغرافية، فقد قدم معلومات

⁽²⁹⁷⁾ خُرْدَاذْبَه: هو الجغرافي الرحالة أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن خرداذبة، ولد عام 207هـ، وهو من أسرة فارسية، وكان مجوسياً أسلم على يد البرامكة، كان والده والياً على طبرستان جنوبي بحر القزوين، وله من الكتب: كتاب (أدب السماع)، وكتاب (جبهة أنساب الفرس والنوافل)، كتاب (اللهو والملاهي)، كتاب (الشراب)، كتاب (الأنواء)، كتاب (الندماء والجلساء)، توفي عام (288هـ). ينظر: ابن النديم، (الفهرست)، م.م.س، ص: 212، 213. وينظر: حاجي خليفة، (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)، م.م.س، ص: 1665/2

⁽²⁹⁸⁾ عبد الرحمن حميدة (أعلام الجغرافيين العرب)، دار الفكر، (دمشق - سوريا)، 1416هـ/1995م، ص: 107، وينظر: فؤاد قنديل، (الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 127

⁽²⁹⁹⁾ ينظر: الحديث عن موضوع (الخراج)، ص: 102/103

⁽³⁰⁰⁾ ينظر: علي عبد الله الدفاع، (رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية)، م.م.س، ص: 76

⁽³⁰¹⁾ ابن خرداذبة، (المسالك والممالك)، د.ت، دار صادر، (بيروت - لبنان)، 1889م، د.ط، ص: 4

وافية وبالغة خاصة عن الدولة العباسية المترامية الأطراف، وخاصة فيما يتعلق بالمسافات بين البلاد لعلاقتها الوثيقة بالرحلات التجارية والبريد⁽³⁰²⁾

وكان من معاصري ابن خُرْدَاذْبَه رحالة آخر لا يقل شهرة عنه في الرحلات والجغرافية وهو عمر بن رُسْتَه⁽³⁰³⁾ (ت300هـ) صاحب كتاب: (الأعلاق النفيسة)، والذي يقع في عدة مجلدات ربما زادت عن سبعة غير أنه لم يصلنا منها غير مجلد واحد وهو السابع⁽³⁰⁴⁾.

ولم تشر لنا مصادر التراجم والطبقات عن مؤلفات ابن رسته غير كتابه (الأعلاق النفيسة) الذي وصف فيه الأفلاك وهيئة السماء والكواكب والبروج والشمس والقمر والليل والنهار، كما خصص صفحات من الكتاب لمناقشة تفصيلية عن شكل الأرض وحجمها وموقعها من الأجرام السماوية، ثم ذكر مكة المكرمة وأحوالها وبناء الكعبة وصفة البيت الحرام والمشاهد الأخرى، يقول في بناء الكعبة: "يقال كان طولها في عهد إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَام) لما بناها تسع أذرع، وطولها في الأرض ثلاثين ذراعاً، وعرضها في الأرض اثنين وعشرون ذراعاً، وكانت الكعبة بلا سقف في عهد إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَام) ثم بنتها قريش في الجاهلية..."⁽³⁰⁵⁾ وتلى ذلك دراسة عن جغرافية بلاد فارس والأرض المجاورة وأعطى وصفاً دقيقاً لطرق خراسان وبغداد والكوفة والبصرة، ويولي ابن رسته اهتماماً كبيراً بذكر المسافات بين المحطات بالإضافة إلى ذلك أعطى ملاحظات عن طبيعة الدول.

كذلك من ضمن ما تحدث عنه ابن رسته في كتابه عجائب المخلوقات من حيوان ونبات وآثار ومبان وبحار وأثمار، من ذلك ما قاله عن حيوان النيل: "وفي النيل أيضاً حيوان يقال له التمساح وهو الورل إلا أنه يظم في الماء جدا. قال: وأخبرني مَنْ شاهدتها أنه قد يكون منها ما طوله ثلاث أذرع إلى ستين ذراعاً، وهي تخطف وتثقف وتفترس كل من دنا إلى الشط"⁽³⁰⁶⁾.

⁽³⁰²⁾ ينظر: علي عبد الله الدفاع، (رواد علم الجغرافية)، م.س، ص: 76

⁽³⁰³⁾ ابن رُسْتَه: هو أبو علي أحمد بن عمر بن رسته، فارسي الأصل، من مدينة أصفهان، ولد عام 260هـ، رحل إلى بلاد العرب حاجاً عام 290هـ، أشهر مؤلفاته (الأعلاق النفيسة). ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 185/1

⁽³⁰⁴⁾ عبد الرحمن حميدة (أعلام الجغرافيين العرب)، م.م.س، ص: 116

⁽³⁰⁵⁾ المرجع نفسه، ص: 125

⁽³⁰⁶⁾ عبد الرحمن حميدة (أعلام الجغرافيين العرب)، م.س، ص: 130

كما قدم دراسة واقعية عن المناخ وأثره على المخلوقات وكذلك عن التضاريس المختلفة لجميع البلدان.

ومن ينظر في كتاب ابن رسته يلاحظ اعتماده على المشاهدة بالإضافة إلى النقل عن الناس الذين ارتحلوا وأبحروا والأخذ من الكتب التي وصفها من سبقوه أمثال قدامة بن جعفر (ت337هـ) وابن خردادبة⁽³⁰⁷⁾.

وتتباين قيمة كل قسم من كتاب (الأعلاق النفيسة) لابن رسته عن الآخر، وربما يرجع هذا إلى تفننه في جمع آراء العلماء الذين سبقوه ونظرياتهم في مجال الرحلة والجغرافية.

ولا يخلو هذا القرن من رحالة آخرين أمثال أبي الوليد الأزرقي⁽³⁰⁸⁾ (ت250هـ) صاحب كتاب: (أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار)، والفاكهي⁽³⁰⁹⁾ (ت242هـ) ومصنفه (كتاب مكة وأخبارها في الجاهلية والإسلام)، وغيرهم.

وبعد اتساع الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (ق10م)، ووصول الإسلام إلى أنحاء العالم، استطاع الرحالة والتجار العرب نشر نداء الإسلام في المناطق التي لم تصلها الفتوحات الإسلامية، بالإضافة إلى إرسال بعثات دينية لتعليم الدين الحنيف في المناطق الإسلامية الجديدة، لذلك تعددت الرحلات وازدهرت الحضارة الإسلامية، وهذا ما أدى إلى ظهور خرائط للبلاد الإسلامية لأول مرة، وهو ما سمي بـ: "أطلس الإسلام"، كما ظهرت بعض المعاجم التي تضم أسماء الأقطار والأماكن، إضافة إلى وصول بعض الرحالة المسلمين إلى أقطار بعيدة كبلاد الروس والبلغار⁽³¹⁰⁾ وغيرها.

⁽³⁰⁷⁾ ينظر: فؤاد قنديل، (الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 133

⁽³⁰⁸⁾ أبو الوليد الأزرقي: هو أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن الوليد بن عقبة ابن الأزرق الغساني الأزرقي المكي، والأزرقي نسبة إلى جده الأزرق أبي عقبة، من شيوخه: جده أحمد بن محمد الأزرقي (ت217هـ). ينظر: أبو الوليد الأزرقي، (أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار)، تح: عبد الملك بن عبد الله بن دهب، مكتبة الأسد، (مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية)، 1424هـ/2003م، ط1، ص: 9.10/1

⁽³⁰⁹⁾ الفاكهي: هو أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي المكي، والفاكهي نسبة إلى الفاكه بن عمرو بن الحارث بن مالك بن كنانة، أما ولادته ووفاته فهي مجهولة، لكن بوقوف على سنوات وفات مشايخه، فيرجح أنه كان في القرن الثالث، من مصنفاته: (كتاب مكة وأخبارها في الجاهلية والإسلام). ينظر:

ابن النديم، (الفهرست)، م.م.س، ص: 159

⁽³¹⁰⁾ البلغار: كانت دولة قوية شرق روسيا الأروبية، عاصمتها بلغاريا بالقرب من قازان، أخضعها المغول عام 1236م، وانتقل فرع منها للغرب واندمج بصقالية بلغاريا. ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، ص: 163

ومن أهم رحالة هذا القرن: المسعودي⁽³¹¹⁾ (ت346هـ) صاحب كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، وهذا الكتاب هو حصيلة الرحلات التي قام بها خلال سنين، مسجلاً كلما شاهده وعائنه، يقول في سبب تأليفه لهذا الكتاب: "فإننا صنفنا كتابنا في أخبار الزمان، وقدمنا القول فيه في هيئة الأرض، ومدنها، وعجائبها، وبحارها وأغوارها، وجبالها، وأنهارها، وبدائع معادها وأصناف مناهلها، وأخبار غياضها، وجزائر البحار، والبحيرات الصغار، وأخبار الأبنية المعظمة، والمسكن المشرفة، وذكر شأن المبدأ، وأصل النسل، وتباين الأوطان..."

فليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ووزع أيامه بين تفاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه وإثارة كل نفيس من مكمته"⁽³¹²⁾

لقد قسم المسعودي كتاب مروج الذهب إلى قسمين كبيرين - تطرق في القسم الأول إلى بدء الخليقة وأخبار الرسل والملوك. والقسم الثاني خص به تاريخ الإسلام بشكل عام والخلافة العباسية بشكل خاص.

لهذا تستنتج أن الكاتب لم بمعظم معارف العصر وهضم ما استوعب منها واستطاع أن يجعل المشاهدة والمعينة دعامتي مصنفه، "كما لم يفته ما لعامل المحيط الجغرافي من أثره في التاريخ"⁽³¹³⁾.

إلا أن الملاحظ على رحلاته كما يقول عبد الفتاح محمد وهيبة أنه: "قد يصعب على القارئ أن يتبين متى ارتحل وأين نزل أو ما نزل؟ فضلاً عن أنه ليس من السهولة بمكان تحديد أي أقطار قطعها وأي البحار ركبها فعلاً لا قولاً"⁽³¹⁴⁾.

⁽³¹¹⁾ المسعودي: هو علي بن الحسين بن علي، من ذرية عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه)، ولذلك قيل له المسعودي، وهو شيعي رافضي، قال عنه ابن حجر: كنيه طافحة بأنه كان شيعياً معتزلياً، نشأ في بغداد وجاء مصر، ورحل في طلب العلم إلى أقصى البلاد، توفي عام 346هـ من مصنفاته: (ذخائر العلوم وما كان في سائر الدهون)، (الاستذكار لما مر في سالف الأعمار)، (التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم)، وبعض هذه المصنفات لا يزال قيد الضياع منها: (الرؤوس السبعة)، (كتاب الاستبصار)، (طب النفوس). ينظر: المسعودي أبو الحسين علي بن الحسين، (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، م.م.س، ص: 4.5.6.7/1. وينظر: أحمد بن حجر العسقلاني، (لسان الميزان)، تح: دائرة المعارف النظامية، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت - لبنان)، 1390هـ / 1971م، ط1، ص: 225/4

⁽³¹²⁾ المسعودي أبو الحسين علي بن الحسين، (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، م.م.س، ص: 9/1

⁽³¹³⁾ جورج غريب، (أدب الرحلة، تاريخه وأعلامه)، دار الثقافة، (بيروت - لبنان)، 1979م، ص: 31، 32

⁽³¹⁴⁾ عبد الفتاح محمد وهيبة، (جغرافية المسعودي بين النظرية والتطبيق)، م.م.س، ص: 28

وكان من معاصري المسعودي في هذا القرن رحالة آخر جاب الآفاق وارتحل في الأمصار لأكثر من ربع قرن وهو أبو إسحاق الاصطخري⁽³¹⁵⁾ (ت346هـ) الذي خلف لنا كتاباً يُعتد به ولا يغفل عنه الدارسون هو كتاب (المسالك والممالك) الذي استفاد منه الكثير من الرحالين والجغرافيين الذين جاءوا بعده.

وقد شكك بعض المؤرخين عند دراستهم لكتاب (المسالك والممالك) في نسبه للاصطخري، فمنهم من يؤكد اعتماده على كتاب أبو زيد البلخي⁽³¹⁶⁾ (ت322هـ) وأنه سلخ جزءاً كبيراً منه وضمه إلى كتابه بل إن بعضهم ذهب إلى القول بأن الاصطخري قد أخذ نفس العنوان الذي وضعه البلخي للكتاب وهي صورة الأرض، إلا أن هذه الآراء لم تقم على دليل قاطع ولم تؤيد ببراهين موثقة⁽³¹⁷⁾، وفي المقابل هناك من المؤرخين من أثبت أن الكتاب يعود للاصطخري، وذكروا أدلة عديدة منها ما قاله معاصره ابن حوقل: "ولقيت أبا إسحاق الفارسي [الاصطخري] وقد صور هذه الصورة لأرض السند فخلطها صور فارس فجودها وقد كنت صورت أذربيجان التي في هذه الصفحة فاستحسنها الجزيرة فاستجادهها، وأخرج التي لمصر فاسدة وللمغرب أكثرها خطأ وقال قد نظرت في مولدك وأثرك وأنا أسألك إصلاح كتابي هذا حيث ضللت فأصلحت منه غير مشكل وعزوته إليه، ثم رأيت أن أنفرد بهذا الكتاب وإصلاحه وتصويره أجمعه وإيضاحه"⁽³¹⁸⁾

وقد أصدر الاصطخري كتابه (المسالك والممالك) حوالي 318هـ أو سنة 321هـ⁽³¹⁹⁾ حيث اقتصر الاصطخري مثل غيره من الجغرافيين المسلمين على وصف بلاد الإسلام مقسماً إياها إلى

⁽³¹⁵⁾ الاصطخري إبراهيم بن محمد الفارسي، أبو إسحاق الاصطخري ويقال له الكرخي: جغرافي، من أهل إصطخر (بإيران) قام بسياحة طاف بها بلاد العرب وبعض بلاد الهند، وبلغ الأوقيانوس الأتلانتيكي، لم تكن مصادر علم البلدان موفورة في عصره، فألف كتابيه (صور الأقاليم) على اسم كتاب البلخي، و(مسالك الممالك) ونقل ياقوت عنهما أو عن أحدهما في معجم البلدان. ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 61/1

⁽³¹⁶⁾ أحمد بن سهل، أبو زيد البلخي: أحد الكبار الأفاضل من علماء الإسلام. ولد في إحدى قرى بلخ، وساح سياحة طويلة، ثم عاد وقد علت شهرته فعرض عليه حاكم تخوم بلخ وزارته فأبها وذكر له الكتابة فرضيها، فكان يعيش منها إلى أن مات في بلخ. له مؤلفات كثيرة منها (أقسام العلوم) و (شرايع الأديان) و (كتاب السياسة الكبير) و (كتاب السياسة الصغير) و (الأسماء والكنى والألقاب) و (ما يصح من أحكام النجوم) و (كتاب الشطرنج) و (أدب

السلطان والرعية). ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 134/1. وينظر: ابن النديم، (الفهرست)، م.م.س، ص: 170

⁽³¹⁷⁾ مشعل نايف عايض الدهاس، (الحجاز من خلال كتب الرحالة المشاركة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين)، مذكرة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، (مكة- المملكة العربية السعودية)، 1429هـ/2008م، ص: 79

⁽³¹⁸⁾ أبو القاسم ابن حوقل، (صورة الأرض)، د.ت، دار مكتبة الحياة، (بيروت- لبنان)، 1992م، د.ط، ص: 284

⁽³¹⁹⁾ الاصطخري، (المسالك والممالك)، د.ت، دار صادر، (بيروت- لبنان)، 2004م، د.ط، ص: 1

عشرين إقليمًا جغرافياً، يقول في مقدمة كتابه: "فصلت بلاد الإسلام عشرين إقليمًا، وابتدأت بديار العرب فجعلتها إقليمًا، لأن فيها الكعبة ومكة أم القرى وهي واسطة هذه الأقاليم، ثم أتبع ديار العرب ببحر فارس لأنه يكتنف أكثر ديار العرب، ثم ذكرت المغرب حتى انتهيت إلى مصر فذكرتها ثم..."⁽³²⁰⁾، وكل قسم عنوانه بالمملكة، كما يورد في كل قطر معلومات عن الحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات ويورد تفاصيل متفرقة عن الحاصلات والتجارة والصناعة وعن الشعوب والأجناس. ويعطي عناية خاصة للأقطار التي زارها.

إنَّ أبرز ما يميز كتاب الاضطخري عن باقي المصنفات هو كثرة الخرائط، والتي كانت تخص كل إقليم، إضافة إلى استعماله الألوان في خرائطه فرسمت الأنهار والبحار والبحيرات والمدن والجبال وطرق المواصلات والحدود الخارجية للأقاليم والصحاري بألوان مغايرة عن كل معلّم.

إن القارئ لكتاب الاضطخري يلاحظ أن منهجه في التأليف يقوم على أسس ثلاثة:

1- المشاهدة والوصف وفق الرؤية، ونجد ذلك واضحاً في حديثه عن إقليم ما وراء النهر.

2- تحرى الدقة مخالفاً غيره تارة، ومتفقاً تارة أخرى.

3- سماع الأخبار والاقتصاد في روايتها، ولقد بين ذلك في مقدمة كتابه قائلاً: "فقد يوجد

في الأخبار ولا يتعذر على من أراد تقصي شيء من ذلك من أهل كل بلد ولذلك تجوزنا في ذكر المسافات والمدن"⁽³²¹⁾

وليس معنى هذا أنه استغنى عن النقل وإنما معناه أنه تحرى الاقتصاد في الرواية وأثبت ما هو ضروري ومكمل لكتابه مما رآه متفقاً ومنهجاً في الصحة والمنطق والتصور⁽³²²⁾.

ويعتبر المقدسي⁽³²³⁾ (ت380هـ) من أشهر أعلام خطاب الرحلات والجغرافيا الذين برزوا في القرن الرابع، إذ شارك بنصيب وافر في رسم صورة للعالم الإسلامي من خلال كتابه (أحسن

⁽³²⁰⁾ الاضطخري، (المسالك والممالك)، م.س، ص: 3

⁽³²¹⁾ المصدر نفسه، ص: 3

⁽³²²⁾ ينظر: فؤاد قنديل، (الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 184

⁽³²³⁾ المقدسي: هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن أبي بكر البناء المقدسي، ولد بالقدس عام 336هـ، وسمي بالمقدسي نسبة إلى بيت المقدس، وبعضهم ينطقها المقدسي. خير الدين الزركلي، (الأعلام قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، م.م.س، ص:

التقاسيم في معرفة الأقاليم) متضمنا وصفا لطبائع الشعوب الإسلامية وخصال أهلها وطرائق عيشتهم، وتضاريس السطح ونوعية البيئة التي يعيشون بين أحضانها. وهذا يظهر في مقدمة كتابه حيث قال: "أما بعد فإنه ما زالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم ولا تنقطع أخبارهم... ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم فصنّفوا على الابتداء ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه، فرأيت أن أقصد علما قد أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكره، إلا على الأخلال وهو ذكر الأقاليم الإسلامية، وما فيها من المفاوز والبحار، والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأسواقهم وألستهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم، ونقودهم..."⁽³²⁴⁾، ويذهب بعض المؤرخين "إلى أن المقدسي هو أعظم الجغرافيين العرب في جميع العصور"⁽³²⁵⁾.

ويمثل أبو القاسم ابن حوقل⁽³²⁶⁾ مع المسعودي والاصطخري والمقدسي طليعة هذه الكوكبة من خدام خطاب الرحلة وعلم الجغرافيا، فقد تنقل بين البلدان لأكثر من ثلاثين عاما، فكان كتابه (صورة الأرض) ويسمى أيضا: (المسالك والممالك) نتاجا عن خبرات هذه الرحلات، وقد قسم كتابه إلى قسمين: قسم يضم صورة الأرض، ثم يستعرض ملامح البلاد التي زارها مبتدئا بديار العرب وبحر فارس والمغرب والأندلس وصقلية، فمصر والشام، ثم الجزيرة والعراق. وقسم يضم فارس والسند وأرمينية وآذربيجان وطبرستان وسجستان، وأخيرا الخاتمة. ويتضح من خلال هذا التقسيم أنه تقسيم جغرافي لا تقسيم تاريخي أو زمني. فالقسم الأول خصصه للدول الإسلامية في النصف الغربي من المملكة الإسلامية، والقسم الثاني خصصه لنصف الشرقي من المملكة بداية من فارس وحتى خراسان وما وراء النهر.

⁽³²⁴⁾ المقدسي، (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، د.ت، مكتبة مدبولي، (القاهرة- مصر)، 1411هـ/1991م، ط3، ص: 1

⁽³²⁵⁾ هوتسما، أرنولد باسيت، هارتمان، (موجز دائرة المعارف الإسلامية)، تر: محمد سمير سرحان، مركز الشارقة لإبداع العلمي، (الشارقة- الإمارات العربية المتحدة) 1418هـ/1998م، ط1، ص: 9579/31

⁽³²⁶⁾ ابن حوقل: هو أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي الموصل، ولد في مدينة نصيبين إحدى مدن الجزيرة، لذلك يسمى في بعض كتب السير والأخبار "ابن حوقل النصيبي" من مؤلفاته أيضا: (محاسن أهل صقلية). ينظر: ابن العديم، (بغية الطلب في تاريخ حلب)، تح: سهيل زكار، دار الفكر، (بيروت- لبنان)، ص: 117/1. وينظر: أحمد بن خلكان، (وفيات الأعيان)، تح: إحسان عباس، م.م.س، ص: 74/7

والاختلاف في تقسيم أقاليم العالم الإسلامي بين (الاصطخري وابن حوقل والمقدسي) يبدو واضحاً، وهذا راجع إلى اتساع رقعة العالم الإسلامي بسبب الفتوحات الإسلامية؛ فالاصطخري قسم العالم الإسلامي إلى عشرين إقليماً وقد سار ابن حوقل على نفس التقسيم وإن خالفهما المقدسي الذي قسم العالم الإسلامي إلى أربعة عشر إقليماً على أن التطابق في عدد الأقاليم بين الاصطخري وابن حوقل ليس وليد الصدفة فهما متعاصران وقد تقابلا وعرض الاصطخري بعض خرائطه على ابن حوقل، وقد تقدم ذلك.

كما يحتل ابن فضلان مكانة مرموقة في هذا القرن، وذلك بفضل مؤلفه المشهور (رسالة ابن فضلان) الذي كتب فيها عن رحلاته إلى بلاد البلغار، "والتي قام بها عامي (309هـ/310هـ) استجابة من ملك البلغار، الذي أسلم وأرسل إلى الخليفة المقتدر بالله⁽³²⁷⁾ يطلب منه أن يبعث إليه من يفقه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام الخفيف، ويصف له الطريق الصحيح إلى الله عز وجل... كما طلب من الخليفة أن يبعث إليه من يساعده في بناء مسجد، يتوافر له الطراز المعماري الإسلامي، وكذلك في بناء حصن يدفع عن بلاده الأعداء من الملوك المجاورين فرحب المقتدر بالدعوة، وأمر بتشكيل بعثة دينية وهندسية إلى ملك الصقالبة برئاسة أحمد بن فضلان"⁽³²⁸⁾.

وكذلك من الرحالة المشهورين الذين شهدهم هذا القرن الناقد والأديب قدامة بن جعفر (ت337هـ) صاحب كتاب (الخراج وصنعة الكتابة)، فقد حظي بمكانة مهمة لدى الجغرافيين ورحالة العالم المبكرين في القرن الرابع الهجري، بسبب ندرت المصنفات العلمية في هذا المجال، لأن كتابه كما ذكر لنا فؤاد قنديل "اهتم بعنائه بإنتاج الأمصار التي زارها من المحاصيل كالحنطة والشعير وأسعارها وعملائها، كما يقدم إحصائيات متميزة ونادرة عن جيوش البلاد الإسلامية ومعدلتها وعدد جنودها، ولا يفوت قدامة أن يذكر المسافات بين المدن والكُور والرباطات ويورد في غير إضافة جانباً عن طبائع أهل البلاد التي مر بها وتعامل مع أبنائها، ولا يستنكف أن يذكر بعض الغرائب التي تبلغ مسامعه وهو ماضٍ يقطع الجبال والسهول، كما تقتضي مهام عمله،

⁽³²⁷⁾ المقتدر بالله: هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد، تولى الخلافة وهو بن ثلاثة عشر، عام 295هـ، واتسم عهده بكثرة النزاعات حتى أنه أنزل عن الخلافة مرتين، ثم عاد إليها لثالث مرة، لينتهي عهده بالموت قتلاً عام 320هـ عن عمر 38 عاماً. ينظر: الذهبي، (سير أعلام النبلاء)، م.م.س، ص: 43/15

⁽³²⁸⁾ ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 164

وتكشف طريقة سرده...⁽³²⁹⁾، ويعتبر كتاب (الخراج وصناعة الكتابة) أحد أهم الكتب الذي يحرص عليها المسافر أو الباحث في هذا العلم، كما أورد ذلك واعترف به ابن حوقل في كتابه (صورة الأرض) حيث يقول: "...وكان لا يفارقي كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهاني وتذكرة أبي الفرج قدامة بن جعفر"⁽³³⁰⁾

وهناك الكثير من الرحالة البارزين الذين شهدهم هذا القرن إلا أننا نكتفي بمن سبق؛ لكن لا بأس بالإشارة إليهم وهم: الأسواني⁽³³¹⁾ صاحب أول رحلة إلى بلاد التُّوبَة⁽³³²⁾، وابن الحائك الهمداني⁽³³³⁾ (ت366هـ) ومِسْعَرُ بْنُ مُهَلِّهِلٍ⁽³³⁴⁾ (ت390هـ)، وغيرهم، ولكل هؤلاء طريقة وأسلوب ونتاج مستقل في مؤلفاتهم الرحلية.

ولم يخل القرن الخامس هجري (ق11م) من الرحلات المهمة كرحلة البيروني⁽³³⁵⁾ (ت440هـ) إلى الهند، وذلك في الفتوحات التي قام بها مع السلطان محمود الغزنوي⁽³³⁶⁾ (ت481هـ) إلى بلاد الهند، وكان البيروني يقوم بدراسة علوم الهنود ويدون ما يشاهده في تلك البلاد، وكتابه الذي دون فيه تلك الرحلة العظيمة أسماه: (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) ويسمى

⁽³²⁹⁾ ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.س، ص: 193

⁽³³⁰⁾ أبو القاسم ابن حوقل، (صورة الأرض)، م.م.س، ص: 284

⁽³³¹⁾ الأسواني: هو عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني، الرحالة، الجغرافي، والأسواني نسبة إلى مدينة أسوان جنوب مصر، له مصنف: (أخبار بلاد النوبة)، ينظر: تقى الدين أبي العباس المقرئزي، (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1418هـ، ط1، ص: 352/1

⁽³³²⁾ بلاد النوبة: هي المنطقة الممتدة جنوب مصر إلى شمال السودان، وسكانها النوبيون، والواحد نوبي. ينظر: عبد الحليم نور الدين، (تاريخ وآثار النوبة)، مكتبة الإسكندرية، (الإسكندرية- مصر)، د.ط، ص: 2

⁽³³³⁾ ابن الحائل الهمداني: هو الحسن بن أحمد بن يعقوب، من بني همدان، أبو محمد: مؤرخ، عالم بالأنساب عارف بالفلك والفلسفة والأدب، شاعر مكثر، من أهل اليمن. كان يعرف بابن الحائك، وبالنسابة، وبابن ذي الدمينية نسبة إلى أحد أجداده: ذي الدمينية بن عمرو، ولد ونشأ بصنعاء وأقام على مقربة منها في بلدة (رَيْدَة) ، وطاف

البلاد، واستقر بمكة زمنا. من تصانيفه: (الإكليل)، و(سائر الحكمة)، و(القوي)، و(البعسب). ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 179/2، 180

⁽³³⁴⁾ مِسْعَرُ بْنُ مُهَلِّهِلٍ: هو أبو دُلْفٍ مِسْعَرُ بْنُ مُهَلِّهِلٍ الْخَزْرَجِيُّ الْيَبُوعِيُّ، عُرف بمهارته في الجمع بين الجد والهزل، وأشهر أشعاره (القصيدة الساسانية)، وهي قصيدة طويلة نظمها للوزير صاحب بن عباد الطالقاني، وله من الكتب: كتاب (السلاح)، كتاب (التره)، كتاب (سياسة الملوك). ينظر: ابن النديم، (الفهرست)، م.م.س، ص: 169

⁽³³⁵⁾ البيروني: هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، العالم، الرياضي، الفيلسوف، الفلكي، الجغرافي، ولد في ذي الحجة 362هـ في بلدة بيرون في إقليم خوارزم (تركستان حاليا)، وسمي الخوارزمي لأن أهل خوارزم يسمون الغريب بهذا الاسم، لأنه لما طالت غربته عنهم صار غريبا، اطلع على فلسفة اليونانيين والهنود، حظي باهتمام ملوك عصره، خلف وراءه مصنفات عديدة منها: (القانون المسعودي في الهيئة والنجوم)، و(تحقيق منازل القمر)، و(رؤية الأهلّة)، و(الصيدلة في الطب)، و(عشر مقالات في خواص الهندسة والطبيعة والفلك). ينظر: ياقوت الحموي، (معجم الأدياء)، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1993م، ط1، ص: 2330/5. وينظر: عاطف محمد، (رائد علم الفلك البيروني)، دار اللطائف، (القاهرة- مصر)، 2003م، ط1، ص: 3

⁽³³⁶⁾ السلطان محمود الغزنوي: هو إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سُبُكْتِكِينِ الْغَزْنَوي، وليّ الملك بعد أخيه فَرخ زاد في عهد الخلافة العباسية سنة 451هـ، ففتح حصونا امتنعت عن أبيه وجدّه، فتح الهند عام 472هـ، وامتدت سلطته على أفغانستان وتركستان وخراسان وطبرستان وسجستان. توفي عام 481هـ ينظر: عبد الحي فخر الدين الحسني، (الإعلام بمن في تاريخ الهند من أعلام- المسمى: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والتواظر)، ط1، دار بن حزم، (بيروت- لبنان)، 1999/1420م، ط1، ص:

أيضاً: (الهند الكبير)، وهو ليس كتاباً في الجغرافيا أو خطاب الرحلات فحسب، بل يتضمن أيضاً آراء في الدين والفلسفة والتاريخ.

يقول في مقدمة كتابه: "... وإنما هو كتاب حكاية فأورد كلام الهند على وجهه وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقاربة بينهم، فإنّ فلاسفتهم وإن تحرّروا التحقيق، فإنّهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامّهم عن رموز نحلّتهم ومواضع ناموسهم، ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم..." (337)

ومن رحالة القرن الخامس ابن بطلان⁽³³⁸⁾ (ت440هـ) الذي كان يرتحل من بلد إلى آخر لطلب العلم واكتشاف الجديد في الطب والفكر، فقد برع في الطب حتى فاق أساتذته، ووضع فيه مؤلفات عديدة أهمها: (تقويم الصحة)، (دعوة الأطباء)، (المدخل إلى الطب)، (عمدة الطبيب). وقد ترجمت معظم مؤلفات ابن بطلان إلى عدد من اللغات الأجنبية خاصة اللاتينية، كما حققت في عدة جامعات أوروبية.

ولا يكاد يختلف القرن السادس الهجري (ق12م)، كثيراً عن القرن الرابع والخامس من حيث الإنجاز الرحلي والجغرافي، إلا أنه تميز بقوة هؤلاء الرحالة وأهمية الآثار التي خلفوها، والمناهج التي انتهجوها في جمع المادة وتدوين المشاهدات، مما أحدث نقلة كبرى في هذا المجال، حيث أن الرحالة في القرون التي سبقت كان اهتمامهم منصباً على تسجيل الجوانب الجغرافية المتعلقة بالبلدان التي زاروها، أما في القرن السادس فتطورت إلى سرد تجربتهم الشخصية، وذلك بذكرهم لكثير من خصوصياتهم، مشاعرهم، أفكارهم، وانتقاداتهم، كما تحول أسلوب الكتابة إلى أسلوب سردي، وقصصي يتسم بالبساطة والسلاسة.

وهكذا أصبحت الرحلات تقدم على شكل سير ذاتية، ويتصدر هذا القرن الرحالة أسامة

⁽³³⁷⁾ البيروني، (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردودة)، د.ت. دائرة المعارف العثمانية، 1377هـ/1958م، ص: 5

⁽³³⁸⁾ ابن بطلان: هو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون ابن بطلان، طبيب وفيلسوف نصراني من الكرخ بالعراق، تعلم الطب على أستاذه: أبي الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهروان الحرائي (ت369هـ)، وعبد الله أبي الفرج (ت435هـ). ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 191/7

بن مُنْقِد⁽³³⁹⁾ (ت584هـ)، وأبو بكر علي الهَرَوِي⁽³⁴⁰⁾ (ت611هـ). فالأول هو الأمير أسامة بن مُنْقِد الذي عمر أكثر من تسعين سنة أمضاها جُلّها في الترحال والصيد والحروب، خلف كتابا واحداً اشتهر بين المصنفات الرحلية، أسماه: (الاعتبار)، سرد فيه تجاربه وخبراته وذكرياته المليئة بالحروب والمغامرات، لأنّه نشأ في جوٍّ يحتشد بالحروب والغزوات.

والرحالة الثاني هو أبو بكر علي الهَرَوِي الملقب ب: (السائح) لكثرة أسفاره، فقد طاف معظم البلاد الإسلامية، وبلاد الروم، حتى ضُرب به المثل، قال جعفر بن شمس الخلافة⁽³⁴¹⁾ في رجلٍ:

أوراقُ كُدَيْتِهِ فِي بَيْتِ كُلِّ فَتًى عَلَى اتِّفَاقِ مَعَانٍ وَاخْتِلَافِ رَوِي
قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ مِنْ سَهْلٍ إِلَى جَبَلٍ كَأَنَّهُ حَطَّ ذَاكَ السَّائِحَ الْهَرَوِي

كما أفرد كتاباً مستقلاً يتناول الأبنية والآثار والعجائب سماه: (الإشارات إلى معرفة الزيارات).

ومع دخول القرن السابع هجري (ق12 و13م) شهدت المصنفات الرحلية مجموعة قيمة وثرية، لعل أشهرها كان كتاب: (مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ) لياقوت الحموي⁽³⁴²⁾ (ت626هـ)، ليس ذلك لأنّه يتكون من عدة مجلدات ضخمة تحوي بين دَفَاتِهَا مادة علمية كبيرة فحسب، بل في احتوائه أجزاء مأخوذة عن مصنفات لا تزال مفقودة إلى يومنا هذا، فقد قدم خدمات كبيرة من شأنها التعريف بعدد كبير من الأعلام والمصنفات العلمية والأدبية، والسبب في ذلك أنه كان حريصاً على ذكر مصادره مهما تعددت في المادة الواحدة.

⁽³³⁹⁾ أسامة بن مُنْقِد: هو الأمير أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مُقَلَّد بن نصر بن مُنْقِد الكِنَافِي الشَّيْزُرِيّ، الملقب: مؤيد الدولة مجد الدين، من أكابر بني مُنْقِد أصحاب قلعة شَيْزُر وعلمانهم وشجعانهم، ولد بشَيْزُر (بلدة سورية حالياً) سنة 488هـ، صحب صلاح الدين الأيوبي، له تصانيف عديدة في فنون الأدب منها: ديوانه في الشعر، (القضاء)، (الشَّيْبُ والشَّيْبَاب)، و(التاريخ البَدْرِي). توفي ليلة الثلاثاء 23 من شهر رمضان سنة 584هـ بدمشق. ينظر: أحمد بن عثمان الذهبي، (سير أعلام النبلاء)، م.م.س. ص: 166-165/21. وينظر: أحمد بن خلكان، (وفيات الأعيان)، م.م.س. ص: 196-195/1

⁽³⁴⁰⁾ أبو بكر علي الهَرَوِي: هو أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي الأصل الموصلِي المولد، ومعنى هروي: أي نسبة إلى (هَراة) وهي بلدة في خُرسان. قال عنه الذهبي: "إنه كان ساحراً مشعوذاً لعلمه بأمور الحيل والسحر"، كان مقرباً من الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب، وبنى له مدرسة بظاهر حلب التي توفي بها في رمضان 611هـ. من مصنفاته أيضاً: (الخطب الهروية)، و (عجائب الأرض ذات الطول والعرض). ينظر: أحمد بن عثمان الذهبي، (سير أعلام النبلاء)، م.م.س. ص: 57-56/22. وينظر: أحمد بن خلكان، (وفيات الأعيان)، م.م.س. ص: 347-346/3

⁽³⁴¹⁾ جعفر بن شمس الخلافة: هو أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة أبي عبد الله محمد بن شمس الخلافة مختار الأفضلي الملقب: مجد الملك، كان فاضلاً حسن الخط، وخطه مرغوب فيه لحسنه ووضبطه، توفي بمصر عام 622هـ. ينظر: أحمد بن خلكان، (وفيات الأعيان)، م.م.س. ص: 362/1.

⁽³⁴²⁾ ياقوت الحموي: هو ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، أبو عبد الله، شهاب الدين: مؤرخ ثقة، من أئمة الجغرافيين، ومن العلماء باللغة والأدب. أصله من الروم. من مصنفاته أيضاً: (إرشاد البيب إلى معرفة الأديب) المشهور تحت اسم (معجم الأديب). ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س. ص: 131/8

وقد ألف ياقوت كتابه (مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ) في حلب، وذكر في مقدمته سبب تأليفه للكتاب وما يتضمنه فقال: "أما بعد فهذا الكتاب في أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغدران. ولم أقصد بتأليفه وأصمد نفسي لتصنيفه لهوا ولا لعبا. ولكن رأيت التصدي له واجبا والانتداب له مع القدرة عليه فرضا لازما، وقضى عليه الكتاب العزيز الكريم، وهداني إليه النبأ العظيم" (343)

لذا عده فؤاد قنديل من أبرز رحالة العرب حيث يشير إلى مصنفه (مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ) قائلاً: "...يكفي الحموي لكي يكون أبرز خدام الرحلة والجغرافيا، أنه استنقذ لنا فقرات مطولة ومهمة من كتابات مؤلفين كبار، لم نعثر حتى الآن على مخطوطاتهم، وعرفنا بمؤلفين لم يكن لهم قبل معجمه شأن، ولم يرد لدى غيره عنهم ذكر" (344).

ف: (مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ) المرتب على حروف الهجاء موسوعة جغرافية لا غنى عنها، فما إن فرغ من تصنيفه حتى شعر بالجهد المضي الذي بذله في سبيل تحقيقه؛ بقول: "وعلى ذلك فإنني أقول ولا أحتشم إلى التزال كل علم في العلم ولا أنهزم: إن كتابي هذا أوحده في بابه، مؤمراً على أضرابه، لا يقوم بإبراز مثله إلا من أيد بالتوفيق، وركب في طلب في فوائده كل طريق، فغار تارة وأنجد، وطوح بنفسه فأبعد..." (345)

ثم جاء بعد الحموي عبد اللطيف البغدادي (346) (ت 629هـ) الرحالة والطبيب الذي نال شهرة واسعة بفضل كتابه الصغير الذي سماه: (الإفادَةُ والاعتبارُ فِي الْأُمُورِ الْمُشَاهِدَةِ وَالْحَوَادِثِ الْمُعَايِنَةِ بِأَرْضِ مِصْرَ)، وفيه يرصد الأحوال الاجتماعية والصحية في مصر، وبخاصة المجاعة والوباء الذين ضربا البلد عامي 597 و598هـ، حيث كان في هذه الفترة مقيماً بهذا البلد، كما يصف لنا فيضان نهر النيل، والزلازل الذي هز مصر وما حولها في تلك الفترة.

(343) ياقوت الحموي، (معجم الأديباء)، م.م.س، ص: 7/1

(344) ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 434

(345) ياقوت الحموي، (معجم الأديباء)، م.م.س، ص: 13/1

(346) عبد اللطيف البغدادي: هو أبو محمد عبد اللطيف ابن الفقيه يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد الموصلية ثم البغدادي الشافعي، ولد ببغداد عام 557هـ. له مصنفات كثيرة منها: (غريب الحديث)، (الواضحة في إعراب الفاتحة)، (الرد على الفخر الرازي في تفسير الفاتحة)، (أخبار مصر الكبير)، (مقالة في الرد على اليهود والنصارى). ينظر: أحمد بن عثمان الذهبي، (سير أعلام النبلاء)، م.م.س، ص: 320/22 - 323. وينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 419

وهذا لا يعني أنَّ البغدادي ارتحل إلى مصر فقط، بل تنوعت رحلاته وتعددت أغراضها، حيث سافر إلى القدس للقاء السلطان صلاح الدين الأيوبي، ثم قصد دمشق، ثم حلب، ثم بلاد الروم، ثم عاد إلى مصر، وقد تمثلت رحلاته ما بين رحلات علمية وسياحية إلى رحلات اقتصادية وسياسية، فقد اشتهر بملاحظته الدقيقة، ووصفه الجيد لما تراه عيناه. يقول فيه كراتشكوفسكي: " لقد دفعته نزعته العلمية كطبيب وبجائة إلى الاحتفاظ بقوة ملاحظاته ورباطة جأشه، فهو يصف لنا بهدوء وبدقة تامة الحالات الرهيبة لأكل لحوم البشر، وكيف كانوا يختطفون الأطباء الذاهبين لعيادة مرضاهم، وكيف أُحرق المجرمون الذين ثبتت عليهم تهمة أكل الغير، وكيف وجدت جثث هؤلاء المجرمين مأكولة في الصباح، وفي هذه الظروف لم يفقد عبد اللطيف حب الاستطلاع وروح البحث المتأصلين لديه، فأجرى عددا من الملاحظات التشريحية والطبية، ولا يزال كتابه في هذا الصدد محتفظا بقيمته كوثيقة إنسانية حية"⁽³⁴⁷⁾

لتشهد هذه الفترة بعد ذلك ركودا نسبيا بسبب ما شهدته الحضارة الإسلامية والعربية من اجتياح المغول لبغداد في 9 صفر 656هـ الموافق لـ 1258/02/10م، ودكهم معالم الحضارة والعمران فيها. إذ أحرقت الكثير من المؤلفات القيمة والنفيسة في مختلف المجالات العلمية والأدبية والفلسفية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، بعد أن أضرم المغول النار في بيت الحكمة، وهي إحدى أعظم مكتبات العالم القديم آنذاك، وألقوا بالكتب في نهري دجلة والفرات كما فتكوا بالكثير من أهل العلم والثقافة.

ورغم ما شهدته هذا القرن من سقوط مدينة بغداد عاصمة الدولة العباسية وحاضرة الخلافة الإسلامية، فقد استمر الخطاب الرحلي بعد ذلك في إنتاج بعض المصنفات الرحلية التي ذاع صيتها في تلك الفترة، ككتاب: (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) لزكريا

⁽³⁴⁷⁾ إغناطيوس كراتشكوفسكي، (تاريخ الأدب الجغرافي)، م.م.س، ص: 346/1

القزويني⁽³⁴⁸⁾ (ت682هـ)، و(تاريخُ المُستَبصر) ليوسف ابن يعقوب الدمشقي⁽³⁴⁹⁾ المشهور بابن الجاور (ت690هـ).

كما ظهر في هذا القرن عدد من المصنفات الرّحلية والجغرافية كان هدفها الأول إثارة الدهشة والتشويق للقارئ بسبب مبالغتها في وصف غرائب المخلوقات وعجائب البلدان، ولعل أشهرها كان كتاب: (نُخبَةُ الدَّهْرِ فِي عَجَائِبِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) لشمس الدين الدمشقيّ (ت727هـ)، أما في مجال الرحلة الجغرافية نجد مواطنه وحاكم دمشق وحلب أبو الفداء (ت732هـ) صاحب كتابي: (مُختصر تاريخ البشر) و(تقويم البلدان)، ويميل الباحثون إلى تسمية الكتاب الأول ب: (تاريخ أبي الفداء)، والكتاب الثاني ب: (جُغرافيّة أبي الفداء)⁽³⁵⁰⁾ وأخذ الكتابان شهرة واسعة في مصنفات الرحلة والجغرافيا.

وفي القرن الثامن شهدت مصنفات الرحلات المشرقية تقهقراً واضحاً؛ فلا نجد إلّا بعض الجهود المتواضعة أمثال: سليمان المهري صاحب كتاب: (العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية)، وعبد الباسط بن خليل⁽³⁵¹⁾ (ت920هـ) صاحب كتاب (الرّوض الباسم في أخبار من مضى من العوالم).

واستمرّت المصنفات الرّحلية في التقهقر والتقلص والاضمحلال حتى كادت أن تندثر في فترة ما بين القرن التاسع الهجري (ق15م) إلى نهاية القرن الثاني عشر هجري (ق16م)، وهذا راجع إلى عدة أمور لعل أهمها:

1- المشكلات السياسية والاقتصادية التي لحقت بالعالم العربي.

⁽³⁴⁸⁾ زكريا القزويني: هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني. ولد عام 605هـ بقزوين (إيران)، إضافة إلى كتاب (عجائب المخلوقات) له: (آثار البلاد وأخبار العباد) مطبوع في مجلدين، و(حطط مصر). توفي عام 682هـ. ينظر: زكريا القزويني، (عجائب المخلوقات وعجائب الموجودات)، د.ت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت- لبنان)، 1421/2000م، ط1، ص: 5. وينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، م.م.س، ص: 46/3

⁽³⁴⁹⁾ يوسف ابن يعقوب الدمشقي: هو يوسف بن يعقوب بن محمد بن علي الشيباني الدمشقي، أبو الفتح جمال الدين ابن الجاور، مؤرخ، عالم بالحديث، ومن الكتاب أشهر مصنفاته: (تاريخ المستبصر). ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، م.م.س، ص: 208/8

⁽³⁵⁰⁾ ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 434

⁽³⁵¹⁾ عبد الباسط بن خليل: هو زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين الشيباني الملقب ثم القاهري الحنفي، ولد في رجب سنة 844هـ، بملطية ونشأ بها. ينظر: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع)، دار الجيل، (بيروت- لبنان)، 1412/1992م، ط1 ص: 27/4

2- سقوط الأندلس وزوال دولة الإسلام من إسبانيا.

3- التراع على السلطة وسقوط كل دولة تحت عبء مشكلاتها الداخلية⁽³⁵²⁾

لهذا كانت هذه الفترة عقيمة وراكدة من حيث الرحلات، إلا أننا نلمح بعض الرحالة الذين برزوا رغم صعوبة هذه الفترة، أمثال: عبد الغني دمشقي النابلسي⁽³⁵³⁾ (ت1143هـ) صاحب كتاب: (الرحلة الحجازية).

ولكن مع دخول القرن الثالث عشر هجري (ق19م) سرعان ما عاد ذلك الازدهار والبروغ الذي شهدته الرحلات المشرقية وخاصة العربية، كما شهد الخطاب الرحلي تغيرا كبيرا خاصة من حيث المؤلفات، ولعل هذا راجع إلى احتكاك العرب بالغرب الوافد إلى البلدان العربية⁽³⁵⁴⁾، خاصة وقد نتج عن هذا الاحتكاك تحول وجهة بعض الرحلات نحو الغرب كباريس ولندن بعدما كانت منصبة على الحجاز ومصر وبغداد.

فمن رحالة القرن الثالث عشر هجري نذكر أول من بدأها إلى أوروبا وهو رفاة رافع الطهطاوي⁽³⁵⁵⁾ (ت1290هـ) بكتابه: (تلخيص الإبريز في تلخيص باريز) أو (الديوان النفيس بإيوان باريس)، وذلك عندما رشحه شيخه حسن العطار عند محمد علي⁽³⁵⁶⁾ ليجعله مشرفاً على

⁽³⁵²⁾ فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 81

⁽³⁵³⁾ عبد الغني النابلسي: هو عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي، ولد سنة 1050هـ، من مصنفاته: (حلية الذهب الإبريز في رحلة بعلبك)، (الحقيقة والحجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز)، (تعطير الأنام في تعبير المنام)، كما له عدة دواوين شعرية. ينظر: أحمد البديري الحلاق، (حوادث دمشق اليومية)، تح: أحمد عزت عبد الكريم، الجمعية المصرية لدراسات التاريخية، (القاهرة - مصر)، 1959م، د.ط، ص: 151

⁽³⁵⁴⁾ فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 81

⁽³⁵⁵⁾ رفاة الطهطاوي: هو رفاة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي، عالم مصري، من أركان نهضة مصر العلمية في العصر الحديث. ولد في طهطا، وقصد القاهرة سنة 1223هـ فتعلم في الأزهر. وأرسلته الحكومة المصرية إماماً للصلاة والوعظ مع بعثة من الشبان أوفدتم إلى أوربة لتلقي العلوم الحديثة، فدرس الفرنسية وثقف الجغرافية والتاريخ. ولما عاد إلى مصر ولي رئاسة الترجمة في المدرسة الطبية، وأنشأ جريدة (الوقائع المصرية) وألف وترجم عن الفرنسية كتباً كثيرة، منها (قلائد المفاجر في غرائب عادات الأوائل والأواخر) مترجم، وأصله لدينج **Depping**، (المعادن النافعة) لفيرارد

Ferard. ينظر: الزركلي، (الأعلام قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، م.م.س، ص: 29/3

⁽³⁵⁶⁾ محمد علي باشا: مؤسس آخر دولة ملكية بمصر. ألباني الأصل، مستعرب. ولد في قولة (التابعة الآن لليونان، وكانت من البلاد العثمانية). عين والي لمصر (سنة 1220)، فعنى بتنظيم حكومتها، وأنشأ السفن في النيل، وضم معظم السودان الشرقي إلى مصر، وأنشأ في الإسكندرية دار صناعة (ترسانة) للسفن. واستولى على سورية ولم تلبث أن انتزعت منه بعد أن جعلت له الدولة العثمانية حكم مصر وراثياً (سنة 1257) وكثرت في أيامه المدارس. ينظر:

الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 298/6

رحلة التلاميذ وإماما للبعثة العلمية إلى باريس في فرنسا ليكون المشرف عليهم ويرعاهم ويسجل أفعالهم. نصحه مدير الرحلة الفرنسي بأن يتعلم اللغة الفرنسية وأن يترجم مدوناته في كتاب، ولقد قضى خمس سنوات في التدوين والترجمة في كتاب (تلخيص الإبريز في تلخيص باريز). بقى الطهطاوي في باريس من 1324 إلى 1347هـ⁽³⁵⁷⁾.

وقد ذكر الطهطاوي غرضه من الرحلة والتي ستكون موجزًا عن العلوم والصنائع كما يراها الإفرنج، وقد وعد أن يكون تناول هذه الموضوعات سهلاً، حتى يمكن لكل الناس الاستفادة منه. يقول: " وليست هذه الرحلة مقتصرة على ذكر السفر ووقائه، بل هي مشتملة أيضاً على ثمرته وغرضه، وفيها إيجاز العلوم والصنائع المطلوبة، والتكلم عليها، وعلى طريق تدوين الإفرنج لها، واعتقادهم فيها، وتأسيسهم لها؛ ولذلك نسبت في غالب الأوقات الأشياء التي هي محل للنظر أو للاختلاف، مشيراً إلى أن قصدي مجرد حكايتها"⁽³⁵⁸⁾

ومما ذكره رفاة عن رحلته إلى فرنسا؛ غريب العادات وعجيب المناظر التي شاهدها وذلك عندما رأى كل شيء هنالك مخالفاً للشريعة الإسلامية والتي كادت أن تصيبه بصدمة كبيرة أفقدته عقله لبعض الوقت، خاصة عندما رأى النساء يسرن في الشوارع والطرق شبه عاريات يراقصن رجالاً غير أزواجهن ويشربن الخمر، قال: " ولا يظن الإفرنج بنسائهم ظناً سيئاً أصلاً، مع أن هفواتهن كثيرة معهم...ومن خصالهم الرديئة: قلة عفاف كثير من نسائهم...وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة. تمثل المصاحبة والملاعبة والمسايرة..."⁽³⁵⁹⁾.

استطاع رفاة الطهطاوي رسم صورة واضحة لما رآه من شئون الحياة الأوروبية ونظمها وتقاليدها خاصة صورة المرأة الفرنسية الذي أفرط في وصفها؛ فالقارئ للكتاب: (تلخيص الإبريز في تلخيص باريز) يلاحظ أن الطهطاوي قد أسهب في الحديث عن نساء باريس مع أن العنوان لا يوحي بذلك.

⁽³⁵⁷⁾ ينظر: عبد المنعم إبراهيم الجميبي، (حركة الترجمة وتحديث اللغة والثقافة العربية في مصر خلال القرن التاسع عشر - دراسة تاريخية ثقافية-)، مجلة

دراسات العالم الإسلامي، فبراير 2012م، المجلد: 5، العدد: 1 و2، ص: 2

⁽³⁵⁸⁾ رفاة رافع الطهطاوي، (تلخيص الإبريز في تلخيص باريز)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، (القاهرة- مصر)، 2012م، د.ط، ص: 11

⁽³⁵⁹⁾ الطهطاوي، (تلخيص الإبريز في تلخيص باريز)، م.س، ص: 88، 87

ومع ذلك فالكتاب يعد أوفى مصدر مباشر لدراسة البعثة التعليمية المصرية التي أرسلت إلى فرنسا في ذلك الوقت، إذ إنه يحتوي على معلومات تاريخية وجغرافية وسياسية واجتماعية عن ذلك البلد، فقد كان رفاة الطهطاوى يشيد بما يعجبه وينتقد ما لا يعجبه ويعقد المقارنات بين أحوال فرنسا وأحوال مصر.

ثم سار بعد ذلك على دربه كوكبة كبيرة ومتألقة من الرحالين أمثال: شهاب الدين الألوسي (ت1270هـ)، بكتابه: (غرائب الاغتراب ونزهة الألباب في الذهاب والإقامة والإياب)، وهو الرحلة الكبرى الجامعة لتراجم الرجال ممن لقيهم من علماء ومشايخ أثناء سفره إلى إسطنبول، كما يحتوي على بعض الأبحاث العلمية والأدبية التي جرت بينه وبين "عارف حكمت"⁽³⁶⁰⁾ أثناء إقامته بإسطنبول. "وقد فرغ من كتابه عام 1270هـ، وطبع ببغداد عام 1327هـ"⁽³⁶¹⁾

وكان ممن تصدر الواجهة الرحلية والأدبية في هذا القرن - أيضا- أحمد فارس الشدياق (ت1304هـ)، الذي جاب بلدانا أروبية عديدة كمالطة، وفرنسا وبريطانيا، حيث كانت رحلته الأولى إلى مالطة عام 1834م بدعوى من أميرها؛ للتعليم في مدارسهم، وتصحيح ما يصدر من مطبعتهم من كتب عربيّة، إذ كان مقيماً في تلك الفترة في مصر، وخلال إقامته في مالطة أربعة عشر عاماً عرف الحياة فيها عن قرب، فوصف طبيعتها الجغرافيّة، ومعالمها التاريخيّة وتحدّث عن عادات أهلها وأخلاقهم ولغاتهم⁽³⁶²⁾. ثم قضى في باريس ولندن أكثر من تسع سنوات، فوضع رحلته الأولى في كتاب سّماه (الواسطة في معرفة أحوال مالطة)، ورحلته الثانية في كتاب سّماه (كشف المخبا عن فنون أوروبا)⁽³⁶³⁾، وقد دوّن بعض أخبار رحلته الأولى في كتابه (السّاق على السّاق في ما هو الفرياق).

⁽³⁶⁰⁾ عارف حكمت هو: أحمد عارف حكمت بن إبراهيم بن عصمت بن إسماعيل رائف باشا، قاض، تركي المنشأ، مستعرب، اشتهر بخزانة كتب عظيمة له في المدينة المنورة، تعرف إلى اليوم بمكتبة عارف حكمت. توفي عام 1275هـ. ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 141/1

⁽³⁶¹⁾ ينظر: محمود شكري الألوسي، (المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر)، تح: عبد الله الجبوري، دار العلوم للطباعة والنشر، (الرياض - المملكة العربية السعودية)، 1402هـ/1982م، ص: 75

⁽³⁶²⁾ ينظر: الشدياق أحمد فارس، (الواسطة في معرفة أحوال مالطة و كشف المخبا عن فنون أوروبا)، تح:غادة خوري، دار كتب، (بيروت - لبنان)، 2002م، ص: 12

⁽³⁶³⁾ ينظر: وفاء يوسف إبراهيم زيادي، (الأجناس الأدبية في كتاب "السّاق على السّاق في ما هو الفرياق" لأحمد فارس الشدياق - دراسة أدبية نقدية -، جامعة النجاح الوطنية، مذكرة ماجستير، (نابلس - فلسطين)، 2009م، ص: 133، 132،

وقد بين محمد عبد الغني حسن أن رحلات الشدياق قد زوّدتَه بالعلم والمعرفة، وأحيت بالعمل ما مثله الكتاب بالتّظر، ولا شيء مثل التجربة في الحياة، والمعاناة فيها بالعين المجردة⁽³⁶⁴⁾. وأكد ذلك شفيق البقاعي، فقال: "ومن خلال حله وترحاله بين القارّات الثلاث آسيا وإفريقيا ثمّ أوروبا، أكسبته الحياة تجاربها، والآداب التي اطّلع عليها زوّدتَه بالفنون الجديدة"⁽³⁶⁵⁾

فتزويد الشدياق بالعلم والمعرفة، واكتساب الخبرات والتّجارب، كانت من أهم أغراض الرّحلة العامّة، وغير المباشرة التي تعدّدت عنده. ويعدّ كتابه (السّاق على السّاق) من الكتب الأدبيّة، واللغوية المهمّة التي ألّفها، حيث استطاع الجمع بين القديم والجديد من الأجناس الأدبيّة.

وكان من معاصري الشدياق رحالة آخرون لا يقلون أهمية عنه أمثال: عبد الله فكري^(ت1306هـ)، وسليمان البستاني^(ت1343هـ)، وقد حاول سعيد علوش في مؤلفه: "إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي" إحصاء رحلات العرب إلى الغرب خلال القرن التاسع عشر والعشرين مستبعدا كل رحلة كانت نحو أماكن أخرى، وقد تجاوزت هذه الرحلات التي أحصاها الثمانين عنوانا⁽³⁶⁶⁾.

ولو حاولنا أن نعدد كل رحلات الثالث عشر الهجري فإنها ستأخذ منا وقتا طويلا؛ لأن هذا القرن ضم أكبر عدد من المؤلفات الرحلية، وإن كانت هناك رحلات سبقت هذا الزمن بكثير، إلا أنّها لم تكن بهذا القدر من الإنتاج الرحلي المكتوب.

وبعد أن كثر الاحتكاك والتأثر بالحضارة الأوروبية، وتحددت معالم العلوم لم يخلو القرن العشرين من رحالته وأدبائه البارزين أمثال: أمين الريحاني^(ت1359هـ)، ومحمد حسين هيكل

⁽³⁶⁴⁾ ينظر: حسن محمد عبد الغني، (أحمد فارس الشدياق)، دار مصر للطباعة، د.ت، ص: 50

⁽³⁶⁵⁾ البقاعي شفيق، (أدب عصر النهضة)، دار العلم للملايين، (بيروت- لبنان)، 1990م، ط1، ص: 187

⁽³⁶⁶⁾ سعيد علوش، (إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي- دراسة مقارنة-)، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء-المغرب)، 1986م

(ت1376هـ)، ومحمد الحضرمي حسين (ت1377هـ)، وطه حسين (ت1393هـ)، والكثيرون
غيرهم⁽³⁶⁷⁾.

بعد أن وقفنا على مسار خطاب الرحلة في المشرق من منتصف القرن الثاني حتى القرن الثالث
عشر الهجري، تبين كيف أن هذا اللون الأدبي يشكل مادة قيمة وضخمة، وهذا مرده إلى سببين
أساسيين، أولهما هو رسم المعالم الجغرافية لدول العالم، والثاني نبع أصيل هو البوتقة الإبداعية
القصصية والروائية التي يتميز بها العربي فدفعته إلى صياغة رحلته في مدونة يوجهها للقراء. إلا أن
حديثنا عن المشرق يجعلنا نتساءل: هل سنجد تلك السمة الإبداعية والقيمة الأدبية التي شهدتها
المشرق لو ولينا وجهة هذه الدراسة شطر المغرب؟

⁽³⁶⁷⁾ ينظر: حسني محمد حسين، (أدب الرحلة عند العرب)، م.م.س، ص: 15

المبحث الثاني: خِطَابُ الرَّحَلَةِ الْمَغَارِبِيَّةِ فِي التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ

عَرَفَ الخطاب الرَّحَلِي انطلاقاً من القرنين الرابع والخامس الهجريين تطوراً ملحوظاً حيث انسجمت فيه المادة العلمية والإطار الأدبي، إذ يمكننا الاطلاع على معلومات تاريخية وجغرافية وحتى سياسية واقتصادية عن البلدان التي زارها هؤلاء الرحالة خلال تجوالهم وتنقلاتهم.

ورغم أن السبق كان للرحالة المشاركة لما قدموه على مر العصور من "خدمات جليلة في دراسة أحوال البلاد العربية والإسلامية من مختلف نواحيها، ولا سيما الجغرافية منها، إضافة إلى ذلك تعدت رحلاتهم وأخبارهم إلى بلدان أجنبية أخرى في آسيا وإفريقيا وأوروبا فيما بعد"⁽³⁶⁸⁾، "ولذلك كان للرحالة المشاركة فضل كبير لما قدموه للإنسانية كجغرافيين، حيث أسهموا عن طريق المعلومات التي نقلوها عن البلدان التي حلوا بها بتقديم مواد جغرافية جديدة وذات قيمة عظيمة"⁽³⁶⁹⁾.

انتقل هذا اللون الأدبي إلى المغرب العربي ابتداءً من القرن الخامس فكانت تلك الرحلات المستمرة من قبل رحالة المغرب، لتكون حصيلة كل ذلك إبداعاً فني رفيع من خطاب الرحلات الذي ظل متواصلاً، فكان بمثابة الفتح الجديد الذي يضاف إلى رصيد الحضارة الإسلامية والعربية، وقد أصبحت فيه المساهمة المغربية رائدة بدون منازع، وقد ساعدت مثل هذه الرحلات في تقريب الأجواء الثقافية وتوصيل مختلف المعارف، ولا يخفى علينا الاهتمام المتزايد من قبل الرحالة المغاربة بكل ما يجد في المشرق العربي حتى أصبح الكثير من علمائه على دراية واسعة بما فيه من مستجدات ثقافية أكثر مما عرفوه عن أوطانهم⁽³⁷⁰⁾. على غرار أحمد بن عمر العُدْرِيّ الأندلسي⁽³⁷¹⁾ (ت 478هـ) صاحب كتاب: (نظام المرجان في المسالك والممالك)، والذي ارتحل

⁽³⁶⁸⁾ ينظر: حسني محمد حسين، (أدب الرحلة عند العرب)، م.م.س، ص: 8

⁽³⁶⁹⁾ ينظر: المرجع نفسه، ص: 8

⁽³⁷⁰⁾ ينظر: عبد الله حمادي، (دراسات في الأدب المغربي القديم)، دار البعث للطباعة والنشر، (الجزائر)، 1406هـ/1986م، ط1، ص: 126

⁽³⁷¹⁾ أحمد بن عمر العُدْرِيّ الأندلسي: هو أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس بن دلهات بن أنس بن فلدان بن عمر بن منيب العُدْرِيّ الأندلسي، الإمام، الخافض، المحدث، ولد عام 393هـ بقرية المرية، ومات في شعبان سنة 478هـ. من مصنفاته أيضاً: (دلائل النبوة)، ينظر: الذهبي، (سير أعلام النبلاء)، م.م.س، ص: 567/18، 568

إلى الشرق وعاش في مكة تسعة أعوام، وأبو عبيد البكري⁽³⁷²⁾ (ت487هـ)؛ صاحب كتابي: (المسالك والممالك) و(معجم ما

استعجم من أسماء الأماكن والبقاع)، وهذا الأخير يعتبر أول معجم جغرافي يتناول أسماء عدد كبير من المدن والبلدان الإسلامية وما يخصها من الأخبار والأشعار.

ليأتي بعد ذلك أول علم مهد لخطاب الرحلات في المغرب العربي وهو الرحالة أبو بكر بن العربي الإشبيلي⁽³⁷³⁾ (ت542هـ) من خلال رحلاته التي خلفها لنا في كتاب سماه (ترتيب الرحلة للترغيب في الملة)، وبذلك كان أول من استعمل لفظ "رحلة" مقارنة بالمؤلفات الرحلية التي سبقته، وكتابه (ترتيب الرحلة للترغيب في الملة) قدم لنا مادة ضخمة تحفل بالمعلومات الثقافية والاجتماعية عن البلدان التي طاف بها منذ خروجه من إشبيلية سنة 484هـ وهو ابن ست عشرة سنة بمصر ودمشق وبغداد ومكة والقدس ثم ليعود بعد ذلك إلى مسقط رأسه إشبيلية⁽³⁷⁴⁾.

وكتاب (ترتيب الرحلة للترغيب في الملة) لا يزال مفقودا إلى يومنا هذا؛ عدا بعض الفقرات التي نجدها منتشرة في كتبه الأخرى ككتاب (قانون التأويل) وكتاب (شواهد الجلة والأعيان)⁽³⁷⁵⁾

تواتر لدى المؤرخين أن كتاب (ترتيب الرحلة للترغيب في الملة) لابن العربي يعتبر بمثابة سجل متكامل عن رحلته المشرقية، فقد رصد فيه معلومات في غاية الأهمية عن الطرق والتضاريس والمناخ والسكان والمنتجات الزراعية وغيرها، كما نوه فيه عن العلماء الذين التقى بهم ودرس عليهم في مراكز العلوم الإسلامية.

⁽³⁷²⁾ البكري: هو أبو عبيد هب الله بن عبد العزيز بن أبي مصعب البكري الأندلسي، نزيل قرطبة، حدّث عن: أبي مروان بن حيان، وأبي بكر المصفي، وأجاز له: أبو عمر بن عبد البر، حدث عنه: محمد بن معمر المالقي، ومحمد بن عبد العزيز بن اللّحمي، توفي عام 487هـ. من مصنفاته أيضاً: (النبات)، و(أعلام النبوة)، و(اشتقاق الأسماء) وعمل (شرح كتاب الأمالي للقبلي). ينظر: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (سير أعلام النبلاء)، م.م.س، ص: 36، 35/19.

⁽³⁷³⁾ أبو بكر بن العربي: هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري، الإشبيلي، المالكي. ولد سنة 468هـ والمتوفى سنة 543هـ. له مصنفات عديدة منها: (كوكب الحديث والمسلسلات)، وكتاب (الأصناف) في الفقه، (أمهات المسائل)، (ستر العورة)، (الخصول) في الأصول، (حسم الداء في الكلام على حديث السوداء). توفي بفاس في: ربيع الثاني 543هـ. ينظر: الذهبي، (سير أعلام النبلاء)، م.م.س، ص: 197، 198/20. وينظر: أحمد بن خلكان، (وفيات الأعيان)، تح: إحسان عباس، م.م.س، ص: 74/7. وينظر: حاجي خليفة، (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)، م.م.س، ص: 1792/2.

⁽³⁷⁴⁾ ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 335.

⁽³⁷⁵⁾ ينظر: المرجع نفسه، ص: 335.

مما لاشك فيه أن ابن العربي أجاد في وصف مختلف الجوانب لشتى العوالم. "كما أجمع المؤرخون أن ابن العربي أول رحالة أندلسي يدون بطريقة علمية رحلته المشرقية، لذا لا عجب أن يتوج ابن العربي بأنه مبتكر خطاب الرحلات في المغرب العربي"⁽³⁷⁶⁾.

لتشهد الرحلة في القرن السادس (ق12م) تطورا وتقدما بخطوات معتبرة جدا حيث "اهتم أهل المغرب للتاريخ والجغرافيا والرحلات... كما اهتموا لسائر العلوم، وقد شمل تاريخهم السير والتراجم وتاريخ الملوك، وتاريخ البلدان وما إلى ذلك، وقد ضربوا في البلاد والبحار للعلم والحج والسفارة والتجارة والاكتشاف ودونوا أخبارهم ونتائج تجاربهم ومشاهداتهم"⁽³⁷⁷⁾، فكان لخطاب الرحلات في المغرب العربي انتعاش كبير بفضل جهود الرحالة الأوائل الذين كرسوا حياتهم للعلم والمعرفة فاتسع مجال هذا الفن بمستوى أدبي متطور عكسته النماذج المنجزة في هذا الفن؛ وكان أبرز أعلام هذا الفن في القرن السادس الشريف الإدريسي⁽³⁷⁸⁾ (ت560هـ) بفضل مصنفه: (نُزْهَةُ المُشْتَقِ فِي اخْتِرَاقِ الآفَاقِ)، "الذي يعتبر دليل أوروبا الأول في علم البلدان لعدة قرون، اعتمدت عليه مئات الأبحاث والرحلات الاستكشافية والبعثات العلمية"⁽³⁷⁹⁾

بدأ الإدريسي أسفاره مبكرا، فزار المغرب وقرطبة ولشبونة وسواحل فرنسا وإنجلترا وصقلية وآسيا الصغرى فوصف هذه البلدان وجمع مادة عظيمة. كما وضع خرائط لجميع أنحاء العالم، "وصمم خريطتين نموذجيتين تصور كافة تضاريس العالم، وقدمها لحاكم صقلية روجر الثاني⁽³⁸⁰⁾ إحداهما كرة من الفضة والأخرى على لوح مسطح من فضة كذلك، أما الكرة الفضية فقد فقدت ولم تبق

⁽³⁷⁶⁾ ينظر: علي عبد الله الدفاع، (رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية)، م.م.س، ص: 147

⁽³⁷⁷⁾ حنا الفاخوري، (الموجز في الأدب العربي وتاريخه)، دار الجليل، (بيروت- لبنان)، 1985م، ط1، ص: 306/3

⁽³⁷⁸⁾ الشريف الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي الحسني الطالبي، أبو عبد الله: مؤرخ، من أكابر العلماء بالجغرافية، من أدارسة المغرب الأقصى. ولد في سبتة ونشأ وتعلم بقرطبة. ورحل رحلة طويلة انتهى بها إلى صقلية. وللإدريسي أيضا (الجامع لصفات أشنات النبات) استفاد منه ابن البيطار، و(روض الأنس ونزهة النفس) ويعرف بالممالك والمسالك، و(أنس المهج وروض الفرج). ينظر: حاجي خليفة، (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)، م.م.س، ص: 1947/2. وينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 24/7

⁽³⁷⁹⁾ فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 338

⁽³⁸⁰⁾ روجر الثاني (Roger II): ملك صقلية وابن كونت صقلية روجر الأول وخلفه ابنه ويليام الأول ملك صقلية. بدأ حكمه كونت صقلية في 1105م وأصبح لاحقا دوق بوليا وكالابريا 1127م ثم ملك صقلية الأول 1130م حتى وفاته في 1154م. ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون، (تاريخ ابن خلدون)، تح: خليل شحادة، دار الفكر، (بيروت- لبنان)، 1408هـ/1988م، ط2، ص: 58/1، 62

سوى الخريطة المسطحة التي سماها الإدريسي لوح الرسم والتي رسمها واعتمد عليها أسماء البحار والبلدان والجبال والأنهار والخلجان والطرق وغيرها"⁽³⁸¹⁾.

وكان من أبرز الأعلام المعاصرين للإدريسي في تلك الفترة، أبو حامد الغرناطي⁽³⁸²⁾ (565هـ) الذي قال فيه فؤاد قنديل: "ويكاد في نظرنا يبلغ ابن بطوطة، وإن لم ينل من التعريف والدرس ما يحقق له الشهرة اللائقة"⁽³⁸³⁾

شغف أبو حامد بالرحلة فطاف "بإفريقية الشمالية وصقلية، وزار مصر والشام والعراق، ثم تحول إلى ناحية البحر الأسود (بحر الخرز) وتوغل في بلاد البلغار وبلاد الصقالبة وإقليم باشغرد الواقع بين البلغار والقسطنطينية حيث قضى أكثر من ربع قرن يرتحل بين هذه البلدان"⁽³⁸⁴⁾، فكان نتاج هذا الترحال وضع كتابين على درجة كبيرة من الأهمية هما: (المُعْرَبُ عَن بَعْضِ عَجَائِبِ الْمُعْرَبِ)، (تُحْفَةُ الْأَبَابِ وَنُحْبَةُ الْأَعْجَابِ).

أما الكتاب الأول فليس هو بالكبير كما يُتوقع على ما يليق برحالة هذا حجمه وهذه تجربته، وربما هذا راجع إلى عنايته بما هو غريب وعجيب فقط. من ذلك ما يذكره عن عين غرناطة وشجرة الزيتون: "وبقرب غرناطة جبل عليه الثلج لا يفارقه أبدا صيفا ولا شتاء لا يقدر أحد من بني آدم الصعود إليه، وبالقرب من هذا الجبل آثار كنيسة عندها عين من الماء شجرة زيتون، ويخرج الناس ويقصدون تلك الشجرة الزيتونية زمان الربيع في يوم معروف فإذا طلعت الشمس من ذلك اليوم فاضت تلك العين بماء كثير فظهر على الزيتون زهر الزيتون، ثم ينعقد زيتونا ويكبر ويسود من يومه ويأخذ من قدر على أخذه ويحملون من تلك العين للتداوي"⁽³⁸⁵⁾

⁽³⁸¹⁾ ينظر: علي عبد الله الدفاع، (رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية)، م.م.س، ص: 153

⁽³⁸²⁾ أبو حامد الغرناطي: هو أبو حامد محمد بن عبد الرحيم المازني، القيسي، الغرناطي، ولد سنة 473هـ، سمع من أبي عبد الله الرازي، وأبي الحسن الفراء الموصلي، وأبي عبد الله محمد بن بركات بن هلال النحوي وغيرهم، توفي بدمشق في صفر 565هـ ينظر: أحمد بن محمد المقرئ، (نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، م.م.س، ص:

235/2-236. وينظر: الذهبي، (سير أعلام النبلاء)، م.م.س، ص: 253153/4

⁽³⁸³⁾ فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 355

⁽³⁸⁴⁾ ينظر: شوقي ضيف، (الرحلات)، م.م.س، ص: 51

⁽³⁸⁵⁾ أبو حامد الغرناطي، (المُعْرَبُ عَن بَعْضِ عَجَائِبِ الْمُعْرَبِ)، تح: إينغر بنجارانو، المجلس الأعلى لأبحاث العلمية ومعهد التعاون مع العالم العربي،

(مدريد-إسبانيا)، 1991م، ص: 11

وأما الكتاب الثاني فألفه في الموصل عام 557هـ (1162م) وذلك بناء على توصية من صديقه الشيخ أبي الحفص عمر بن محمد الأردبيلي الموصلية (ت570هـ). وقد قسم كتابه إلى أربعة أبواب:

الأول: يعطي فكرة عن (صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها)

الثاني: ويشمل (صفة عجائب البلدان وغرائب البنين)

الثالث: يتناول صفة البحار وعجائب حيواناتها، وما يخرج منها من العنبر والقار (الزفت)، وما في جزائرها من أنواع النفط والنار)

الرابع: فيحوي (صفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام)⁽³⁸⁶⁾

كما يمكن أن نلاحظ في كتابي (المغرب) و(تُحْفَةُ الألباب) لأبي حامد شكلا من السيرة الذاتية؛ كقوله في (المغرب): "ومولدي في المغرب الأقصى بجزيرة تعرف بالأندلس، فيها أربعون مدينة، ومولدي في مدينة تسمى غرناطة". وقال أيضا في (تُحْفَةُ الألباب): "فإن بلدي بأندلس واسم بلدي غرناطة، وهو بلد عظيم كبير، يقال إنه مدينة دقيانوس"⁽³⁸⁷⁾

ليشهد بعد ذلك خطاب الرحلات العربية منعظا هاما في مسيرته الأدبية مع الرحالة الشهير ابن جُبَيْر⁽³⁸⁸⁾ (ت626هـ) الذي أسهم في تطوير خطاب الرحلة العربية بشكل كبير؛ فقد دوّن رحلته على هيئة مذكرات يومية، لأنه لم يسلك سبيل غيره ممن سبقه من الرحالة في تضمين مؤلفاتهم الغرائب والعجائب التي تبدو بعيدة عن الحقيقة، فقد اختلف أسلوب ابن جبير عما سبقه؛ إذ أنه حرص على تدوين مذكراته ومشاهداته يوماً بيوم، كما اهتم بتوثيق المرويات وتسجيل خلجاته النفسية. "وعلى كثرة ما كتب وحدث وعلم، لم يترك لنا غير مجموعة من القصائد، إضافة إلى كتابه الذي يسرد فيه رحلاته، وهو بعنوان: (تَذْكَرَةُ الأَخْبَارِ عَنِ اتِّفَاقَاتِ الأَسْفَارِ) والذي نشره المستشرقون باسم: (رَحْلَةُ ابن جُبَيْر)"⁽³⁸⁹⁾

⁽³⁸⁶⁾ عبد الرحمن حميدة (أعلام الجغرافيين العرب)، م.م.س، ص: 370. وفؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 360

⁽³⁸⁷⁾ فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 355

⁽³⁸⁸⁾ ابن جُبَيْر: هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جُبَيْر الكتاني الأندلسي، ولد سنة 540هـ ببلنسية، كان رجلا متفقهة وقريبا من بلاط الحكم في غرناطة إذ

ألقبه حاكمها أبو عثمان سعيد ابن عبد المؤمن بكتاب ديوانه بعد أن لمع اسمه هناك، توفي عام 626هـ. وينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 319/5

⁽³⁸⁹⁾ فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 384

بدأ ابن جبير أولى رحلاته إلى الأراضي الحجازية يوم الخميس الثامن من شوال سنة 578هـ (1183/02/03م) بدافع الحج، يرجع سبب ذلك كما يذكر لنا المقرئ في كتابه: (نفح الطيب) "أن أمير غرناطة استدعاه يوماً ليؤلف فيه كتاباً وهو في مجلس شرابه، وحدث أن دفع إليه كأساً فأظهر ابن جبير الانقباض وقال: يا سيدي ما شربتها قط، غير أن الأمير غضب وقال: والله لتشربن منها سبعة، فلما رأى منه ابن جبير الإصرار لم يستطع إلا الإذعان وشرب، إلا أن الأمير أحس بشيء من الندم، فكافأ ابن جبير على مجاملته له، فقدم له سبعة أقداح مملوءة بالدنانير الذهبية وصبها في حجره، فحملها ابن جبير واعترم أن يكفر عن شربه الخمر بأداء فريضة الحج فباع بعض عقاراته وأضاف ثمنه إلى عطية الأمير وما هي إلا أيام حتى استأذن من الأمير في الحج، ولكي لا يحول دون سفره، أبلغه أنه أقسم قسماً لا رجعة فيه أن يحج في تلك السنة فأذن له الأمير" (390)

خرج ابن جبير من غرناطة وهو في نحو الأربعين من عمره، وكان معه جده ابن عطية وصديقه أبو جعفر الطيب وأحمد بن حسان، فركب البحر في سفينة لبعض أهل جنوة قاصداً الإسكندرية ونزل بها، وولى وجهه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر، ثم اجتاز البحر إلى جده واتجه من فوره إلى مكة، فأدى فريضة الحج ومكث بها نحو ستة أشهر⁽³⁹¹⁾، يقول في وصف مكة: "هي بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال مُحَدِّقَةٍ بها، وهي بطن واد مقدس، كبيرة مستطيلة، تسع من الخلائق ما لا يحصيه إلا الله عز وجل. ولها ثلاثة أبواب: أولها باب المعلّى، ومنه يُخرج إلى الجبّانة المباركة، وهي بالموضع الذي يعرف بالحجون. وعن يسار المار إليها جبل في أعلاه ثنية عليها علم شبيه البرج، يُخرج منها إلى طريق العمرة، وتلك الثنية تعرف ب: كداء، وهي التي عنى حسان بن ثابت (رضي الله عنه) بقوله:

عَدِمْنَا حَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّعَمَ مَوْعِدُهَا كَدَاءً"⁽³⁹²⁾

ثم قصد بعد ذلك الكوفة، فبغداد فالموصل، ولم يكن يمر مروراً عابراً بهذه الأوطان، بل كان يمكث مدة معينة يدرس ويفحص. ثم انتقل إلى الشام، وكان فيها للصليبيين مستعمرات كثيرة، فجاس خلال ديارهم، ليعود بعد ذلك إلى صقلية ثم إلى مسقط رأسه غرناطة وكان ذلك في خمسة عشرة

⁽³⁹⁰⁾ المقرئ، (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، م.م.س، ص: 385/2

⁽³⁹¹⁾ ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 386

⁽³⁹²⁾ ابن جبير، (رحلة ابن جبير)، د.ت، دار بيروت، (بيروت- لبنان)، ط1، ص: 87

محرم سنة 581هـ (1185/04/25م). ثم عاود ابن جبير رحلته إلى المشرق بعد هذه الرحلة مرتين، وهذا بعد ما سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس وأخذه من أيدي الصليبيين، فحدثه نفسه أن يزور هذه الأماكن وعلم الإسلام يرفرف عليها⁽³⁹³⁾.

وكتاب: (تَذْكِرَةُ الْأَخْبَارِ عَنِ اتِّفَاقَاتِ الْأَسْفَارِ) يسرد ما شاهدته ابن جبير في طريقه إلى حجه وعودته منه، وهي مكتوبة بشكل مذكرات يومية، والقارئ لكتاب (تَذْكِرَةُ الْأَخْبَارِ) يلاحظ توثيق ابن جبير لكل مشهد شاهده باليوم والشهر والسنة والبلد. والظاهر أنه كتبها في أوراق منفصلة، ولم يجمعها بنفسه بل جمعها بعض تلاميذه ونشروها بعد وفاته باسم (تَذْكِرَةُ الْأَخْبَارِ عَنِ اتِّفَاقَاتِ الْأَسْفَارِ) ومع ذلك فإن من نشرها في العصر الحديث من المستشرقين والعرب آثروا أن يطلقوا عليها اسم (رحلة ابن جبير)⁽³⁹⁴⁾.

يتضح للقارئ بجلاء أن كتاب (رحلة ابن جبير) يحمل بين دفتيه مادة عظيمة في ميادين مختلفة كالإقتصاد والتاريخ والجغرافية. فعندما نقرأ وصفه للبلدان التي حط بها لا يسعنا إلا أن نقول إن هذا العالم متمكن وله باع طويل في هذا الفن الأدبي. "كما نوه الكثير من المؤرخين عن وفاء ابن جبير وصدقه في تدوينه، وذلك لتركيزه بشكل كبير على توثيق مادته، لأنه يرى أن هذا واجب حتمي على كل باحث"⁽³⁹⁵⁾.

ثم استمر الإنتاج الرحلي في القرن السابع الهجري ولم يختلف كثيرا عن السادس سواء من حيث سطوع نجم أعلامه أو من حيث المصنفات الرحلية التي ذاع صيتها في هذا القرن، وهذا ما ينطبق على كتابي: (المُغْرِبُ فِي حَلِي الْمَغْرِبِ) و(المُشْرِقُ فِي حَلِي الْمَشْرِقِ) لابن سعيد المغربي الأندلسي⁽³⁹⁶⁾ (ت685هـ)، وقد جمعتهما في كتاب واحد كبير تحت اسم: (فَلَكُ الْأَرَبِ الْمُحِيطِ بِحَلِي لِسَانِ الْعَرَبِ).

⁽³⁹³⁾ ينظر: شوقي ضيف، (الرحلات)، م.م.س، ص: 81

⁽³⁹⁴⁾ ينظر: شوقي ضيف، (الرحلات)، م.م.س، ص: 81. وينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 386

⁽³⁹⁵⁾ ينظر: علي عبد الله الدفاع، (رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية)، م.م.س، ص: 174

⁽³⁹⁶⁾ ابن سعيد الأندلسي: هو أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد من آل سعيد، ولد سنة 605هـ بقلعة بحصب التي تسمى أيضا قلعة بني سعيد، وتسمى اليوم القلعة الملكية وهي بلدة تقع شمال غربي غرناطة. أخذ عن أبي الحسن بن عصفور وأبي الحسن الدباج، له مصنفات عديدة منها: (المُرْقُصُ وَالْمُطْرَبُ)، (ملوك الشعر)، (بسط الأرض في طولها وعرضها). توفي بتونس عام 685هـ. ينظر: ابن فرحون المالكي، (الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب)،

عزم ابن سعيد على أن تكون أولى رحلاته رفقة والده إلى البقاع المقدسة عام 638هـ، ثم زار الإسكندرية سنة 639هـ بعد أن سبقه والده إليها وأقام بها إلى أن توفي في الإسكندرية عام 641هـ، ثم قصد القاهرة وتعرف برجال الدولة المرموقين منهم أبو الفتح موسى بن يغمور والذي كان يومئذ رئيس الأمور بالديار المصرية، ثم سافر بعد عدة سنوات إلى حلب بدعوة من أحد

أصدقائه، وهو المؤرخ الشهير كمال الدين ابن العديم⁽³⁹⁷⁾ (ت066هـ)، ثم ارتحل إلى دمشق ليغادرها بعد سنة واحدة إلى أرمينية، ثم بغداد والموصل والبصرة، ومنها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. وعندما علم باجتياح التتار لبلاد المشرق، وهجوم هولاءكو على حلب وبغداد، وما ألحقته هذه الهجمات بالبلاد من التخريب والدمار، سرى في نفسه السخط، وقرر الاستقرار بتونس إلى أن توفاه الله عز وجل عام 685هـ⁽³⁹⁸⁾.

عاش ابن سعيد الأندلسي حياة طويلة حافلة بالأحداث والتجارب والأسفار والعمل، وهو دون شك من أعظم الرحالة الأندلسيين الذين وفدوا على المشرق ومن أشدهم أثرا فيه، "ولعل سر هذا الأثر لابن سعيد يرجع إلى أنه وفد إلى المشرق في عصر غلب على المثقفين فيه طابع الأدب ورغبة في تدوين كل بيت من الشعر يرد ذكره على لسان شاعر أو أديب مخافة أن يضيع، وهو اهتمام غلبَ على الناس بعد سقوط بغداد على أيدي التتار وضياح ألوف الكتب من جميع الجوانب، فاتجه همّ الناس إلى استرجاع ما فات واستنقاذ ما أمكن إنقاذه. إضافة إلى ذلك فإن ابن سعيد أتى إلى المشرق حاملا زادا ضخما من تراث الأندلس الفكري، فلا غرابة أن أقبل الناس على ابن سعيد إقبالا عظيما وطار اسمه كل مطار، فأصبح خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري علما من أعلام المجتمع والثقافة في المشرق والمغرب العربي معا⁽³⁹⁹⁾.

تح: محمد الأحدي أبو النور، دار التراث (القاهرة- مصر)، د.ط، ص: 112/2. وينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 451. وينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 26/5

⁽³⁹⁷⁾ ابن العديم: هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم: مؤرخ، محدث، من الكتاب. ولد بحلب، وتوفي بالقاهرة. من كتبه: (رغبة الطلب في تاريخ حلب) اختصره في كتاب آخر سماه (زبدة الحلب في تاريخ حلب) و (وصف الطب) رسالة، و (الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة). ينظر: حاجي خليفة، (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)، م.م.س، ص: 291/1. وينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 40/5

⁽³⁹⁸⁾ نوال عبد الرحمن الشوابكة، (أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، م.م.س، ص: 64، 65. وعبد الرحمن حميدة (أعلام الجغرافيين العرب)، م.م.س، ص: 489. وفؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 452

⁽³⁹⁹⁾ ينظر: حسين مؤنس، (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس)، مكتبة مذبولي، (القاهرة- مصر)، 1386هـ/1967م، ط1، ص: 464

ومن من نماذج ابن سعيد الأندلسي ما قاله في وصفه القاهرة: "لما استقررت بالقاهرة تشوّقت إلى معاينة الفسطاط⁽⁴⁰⁰⁾... ومشيت إلى أن بلغت؛ وقدرت الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين، ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرة، وتأمّلت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقاً مغبرة، ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضي إلى خراب معمور بمبان متشتتة الوضع، غير مستقيمة الشوارع، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة... إلى أن صرت في أسواقها الضيقة، فقاويت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التي على الجمال ما لا تفي به إلاّ مشاهدته ومقاساته، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع، فعانيت من ضيق الأسواق التي حوله ما ذكرت به ضده في جامع إشبيلية وجامع مرّاكش... واستحسننت ما أبصرته من حلق المتصدرين لإقراء القرآن والفقهاء والنحو في عدة أماكن، وسألت عن مواد أرزاقهم فأخبرت أنّها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك، ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب إلاّ بالجاه والتعب..."⁽⁴⁰¹⁾

ومن دلائل قوة وصفه وملاحظته - أيضا - عن الحيوانات في الأندلس، وقلة من الرحالة الذين نلمحهم التفوا إلى الحيوانات فيما زاروا من البلاد عدا أبا زكريا القزويني، يقول ابن سعيد: "واعلم أن بأرض الأندلس من الخصب والنضرة وعجائب الصنائع وغرائب الدّنيا ما لا يوجد مجموعها غالباً في غيرها،... أن السّمور الذي يعمل من وبره الفراء الرفيعة يوجد في البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية، ويجلب إلى سرقسطة ويصنع بها"⁽⁴⁰²⁾.

إنّ ما يمكن ملاحظته في كتاب (فلك الأرب المحيط بحلى لسان العرب) لابن سعيد الأندلسي، أنه كان محبا مخلصا لوطنه الأندلس، وهذا يبدو واضحا في مصنفه، وربما هذا ما جعل بعض النقاد يصفونه بالمبالغة في وصف بلاده، يقول فؤاد قنديل: "يكثّر ابن سعيد أحيانا من المبالغة خاصة ما يخص ذكر بلاده، فكل شيء فيها يراه هو النهاية والغاية، ولم ير له نظير وليس له مثيل، ولم يجد ما يفضله، أما في غير الأندلس فإنه يأسى لأحوال المشرق ويبالغ في وصف بلادهم بكثرة الأزبال والغبار وكل ما يكدر العين إلا قليلا، وقد يكون في ذلك ما ينطوي على العاطفة الجامحة التي

⁽⁴⁰⁰⁾ الفُسْطَاطُ: مدينة مصر العتيقة التي بناها عمرو بن العاص (رضي الله عنه) في موضع فسطاطة. ينظر: إبراهيم أنيس، وأحمد الزيات وآخرون، (المعجم

الوسيط)، م.م.س، ص: 688، حرف الفاء

⁽⁴⁰¹⁾ المقرّي، (نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، م.م.س، ص: 339، 340/2

⁽⁴⁰²⁾ المرجع نفسه، ص: 197/1

تنحاز للأوطان"⁽⁴⁰³⁾. ويضيف عبد الرحمن حميدة بقوله: "وكان ابن سعيد محبا لوطنه، وانعكس حنينه إلى الوطن في قصائد عاطفية عميقة"⁽⁴⁰⁴⁾

إلا أن ما خلفه لنا ابن سعيد من مصنفات بين أدب الرحلات والجغرافيا والتاريخ والشعر وغيرها ترقى به إلى أعلى مراتب معاصريه والتابعين من الرحالة والعلماء مشرقا ومغربا. يصفه المقرئ بقوله: "أديب زمانه غير مدافع، اعترف له أهل الشرق بالسبق وأهل الغرب بالإبداع. مما لا شك فيه أن أبا الحسن علي بن سعيد قد ساهم كثيرا في الأدب وتاريخه، كما أن له صولة وجولة أيضا في مجالي الجغرافية والتاريخ"⁽⁴⁰⁵⁾.

ومع نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجري (ق13م) نبع في المغرب العربي وبالتحديد المغرب الأقصى اسم رحالة وأديب آخر هو محمد العبدري⁽⁴⁰⁶⁾ (ت725هـ)، صاحب كتاب (الرحلة المغربيّة) أو (رحلة العبدري)، والتي نشرت باللغة العربية لأول مرة في الجزائر عام 2528هـ (1965م) على يد أحمد بن جدو، ثم نشرت في المغرب عام 2531هـ (1968م) بمقدمة لمحمد الفاسي⁽⁴⁰⁷⁾.

كان وراء رحلة العبدري سببان حملاه على المضيّ فيها:

الأول سبب ديني: وهو القيام بفريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة، وقد صرح العبدري مرارا بأنه كان ينوي الإقامة بمكة والمجاورة بها، وبأنه قد اكترى المتزل وجهاز لوازمه، وصرف

⁽⁴⁰³⁾ فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 461، 462

⁽⁴⁰⁴⁾ عبد الرحمن حميدة (أعلام الجغرافيين العرب)، م.م.س، ص: 494

⁽⁴⁰⁵⁾ المقرئ، (نفتح الطيب)، م.م.س، ص: 680/1

⁽⁴⁰⁶⁾ محمد العبدري: هو محمد بن علي بن أحمد بن مسعود (أو مسعود) أبو عبد الله الحاحي المشهور "بالعبدري"، نسبة إلى عبد الدار، وهي قبيلة من جنوب المغرب الأقصى، أصله من بنسنية بالأندلس، وكان يسكن في بلدة حاحة. كان حاد الطبع بسبب عيشه في الريف الجبلي. سمع في تونس من عبد الله بن هارون الطائي، وفي مصر من شرف الدين الدّميّاطي، أما مصنفاته فهي تنحصر في: (مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة-03 أجزاء)، (شموس الأنوار وكنوز الأسرار في علم الحروف وروحانيته، إضافة إلى (الرحلة المغربية) التي سبق الإشارة إليها. ينظر: محمد العبدري، (رحلة العبدري)، تح: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق- سوريا)، 1999م، ط1، ص: 7، 9. وينظر: شهاب الدين أحمد بن أحمد العجمي الوفائي، (ذيل لب الباب في تحرير الأنساب)، شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية (صنعاء- اليمن)، 1432هـ/2011م، ط1، ص: 106. وينظر: حاجي خليفة، (كشف الظنون)، م.م.س، ص: 1643/2.

⁽⁴⁰⁷⁾ ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 466

الركب إلى المغرب لولا حدوث فتنة هناك بين صاحب البيت الذي اكتراه وبعض السكان القاطنين به لما عزم على الرحيل من مكة.

الثاني هو رغبته في لقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم، وكان حريصاً على البحث عن السند العالي فيما يأخذه عن هؤلاء العلماء والمحدثين، ونرى العبدري في سؤال دائم عن الأحوال العلمية والثقافية في البلاد التي يمر بها، فإذا صادف مجموعة من العلماء في بلد من البلاد طرب لذلك وانشرحت نفسه فينطلق لسانه ثناءً وحمداً، وإذا لم يجد هذا النوع من العلماء يهجو بلسانه هذه البلاد وأهلها⁽⁴⁰⁸⁾.

أما مدة الرحلة فيبدو أنها استمرت أكثر من سنتين، حيث بدأت رحلته مع والده في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام 688هـ (1289م)، وكان عازماً على الحج، فانطلق من بلدة (حاحة) بالمغرب ثم هبط تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وتونس، ثم يعبر الأراضي الليبية حتى يصل إلى الإسكندرية ثم يتجه إلى مكة المكرمة، وبعد أن أدى فريضة الحج يمضي إلى فلسطين ثم يعود إلى مصر ليكمل رحلته إلى حاحة، وما يميز كل هذه الرحلات للعبدري أنها كانت رحلات برية، فقد عزم أن يتجنب البحر مهما كانت الظروف⁽⁴⁰⁹⁾.

وقد دَوَّن العبدري جميع تفاصيل رحلاته في مصنفه: (الرحلة المَغْرِبِيَّة) يصف فيه المغرب العربي ومدنه وطرقه وسبل عيشه وبعض طبائع أهله، كما يتناول علماءه، وينقل للقراء بعض أخبارهم، وأول ما يلفت النظر في مؤلفه هو حدته وأحكامه النقدية القاسية على ما يلقاه من سوء الحال أو قلة العلم والعلماء أو قلة المسلمين في المساجد. يقول في مدينة تلمسان: "ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلداً حلت به زمانة الزمان، وأخلت به حوادث الحدّثان فلم تُبْقِ به علالة ولا تُبصر في أرحائه للظمان بلالة"⁽⁴¹⁰⁾... وما رأيت بمدينة تلمسان من ينتمي إلى العلم ولا من يتعلق منه بسبب...⁽⁴¹¹⁾

⁽⁴⁰⁸⁾ ينظر: محمد العبدري، (رحلة العبدري)، م.م.س، ص: 10. وينظر: علي إبراهيم كردي، (أدب الرحل في المغرب والأندلس)، منشورات الهيئة

العامّة السوريّة للكتاب، (دمشق - سوريا)، 2013م، د.ط، ص: 40

⁽⁴⁰⁹⁾ ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 465

⁽⁴¹⁰⁾ محمد العبدري، (رحلة العبدري)، م.م.س، ص: 47، 48

⁽⁴¹¹⁾ المصدر نفسه، ص: 53

ويقول في قسنطينة: "ثم وصلنا إلى البلد الذي نشئت الخطوب معينه، وأبت الأقدار أن تكون له مُعِينة؛ بلد الوضع العجيب، والموضع الخصب، مدينة قُسْنُطِينَة... قد ذبَلت ببوارح الغَيْر، وفوادح الضَّرر رياضها، ونضبت بسهائم الآفات.. حتى صارت كالحسناء لبست أسمالا، والكريم فَقَدَ مالا، والبَطْل أُنْخَنَتَه الجراح حتى لم يطق احتمالا؛ فهي تُري الحوادث لمحا باصرا، وتُنادي بلسان الحال: " ذُلُّ لَوْ أَجِدُ نَاصِرًا "... ولم أر من ينتمي إلى طلب، ولا من له في الفن من فنون العلم أرب، سوى

الشيخ أبي عليّ حسن بن بلقاسم بن باديس...» (412)

ومما قاله في أهل الإسكندرية: "ومن الأمر المستغرب، والحال الذي أفصح عن قلة دينهم وأعرب، أنهم يعترضون الحجاج، ويجرعونهم من بحر الإهانة المَلْح الأجاج، ويأخذون على وفدهم الطُّرُقَ والفِجَاجَ ويبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النِّساء والرجال...» (413)

ولعل حديث العبدري وأحكامه القاسية على أهل عصره، مكنت الكثير من النقاد من إطلاق أحكام قاسية عليه وعلى مصنفه، يقول عنه حسين مؤنس: "أما العبدري فرجل غاضب ساخط ممرور لا يكاد يلقى ما يرضيه إلا في النادر، ورأيه في أهل زمانه يوجزه قوله: "وقد تعطل في هذا العصر موسم الأفاضل، وتبدد في كل قطر نظام الفضائل... فهذه مبالغة في الحملة على أهل عصره تجعل القارئ في شك من صحة أحكامه وآرائه" (414).

ويقول عنه فؤاد قنديل: "فهو إذا لطبيعته المنعزلة جهم نافر، لا يميل للدخول في جماعة ولا يعرف سبل الائتلاف معها، وأخشى أن تكون طريقته في ذم البلاد هي التي حالت دون ترجمة رحلته" (415)

⁴¹² محمد العبدري، (رحلة العبدري)، م.س، ص: 93،94،95

⁴¹³ المصدر نفسه، ص: 216

⁴¹⁴ حسين مؤنس، (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس)، م.م.س، ص: 520

⁴¹⁵ ينظر: فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 472

وُرجع عبد السلام الناصري وحسين مؤنس كل ذلك إلى أن الرجل كان رجلاً ريفياً ألف العيش في الجو الطلق الصاحي في الجبال بعيداً عن زحمة الناس وصخب المدينة، ولهذا فقد كان يحس بالانقياض والنفور إذا دخل المدينة⁽⁴¹⁶⁾

لكن - فيما سبق من القول- لا ينطبق على كل مصنفه (الرحلة المغربية)، لأن العبدري كان يستحسن بعض الأماكن والمدن التي حظ بها، ويجيد أهلها وعطائهم، على غرار مدينة بجاية وتونس وجامع الزيتونة. يقول في بجاية: "ثم وصلنا بجاية مبدأ الاتفاق والنهاية، وهي مدينة كبيرة حصينة شهيرة، برية بحرية... وهذا البلد بقيّة قواعد الإسلام ومحلّ جلة من العلماء الأعلام؛ وله حُسن المنظر طيب المخير... لأهله من حسن الخلق والأخلاق، ما أنبأ عن طيب الهواء والماء، والترية والأعراق..."⁽⁴¹⁷⁾

وفي تونس يقول: "ثم وصلنا مدينة تُونِس مطمَحُ الآمال ومَصَاب كل برق... وأهلها ما بين عالم كالعلم، رافع بين أهله للعلم ومُعطلٍ حدّ الظُّبا بحدّ القلم، ومسلم على ربيع بذي سلَم..."⁽⁴¹⁸⁾ ذلك فقد اربت على البلاد في كل فضيلة، وما رأيت لأهلها نظيراً شرقاً وغرباً، شَيْماً فاضلة، وخلالاً حميدة ومعاشرة جميلة..."⁽⁴¹⁹⁾

وخلاصة القول إن العبدري عُنِي في كتابه (الرحلة المغربية) بالكلام عن المواقع الجغرافية وذكر المعالم الأثرية، ودراسة عادات سكان البلاد التي مر بها، فضلاً عن كلامه عن العلماء والفقهاء في عصره، كما لجأ العبدري إلى ذكر الأخبار التي استفادها والأشعار التي أنشده إياها العلماء، لأنّه كان يكثر من الاستشهاد بالشعر وإيراده له ولغيره، وكثيراً ما كان يأتي بالقصائد كاملة⁽⁴²⁰⁾، على طولها أحياناً.

وبينما كان المشرق العربي يعاني في هذه الفترة من ركود واضح في المصنفات الرحلية خاصة والأدبية عامة بسبب ظروف سياسية وأمنية (سقوط بغداد)، بلغ الخطاب الرَّحلي في المغرب العربي في منتصف القرن الثامن الهجري (ق14م) ذروته وأوجه عطائه الأدبي والفني، ولعل هذا العطاء

⁴¹⁶ ينظر: حسين مؤنس، (تاريخ الجغرافية)، م.س، ص: 523

⁴¹⁷ محمد العبدري، (رحلة العبدري)، م.م.س، ص: 82، 83

⁴¹⁸ المصدر نفسه، ص: 108، 109

⁴¹⁹ المصدر نفسه، ص: 112

⁴²⁰ ينظر: محمد العبدري، (رحلة العبدري)، م.س، الأشعار، ص: 55، 54، 57، 176، 308، 309، 431

بدأ مع أشهر من طاف البلدان وتنقل بين الأمصار والتقى بالعلماء والملوك، وهو عبد الله اللواتي الطنجي المعروف باسم "ابن بطوطة"⁽⁴²¹⁾ (ت776هـ)، أشهر الرحالة العرب على الإطلاق، لم يبلغ غيره ما بلغ من ذيوع الصيت في الشرق والغرب إذ صار لا يكاد يذكر رحالة في التراث العربي إلا وتبادر إلى أذهاننا الرحالة "ابن بطوطة"، وربما هذا راجع إلى كتابه المشهور: (تُحفةُ النَّاطِرِ فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ) الذي شغل أقلام العديد من الدارسين كونه اشتمل على معلومات متعددة التاريخية منها والجغرافية والاجتماعية كما كان موضع اهتمام المستشرقين، فقد كان أول من تناوله بالبحث المستشرق الألماني كوزغارتن (Kosegarten)، وتلميذه ابتز (Apetz)⁽⁴²²⁾، كما لقي مصنفه - تُحفةُ النَّاطِرِ فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ - عناية كبيرة من حيث ترجمتها إلى اللغات الأجنبية. فقد ترجمها (كوسفارتن) إلى اللاتينية ونشرها عام 2350هـ (1781م)، وترجم المستشرقان الفرنسيان دي سلان وإدوارد ديلوريه إلى الفرنسية قسما منها في المجلة الآسيوية سنة 2414هـ (1847م)، وفي عام 2525هـ (1962م) نشرت ترجمة كاملة لها بالإيطالية، كما ترجمت أيضاً إلى البرتغالية والألمانية والتركية⁽⁴²³⁾.

أقدم ابن بطوطة على رحلات كثيرة وطويلة، طاف خلالها معظم البلدان المسكونة والمعروفة في ذلك الوقت، ما عدا بعض البلدان الأوروبية، ومصنفه (تُحفةُ النَّاطِرِ فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ) يضم تفاصيل جميع رحلاته الطويلة التي بدأت سنة 725هـ.

وهذه سيرة مختصرة لرحلاته الشهيرة: بدأت من أقصى الشمال الغربي (طنجة) حيث سار مخترقاً بلاد الساحل والشمال الإفريقي كلها (المغرب والجزائر وتونس وليبيا) حتى وصل مصر فزارها وطاف مدنها، ثم اتجه إلى بلاد الشام فالحجاز حيث أدى فريضة الحج، وسافر منها إلى العراق وجاس خلال دياره ودخل إيران ثم عاد ليحج مرة ثانية، ثم قصد اليمن والصومال وعاد إلى عمان

⁽⁴²¹⁾ ابن بطوطة: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، ويقال: أنه عرف بهذا الاسم نسبة إلى أمه فطومة، فأصبحت بطوطة، تنتسب أسرته إلى قبيلة لواته. ولد في السابع عشر من رجب سنة 703/14هـ من فبراير 1304م، عرفت أسرته بالعلم والإفتاء، تولى القضاء بمالطة وإشبيلية وغيرها، توفي في مراكش عام 776/1377م. ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 235/6. وينظر: ابن حجر العسقلاني، (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)، تح: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية (صيدر اباد- الهند)، 1392هـ/1972م، ط2، ص: 227/5

⁽⁴²²⁾ إغناطيوس كراتشكوفسكي، (تاريخ الأدب الجغرافي)، م.م.س، ص: 428/1

⁽⁴²³⁾ محمود الشرفاوي، (رحلة ابن بطوطة)، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة- مصر)، ص: 6

والبحرين. واتجه بعد ذلك إلى مكة ليحج مرة ثالثة ويعود إلى مصر ثم الشام والعراق، ثم مضى من العراق إلى القسطنطينية (قبل فتح الأتراك لها) ثم اتجه إلى بلاد البلغار، فبلاد القرم ومنها توجه إلى خوارزم وبخارى وأفغانستان وتابع رحلته إلى الهند والصين ماراً بجزر المالديف وسيلان وبلاد البنغال، ليعود بعد ذلك إلى الصين ليمر بسومطرة وعمان ثم بغداد وتدمر، فبلاد الشام ومصر ثم الحجاز ليحج مرة رابعة ويعود إلى مصر فيرحل عنها إلى شمال إفريقيا فيحط الرحال بالمغرب عام 750هـ، فيلتقط أنفاسه بعض الوقت، ليشد الرحال بعد ذلك إلى الأندلس، ثم يعود إلى المغرب، لبدأ رحلته الثالثة من جديد عام 752هـ. وهذه المرة إلى الجنوب متجها إلى الصحراء الكبرى ومنها إلى مجاهل إفريقيا، فنهر النيجر ثم السودان العربي ومنه إلى أسوان، ليعود بعد ذلك إلى فاس عام 754هـ ويمضي بقية عمره بها حتى عام 776هـ. (424)

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن بطوطة ليس هو من دون رحلته، وإنما دونها ابن جزي⁽⁴²⁵⁾ (ت741هـ) عام 755هـ بأمر من السلطان المغربي أبي عنان المريني، وانتهى منها عام 756هـ، فمبنى الرحلة بمعظمه يرجع إلى ابن جزي، فيما المضمون بما فيه من أفكار وسرد روائي، يرجع بكليته إلى ابن بطوطة⁽⁴²⁶⁾

ويذكر ابن جزي شيئاً من ذلك في مقدمة (تُحْفَةُ النَّاطِرِ فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ) فيقول: "ولما كانت حضرته [أبو عنان المريني] العلية مطمح الآمال ومسرح همم الرجال... وكان ممن وفد على بابها السامي، الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق، جوال الأرض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض، أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة المعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين، وهو الذي طاف الأرض معتبراً... ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر ما

⁽⁴²⁴⁾ فؤاد قنديل، (أدب الرحلة في التراث العربي)، م.م.س، ص: 489، 490

⁽⁴²⁵⁾ ابن جزي: هو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزي الكلبي، المكنى: أبا القاسم، ولد سنة 693هـ، ويذكر أنه من أهل غرناطة، وله مؤلفات في مجالات عدة: في الفقه والأصول والعقائد واللغة والتراجم والحديث والقراءات وعلوم التنزيل، من أعظم مؤلفاته: (القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية)، الذي اشتهر باسم: (قوانين ابن جزي)، كان من أبرز تلاميذه: لسان الدين ابن الخطيب. ينظر: الزركلي،

(الأعلام)، ص: 325/5

⁽⁴²⁶⁾ شادي حكمت ناصر، (ابن بطوطة وصناعة أدب الرحلة- نسيج الواقع والخيال)، رسالة ماجستير، اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأمريكية،

(بيروت- لبنان)، 2003م، ص: 18

لقيه من ملوك الأقطار، وعلمائها الأخيار، وأوليائها الأبرار... وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم...
بخدمة جنابهم. محمد بن محمد بن جزي الكلبي... أن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من
ذلك... ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظه موفية للمقاصد التي قصدها... وربما أوردت
لفظة على وضعه، فلم أخل بأصله ولا فرعه، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار...
وقيدت المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط، ليكون أنفع في التصحيح والضبط،
وشرحت ما أمكنني شرحه من الأسماء العجمية...» (427)

ومما هو ملاحظ من قول ابن جزي أنه لم يكتفي بما أملاه عليه ابن بطوطة، بل أضاف شواهد
شعرية كثيرة، وشرحا للأسماء الأعجمية، كما نقل عن ابن جبير وغيره فصولا عن بعض المدن التي
زارها ابن بطوطة.

فابن بطوطة قدم لنا وثيقة هامة عن حياة كثير من الأمم، وبخاصة الأمة الإسلامية وأحوالها خلال
القرن الثامن الهجري (ق14م)، رغم الصعاب التي كابدها في رحلته، خاصة وأن ظروف تلك
الفترة كانت صعبة. إذ كانت الحكومات تتقاضى من المسافرين "الضرائب والمغارم والرشا على
الدخول والخروج ومعابر الأنهار، ومع هذا فلم تكن تضمن لهم السلامة" (428) إلا أن حب ابن
بطوطة للرحلة وشغفه بها كان أقوى من تلك الظروف، الأمر الذي جعله "آخر جغرافي عالمي من
الناحية العملية، أي أنه لم يكن نقالة اعتمد على كتب غيره بل كان رحالة انتظم محيط أسفاره
عددا كبيرا من الأقطار" (429)

وإذا كان ابن بطوطة ذاع صيته أكثر من غيره في الرحلات والتجوال بين مختلف الأمصار
والأقطار؛ فإن الرحالة الذي جاء بعده، خلف أثرا عميقا في الفكر العربي والإسلامي شمل جميع
جوانب العلوم، هو الرحالة والفقير والأديب عبد الرحمن ابن خلدون (ت808هـ) - وقد

(427) ابن بطوطة، (تُحْفَةُ النَّاطِرِ فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ)، تح: محمد عبد المنعم العريان، م.م.س، ص: 31/1 - 32

(428) حسين مؤنس، (ابن بطوطة ورحلاته - تحقيق ودراسة وتحليل -)، دار المعارف، (القاهرة - مصر)، ط1، ص: 21

(429) إغناطيوس كراتشكوفسكي، (تاريخ الأدب الجغرافي)، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، م.م.س، ص: 433/1

(430) عبد الرحمن بن خلدون: هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، اشتهر بكتابه (العبر وديوان المبتدأ
والخير في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصروهم من ذوي السلطان الأكبر) في سبعة مجلدات، أولها (المقدمة) ترجمت هي وأجزاء منه إلى الفرنسية
وغيرها. وختم (العبر) بفصل عنوانه (التعريف بابن خلدون) ذكر فيه نسبه وسيرته وما يتصل به من أحداث زمنه. ومن كتبه أيضا: (شرح البردة) وكتاب
في (الحساب) ورسالة في (المنطق) و (شفاء السائل لتهديب المسائل). لسان الدين بن الخطيب، (الإحاطة في أخبار غرناطة)، م.م.س، ص: 377/3.
وينظر: حاجي خليفة، (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)، م.م.س، ص: 949/2. وينظر: الزركلي، (الأعلام)، ص: 330/3

تقدم ذكره في أدب السير- الذي وضع الأسس الأولى لعلم الاجتماع، وكان نموذجاً فذا للعالم الجاد والطموح، حيث تنوعت إسهاماته الفكرية والعلمية في مجالات عديدة كالفقه والتفسير والأدب والتاريخ وغيرها.

هذا الرحالة الذي اختلف حول مؤلفه: (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً) الكثير من الدارسين، كونه يركز بشكل كبير عن سيرته الذاتية أكثر من رحلاته وأسفاره. إلا أن وصفه لكل ما شاهده وعائنه بشكل دقيق خلال رحلاته يندرج ضمن خطاب الرحلة، كما يؤكد ذلك عنوان الكتاب (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً) كما ينتسب كذلك إلى أدب السيرة الذاتية، لكن ما فيه من خطاب رحلي أدبي مما فيه من أدب السيرة الذاتية.

وكان عنوان الكتاب في بادئ تأليفه (التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب) وظل العنوان بهذا الاسم حتى عام 807هـ، أي بعد أن رحل إلى الأندلس ومصر والحجاز والشام، فكان لابد من تدوين ما جدّ من رحلاته وأخبارها، فأدخل الكثير من التعديلات والتنقيحات والزيادات في المراحل التي عرض لتأريخها في وضعه الأول وأضاف إليه تاريخ المراحل الأخيرة من حياته، فعظم بذلك حجم الكتاب مما دعاه إلى أن يستبدل عنوانه القديم بأخر جديد يدل على سعة ما عرض له، وشموله لجميع مراحل حياته، فسماه: (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً)⁽⁴³¹⁾.

والملاحظ في عنوان كتاب (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً) عنصران بارزان: "التعريف" بالمؤلف، والتعريف "برحلاته" في الشرق والغرب، وكل من هذين العنصرين يدل على معنى واضح في كتابه⁽⁴³²⁾.

وقد جُمعت جميع رحلات ابن خلدون في كتاب واحد من طرف المحقق محمد الطنجي سماه: (رحلة ابن خلدون)⁽⁴³³⁾

⁽⁴³¹⁾ ينظر: حسني محمد حسين، (أدب الرحلة عند العرب)، م.م.س، ص: 56، 55

⁽⁴³²⁾ ينظر: محمد بن تاويت الطنجي، (رحلة ابن خلدون)، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1425هـ/2004م، ط1، ص: 20

⁽⁴³³⁾ ينظر: المرجع نفسه، ص: 20

ورغم ما عاشه عبد الرحمن بن خلدون من تمزق داخلي للمغرب العربي في هذه الفترة، حيث انقسم المغرب العربي إلى ثلاثة أقسام: مراكش تحت حكم بني عبد الحق (المرينيين)، والجزائر تحت حكم بني عبد الواد (الزيانيين)، وتونس يحكمها بنو حفص (الحفصيين). وعلى الرغم من الصراع الذي عاشته بلاد المغرب، فقد استمر ابن خلدون في تلقي العلم على يد كبار المفكرين في تونس، فبغ في كل من العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية والجغرافية. لكن في سنة 749هـ توفي والداه على إثر الطاعون الذي حل بالبلاد، لذا انتقل كبار علماء العرب والمسلمين إلى فاس، ولحق بهم ابن خلدون وهو في السابعة عشرة من عمره، فلقى كل حفاوة وتكريم من حاكم فاس أبي عنان المريني، وهكذا صار ينتقل في جميع بلاد المغرب العربي وتولى مراكز سياسية مرموقة، لكنه خاف عواقبها فأثر الاعتزال للبحث والتأليف فلجأ إلى قلعة بني سلامة عند بني عريف في الجزائر⁽⁴³⁴⁾، حيث كتب ابن خلدون مقدمته المشهورة، وبدأ بعدها بكتابة تاريخه، ليرحل بعد ذلك إلى المشرق سنة 784هـ وأقام بالقاهرة يمارس فيها التعليم ويتولى القضاء، ثم انتقل إلى مكة لأداء فريضة الحج، ليعود إلى مصر بعدها عام 803هـ⁽⁴³⁵⁾.

وكتابه (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا) يسرد لنا قصة حياته إلى قبيل وفاته، بدأه بالحديث عن أصله، يقول عن أصله: "وأصل هذا البيت من إشبيلية؛ انتقل سلفنا -عند الجلاء وغلب ملك الجلالقة ابن أذفونش عليها- إلى تونس في أواسط المائة السابعة"⁽⁴³⁶⁾.

كما تحدث عن أسرته وثقافته وأساتذته وصلته بالملوك والأمراء... وكل ذلك يندرج تحت أدب السير، وما يهمنا هو جانبه الرحلي من حياته، حيث بدأ فيه برحلته إلى الأندلس أوائل عام 764هـ. يقول: "ولما أجمعت الرحلة إلى الأندلس، بعثت بأهلي وولدي إلى أحوالهم بقسنطينة... وسرت إلى سبتة... ولما وصلت إليها سنة أربع وستين، وقد اهتز السلطان لقدمي، وهياً لي المنزل من قصوره، بفرشه وماعونه، وأركب خاصته للقائي.. وخرج الوزير ابن الخطيب فشيّعني إلى مكان نُزلي؛ ثم نظمني في عليّة أهل مجلسه، واختصني بالنّجّي في خلوته... وسفرت عنه

⁽⁴³⁴⁾ ينظر: علي عبد الله الدفاع، (رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية)، م.م.س، ص: 214

⁽⁴³⁵⁾ نوال عبد الرحمن الشوابكة، (أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، م.م.س، ص: 70

⁽⁴³⁶⁾ عبد الرحمن ابن خلدون، (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا)، ص: دار الكتاب اللبناني، (بيروت- لبنان)، 1979م، د.ط، ص: 3

سنة خمس وستين إلى طاغية قشتالة يومئذ؛ بتره بن هُنْشُه بن أذْفُوش، لاتمام عقد صلح ما بينه وبين ملوك العُدُوَّة...⁽⁴³⁷⁾

ويقول عند وصوله بجاية: " ونزلت بجاية لخامسة من الإقلاع، فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدمي، وأركب أهل دولته للقائي. وتهافت أهل البلد عليّ من كل أوب يمسخون أعطافي، ويقبلون يدي، وكان يوماً مشهوداً. ثم وصلت إلى السلطان فحيا وفدّي، وخلع وحمّل؛ وأصبحت من الغد، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي، واستقلت بحمل ملكه، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتديير سلطانه، وقدمني للخطابة بجامع القصبه، وأنا مع ذلك، عاكف بعد انصرافي من تديير الملك غدوة إلى تديير العلم أثناء النهار بجامع القصبه لا أنفك عن ذلك"⁽⁴³⁸⁾.

كما تحدث عن نزوله تلمسان ومشايعة سلطانهما أبي حمو موسى⁽⁴³⁹⁾ (ت791هـ)، ومن ثم رحلته إلى المغرب الأقصى، ثم رحلته إلى المشرق وولاية القضاء بمصر، ثم السفر لقضاء الحج، ثم رحلته مع السلطان إلى الشام لمدافة التتار عن بلاده، ثم آخر رحلاته كانت بالعودة إلى مصر.

كما عني كتاب (التعريف) بجانبه الجغرافي، حيث يقول مؤلفه: "إن الله سبحانه خلق هذا العالم واعتمره بأصناف البشر على وجه الأرض، في وسط البقعة التي انكشفت من الماء فيه، وهي عند أهل الجغرافيا مقدار الربع منه، وقسموا هذا المعمور بسبعة أجزاء يسمونها الأقاليم، مبتدئة من خط الاستواء بين المشرق والمغرب، وهو الخط الذي تسامت الشمس فيه رؤوس السكان، إلى تمام السبعة أقاليم. وهذا الخط في جنوب المعمور، وتنتهي السبعة الأقاليم في شماله. وليس في جنوب خط الاستواء عمارة إلى آخر الربع المنكشف، لإفراط الحر فيه، وهو يمنع من التكوين، وكذلك ليس بعد الأقاليم السبعة في جهة الشمال عمارة، لإفراط البرد فيها، وهو مانع من التكوين أيضاً، ودخل الماء المحيط بالأرض من جهة الشرق فوق خط الاستواء بثلاث عشرة درجة، في مدخل

⁽⁴³⁷⁾ ابن خلدون، (التعريف بابن خلدون)، م.س، ص: 84،88. وينظر: تاويت الطنجي، (رحلة ابن خلدون)، م.م.س، ص: 84،88.

⁽⁴³⁸⁾ عبد الرحمن ابن خلدون، (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا)، م.م.س، ص: 104. وينظر: محمد بن تاويت الطنجي، (رحلة ابن خلدون)، م.م.س، ص: 95.

⁽⁴³⁹⁾ أبو حمو موسى: موسى (الثاني) بن يوسف أبي يعقوب بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، أبو حمو، ويقال أبو حاميم: مجدد الدولة (العبد الوادية) في تلمسان. ولد في غرناطة، وكان أبوه مبعدا إليها. استولى بعض رجاله على أغادير. ثم دخل تلمسان (سنة 760)، ينظر: الزركلي، (الأعلام)، ص: 331/7. وينظر: لسان الدين بن الخطيب، (الإحاطة في أخبار غرناطة)، م.م.س، ص: 305/1.

فسيح، وانساح مع خط الاستواء مغرباً، فمر بالصين، والهند والسند واليمن، في جنوبها كلها⁽⁴⁴⁰⁾.

وعُني بجانبه التاريخي كقوله: "... فلما غلب الفرس على بابل، استقل لهم ملك المشرق، وجاء موسى (صلوات الله عليه) بالشرعية الأولية، وحرم السحر وطرقه، وغلب الله له القبط بإغراق فرعون وقومه، ثم ملك بنو إسرائيل الشام، واختطوا بيت المقدس، وظهر الروم في ناحية الشمال والمغرب، فغلبوا الفرس الأولى على ملكهم... ونازع الترك ملوك فارس في خراسان، وما وراء النهر، وكانت بينهم حروب مشهورة، واستقر ملكهم في بني أفراسياب، ثم ظهر خاتم الأنبياء محمد صلوات الله عليه، وجمع العرب على كلمة الإسلام، فاجتمعوا له، ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال- 63]، وقبضه الله إليه، وقد أمر بالجهاد، ووعده عن الله بأن الأرض لأُمَّته، فزحفوا إلى كسرى، وقيصر بعد سنتين من وفاته⁽⁴⁴¹⁾.

وخلاصة ما سبق عن كتاب (التعريف) أن عبد الرحمن ابن خلدون لم ينفرد بمصنفه فيما فعله سابقوه الرحالة من وصف للبلدان والأمصار التي ارتحلوا إليها والأماكن التي زاروها، وما عاينوه من الآثار، لكنه جعل الرحلة جزءاً من سيرته الذاتية سجلها باقتدار في كتابه الذي يعد نموذجاً رائعاً ورائداً في خطاب الرحلات والترجمة الذاتية.

والحق أن ابن خلدون يعد موسوعة كبيرة، فلم يترك فرعاً من فروع المعرفة السائدة في عصره إلا فهمه ووقف على أسسه ومنهجه ومسائله. فقد كتب عن كل من المفردات العربية ومدلولاتها، والعلوم التربوية، وعلم النفس، وعلم الحديث، وعلوم القرآن، وأصول الفقه، والعلوم الطبيعية، والعلوم الرياضية...

شهد الإنتاج الرحلي في المغرب العربي في فترة ما بين القرن التاسع حتى نهاية القرن العاشر الهجري ركوداً واضحاً حتى إنه كاد أن ينعدم تماماً، عدا بعض المؤلفات هنا وهناك، والسبب

⁽⁴⁴⁰⁾ عبد الرحمن ابن خلدون، (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً)، م.م.س، ص: 388,389 وينظر: محمد بن تايوت الطنجي، (رحلة ابن

خلدون)، م.م.س، ص: 275

⁽⁴⁴¹⁾ ابن خلدون، (التعريف بابن خلدون)، م.م.س، ص: 293,294 وينظر: تايوت الطنجي، (رحلة ابن خلدون)، م.م.س، ص: 278, 279

الرئيس في ذلك يرجع إلى سقوط الأندلس عام 897هـ التي كانت تعتبر قبلة للكثير من العلماء والرحالة. ولعل أشهر رحالة ذاع صيته في تلك الفترة هو الرحالة الحسن الوزان الفاسي المعروف باسم "ليون الإفريقي"⁽⁴⁴²⁾ (ت934هـ) الذي صال وجال في مختلف عواصم البلدان الإسلامية، خاصة شمال إفريقيا وغربها، ودون أخبار ومعلومات في غاية الأهمية عن القارة الإفريقية استفاد منها طلاب العلم ليس فقط في العالم العربي والإسلامي بل حتى في أوروبا، وكل ذلك جمعه في كتاب واحد باسم (وصف إفريقيا).

دوّن الحسن الوزان رحلته باللغة الإيطالية بعد طلب من البابا ليون العاشر، ثم "خرج كتابه في جميع أرجاء البلدان، فقد ترجم في سنة 963هـ إلى اللغتين اللاتينية والفرنسية، ثم ترجم إلى اللغة الإنجليزية سنة 1600م"⁽⁴⁴³⁾، وهكذا استمر وانتشر الكتاب بلغات كثيرة إلى أن ترجم إلى اللغة العربية سنة 1399هـ (1979م)⁽⁴⁴⁴⁾.

ويتضمن كتاب (وصف إفريقيا) للحسن الوزان تسعة أقسام:
القسم الأول: وصف إفريقيا وما فيه من أشياء تستحق الذكر. تحدث فيه عن: (أصل تسمية إفريقيا، حدودها، أقسامها، أجزاءها، سكانها،...)
القسم الثاني: مملكة مراکش (مدنها، سكانها، ظواهرها الطبيعية...)
القسم الثالث: مملكة فاس (إقليم فاس، العادات المتبعة في الزواج، طريقة اللباس...)
القسم الرابع: مملكة تلمسان (وجدة، مدينة العباد، جبال تلمسان...)
القسم الخامس: مملكة بجاية ومملكة تونس (جيجل، مسيلة، سطيف، قرطاج، نابولي رادس، القيروان، صفاقس...)
القسم السادس: نو ميديا (إفران، سجلماسة، قصر السويهلة، قصر مزالق وبوعنان...)
القسم السابع: بلاد السودان (مملكة غينيا، مملكة مالي، تنبوكتو، مملكة النوبة...)
القسم الثامن: مصر (أصل سكانها، أقليمها، خاصية مناخها...)

⁽⁴⁴²⁾ ليون الإفريقي: هو يوحى الأسد الغرناطي أبو علي الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المكّي: ليون الإفريقي له: (مختصر تاريخ الإسلام)، و(العقائد والفقهاء الإسلامي) ورسالة في الأعياد الإسلامية) و (كتاب في النحو). ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 217، 218/2. وينظر: محمد المهدي الحجوي، (حياة الوزان الفاسي وآثاره)، المطبعة الاقتصادية، (الرباط- المغرب)، 1354هـ، ص: ب (مقدمة)

⁽⁴⁴³⁾ ينظر: علي عبد الله الدفاع، (روداد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية)، م.م.س، ص: 243، 244

⁽⁴⁴⁴⁾ عبد الرحمن حميدة (أعلام الجغرافيين العرب)، م.م.س، ص: 627

القسم التاسع: الأنهار والحيوانات والنباتات والمعادن بإفريقيا (نهر النيل..، الفيل، الزرافة، البيغاء..، الترفاس، النخل..، الملح، القطران...)

ومما هو ملاحظ لقارئ كتاب (وصف إفريقيا) أنه عُني بالجانب الجغرافي أكثر من الجوانب الأخرى، إذ يركز الوزن بشكل كبير في كل قسم على هذا الجانب؛ فمثلا يقول في أصل تسمية إفريقيا: "يسمى هذا القطر باللغة العربية "إفريقيا"، من الفعل "فرق" بمعنى فصل باللاتينية (separavit) وهناك رأيان في أصل هذه التسمية، يعتمد الأول على كون هذا الجزء من المعمور مفصولا عن أوروبا وجزء من آسيا بالبحر المتوسط، ويذهب الرأي الثاني إلى أن هذا الاسم مشتق من "إفريقتش" ملك اليمن الذي كان أول من سكن هذه البلاد..." (445)

ويقول في صحراء صنهاجة (ليبيا) "إن هذه الصحراء شديدة الجفاف وعرة، تبتدئ عند المحيط غربا وتمتد شرقا إلى ملاحات تغزة، وتنتهي شمالا في تخوم نوميديا، أي إقليم سوس عند أقا ودرعة. وتسير جنوبا حتى أرض السودان... لا يوجد فيها ماء إلا على مسافة كل مائة أو مائتي ميل، بالإضافة إلى أنه مالح في آبار عميقة جدا... وفي هذه الصحراء عدد كبير من الوحوش والحيات..." (446)

لقد اعترف علماء أوروبا أن نتاج الحسن الوزن يتصف بالأصالة والترتيب مما يدل على ثقافته الواسعة وذكائه المفرط. فكانت المعلومات التي وضعها الوزن في كتابه هي الأساس التي اعتمد عليه علماء أوروبا في هذا المجال. يقول علي عبد الله الدفاع: "لقد اتسعت معارف علماء أوروبا في جغرافية القارة الإفريقية، حيث كانت معرفتهم لا تتعدى المناطق الواقعة شمال خط الاستواء مثل: ليبيا والسودان الغربي وإثيوبيا ومصر وبلاد المغرب العربي وذلك بفضل كتاب (وصف إفريقيا) لأبي علي الحسن الوزن الزياتي" (447)

ومع فجر القرن الثالث عشر هجري (ق19م)، وبينما كان رحالة العصر الحديث في المشرق العربي يتصدرون واجهة الرحلات المشرقية أمثال: رفاعة الطهطاوي (ت1290هـ) وشهاب الدين

(445) الحسن محمد الوزن الفاسي، (وصف إفريقيا)، تر: محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1983م، ط2، ص:

27/1

(446) الحسن محمد الوزن الفاسي، (وصف إفريقيا)، م.س: 148/1

(447) علي عبد الله الدفاع، (رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية)، م.م.س، ص: 244

الألوسيّ (ت1270هـ) وأحمد فارس الشدياق (ت1304هـ)، كان في المغرب العربي من يتصدر واجهة الرحلات المغاربية على غرار: محمد بن عمر التونسي (ت1274هـ) صاحب كتاب (تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) "الذي يسرد فيه أخبار رحلاته إلى دارفور عام 1218هـ(1803م) وهو في سن الرابعة عشرة ومكث فيها حوالي سبع سنين ثم سافر إلى تونس، وبعدها استقر في القاهرة والتحق بجيش محمد علي باشا، وعمل في وظيفة واعظ باحدى فرق المشاة، كما اشتغل بتنقيح الترجمة العربية لكتب الطب التي كانت تدرس في كلية الطب البيطري بأبي زعبل، وكتب عن رحلته الى السودان وتوفى في عام1273هـ(1857م)"(448).

ويذكر لنا محمد بن عمر التونسي في مقدمته أن الهدف من ارتحاله إلى دارفور لم يكن في حقيقة الأمر بهدف طلب العلم أو الاكتشاف، بل كانت للحاق بأبيه عمر التونسي الذي نزع قبله إلى سنّار ثم إلى دارفور، وقد استطاع محمد التونسي الإمام بأحوال البلاد السياسية والاجتماعية والتاريخية، كما استفاد من علاقة أبيه وجده من قبل؛ اللذان صاهرا أهلها، وأضحى لمحمد فيها إخوة وأعمام. وقد اشتغل هؤلاء جميعا بالعلم والتجارة، وتنقلوا بين مصر وتونس والحجاز وسنّار ودارفور، وقد تسنى للتونسي بفضل مكانته أن يحضر مجالس السلطان، ووقف على كثير من أسرار السياسة وتقاليد البلاط، وشهد الكثير من الأحداث السياسية والحربية الهامة، كما أتيح له أن يتجول في كل أنحاء دارفور في حرية مطلقة، وأن يمر بمدنها وقراها وأسواقها؛ لهذا أخذ الحديث عن مدينة دارفور جزءاً كبيراً من كتابه(449)

ويلخص لنا التونسي أخبار رحلاته وسبب تدوينها من خلال مقدمة كتابه بقوله: "وكان أول خدمتي بوظيفة واعظ في الآلاي الثامن من المشاة... وكابدت المشقات، وكنت قبل ذلك سافرت إلى بلاد السودان، ورأيت فيها من العجائب ما إذا سطرّ يكون كزهر بستان، ثم استخدمت في مدرسة أبي زعبل لتصحيح الكتب الطبية... ومكثت على ذلك حتى اجتمعت بأبرع أهل زمانه حذاقة وفهما، وأذكى أهل عصره صناعة وعلم، معلم الكيمياء الحكيم بيرون (perron) الفرنسي، وقرأ عليّ كتاب (كليلة ودمنة) باللغة العربية، فذكرت له بعض ما عاينته في أسفاري

(448) ينظر: (رحلة محمد بن عمر التونسي إلى دار فور)، مجلة: إفريقيا قارتنا، أبريل 2014م، العدد: 12، ص: 1

(449) ينظر: عبد الرحمن حميدة (أعلام الجغرافيين العرب)، م.م.س، ص: 661، 662

من العجائب البهية، فحملني على أن أزين وجه الدفتر بإيضاح ما شاهدهته من العجائب، وأخبره بما حصل لي في تلك الأسفار من الغرائب، فامتثلت أمره لما له علي من اليد البيضاء، ورأيت ذلك أحمل بي أيضا⁽⁴⁵⁰⁾.

وقد نشر كتاب (تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) لأول مرة عام 1266هـ (1850م) على يد بيرون (perron) أي قبل وفاة المؤلف بسبع سنوات، ولكن الترجمة الفرنسية ظهرت في باريس قبل ذلك بخمسة أعوام. وقد قام خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد بتحقيق الكتاب وكتابة حواشيه عام 1965م) وراجعته محمد مصطفى زيادة⁽⁴⁵¹⁾.

ويُعد كتاب (تشحيد الأذهان بسيرة البلاد العرب والسودان) من أفضل كتب أدب الرحلات المكتوبة باللغة العربية فقد تناول التونسي تفاصيل عديدة ومناحي مختلفة ونوادير وطرائف وسير الملوك والأمراء والعادات والتقاليد، كما كتب عن التجارة وأحوالها والزراعة والحرف والأسواق، والطعام وصيد الحيوانات والطيور والأمراض وطرق علاجها والسحر والخرافات المنتشرة.

ثم جاء بعد التونسي مواطنه خير الدين باشا أو خير الدين التونسي⁽⁴⁵²⁾ (ت1304هـ) الذي تصدر واجهة الرحلات المغربية إلى أوروبا، والتي ضمنها في كتابه (أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك)، والذي ألفه بعد انسحابه من الوزارة التونسية عام 1279هـ (1862م)، وعاد إلى حياته الخاصة، إلا أنها لم تكن كذلك في الحقيقة، لأنه بقي متصلا ببلاط الباي⁽⁴⁵³⁾ الذي لم يتركه هو الآخر، لأنه يعتبره إحدى الشخصيات التي تستشار في أمور الدولة ومشاكلها. وبذلك بقي تسع سنوات بعيدا عن العمل السياسي، ولكن كلفه الباي بمهمات خارجية، أكسبته خبرة في السياسة الخارجية، فتم إرساله موفدا من قبله إلى كل من فرنسا وإنجلترا وألمانيا

⁽⁴⁵⁰⁾ ينظر: (رحلة محمد بن عمر التونسي إلى دار فور)، مجلة: إفريقيا قارتنا، أبريل 2014م، العدد: 12، ص: 2
⁽⁴⁵¹⁾ محمد بن عمر التونسي، (تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان)، تح: خليل محمود عساكر/مصطفى محمد مسعد، الدار المصرية للتأليف،

(القاهرة- مصر)، 1965م، د.ط، ص: 15، 16.

⁽⁴⁵²⁾ خير الدين باشا التونسي: وزير، مؤرخ، شركسي الأصل، ولد عام 1225هـ، قدم صغيرا إلى تونس، فاتصل بصاحبها (الباي أحمد) وأثرى، وتعلم بعض اللغات وتقلد مناصب عالية آخرها الوزارة. وبسعيه أعلن دستور المملكة التونسية سنة 1284 هـ/ 1867م، ولكنه ظل حيرا على ورق. ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 257، 258/1

⁽⁴⁵³⁾ أحمد باي: هو أحمد بن مصطفى بن محمود بن محمد الرشيد، أبو العباس، باي تونس. وهو التاسع من رجال الأسرة الحاكمة أيام الحكم العثماني فيها، ولد بتونس، وولي بعض أعمالها، وبويع بعد وفاة أبيه سنة 1253هـ. توفي سنة 1271هـ. ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 257، 258/1

والنمسا وإيطاليا وهولندا والسويد والدنمارك وبلجيكا⁽⁴⁵⁴⁾. وبعدها اعتكف في بستانه، ويصف ذلك محمد بيرم الخامس بقوله: "وبقي الوزير خير الدين في بستانه، مقبلا على شؤون نفسه، لا يختلط بالحكومة إلا نحو يومين في الشهر، يتوجه إلى الوالي للسلام عليه، أو عندما يدعوه لأمر ما..."⁽⁴⁵⁵⁾. فرغ من تأليفه يوم الاثنين 10 جمادى الأولى سنة 1284 هـ (1867/09/09م)، وتم طبعه بمطبعة الدولة التونسية في 28 ربيع الثاني سنة 1285 هـ (1868/08/18م)⁽⁴⁵⁶⁾، وقد نشرت في كراريس، ثم أضيف إلى الكتاب التقاريط العديدة التي وردت على خير الدين بعد اطلاع المثقفين على كتابه⁽⁴⁵⁷⁾. ثم تُرجم هذا الكتاب إلى عدة لغات، حيث تُرجمت مقدمته

إلى الفرنسية سنة 1285 هـ (1868م)⁽⁴⁵⁸⁾، وإلى الإنجليزية سنة 1291 هـ (1874م)⁽⁴⁵⁹⁾، كما

صدرت طبعته العربية المقدمة في اسطنبول سنة 1876م، ثم ترجمه إلى التركية إسماعيل حقي سنة 1295 هـ (1878م)⁽⁴⁶⁰⁾.

يحتوي كتاب (أَقْوَم المسالك في معرفة أحوال الممالك) على كتابين كما سماه خير الدين باشا، الأول (كتاب دول أوروبا) وفيه عشرون بابا، يدرس في كل باب دولة نذكرهن على حسب الترتيب الذي وجد بالكتاب، بداية بالدولة العثمانية، ثم مملكة فرنسا، ومملكة إنجلترا، ومملكة النمسا، ومملكة روسيا، ومملكة بروسيا، ومملكة جرمانيا، ومملكة إيطاليا، ومملكة إسبانيا، ومملكة السويد، ومملكة النرويج، ومملكة البرتغال، ومملكة سويسرا، ومملكة البابا، ومملكة الفورتنبورغ،

⁽⁴⁵⁴⁾ أبو حمدان سمير، (خير الدين التونسي "أبو النهضة التونسية")، دار الكتاب العالمي، (بيروت، لبنان)، 1993م، ص: 37، 38.

⁽⁴⁵⁵⁾ بيرم الخامس محمد، (صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار)، دار صادر، (بيروت- لبنان)، ص: 52/2.

⁽⁴⁵⁶⁾ حسن حسني عبد الوهاب، (العمر في مصنفات المؤلفين التونسيين)، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، ص: 578/2.

⁽⁴⁵⁷⁾ أحمد عبد السلام، (مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية)، الشركة التونسية للتوزيع، (تونس)، 1987م، ط1، ص: 17.

⁽⁴⁵⁸⁾ أحمد أمين، (زعماء الإصلاح في العصر الحديث)، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة- مصر)، 1971م، ط3، ص: 272.

⁽⁴⁵⁹⁾ محفوظ محمد، (تراجم المؤلفين التونسيين)، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1982م، د.ط، ص: 277/2، 278.

⁽⁴⁶⁰⁾ محمد الفاضل ابن عاشور، (تراجم الإعلام)، الدار التونسية، (تونس)، 1970م، ص: 23.

وإمارة بادن الكبيرة، وأخيراً مملكة الإغريق. حيث يدرس كل دولة من ناحية تاريخها ووصفها، ويذكر قوانينها وأحكامها السياسية وقوتها المالية والعسكرية⁽⁴⁶¹⁾.

أما الكتاب الثاني، والذي جاء بعنوان (الكلام على أقسام الكرة)، وبه ستة أبواب، وهو عبارة عن وصف للدول والقارات وصفاً جغرافياً، حيث تناول في أبوابه الستة قارة أوروبا، ثم تحدث عن آسيا ليعرِّج إلى إفريقيا وبعدها أمريكا ثم جزر الأوقيانوس وأقسام البحر⁽⁴⁶²⁾.

يقول في تقديم كتابه: "إنِّي بعد أن تأملت تأملاً طويلاً، في أسباب تقدم الأمم وتأخرها جيلاً فجيلاً، مستنداً في ذلك لما أمكن تصفحه من التواريخ الإسلامية والإفريقية، مع ما حرره المؤلفون...⁽⁴⁶³⁾ فلذلك هجس ببالي ما استذكيت لأجله ذُبالي، من أي لو جمعت بعض ما استنتجته منذ سنين بإعمال الفكر والروية، مع ما شاهدته أثناء أسفاري للبلدان الأوروبية... وأهم تلك الفوائد عندي، التي هي في هذا التأليف مناط قصدي، تذكير العلماء بالأعلام، بما يُعينهم على معرفة ما يجب اعتباره من حوادث الأيام، وإيقاظ الغافلين من رجال السياسة وسائر الخواص والعوام... وذكر ما تتأكد معرفته من أحوال الأمم الإفريقية، خصوصاً من لهم بنا مزيد الاختلاط... فجمعت بعون الله من مستحدثاتهم المتعلقة بسياسي الاقتصاد والتنظيم، مع الإشارة إلى ما كانوا عليه في العهد القديم..."⁽⁴⁶⁴⁾

تميز خير الدين التونسي عن غيره من الرحالة الأدباء في القرن الثالث عشر الهجري، بأنه جمع بين شخصيّي المفكر ورجل السياسة، الأمر الذي جعله صاحب تجربة فريدة بين مختلف التجارب التي خاضها غيره من الرحالة في البلاد العربية والإسلامية.

⁽⁴⁶¹⁾ ينظر: خير الدين التونسي، (أَقْوَم المسالك في معرفة أحوال الممالك)، تقديم: محمد الحداد، دار الكتاب المصري، (القاهرة- مصر)، 2012م، د.ط،

ص: 3

⁽⁴⁶²⁾ ينظر: التونسي، (أَقْوَم المسالك)، م.س، ص: 5، 7

⁽⁴⁶³⁾ المصدر نفسه: 3

⁽⁴⁶⁴⁾ ينظر: المصدر نفسه، ص: 5، 6

من خلال ما سبق يتجلى لنا أن تتبع مسيرة الخطاب الرحلي في المغرب العربي يعد مجالاً رحباً واسعاً يفتح للباحث آفاقاً متعددة ومختلفة خاصة وابتداءً من القرن السادس الهجري، ذلك أن بلاد المغرب قد شهدت حركة تنقل واسعة، استطاعت بفضل القائمين بها أن تصبح مصدراً مهماً لمعرفة الحياة الأدبية الثقافية والفكرية وكذا التعرف على البيئات العلمية مشرقاً ومغرباً ففيها ذُكر لأهم المراكز العلمية ومجالس الدرس والتحصيل والعلوم التي كانت هدف الرحالين والطلبة، فلا أحد ينكر ما يمكن أن يفيدته المثقف الباحث من خطاب الرحلات، فتنوع موضوعاتها جعلها قبلة لمنح المعلومة الجغرافية والتاريخية والشعرية و...

إنَّ كتب الرحلات المغربية تعد مصدراً قيماً ثرياً بالعديد من النصوص الأدبية، شعرية كانت أم نثرية، فلقد انفرد بعضها برواية عديد الآثار الأدبية وذلك حرصاً من الرحالة أنفسهم على أن تضم رحلاتهم هذه الإبداعات، ولم يكتفوا بهذا بل قاموا بتضمين الرحلة إبداعاتهم الخاصة وذلك في سياق تدوينهم لها مما جعل هذه الرحلات ذات أهمية خاصة فأغلب الرحالين لم تعرف لهم أشعار أو كتابات باستثناء تلك التي أوردوها في رحلاتهم ومن أجل هذا تعد مصدراً معروفاً بهذه الشخصيات الأدبية كمحمد العبدري وابن جبير وابن بطوطة وغيرهم.

وبما أن هذه الدراسة معنية بالرحلة الجزائرية في تراثنا العربي، والتي تندرج تحت خطاب الرحلات المغربية، فلا بد أن نتساءل: هل المصنفات الرحلية الجزائرية تزخر بنفس القيمة الأدبية والفنية التي زخرت بها رحلات المغرب والمشرق؟ وهل ذاع صيتها بنفس ذبوع مصنفات المغرب كرحلة ابن بطوطة وابن جبير والإدريسي.. أو مصنفات المشرق كالمسعودي والمقدسي وابن حوقل..؟ وللمعرفة الإجابة عن هذه الأسئلة يتوجب مبحث ثالث نتعرف فيه على أعلام خطاب الرحلات الجزائرية ومصنفاتهم عبر مختلف العصور في أصقاع مختلف العوالم.

المبحث الثالث: خِطَابُ الرَّحَلَةِ الْجَزَائِرِيَّةِ فِي التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ

إنَّ المُتَّبِعَ لمسار خطاب الرّحلات الجزائرية من خلال كتابات الباحثين والدارسين المهتمين بهذا الفن الأدبي، يلاحظ أن الخطاب الرّحلي الجزائري ضئيل القدر، قليل الإنتاج مقارنة بما أنتجته بلدان المغرب العربي مثل تونس والمغرب الأقصى، وليس السبب هو عدم اهتمام الأدباء والرحالة الجزائريين بهذا الفن، بل هو ربما راجع إلى الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي مرت بها الجزائر خلال الحكمين (العثماني والفرنسي).

فقد عرفت الرّحلة الجزائرية مثل غيرها من الرحلات مسارها نحو كافة أقطار العالم، إما بغرض ديني (فريضة الحج) أو غرض علمي (طلب العلم) أو كلا الغرضين (ديني وعلمي)، فكانت ثمرة هذه الرحلات تدوين مصنفات أدبية يسرد فيها الرحالة الجزائري ما عاشه وما شهده خلال تنقلاته بين مختلف الأمصار برا وبحرا، ليلا ونهارا. ولو تتبعنا مسار خطاب الرحلات الجزائرية في تاريخ الأدب العربي؛ فإنه يقتضي منا أن نتحدث - باختصار - عن ثلاثة مراحل مرّ بها الأدب الجزائري هما: (مرحلة حكم الدويلات، مرحلة الحكم العثماني، ومرحلة الاستعمار الفرنسي)

المرحلة الأولى: حكم الدويلات

كانت الدولة الموحدية أول دولة قامت في المغرب الإسلامي عام 515هـ-668هـ(1120-1269م)، لكن ما إن لبثت الاضطرابات الداخلية والأخطار الخارجية تُضعِف الدولة، خاصة بعد معركة "حصن العقاب" بالأندلس سنة 609هـ(1212م) التي كانت بداية النهاية للدولة وذلك ما أدى إلى تفككها إلى ثلاث دويلات:

الدولة الحفصية 625هـ-981هـ(1228م-1573م)، أسسها أبو زكريا بن أبي محمد بن أبي حفص تضم تونس وطرابلس الغرب والشرق الجزائري عاصمتها تونس.

الدولة الزيانية (بني عبد الواد) 633هـ-962هـ(1236م-1514م): أسسها يغمرا سن بن زيان وانحصر نفوذها على القسم الأوسط والغربي من الجزائر عاصمتها تلمسان.

الدولة المرينية: 668هـ-957هـ (1269م-1550م): أسسها بنو مرين وبسطت نفوذها على المغرب الأقصى على يد أبو يحيى بن عبد الحق عاصمتها فاس.

وعلى الرغم من الصراع التي شهدته بلاد المغرب كان للرحالة الجزائريين نصيب معتبر في المجال الرحلي، فقد عرفت الرحلة الجزائرية تبكيرا في هذا المجال، بل لعل الكثير منا يجهل أن الأدباء الجزائريين كانوا من أوائل الأعلام الذين خاضوا في هذا الفن، وتمكنوا منه، فإذا كانت الرحلة كفن قد تأسس في الأدب العربي عموما على يد أبي بكر بن العربي (ت542هـ) - كما تقدم - عندما دوّن رحلته عام 485هـ (1092م)، ومن بعده ابن جبير (ت626هـ) الذي مثلها أحسن تمثيل، فبين هذا وذاك، جاء أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم (ت571هـ) المعروف بـ: "الوارجلاني"⁽⁴⁶⁵⁾ بقصيدته الحجازية المطولة⁽⁴⁶⁶⁾، التي تتضمن 374 بيتا ومطلع القصيدة:

عَدِيرِي عَدِيرِي مِنْ ذَوَاتِ الْمَعَاجِرِ ذَوَاتِ الْعُيُونِ النَّجْلِ بِيضُ الْمَحَاغِرِ⁽⁴⁶⁷⁾

يصف الوارجلاني في قصيدته أخبار رحلته إلى الحجاز والتي كانت بغرض ديني، وهو أداء فريضة الحج، فيحدد فيها مسار رحلته من نقطة انطلاقه وأرجلان (ولاية ورقلة حالياً)، يقول:

خَرَجْنَا نَوْمُ الشَّرْقِ مِنْ حَيْزِ وَارِ جِلَانِ بَفْتِيَانِ صِدْقٍ مِنْ وُجُوهِ الْعَشَائِرِ⁽⁴⁶⁸⁾

كما يذكر الوارجلاني مثل غيره من الرحالة بعض الأماكن والبقاع التي مروا عليها أو نزلوا بها، مع وصف لعادات أهلها وتقاليدهم، إضافة إلى ذلك نراه يتحدث عن ما لقيه من عوائق السفر وأهواله؛ من ذلك قوله:

⁽⁴⁶⁵⁾ الوارجلاني: يوسف بن إبراهيم بن مياذ السدراتي الوارجلاني، أبو يعقوب: مؤرخ، مفسر، من أكابر فقهاء الإباضية. من أهل ورجلان مولدا ووفاة. من آثاره (العدل والإنصاف) في أصول الفقه، في ثلاثة أجزاء، و(مرج البحرين) في المنطق والحساب والهندسة، (تفسير القرآن الكريم) في سبعين جزءا. ينظر: الزركلي، (الأعلام) م.م.س، ص: 212/8. وينظر: محمد راغب بن عبد الغني، (معجم المؤلفين)، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي (بيروت- لبنان)، د.ط، ص: 267/13. وينظر: عادل نويهض، (معجم أعلام الجزائر - من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر-)، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف، (بيروت - لبنان)، 1400هـ/1980م، ص: 341

⁽⁴⁶⁶⁾ حققها يحيى بن بهون حاج محمد في إطار مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس من جامعة الأغواط، وقد طبعت سنة 1428هـ (2007م) في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية. عيسى بخيتي، (أدب الرحلة الجزائري الحديث - سياق النص وخطاب الأنساق-)، مذكرة دكتوراه، جامعة يلقايد أبي بكر جامعة، (تلمسان- الجزائر)، 2015/2016، ص: 15

⁽⁴⁶⁷⁾ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني، (رحلة الوارجلاني)، تح: يحيى بن بهون حاج محمد، مطبعة الجيش، الجزائر، 2007م، ص: 19

⁽⁴⁶⁸⁾ المصدر نفسه، ص: 57

لَقَدْ أُنْذِرَ الرَّائِيْنَ فَضْلاً بِهَوْلِهِ
 إِذَا ضَرَبَتْهُ مَوْجَةٌ زَعَزَعَتْ بِنَا
 فَحَطَمَ مِنْهَا جَلْبَةً فَتَحَطَمَتْ
 فَأَنْقَذْنَا مِنْهَا الْمَلِيكَ بِفَضْلِهِ
 فَلَمْ يَنْجُ مِنَّا غَيْرَ أَنْاسٍ قَلَائِلِ
 عَلَى الرَّكَبِ الْمَلَّاحِ بَلَلَهُ الْمَخَاطِرِ
 فَصَكَّتْ بِجَنَبَيْهَا كَوْقَعِ السَّوَاطِرِ
 فَكَبَّرَ أَهْلَهَا بِكُلِّ التَّكَابُرِ
 وَأَلْهَمْنَا الْمَعْرُوفَ خَيْرَ الْأَوَامِرِ
 عَلَى ظَهْرِ أَلْوَاحِ عَرَادِ الْمَسَامِرِ (469)

تعتبر قصيدة الوارجلاني إضافة إلى تعدد أغراضها من وصف ومدح وفخر ورتاء، ذات قيمة أدبية عالية لا نجدها في كثير من القصائد، فضلاً عن ما تجمعها القصيدة من جوانب رحلية مختلفة كذكر جملة من القبائل والعشائر الجزائرية، وتعريف مسالك الأقطار والأمصار وطبائع أقوامهم.

وبعد أن قطع الوارجلاني هذا الشوط الكبير يكون أول عَلم في القرن السادس الهجري مهد لفن خطاب الرحلات في الأدب الجزائري.

وبحلول القرن الثامن الهجري نجد مجموعة كبيرة ممن سار على درب الوارجلاني، خاصة أولئك الذين وُلّوا رحلاتهم شطر المشرق إما بدافع الحج أو بدافع طلب العلم على غرار أحمد ابن مرزوق الخطيب⁽⁴⁷⁰⁾ (ت780هـ) صاحب كتاب (عَجَالَةُ الْمَسْتَوْفِزِ الْمَسْتَحَازِ فِي ذِكْرِ مَنْ سَمِعَ مِنَ الْمَشَايخِ دُونَ مَنْ أَجَازَ مِنْ أَيْمَةِ الْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ) ذكره ابن الخطيب في كتابه (الإحاطة) بهذا العنوان⁽⁴⁷¹⁾، وأورده المقرئ في كتابه (نفع الطيب) بعنوان: (عجالة المستوفز المستحاز في ذكر من استجازني) والذي لا يزال مفقوداً إلى يومنا هذا⁽⁴⁷²⁾.

ويذكر لنا ابن مرزوق الخطيب أن أولى رحلاته كانت رفقة والده إلى البقاع المقدسة لأداء مناسك الحج، وبعدها توجه إلى المغرب للملاقة السلطان أبي عنان المريني الذي كان مقرباً منه كثيراً، حتى أن ابن مرزوق أُلّف عنه كتاباً ذكر فيه كل إنجازاته ومآثره، وفضائله عليه، وسمه بعنوان: (المسند

⁴⁶⁹ إبراهيم الوارجلاني، (رحلة الوارجلاني)، م.م.س، ص: 59

⁴⁷⁰ ابن مرزوق الخطيب: هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني، يكنى أبا عبد الله، رحل إلى المشرق سنة 718هـ مع والده، وأقام بمصر مدة وعاد إلى تلمسان سنة 733هـ فولي أعمالاً علمية وسياسية. له كتب، منها: (شرح عمدة الأحكام) و(إيضاح المرشد فيما تشتمل عليه الخلافة من الحكم والفوائد)، و(شرح الشفاء) لم يكمله. ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 328/5. وينظر: (4) المقرئ، (نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، م.م.س، ص: 392/5

⁴⁷¹ ينظر: لسان الدين بن الخطيب، (الإحاطة في أخبار غرناطة)، م.م.س، ص: 604/4

⁴⁷² ينظر: المقرئ، (نفع الطيب)، م.م.س، ص: 392/5

الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن). ومما قاله ابن مرزوق عن أبي عنان: "وكان السلطان أبو الحسن لا يسافر إلا ومعه المصحف الكريم العثماني، وله عند أهل الأندلس شأن عظيم، ومقام كبير" (473)

وقال في مسجد "أبي مدين شعيب" الذي بناه بتلمسان: "وأما الجامع الذي بناه...فهو الذي عز مثاله واتصفت بالحسن والوثاقة أشكاله، وأنفق فيه مقدارا جسيما ومالا عظيما...وهو أن سقفه كلها أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة كل جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع قد رقت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة، فلا يختلج في النفس شك، ولا يعترض لها وهم، إنما أشكال منجورة، منقوشة، وهي كلها مبنية إحكام بالآجر والفضة واشتمل على المنبر العجيب الشكل، المؤلف من الصندل والعاج والأبنوس المذهب..." (474)

ويقول في أبراج سبته: "ومن أعجب ما أنشأه...الأبراج التي اجتمع أهل الخبرة بالمباني وعرفاء العمارة قبل أن تنشأ، لا يتصور بناؤها على الوجه الذي قدره وأورده، فجاءت على أتم الوجوه من الإحسان، فمنها برج الماء الذي أنشأه داخل البحر ووسط الأمواج ببحر بسول من ساحل سبته وقد حضرت إنشائه..." (475)

ثم تنقل من مكة إلى الشام، ثم اتجه صوب الديار المصرية، ثم طرابلس، ثم تونس، ليعود بعد ذلك إلى مسقط رأسه تلمسان. يقول: "فوصلت إلى تلمسان في السابع عشر من شهر رمضان..." (476)

إنَّ القارئ لنصوص ابن مرزوق الخطيب يجدها تزخر بقيمتها الأدبية والتاريخية والجغرافية، فهي بمثابة المصدر الذي يجد فيه الباحث مادته في ذلك العصر، خصوصا وأن ابن مرزوق كان ذوّاقا للرؤى والمشاهد فكان لا يدع الوصف الدقيق والبلغ في رسم مشاهدته التي كانت تحدث أمام

(473) ينظر: المقرئ، (نفع الطيب)، م.م.س، ص: 605/1

(474) أحمد بن مرزوق الخطيب، (المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن)، تح: ماريا خيسوس بيغرا، الشركة الوطنية الجزائرية، (الجزائر)

1981م، ص: 403، 404

(475) المصدر نفسه، ص: 398

(476) المصدر نفسه، ص: 481

مرآه رواية الأخبار والأحداث، إلى جانب أسلوبه الأدبي الذي يرقى به إلى مصف الرحالة الأدباء المتمكنين.

ومن رحالة القرن الثامن - كذلك - نجد أبو العباس أحمد الخطيب الشهير باسم: "ابن قنفذ القسنطيني" (ت810هـ) صاحب كتاب (أُنسُ الفقيرِ وعز الحَقيرِ) "الذي نال شهرة وانتشاراً واسعاً، وكان قصد ابن قنفذ من خلال مؤلفه هو سرد رحلاته التي قام بها إلى المزارات وأضرحة الأولياء السابقين لزمانه" (477).

ليشهد بعد ذلك الإنتاج الرحلي في القرن التاسع الهجري نمطاً من السيرة الذاتية، كما هو الحال في كتاب (غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد) لعبد الرحمن الثعالبي⁽⁴⁷⁸⁾ (ت875هـ) الذي كانت أولى رحلاته إلى المشرق سنة 802هـ، ومن خلال عنوان مؤلفه يظهر لنا أن رحلته كانت بدافع علمي معرفي، كما يصرح بذلك في كتابه: "رحلت في طلب العلم من ناحية الجزائر من موضع يقال له يسر... ذلك في أواخر القرن الثامن. ثم تناهت بي الرحلة إلى بجاية فدخلتها عام اثنتين وثمان مائة..." (479).

ومن ينظر في كتاب (غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد) لعبد الرحمن الثعالبي يلاحظ أنه ركز بشكل كبير على ذكر المشايخ والعلماء الذين جلس عندهم وأخذ منهم؛ من ذلك قوله: "قدم علينا بتونس شيخنا أبو عبد الله ابن مرزوق فأقام بها، فأخذت عنه كثيراً، وسمعت عليه جميع الموطأ بقراءة صاحبنا أبي حفص عمر ابن شيخنا محمد القلشاني، وختمت عليه أربعينيات النووي، قرأتها عليه في منزله قراءة تفهم، فكان كلما قرأت عليه حديثاً يعلوه خشوع وخضوع، ثم يأخذ في البكاء، فلم أزل أقرأ وهو يبكي إلى أن ختمت الكتاب" (480).

⁽⁴⁷⁷⁾ ابن قنفذ القسنطيني، (أُنسُ الفقيرِ وعز الحَقيرِ)، تح: محمد الفاسي/أدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، (الرباط- المغرب)، د.ط، ص: 1

مقدمة

⁽⁴⁷⁸⁾ عبد الرحمن الثعالبي: هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، ولد سنة 785/1384م بواد يسر شرق الجزائر العاصمة، نشأ في أحضان العلم، تلقى مبادئ قراءته وتعلمه بالجزائر العاصمة. من مؤلفاته: (روضة الأنوار ونزهة الاخياري)، و(جامع المهمم في أخبار الأمم)، و(الارشاد في مصالح العباد) و (الأنوار في آيات النبي المختار) توفي يوم الجمعة 23 رمضان 875 هـ، ودفن بالجزائر العاصمة. ينظر: عادل نويهيض، (مُعجمُ أعلام الجزائر)، م.م.س، ص: 90، 91

⁽⁴⁷⁹⁾ عبد الرحمن الثعالبي، (غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد)، تح: محمد شايب شري، دار بن حزم، (بيروت- لبنان)، 2005م، ط1، ص: 107

⁽⁴⁸⁰⁾ المقرئ، (نفح الطيب)، م.م.س، ص: 425/5

وقال: "ثم رحلت إلى المشرق ودخلت مصر فلقيت بها الشيخ أبا عبد الله محمد البلالي فسمعت عليه البخاري وقرأت عليه كثيرا من اختصاره إحياء علوم الدين، ثم حضرت قراءة شيء من الموطأ بمكة" (481)

وقوله: "ثم رحلت إلى تونس فدخلتها في أواخر عام تسعة وثمانين مائة أو أوائل عام عشرة وثمانين مائة... فوجدت أصحاب ابن عرفة متوافدين، فأخذت عنهم وحضرت مجالسهم، منهم شيخنا أبو مهدي عيسى الغريبي واحد زمانه علما ودينا وورعا، وإليه كانت الرحلة في زمانه.." (482)

قد يختلف كتاب الثعالبي عن ما سبقه من مؤلفات رحلية عُنيت بتقديم معلومات علمية أو تاريخية أو جغرافية في إطارها الأدبي، وهذا ما يفتقده كتاب الثعالبي الذي نجده يخلو مما ذكره سالفوه من تحديد المسالك والممالك، ووصف عادات الأمم وتقاليدهم، وسرد أخبار الرحلة وأحداثها... إلا أنه يعد وثيقة مهمة ليس في تقديم سيرته الشخصية فحسب، بل أيضا في تعداد العلماء والشيوخ وطلبة العلم الذين برزوا في القرن التاسع الهجري.

المرحلة الثانية: مرحلة الحكم العثماني

دامت فترة حكم العثمانيين في الجزائر، ما يزيد على ثلاثة قرون، وهي فترة طويلة، لا شك أن تأثيرها على حياة الجزائريين في مختلف المجالات سيكون كبيرا، ولا شك أن هذه الفترة لن تكون خالية - كما يزعم بعضهم - لا ثقافة ولا أدب فيها (483)؛ إذ ليس من المعقول أن الوطن الذي أشاع فيه شعاع الثقافة والعلوم والأدب في تلمسان على عهد الزيانيين، وفي قسنطينة على عهد الحفصيين، تزول معالمه، وتختفي آثاره كاملة في عهد العثمانيين.

لكن يمكن القول أن مختلف هذه العلوم والآثار الثقافية التي شهدتها الجزائر في عصر الدويلات شهدت ضعفا كبيرا في العهد العثماني؛ وسبب ذلك كما يرى الكثير من المؤرخين أن الدولة العثمانية لم تهتم بنشر العلم في الجزائر اهتماما كبيرا لأسباب مختلفة، أولها:

(481) عبد الرحمن النعالي، (غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد)، م.س، ص: 110

(482) المصدر نفسه، ص: 109

(483) محمد الطمار، (تاريخ الأدب الجزائري)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (الجزائر)، 1969م، ص: 218

- جهودها في رد الحملات الصليبية على بلاد المسلمين
- بسط حكمها وسيطرتها على أكبر رقعة جغرافية ممكنة⁽⁴⁸⁴⁾.

ولو قارنا مصنفات الإنتاج الرحلي في العهد العثماني بمصنفات العلوم الأخرى؛ لوجدنا أن مصنفات الخطاب الرحلي قد أعتمت الضوء على العلوم الأخرى. حيث أن خطاب الرحلات في هذه الفترة بلغ ذروته وأوج عطائه وازدهاره خاصة في القرنين الحادي والثاني عشر هجريين.

ولو حاولنا الحديث عن هذا الفن في العهد العثماني، وبالضبط في القرن الحادي عشر الهجري (ق17م)، فإن أبا العباس أحمد المقري التلمساني(ت1041هـ) هو أول من سيتصدر قائمة الرحالين الجزائريين في هذا القرن.

يعد أحمد المقري من أبرز أعلام الأدب في العصر العثماني سواء في صناعة النثر أو الشعر، ومن ثم كان تأثيره في مجال الفكر والثقافة كبيرا من جهة، وفي الكتابة والأسلوب من جهة أخرى عظيما، كما كان لأدبه وعلمه نفوذ كبير، وذلك من خلال رحلاته الشهيرة إلى المشرق والمغرب التي ضمنها كتابه الشهير (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب).

يمكن تقسيم رحلات المقري من خلال كتابه (نفح الطيب) إلى قسمين: رحلة مغربية، ورحلة مشرقية:

أ- الرحلة المغربية: كانت هي أولى رحلاته من مسقط رأسه تلمسان إلى المغرب الأقصى عام 1009هـ(1601م) وبالتحديد إلى مدينة فاس، وكان عمره حينذاك في حدود السابعة والعشرين، يقول: "...وبها ولدت [يعني مدينة تلمسان] أنا وأبي وجدي وجد جدي، وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلت عنها في زمن الشيبية إلى مدينة فاس سنة تسع وألف، ثم رجعت إليها آخر عام عشرة وألف، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف، إلى أن ارتحلت عنها للمشرق..."⁽⁴⁸⁵⁾

⁽⁴⁸⁴⁾ ينظر: محمد الطمار، (تاريخ الأدب الجزائري)، ص: 218

⁽⁴⁸⁵⁾ المقري، (نفح الطيب)، م.م.س، ص: 136/7

وفي فاس تمكن المقرري من مجالسة كبار شيوخها وعلمائها أمثال: إبراهيم بن محمد الآيسي وأحمد بابا التنبكتي اللذان كانا مقربي السلطان أحمد المنصور الذهبي، وما هي إلا مدة حتى لحق بهم أحمد المقرري ليصبح ذا حظوة كبيرة عند السلطان المنصور، فعين بما مفتياً وقاضياً وخطيباً.

وبعد فترة عاود الرجوع إلى تلمسان في آخر عام 1010هـ (1602م)، وكانت هذه الرحلة مادة كتابه (روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراکش وفاس) الذي كان مقرراً أن يقدمه إلى السلطان المنصور، إلا أن السلطان توفي عام 1012هـ (1604م)، والمقرري لا يزال في تلمسان. وبعد عودته إلى فاس عام 1013هـ (1605م) التي كانت تعيش حالة اضطراب وتوتر كبير بعد وفاة المنصور وصراع أبنائه على الحكم، مما أدى إلى نفور وهجرة الكثير من العلماء وعلى رأسهم المقرري الذي شد الرحال إلى المشرق.

ب- رحلة مشرقية: وكان ذلك أواخر شهر رمضان عام 1027هـ (1618م) كما صرح بذلك: "...ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف، إلى أن ارتحلت عنها للمشرق أواخر رمضان سنة 1027هـ... "(486).

فوصل تطوان (تطوان) في ذي القعدة من ذلك العام، ومن هناك ركب السفينة التي عرجت به على تونس وسوسة حتى وصلت الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة فالحجاز بجرأ، فوصل مكة في ذي القعدة من العام التالي وبقي فيها بعد العمرة ينتظر موسم الحج، ومنها توجه إلى المدينة، ثم عاد إلى مصر في محرم 1029هـ (1619م) وفي شهر ربيع الأول زار بيت المقدس وأخذ يتردد إلى مكة والمدينة حتى كان في عام 1037هـ (1628م) قد زار مكة خمس مرات والمدينة سبع مرات، وقد أوفى هذا الجانب تفصيلاً في كتابه ((نفتح الطيب))، قال: "وحصلت لي بالمجاورة فيها [يعني مكة] المسرات... ووفدت على طيبة المعظمة ميمماً مناهجها السديدة سبع مرار "(487)

وفي منتصف شعبان من العام 1037هـ (1628م) عزم على التنقل إلى مدينة دمشق حيث دخلها أواخر الشهر المذكور وأقام بها إلى أوائل شوال من السنة المذكورة⁽⁴⁸⁸⁾، ولم تطل إقامته

⁽⁴⁸⁶⁾ المقرري، (نفتح الطيب)، م.س، ص: 136/7

⁽⁴⁸⁷⁾ المصدر نفسه، ص: 56/1

⁽⁴⁸⁸⁾ المقرري، (نفتح الطيب)، م.س، ص: 4/1

بدمشق، حيث إنه سرعان ما عاد إلى مصر في أوائل شوال من عام 1037هـ. وهكذا ظل المقري يتردد بين مصر ودمشق، إلا أن توفي بمصر عام 1040هـ (1631م)⁽⁴⁸⁹⁾

وعليه فإن كتاب (نفع الطيب) يعد وثيقة مضيئة في تاريخ الأدب العربي، ينفرد عن غيره من الكتب الأندلسية بإحاطته بكل ماله علاقة بالأندلس.

وبما أن كتاب (نفع الطيب) سيكون أحد نماذج هذه الدراسة إن شاء الله تعالى؛ ستوضح لنا معالم هذا الكتاب أكثر من حيث منهج المؤلف وأسلوب التدوين والمصادر التي اعتمدها في تأليفه والجوانب التي عُني بها في مؤلفه (اللغوية، والنحوية، والبلاغية، والنقدية والتاريخية...)

ومن ساروا على نهج أحمد المقري في القرن الحادي عشر الهجري، نذكر: أحمد بن قاسم بن محمد ساسي المشهور بلقب: "البُوي" ⁽⁴⁹⁰⁾ (ت 1139هـ) نسبة إلى مدينة بونة بولاية عنابة، وهو صاحب كتاب (الروضة الشهية في الرحلة الحجازية)، فمن خلال عنوان الكتاب نفهم أن رحلة أحمد البوي كانت رحلة مشرقية صوب الحجاز.

تذكر لنا سميرة أنساعد "أن مسار رحلة البوي بدأ من مسقط رأسه بونة، ثم مرورا بتونس، ثم مصر، ثم الحرمين الشريفين، ليعود بد ذلك إلى عنابة، إلا أن الأكيد أن البوي قام بالتعلم والتعليم، أثناء تلك الرحلات، فأخذ عن الكثير من الشيوخ والعلماء، ويصرح بذلك فيقول: "...ولي

⁽⁴⁸⁹⁾ المصدر نفسه، ص: 6/1

⁽⁴⁹⁰⁾ أحمد البوي: هو أحمد بن قاسم بن محمد بن ساسي التميمي البوي، أبو العباس: فقيه مالكي، من كبارهم، عالم بالحديث، ولد ببونة المعروفة بعنابة في شرقي الجزائر. ورحل إلى المشرق فأخذ بمصر عن عبد الباقي ابن يوسف الزرقاني المتوفي سنة 1099هـ - 1688م، وأبي زكريا يحيى بن محمد الشاوي الملياني بعد عودته من الحج وتصدره للاقراء بالأزهر، وغيرهما. ثم عاد إلى الجزائر وأخذ عنه جماعة من العلماء منهم عبد القادر الراشدي القسنطيني وغيره. له كتب كثيرة منها: (فتح الاغلاق على وجوه مسائل خليل بن اسحاق)، و (فتح الباري في شرح غريب البخاري) و(الإلهام والانتباه في رفع الإيهام والاشباه)، و(الثمار المهتصرة في المناقب العشرة) و(الإعانة على بعض مسائل الحصانة). ينظر: عادل نويهض، (مُعجمُ أعلام الجزائر - من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر-)، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف، (بيروت - لبنان)، 1400هـ / 1980م، ص: 49. وينظر: أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م)، م.م.س، ص: 61/2

أشياخ عدة ينيف عددهم على العشرين، وإن يسر الله تعالى عرفتم بهم، وقد ذكرتم في تأليفنا المسمى بالروضة الشهية في الرحلة الحجازية"⁽⁴⁹¹⁾

كما حثَّ أحمد البوني الناس على قراءة كتابه (الروضة الشهية) حيث قال عنه: "فعليك به فإن فيه طرفاً وظرفاً"⁽⁴⁹²⁾، إلا أن الكتاب لا يزال قيد الضياع إلى يومنا هذا، ولا نعلم الكثير عن أخبار رحلاته وتنقلاته، سوى ما ذكره لنا بعض المؤرخين أمثال: أبي القاسم الحفناوي وعادل نويهض وأبي القاسم سعد الله.

استطاع أحمد البوني أن يترك أثره وسيرته الذين اشتهر بهما في مصنفاته العديدة التي شملت مختلف العلوم من أدب وفقه وتفسير... ولكن مما يؤسف له أن كتابه (الروضة الشهية في الرحلة الحجازية) لا يزال مفقوداً إلى يومنا هذا.

ومع حلول القرن الثاني عشر الهجري (ق18م) تواصل الإنتاج الرحلي الجزائري، بل بلغ قمته وذروته بفضل نخبة من الرحالة الأعلام، فكان في مقدمتهم الرحالة الطبيب عبد الرزاق بن حمادوش الذي حفظ لنا أخبار تنقلاته المغربية والمشرقية في كتاب سماه (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال) في ثلاثة أجزاء لا يزال الأول والثالث في خبر الضياع، وقد أشار ابن حمادوش إلى الجزء الأول أكثر من مرة في الجزء الثاني فيقول: "وفي يوم الخميس، ثالث وعشرين رمضان، موافق ثامن عشر أكتوبر تمت الجزء الأول من هذا التأليف"⁽⁴⁹³⁾ وكان ذلك في الجزائر، وأما الجزء الثاني فيقع في 363 صفحة، وقد حققه أبو القاسم سعد الله⁽⁴⁹⁴⁾.

⁽⁴⁹¹⁾ سميرة أنساعد، (الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الهجريين-ق19/17م-)، الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقاف، (عين النعجة- الجزائر)، 2011م، ط1، ص: 33 نقلا عن: أحمد الزروق، (تعليق على فتوى في الحضارة لأحمد البوني)، مخطوط المكتبة الوطنية، (الجزائر)، رقم: 2160، ظهر الورقة رقم: 6

⁽⁴⁹²⁾ سميرة أنساعد، (الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري)، م.س، ص: 33. وينظر: أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م)،

م.م.س، ص: 63/2

⁽⁴⁹³⁾ عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، (رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة: "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال")، تح: أبو القاسم

سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، (الجزائر)، 1983م من ص: 124

⁽⁴⁹⁴⁾ أشار أبو القاسم سعد الله إلى أن النسخة الوحيدة لكتاب ابن حمادوش توجد في خزانة المكتبة العامة بالرباط تحت رقم: 463 وهي في شكل

مسودة. المصدر نفسه، ص: 13

إن الناظر في كتاب (لسان المقال) لابن حمادوش يلاحظ أنه قريب من كتابة اليوميات والمذكرات، حيث نراه دوّن ملاحظاته ومشاهداته منذ أن بدأ أولى رحلاته المشرقية إلى الحج سنة 1125هـ (1713م)، وقد رجح أبو القاسم سعد الله أن تكون الأخبار الخاصة بسفره مدونة إما في الجزء الأول، أي قبل رحلته إلى المغرب الأقصى والتي هي مدونة في الجزء الثاني، أو أن رحلته المشرقية دوت في الجزء الثالث لأن ابن حمادوش غادر المغرب الأقصى إلى الجزائر فوصلها عام 1157هـ (1744م)، وبعد سنوات كرر سفره إلى المشرق⁽⁴⁹⁵⁾، فدون من أخباره ما قد دوّن.

أما رحلته إلى المغرب الأقصى فقد بدءها وعمره ثمانية وأربعون سنة انطلاقاً من ميناء الجزائر على ظهر سفينة فرنسية في يوم الإثنين 20 ذو الحجة 1156هـ (14 فبراير 1743م) متوجهاً إلى مدينة تطوان مروراً بجبل طارق، ثم وصوله إلى المغرب⁽⁴⁹⁶⁾، فيذكر من لقيهم من العلماء والأدباء سواء الذين قصدهم أو الذين سمع عنهم أمثال: محمد الفاسي، وأحمد بن العربي بن الحاج، وعلي بن محمد التطواني، وأبو مدين بن الحسن المكناسي... وغيرهم. كما أورد جوانب تاريخية (تاريخ صدر الإسلام وبني أمية - الدولة العباسية - هارون الرشيد...)، وجوانب سياسية (الصرعات بين الحكام - رفض استقبال سفير عثماني في الجزائر...)، وجوانب إقتصادية (إحصاء السلع - تجارة الكتب...)، وجوانب إجتماعية (عادات المغاربة وتقاليدهم ومقارنتها ببعض التقاليد الجزائرية وعاداتهم - عقد زواج لبعض الأندلسيين...)، وجانب ديني (مسألة الفرق بين الفرض والواجب...).

ومن بين الخصائص التي ميزت رحلة ابن حمادوش عن باقي المؤلفات الرحلية التي شهدتها عصره وحتى التي جاءت بعده، أنها ضمت جانباً من العلوم الطبيعية والعلوم الدقيقة كالفلك والطب والكيمياء والفيزياء، فلا يخفى علينا أن ابن حمادوش كان طبيباً، عُرف بحبه لقراءته كتب الطب والصيدلة والفلك والكيمياء ككتب ابن سينا وابن بيطار والبتاني والرازي وإقليدس والملطي⁽⁴⁹⁷⁾ و... فألف كتب عديدة في هذه الميادين ككتابه المشهور في الطب (الجوهر المكنون من بحر

⁽⁴⁹⁵⁾ سميرة أنساع، (الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري)، م.م.س، ص: 35

⁽⁴⁹⁶⁾ ابن حمادوش الجزائري، (لسان المقال في النيا عن النسب والحسب والحال)، م.م.س، ص: 29

⁽⁴⁹⁷⁾ الملطي: هو سابور بن سهل، طبيب نصراني مقدم. له تصانيف، منها (كتاب الأقرباذين) و (قوى الأطعمة ومضارعا ومنافعها) و (الرد على حنين) و (القول في النوم واليقظة)، توفي يوم الإثنين من ذي الحجة من عالم 255هـ. ينظر: ابن النديم، الفهرست، م.م.س، ص:

358,359. وينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 69/3.

القانون)، كما كان في بعض الأحيان يبدي إعجابه وانبهاره ببعض هذه الكتب، إلا أنه يحذر من بعضها الآخر كالتى تمس العقيدة الإسلامية.

وعليه فتعد رحلة ابن حمادوش مصدرا هاما من مصادر التراث الجزائري، فقد شملت مختلف العلوم والجوانب، من تاريخ وجغرافيا، وسياسة واقتصاد، وفقه وعقيدة، وطب وفلك، وفيزياء وكيمياء، وعلوم الطرق البحرية... وغيرها، وهذا ما لم تشهده مصنفات سابقه ولا لاحقيه، مع أن الرحلة لا زالت مبتورة الجزء الأول والثالث، وقد ذكرنا فقط ما احتوت عليه رحلة الجزء الثاني والتي كانت مخصصة إلى المغرب. وأما ما يتعلق بجانبه الأدبي (اللغوي، والبلاغي، والنقدي...) فسيأتي ذكره لاحقا إن شاء الله تعالى.

وكان من أشهر الأعلام الذين عاصروا ابن حمادوش في قرنه، صديقه أحمد بن عمار الجزائري⁽⁴⁹⁸⁾ (ت. نحو 1205هـ) صاحب كتاب (نَحْلَةُ اللَّيْبِ فِي أَخْبَارِ الرَّحْلَةِ إِلَى الْحَبِيبِ) التي ما زالت تعتبر في حكم المفقود سوى مقدمتها التي سلمت من الضياع⁽⁴⁹⁹⁾.

نجد أن ابن عمار في بداياته الأولى قد تلقى العلم على يد الشيوخ داخل الجزائر قبل أن يرتحل إلى الخارج، وقد تركزت دراسته أكثر على الفقه والأدب.

فأما الأول (الفقه) فالأنه كان من عادة المتعلمين حينها، بعد حفظ القرآن، أن ينتقلوا إلى المتون الفقهية فيحفظوها، ويهتموا بشروحاتها وحواشيها، كمختصر خليل بن إسحاق المالكي، إضافة إلى كتب أخرى تكون مكنته من تولي وظيفة الإمامة والخطابة والإفتاء فيما بعد، وهذه الوظائف لا ينالها إلا من امتلك ناصية الفقه بالإضافة إلى العلوم الشرعية الأخرى⁽⁵⁰⁰⁾.

وأما الأدب، فإن ابن عمار كان شديد الميل إليه لما كان يحفظه عيون الشعر العربي القديم، وذلك ما نلمحه بكثرة في مقدمته كشعر لبيد والمتنبي والبحري وأبي تمام... إضافة إلى أشعار

⁽⁴⁹⁸⁾ أحمد بن عمار: هو أحمد بن عمار بن عبد الرحمن بن عمار الجزائري، له اشتغال بالحديث والفقه والتاريخ. من أهل الجزائر. رحل إلى الحجاز سنة 1172هـ وجاور بمكة، من كتبه أيضا: (لواء النصر في علماء العصر). أما تاريخ مولده ومكان نشأته فمجهولان، وأما وفاته فيرجع الزركلي أنها كانت نحو 1205هـ. ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 185/1

⁽⁴⁹⁹⁾ مقدمة الكتاب موجودة عند الأستاذ الدكتور: بوزوادة حبيب (جامعة معسكر - س.بلعباس).

⁽⁵⁰⁰⁾ ينظر: عجوط محمد، (دلالة المشتقات في الشعر الجزائري خلال العهد التركي - محمد بن علي وأحمد بن عمار أمودجان)، مذكرة ماجستير، كلية الآداب واللغات، 2008/2007م، (شلف - الجزائر)، ص: 16.

من سبقه من الرحالة كابن جبير ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم، من ذلك ما أورده من قول أحمد بن جبير في بيان فضل من من الله تعالى عليه بحج بيته الحرام، يقول:

هَنِيئًا لِمَنْ حَجَّ بَيْتَ الْهُدَى وَحَطَّ عَنِ النَّفْسِ أَوْزَارَهَا
وَإِنَّ السَّعَادَةَ مَضْمُونَةٌ لِمَنْ حَجَّ طَيْبَةَ أَوْ زَارَهَا (501)

ويصرح لنا ابن عمار في مقدمة مصنفه بما سيكون في الكتاب فيقول: "عزمت على تسمية ما أسطره، وأثبتته في هذه الأوراق وأحرره، بنحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، ورتبتها على مقدمة، وغرض مقصود وخاتمة" (502)

من خلال قول ابن عمار يظهر لنا أنه قسم كتابه (رحلة اللبيب) إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول سماه: "مقدمة"، والقسم الثاني سماه: "غرض مقصود"، والقسم الثالث سماه: "خاتمة".

أما "المقدمة" فقد خصها بذكر قصده وغرضه من هذه الرحلة والتي كانت بغرض أداء مناسك الحج.

وأما "الغرض المقصود" ففيه ذكر أخبار رحلته من نقطة انطلاقه إلى نقطة وصوله.

وأما "الخاتمة" فذكر ما خلفته هذه الرحلة الحجية في نفسه ووجدانه من تضرع وسكون.

وإذا كانت مقدمة كتاب (نحلة اللبيب) وحدها بلغت 270 صفحة فلا شك أن غرض الرحلة المقصود يكون أطول بكثير من هذه المقدمة، ولا يستبعد أن يكون في أجزاء. بالإضافة إلى الخاتمة. وهذا ما يؤسف له بسبب عدم توفر نص رحلة ابن عمار كاملا بين أيدينا.

ولعل ما يؤخذ على ابن عمار أنه بقدر ما كان حريصا على ترجمته الكثير من الأعلام، بقدر ما أهمل ترجمة لنفسه، فلم يفعل على الأقل ما فعله صديقه ابن حمادوش الذي قدم لنا ترجمة الشخصية في ضوء رحلاته المشرقية والمغربية. إلا أن مقدمة ابن عمار وحدها يمكن أن نعدها مصدرا ثريا من مصادر الأدب الجزائري، وذلك لما جمعه من أشعار طوال لأشهر الشعراء والرحالة، إضافة إلى ترجمة العديد من الأدباء من أهل بلده وغير بلده.

(501) أحمد ابن جبير، (رحلة ابن جبير)، د.ت، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، (لبنان)، ص: 21، وينظر: أحمد بن عمار، (نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب)، مطبعة بيبير فونتانة، (الجزائر)، 1902م، ص: 8.

(502) أحمد بن عمار، (نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب)، م.س، ص: 4

كما عرف القرن الثاني عشر الهجري رحالة آخر سطع نجمه بقوة في خطاب الرحلات الجزائرية، وفي الرحلات الحجازية خاصة؛ وهو الرحالة الحسين الورثلاني⁽⁵⁰³⁾ (ت1193هـ) صاحب كتاب (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، ومن حسن الحظ أن نسخة الكتاب متوفرة بشكل كامل دون بتر أو نقص.

إنَّ ما يميز رحلة الورثلاني أنه سار على نهج أوائل أعلام الخطاب الرحلي كابن جبير وابن بطوطة وابن سعيد الأندلسي وغيرهم، حيث جمع بين أخبار رحلته، ووالصف الجغرافي لمسالك البلدان، والسرد التاريخي لبلاد الجزيرة العربية، مع ذكر بعض غرائب وعجائب الأمم، إضافة إلى ذكر أحكام الصوفية وطرقهم. يقول الورثلاني في وصف كتابه: "أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغربية، والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة، وبعض الأحكام مع ما فيها من التصوف..."⁽⁵⁰⁴⁾

وترجع أسباب رحلة الورثلاني إلى سببين اثنين، الأول قصّد به أداء فريضة الحج، كما صرح بذلك حين قال: "اعلم أيها الأخ لما أراد الله المشي بنا إلى الحج وقد سبق في علم الله أن يكون حجنا عام سبعة وتسعين ومائة وألف [1179هـ] مع إجابة وتلبية للخليل عليه السلام حين قال له الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج-27] حدث لنا العزم بإذن الله تعالى"⁽⁵⁰⁵⁾

والسبب الثاني قصّد به طلب العلم والجلوس عند العلماء وأخذ الإجازة، وقد نزل الورثلاني في طريقه إلى مكة بلدان عديدة على غرار تونس وطرابلس ومصر وأخذ من علمائهم الكثير.

⁽⁵⁰³⁾ الحسين الورثلاني: هو الحسين بن محمد السعيد المعروف بالورثلاني نسبة إلى قرية بني ورتلان، قرب بجاية، ولد سنة 1125هـ/1713م، ينتمي إلى أسرة عربية اشتهرت بالعلم والتصوف والتدريس والإصلاح، تربي بزوايا بلده، ثم شد الرحال إلى المراكز العلمية المشهورة، فاغتنم فرصة سفره للحج ووثق صلته بعلماء تونس وطرابلس ومصر والحجاز. ومع كثرة رحلاته وشغفه لنيل المعارف أصبح الورثلاني علما من أعلام عصره في القرن الثاني عشر هجري. ينظر: الحسين بن محمد الورثلاني، (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، مكتبة الثقافة الدينية، (القاهرة- مصر)، 1429هـ/2008م،

ط1، ص: 5،6/1

⁽⁵⁰⁴⁾ الورثلاني، (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، م.س، ص: 12/1، 13

⁽⁵⁰⁵⁾ الورثلاني، (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، م.س، ص: 13/1

أما سبب تدوين (نزهة الأنظار) فيرجع إلى الآثار التي خلفتها الرحلة في نفسية الرحالة، وانبهاره الكبير بما رأى وسمع، يقول: "...فإني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والرّباع، والقفار والديار، والمعاطن والمياه والبساتين... والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء... أنشأت الرحلة..."⁽⁵⁰⁶⁾. ويظهر لنا من خلال هذا القول أن الرحلة - في الغالب - دونها صاحبها بعد الرجوع إلى بلده الجزائر.

إضافة إلى ذلك أن الورثاني رأى بأن التراث الجزائري في عصره يعاني من نقص المصنفات التي تهتم بالتاريخ، فأراد أن يؤلف في هذا العلم⁽⁵⁰⁷⁾، ويعتمد في ذلك على كتب عديدة لعل أبرزها كتاب (الرحلة الناصرية) لأحمد بن ناصر الدرعي المغربي⁽⁵⁰⁸⁾، يقول: "وإن اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا أحمد بن ناصر الجعفري..."⁽⁵⁰⁹⁾

وبذلك يعد كتاب (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) للحسين الورثياني اليوم من أهم الوثائق التاريخية التي تؤرخ لفترة العهد العثماني، وترسم صورة الحياة فيه في الجزائر وفي الوطن العربي. ويبدو أن الورثياني ذاته، ومن خلال ما يوحي به العنوان الذي اختاره لها، "أرادها وثيقة إخبارية للخلف عن تجربة موسم الرحلة إلى الحج، بما تحمله من معان إيمانية عظيمة، وتجربة روحية عميقة، إضافة إلى ما يتخلل هذه الهجرة الظرفية في سبيل الله من عجائب و مخاطر، ذكرها بالتفصيل في نص الرحلة"⁽⁵¹⁰⁾

ولو حولنا حصر مؤلفات القرن الثاني عشر الهجري فقط، لقلنا: أنه شهد نشاطا كبيرا شمل مختلف الفنون والعلوم، وهذا النشاط عكسته مصنفات معتبرة بمادتها ورجالها وقضاياها.

ومع دخول القرن الثالث عشر الهجري نجد أن الخطاب الرحلي واصل وتيرته السابقة، حيث شهد تأليف العديد من المصنفات الرحلية مثل ما شهد العديد من الرحلات إلى مختلف البلدان لعل

⁽⁵⁰⁶⁾ المصدر نفسه، ص: 12/1

⁽⁵⁰⁷⁾ ينظر: سميرة أنساعد، (الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري)، م.م.س، ص: 39

⁽⁵⁰⁸⁾ المرجع نفسه، ص: 13

⁽⁵⁰⁹⁾ أحمد بن ناصر الدرعي: هو أحمد بن محمد بن محمد، ابن ناصر، أبو العباس الدرعي المغربي: صاحب (الرحلة الناصرية) يسرد فيه رحلته إلى الحج سنة

1121هـ من فضلاء المغرب. كان شديد الشكيمة على أهل البدع، قوالا للحق، وذكر في رحلته أشياخه، وشحنها بفوائد علمية. وله كتب أخرى، منها

كتاب (الأجوبة)، توفي سنة 1129هـ. ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 241/1

⁽⁵¹⁰⁾ عبد الرحمن عزي، (التواصل القيمي في الرحلة الورثيانية، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع (الأبيار-الجزائر)، 2011م، د.ط، ص: 10

في مقدمتهم، بلاد الحجاز التي كانت وجهة صاحب كتاب (فَتْحُ الْإِلَهِ وَمِنْتَهُ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ) أبو راس الناصري (ت1238هـ) وشاء الله تعالى أن نسخة الكتاب موجودة، وقد أشرف على طبعتها محمد بن عبد الكريم الجزائري.

تتميز رحلة أبو راس بأسلوبها الرصين في معظم أبوابها، وهذا راجع إلى تركيز صاحبها على العلم والعلماء، والمشايخ والفقهاء، والقضايا والمناظرات العلمية، يمكن تصنيفها على أنها رحلة علمية بحق. إلا أن الغريب في الأمر أن بعض الدارسين يصنفون رحلة أبو راس على أنها رحلة حجية، رغم أنه لم يحدثنا في كل مصنفه عن أخبار حجه سوى أنه أشار إليه بقوله "لما أُبْتُ من الحج..."⁽⁵¹¹⁾، بل أخذ يتحدث عن علمائها ومشايخها إلى أن غادرها إلى المدينة، وما يزيد على أن الرحلة هي رحلة علمية، ما أورده أبو راس في مقدمته، حين قال: "فيقول العاثر القاصر أبو راس بن الناصر... أن العلم من أفضل نفائس الأعلاق، وأرفع الأشياء على الإطلاق، فكان أحق ما رُمق بالأحداق، وصُرفت له همم الحذاق... وإني عزمت على تأليف، عظيم الجدوى بليغ الفحوى يحتوي على أبواب وأسئلة فحوى"⁽⁵¹²⁾.

ولتعرف أكثر على هذا المصدر الثمين في تاريخ الأدب العربي، ولما له من أهمية كبيرة في التراث الجزائري، ارتأيت أن يكون كتاب (فَتْحُ الْإِلَهِ وَمِنْتَهُ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ) أحد نماذج هذه الدراسة إن شاء الله تعالى.

وعليه فإننا لا يمكن أن نستوفي جميع أعلام الخطاب الرحلي الجزائري في العهد العثماني، وذلك لما شهدته هذه الفترة (ق11 و12 و13هـ) من غزارة المادة الرحلية، وسطوع نجم الكثير من الرحالة. لكن لا بأس أن نشير إلى بعض أسماء مَنْ وجدناهم في طريق بحثنا، ونخص بالذكر:

- كتاب (رحلة الأغواطي في شمالي إفريقية والسودان والدرعية) للحاج ابن الدين الأغواطي وهي رحلة إستكشافية.

⁽⁵¹¹⁾ محمد أبو راس، (فَتْحُ الْإِلَهِ وَمِنْتَهُ فِي التَّحَدُّثِ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ)، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب،

(الجزائر)، 1990م، ص: 59

⁽⁵¹²⁾ أبو راس، (فَتْحُ الْإِلَهِ)، م.س، ص: 15

- كتاب (الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية) لابن زرفة⁽⁵¹³⁾ (ت1215هـ) وهي رحلة جهادية.
- كتاب (رحلة الباي محمد الكبير إلى جنوب الغرب الجزائري) دون أحداثها كاتبه ومستشاره أبو العباس أحمد بن هطال التلمساني⁽⁵¹⁴⁾ (ت1219هـ) وهي رحلة رسمية تقريرية.
- كتاب (الرحلة العريضة في أداء الفريضة) لأبي حامد المشرفي⁽⁵¹⁵⁾ (ت1313هـ)، وهي رحلة حجازية.

المرحلة الثالثة: مرحلة الاستعمار الفرنسي:

إذا انتقلنا إلى الرحلات الجزائرية خلال القرن العشرين وجدناها ذات اتجاهات متعددة ومختلفة، فمنها ما كان رحلات داخلية (نحو مدن وقرى جزائرية)، ومنها ما كان رحلات خارجية (نحو دول عربية إسلامية أو دول أجنبية)

فمن الرحلات الداخلية نذكر رحلة العلامة عبد الحميد ابن باديس⁽⁵¹⁶⁾ (ت1359هـ/1940م) الذي نسجل له خمس رحلات شملت العديد من المدن الجزائرية، وهي لا تخرج في معظمها عن توعية الشعب ودعوتهم إلى إتباع عقيدة التوحيد وسنة نبينا محمد ﷺ وذلك مما لاحظته من صراع قلبي، واستسلام بعضهم للدجل والشعوذة من خلال ما كانت تزرعه الطرقية والصوفية من خرافات وبدع.

⁽⁵¹³⁾ ابن زرفة: هو محمد المصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن، المعروف بابن زرفة: باحث، ناظم، له اشتغال بالتاريخ، تولى الكتابة للباي محمد بن عثمان بعسكر، ثم قضاء وهران بعد فتحها. وتوفي بها. من آثاره (الاكتفاء في حكم جوائز الامراء والخلفاء) و (الرحلة القمرية في الاخبار المحمدية) أرخ فيها لفتح وهران سنة 1206هـ. ينظر: عادل نويهض، (مُعْجَمُ أعلام الجزائر)، م.م.س، ص: 158، 159

⁽⁵¹⁴⁾ ابن هطال، هو أبو العباس السيد أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هطال التلمساني، كان فقيها، وأديبا كبيرا، وقد أبرم من خلال تقرير رحلته، أنه دبلوماسي وسياسي من خلال ملازمته للباي محمد بن عثمان الكبير 1797-1779م، الذي اشتغل ببلاطه منصب كاتب السر الرئيسي، ويعد هذا المنصب مرصدا لجمع أخبار البايليك السياسية والعسكرية من شهود عيان، والتحقيق فيها. فقد كان الناطق الرسمي باسم حكومة الباي محمد الكبير في داخل الجزائر وخارجها. ينظر: أبو القاسم سعد الله، (أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر)، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 2005م، ط4، ص: 279. وينظر: عمر بن قينة، (في الأدب الجزائري الحديث)، ديوان المطبوعات الجامعية، (الجزائر)، 2017م، ط3، ص: 102

⁽⁵¹⁵⁾ أبو حامد المشرفي: هو العربي بن عبد القادر بن علي الحسني الاديبي، أبو حامد المشرفي. من آثاره: (ياقوتة النسب الوهاجة)، و (فتح المنان شرح قصيدة ابن الونان) في مجلدين. ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 224/4. وينظر: محمد راغب بن عبد الغني، (معجم المؤلفين)، م.م.س، ص: 277/6

⁽⁵¹⁶⁾ ابن باديس: هو عبد الحميد بن محمد بن مكّي بن باديس، وابن زهيرة بنت علي بن جلول، الولد البكر لوالديه. عرفت منه شخصيات كبيرة كابن زييري، والمعز بن باديس. ولد عام 1308هـ (1889م) بقسنطينة، وتوفي بها عام 8 ربيع الأول 1359هـ (16 أبريل 1940م). أما آثاره فكانت عملية قبل أن تكون نظرية في كتاب أو مؤلف، أما إنتاجه العلمي فهو ما جمع بعد من مقالاته في (الشهاب) وغيرها من دروسه في التفسير والحديث، لكن أشهرها كان تفسير القرآن الكريم تحت عنوان: (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، (وشرح موطأ الإمام مالك). ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 289/3. وينظر: عبد الرشيد زروقة، (جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي 1913-1940م)، دار الشهاب، (بيروت- لبنان)، 1420هـ/1999م، ط1، ص: 77، 78، 104

كان هدف ابن باديس من خلال تنقلاته الخمس تكوين أمة عربية مسلمة متشبثة بقيمها ومبادئها التي تعد أساس نهضتها، ورحلاته الخمس الداخلية حملت العناوين التالية:

(للتعارف والتذكير)⁽⁵¹⁷⁾، (جولة صحفية)⁽⁵¹⁸⁾، (في بعض جهات الوطن)⁽⁵¹⁹⁾، (رحلتنا إلى العمالة الوهرانية)⁽⁵²⁰⁾

والملاحظ لهذه العناوين يجد أن الرحلة الرابعة هي الوحيدة التي حملت لفظ رحلة.

أما الرحلات الخارجية فنجدها على قسمين، القسم الأول كان باتجاه الوطن العربي والإسلامي في حين كان القسم الثاني نحو دول أجنبية، ففي القسم الأول نذكر أبرز من مثلها، وهو الشيخ محمد البشير الإبراهيمي⁽⁵²¹⁾ (ت 1385هـ/1966م) من خلال مؤلفه: (رحلتي إلى الأقطار الإسلامية)، الذي يسرد من خلاله زيارته إلى مصر وباكستان وما شهده من أجواء علمية جسدتها تلك المعالم الدينية والثقافية الموجودة بها، ولعل أبرز هذه المعالم كانت جامع الأزهر، الذي قال فيه: "... فأشهد مخلصاً أنني خرجت مرفوع الرأس تيهياً، مملوء النفس فخراً، مفعم الجوانح إعجاباً بهذه الجامعة التي هي مفخرة الشرق وحبته على الغرب، وأشهد مخلصاً لقد أحسست بعد الخروج كأن وجودي تضاعف مليون مرة بوجود هذه الجامعة ومعذرة لمن يتهمني بالمبالغة..."⁽⁵²²⁾

⁽⁵¹⁷⁾ ينظر: عمار طالي، (آثار ابن باديس)، الشركة الجزائرية، (الجزائر)، 1388هـ/1968م، ص: 297/4

⁽⁵¹⁸⁾ المرجع نفسه، ص: 306/4

⁽⁵¹⁹⁾ المرجع نفسه، ص: 308/4

⁽⁵²⁰⁾ المرجع نفسه، ص: 317/4

⁽⁵²¹⁾ البشير الإبراهيمي: هو محمد البشير بن محمد السعدي بن عمر بن محمد السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي نسبة إلى قبيلة عربية تعرف ب: أولاد إبراهيم في مقاطعة قسنطينة، ولد عام 14 شوال 1306هـ (13 جوان 1889م). من مؤلفاته: (عيون البصائر) وهي مجموعة من مقالاته التي كتبها في السلسلة الثانية من مجلة البصائر، بقايا فصح العربية في اللهجة العامية بالجزائر، (التسمية بالمصدر)، (الصفات التي جاءت على وزن فعل)، (نظام العربية في موازين كلماتها)، (حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام)، (شعب الإيمان) جمع فيه الأخلاق والفضائل الإسلامية. توفي وهو رهن الإقامة الجبرية في منزله، يوم الخميس 20 ماي 1965م. ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 54/6. وينظر: أحمد طالب الإبراهيمي، (آثار البشير الإبراهيمي

1954-1964م)، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1997م، ط.1، ص: 163/5

⁽⁵²²⁾ الإبراهيمي، (آثار البشير الإبراهيمي 1954-1964م)، م.م.س، ص: 35/4

وكذلك نجد رحلة أبي القاسم سعد الله⁽⁵²³⁾ التي حملت عنوان: (رِحْلَتِي إِلَى الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ) وكانت سنة 1397هـ (1977م) موجهةً إلى المملكة العربية السعودية قصد زيارة بيت الله الحرام، وكانت من أهم رحلات حياته كما قال: "السفر إلى الجزيرة العربية ليس كالسفر إلى أي جهة أخرى... وقد سجلت، كعادي في كل بلد أزوره، يوميات وانطباعات ومشاهدات تغطي جميع مظاهر الحياة التي يصل إليها انتباهي وفضولي العلمي. ولعلي لم أسجل من ذلك على بلد كما سجلت على رحلتي إلى الجزيرة العربية. ويعود ذلك لأهمية الحادث في حياتي من جهة ولأهمية الجزيرة العربية في تاريخ العرب والمسلمين من جهة أخرى..."⁽⁵²⁴⁾

وقد نالت رحلة أبي القاسم سعد الله اهتماما كبيرا يتلاءم مع مكانته الفكرية والأدبية، ولعل هذا راجع إلى المحيط الفكري والثقافي الذي ميز هذه الرحلة، وما تركته من أثر كبير في نفس الرحالة.

وفي القسم الثاني نجد الرحالة الذين توجهوا إلى أوروبا أو بالأحرى إلى فرنسا -غالبا-، من ذلك رحلة العابد الجلاي⁽⁵²⁵⁾ (ت 1387هـ/1967م) كانت رحلة سياحية غرضها الترفيه والترويح عن النفس، نشرها في مجلة "الشهاب"، حملت في البداية عنوان (تموز)⁽⁵²⁶⁾ ثم نشر الرحلة بعنوان: (في القطار)⁽⁵²⁷⁾ سجل من خلالها انطباعاته، ولكن بصفة مختصرة دون تفصيلات، ويصرح بخط سير رحلته فيقول: "أما أنا فقد وضعت برنامجا محكما للرحلة التي سأقوم بها في

⁽⁵²³⁾ أبو القاسم سعد الله: اسمه الحقيقي بلقاسم سعد الله، ولد سنة 1930م ببلدة (قمار) بوادي سوف، أما نشاطاته في التأليف فقد قاربت الأربعين مؤلفا من بينها: (دراسات في الأدب الجزائري الحديث)، (منطلقات فكرية)، (تجارب في الأدب والرحلة)، ديوان (النصر للجزائر)، (الطبيب الرحالة ابن حمادوش)، (محمد الشاذلي القسنطيني من خلال رسائله وشعره) ينظر: عادل نويهض، (مُعْجَمُ أعلام الجزائر)، م.م.س، ص: 185. وينظر: مراد وزناجي، (حديث صريح مع أبي القاسم سعد الله في الفكر واللغة والثقافة والتاريخ)، منشورات الحير، (الجزائر)، 2008م، ط1، ص: 16

⁽⁵²⁴⁾ أبو القاسم سعد الله، (تجارب في أدب الرحلة)، المؤسسة الوطنية للكتاب، (الجزائر)، 1983م، ص: 235، 236

⁽⁵²⁵⁾ العابد الجلاي: هو محمد بن العابد الجلاي: من أوائل كتاب القصة في الجزائر. له اشتغال بالصحافة. عرف باسمه المستعار "رشيد". ولد بقرية أولاد جلال قرب بسكرة، ودرس على والده ثم على الشيخ عبد الحميد بن باديس. اشتغل بالتدريس في مدارس جمعية العلماء المسلمين أكثر من ثلث قرن. وفي سنة 1937 أنشأ جريدة "أبو العجائب" كان يمزج فيها النقد بالفكاهة. ولما أعلنت الثورة الجزائرية سنة 1954م التحق بصفوف جيش التحرير الوطني. وألقي عليه القبض، فسجن وعذب. وبعد الاستقلال عاد إلى التدريس. من آثاره: (تقويم الاخلاق) و(الأناشيد المدرسية)، وله شعر قليل، ونتاجه الأدبي موزع بين مجلة (الشهاب) و(الصديق). مات في أولاد جلال. ينظر: عادل نويهض، (مُعْجَمُ أعلام الجزائر)، م.م.س، ص: 115

⁽⁵²⁶⁾ ينظر: ابن عابد الجلاي، (تموز)، مجلة الشهاب، غرة جمادى الأولى 1994هـ، أوت 1935م، ص: 11/5

⁽⁵²⁷⁾ ينظر: ابن عابد الجلاي، (في القطار)، مجلة الشهاب، غرة شوال 1334هـ جانفي 1936م، ص: 11/10

العشرين من شهر تموز إلى باريس، ففيشي، فسويسرة، وسوف يمتد أمد هذه الرحلة إلى منتصف أيلول، أعنى بعد ذلك تموز وآب ويذهب أثرهما⁽⁵²⁸⁾

وكذلك رحلة مالك بن نبي⁽⁵²⁹⁾ (ت1323هـ/1973م) التي كانت هي الأخرى إلى باريس، نقل من خلالها الأجواء والمظاهر التي شاهدها، ووقع عليها نظره، سواء أعجب بها أو اشمأزت نفسه منها فثار عليها، من ذلك قوله: "ومن الصور التي عكّرت مزاجه صورة بناقها الطائشات الكاسيات العاريات العارضات لزينتهن وعرضهن دون أي شعور بالإثم"⁽⁵³⁰⁾

وأيضاً يمكننا أن نجد رحالين آخرين أمثال: محمد بوزوزو، وأحمد رضا حوحو، وتوفيق المدني، والكثيرين غيرهم من الرحالة الذين توجهوا إلى فرنسا أو بلدان أوروبية أخرى، وصفوا لنا من خلال أسفارهم طبائع هذه الأمم مع إيجابياتهم وسلبياتهم.

ونخلص إلى أن الأدب الجزائري بدا لنا ثريا بهذا الفن، يشهد على ذلك تعدد رحلات الجزائريين، سواء الداخلية التي قادتهم إلى مختلف أنحاء الوطن، أو الخارجية التي كانت وجهتهم فيها في الغالب نحو المشرق. إلا أن المؤسف حقاً، أن كثيراً من هذه الرحلات، لم تصل إليها أيادي المحققين، و لم تتصد لها أقلام الباحثين، بحكم ضياعها، أو لاستحواذ البعض ممن لا يقدرون قيمتها عليها.

ولقد استطاعت الرحلات الجزائرية خلال المراحل الثلاثة السابقة ذكرها، أن تنقل لنا صورة الحياة بجميع مكوناتها ومختلف مظاهرها، وذلك بسبب الأهداف والأغراض التي سعت من أجل الوصول إليها، والتي كانت لأجل فريضة الحج أو لطلب العلم

⁽⁵²⁸⁾ ينظر: ابن عابد الجلاي، (تموز، مجلة الشهاب، د.ت، م.س، ص: 11/5

⁽⁵²⁹⁾ مالك بن نبي: كاتب ومفكر، ولد بقسنطينة، ودرس القضاء في المعهد الاسلامي المختلط، وتخرج- في الثلاثينيات- مهندسا ميكانيكا في معهد الهندسة العالي بباريس، وزار مكة وبعض الاقطار الاسلامية، وأقام في القاهرة سبع سنوات أصدر فيها معظم آثاره باللغة الفرنسية وترجم بعضها الى العربية. تولى إدارة التعليم العالي (سنة 1964) بوزارة الثقافة والارشاد القومي. وكان عضوا في مجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة. من آثاره: (مشكلة الثقافة) و(شروط النهضة) و (وجهة العالم الاسلامي)

و(مذكرات شاهد القرن- الطالب-) و(مذكرات شاهد القرن- الطفل-) و(ميلاد مجتمع) و(دور المسلم ورسالته). ينظر: عادل نويهض، (مُعجمُ أعلام الجزائر)، م.م.س، ص: 282

⁽⁵³⁰⁾ مالك بن نبي، (مذكرات شاهد القرن)، دار الفكر، (الجزائر)، 1984م، ط2، ص: 20

ولما كان من الأهداف المتوخاة من هذه الدراسة محاولة الوقوف على البناء الفني، وإبراز خصائص الخطاب الرحلي الجزائري في العهد العثماني، فقد وجب عليّ انتقاء بعض المصنفات الرحلية الجزائرية لهذا الفن؛ والتي اخترت من بينها مصنف من كل قرن، أذكر منها:

المؤلف/الرحالة	الكتاب/الرحلة	القرن هـ/م
أبو العباس أحمد المقرئ التلمساني	"نَفْحُ الطَّيْبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ وَذِكْرُ وَزِيرِهَا لِسَانُ الدِّينِ بْنِ الخَطِيبِ"	القرن الحادي عشر الهجري/ (ق17م)
عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري	"لِسَانُ المَقَالِ فِي التَّبَيُّعِ عَنِ التَّسْبِ وَالْحَسَبِ وَالحَالِ"	القرن الثاني عشر الهجري (ق18م)
أبو راس الناصري العسكري	"فَتْحُ الإِلَهِ وَمِنْتَهُ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ"	القرن الثالث عشر الهجري(ق19م)

الفصل الثالث

خِطَابُ الرَّحْلَةِ الْجَزَائِرِيَّةِ فِي الْعَهْدِ الْعُثْمَانِيِّ

- المبحث الأول: خِطَابُ الرَّحْلَةِ فِي كِتَابِ: (نَفْحُ الطَّيِّبِ مِنْ غُصْنِ الْأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ)
- المبحث الثاني: خِطَابُ الرَّحْلَةِ فِي كِتَابِ: (لِسَانُ الْمَقَالِ فِي النَّبَاِ عَنِ النَّسَبِ وَالْحَسَبِ وَالْحَالِ)
- المبحث الثالث: خِطَابُ الرَّحْلَةِ فِي كِتَابِ: (فَتْحُ الْإِلَهِ وَمَنْتَهُ فِي التَّحَدُّثِ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ)

المبحث الأول: خطاب الرحلة في كتاب: (نَفْحُ الطَّيْبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدُلُسِ الرَّطِيبِ)

يُعدُّ الرَّحالة أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت1041هـ - 1630م) من أبرز أعلام الأدب العربي في العصر العثماني في صناعة النثر والشعر، ومن ثم كان تأثيره في مجال الفكر والثقافة من جهة، وفي الكتابة والأسلوب من جهة أخرى عظيماً، كما كان لرحلاته ومصنفاته نفوذٌ وانتشارٌ كبيرٌ في المشرق والمغرب، وكتابه: (نَفْحُ الطَّيْبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدُلُسِ الرَّطِيبِ) من أوفى المؤلفات الجزائرية والعربية المشتملة على الغزارة العلمية من مختلف الجوانب والمجالات الأدبية وتاريخية ودينية وسياسية و النقدية...

ولمَّا كان لهذا الرحالة هذه الشهرة، ولهذا الكتاب تلك القيمة الأدبية كان الأحق بأن يقدم في الدراسة على غيره، مراعيًا في ذلك التسلسل الزمني لهاته المصنفات؛ محاولاً بذلك إبراز أهم السمات والظواهر التي تميز بها الرحالة المقرئ في كتابه (نَفْحُ الطَّيْبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدُلُسِ الرَّطِيبِ) من خلال الكشف عن سبب تأليفه للكتاب؛ والمصادر التي اعتمدها؛ ومنهجه في كتابه؛ والجوانب التي زحرت بها رحلاته؛ وأسلوبه في الكتابة ثم القيمة العلمية والأدبية لمصنفه، وأما حياته وآثاره فقد جعلت لها ملحقا ذيلت به هذه الرسالة.

وتجدر الإشارة قبل تسليط الضوء على كتاب (نَفْحُ الطَّيْبِ)، أن للمقرئ كتابا آخر في الميدان الرَّحلي يُسمى (رِحْلَةُ المَقْرئِ إِلَى المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ)، ويُحيل لقارئ العنوان في بادئ الأمر أن صاحبه سيسرد فيه كل أخبار رحلاته المشرقية والمغربية بالتفصيل؛ إلا أنه في الحقيقة ليس إلا مجموعة من اللقاءات والخطابات والرسائل تبادلها المؤلف مع علماء وحكامٍ من مصر والحجاز والشام والمغرب.

وقد ضم الكتاب الكثير من القصائد الشعرية والمقطوعات النثرية والرسائل الإخوانية والموشحات، حملت في طياتها أكثر من غرض واحد؛ كمثل الوصف والمدح والثناء، أو الإجازة والاستضافة والاستفسار في بعض القضايا الفقهية...

1- عنوان الكتاب:

عَنَوَنَ الْمُقْرِي كِتَابَهُ بِ: (نَفْحُ الطَّيْبِ مِنْ غُصْنِ الْأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ، وَذِكْرُ وَزِيرِهَا لِسَانِ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ)، وَهُوَ عِنْوَانٌ كَانَ قَدْ عَدَلَهُ عَنِ عِنْوَانٍ سَابِقٍ هُوَ: (عَرَفُ الطَّيْبِ فِي التَّعْرِيفِ بِالْوَزِيرِ ابْنِ الْخَطِيبِ) وَهَذَا الْعِنْوَانُ يُوحِي لَنَا أَنَّ الْمُقْرِي كَانَ عَزَمَ فِي بَادِي الْأَمْرِ عَلَى تَخْصِيصِ مُؤَلَّفِهِ بِسِيرَةٍ ذَاتِيَّةٍ عَنِ لِسَانِ الدِّينِ ابْنِ الْخَطِيبِ، لَكِنْ حَدِيثُهُ عَنِ ابْنِ الْخَطِيبِ وَأَخْبَارِهِ جَرَّهُ إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ الْأَنْدَلُسِيِّ وَمَا فِيهَا، وَهَكَذَا وَلَدَتْ التَّسْمِيَةُ الْجَدِيدَةُ لِلْكِتَابِ تَحْتَ الْعِنْوَانِ الَّذِي سَبَقَ ذَكَرَهُ، وَقَدْ صَرَحَ بِذَلِكَ فِي مَقْدَمَةِ كِتَابِهِ فَقَالَ: "وَقَدْ كُنْتُ أَوَّلًا سَمَيْتُهُ بِ: "عَرَفُ الطَّيْبِ فِي التَّعْرِيفِ بِالْوَزِيرِ ابْنِ الْخَطِيبِ"، ثُمَّ وَسَمْتُهُ حِينَ أَلْحَقْتُ أَخْبَارَ الْأَنْدَلُسِيِّ بِهِ، نَفْحُ الطَّيْبِ مِنْ غُصْنِ الْأَنْدَلُسِيِّ الرَّطِيبِ، وَذَكَرَ وَزِيرَهَا لِسَانِ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ" (531)

2- سبب تأليف الكتاب:

لَعَلَّ مِنْ أَمِّ الْأَسْبَابِ الَّتِي دَفَعَتْ بِالْمُقْرِي إِلَى تَأْلِيفِ كِتَابِهِ (نَفْحُ الطَّيْبِ)، مَا أَثَارَهُ فِي نَفْسِ مُضَيِّفِهِ شَاعِرِ الشَّامِ، وَأَدِيئِهَا الْمُدْرَسِ بِالْمَدْرَسَةِ الْحَقْمَقِيَّةِ الْمَوْلَى أَحْمَدَ الشَّاهِيَّيْنِ (532) (ت. 1053هـ)، وَذَلِكَ حِينَ كَانَ يُحَدِّثُهُ عَنِ أَخْبَارِ الْأَنْدَلُسِيِّ، وَشَيْخِهَا وَوَزِيرِهَا لِسَانِ الدِّينِ ابْنِ الْخَطِيبِ، مِمَّا دَعَاهُ إِلَى طَلْبِ الْمَزِيدِ مِنَ الْبَيَانِ عَنِ الْأَنْدَلُسِيِّ وَالتَّشَوُّقِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَخْتَلَفِ نَوَاحِي الْمَعْرِفَةِ الَّتِي جَالَ فِيهَا لِسَانُ الدِّينِ وَصَالٌ، غَيْرَ أَنَّ الْمُقْرِي اعْتَذَرَ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ عَنِ تَأْلِيفِ الْكِتَابِ، بِحُجَّةٍ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِالْأَمْرِ السَّهْلِ وَالْيَسِيرِ لَوْجُودِ صَعُوبَاتٍ وَمَشَاقٍ عَدِيدَةٍ، يَقُولُ الْمُقْرِي رَدًا عَلَى طَلْبِ أَحْمَدَ الشَّاهِيَّيْنِ: "فَأَجَبْتُهُ أَسْمَى اللَّهُ قَدْرَهُ الْكَبِيرَ، أَدَامَ عَرَفَ فُضَائِلِهِ الْمُرْزِي بِالْعَبْرِ وَالْعَبِيرِ، بِأَنَّ هَذَا الْغَرَضُ غَيْرُ سَهْلٍ، وَلَسْتُ -عَلِمَ اللَّهُ- لَهُ بِأَهْلٍ، مِنْ جِهَاتٍ عَدِيدَةٍ، أَوْلَهَا قِصُورِي عَنِ تَحْمِيلِ تِلْكَ الْأَعْبَاءِ الشَّدِيدَةِ، إِذْ لَا يُفِي بِهَذَا الْغَرَضِ إِلَّا الْمَاهِرُ بِطَرِيقِ الْمَعَارِفِ السَّدِيدَةِ، وَثَانِيهَا عَدَمُ تَيَسُّرِ الْكُتُبِ الْمُسْتَعَانَ بِهَا عَلَى هَذَا الْمَرَامِ لِأَنِّي خَلَقْتُهَا بِالْمَغْرِبِ... وَثَالِثُهَا شُعْلُ الْخَاطِرِ بِأَشْجَانِ الْغُرْبَةِ، الْجَالِبَةِ لِلْفِكْرِ غَالِبِ الْكُرْبَةِ..." (533)

(531) أحمد المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْبِ مِنْ غُصْنِ الْأَنْدَلُسِيِّ الرَّطِيبِ)، تح: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت- لبنان)، 1408هـ/1988م، ص: 117/1

(532) أحمد بن شاهين القرصيّ، المعروف بالشاهييّ: أديب، له شعر رقيق. أصل أبيه من جزيرة قبرص. وولد أحمد في دمشق، فانتظم في سلك الجند، واسرف في موقعة، له:

(ديوان شعر)، وتوفي بدمشق عام 1053هـ. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 134، 135/1

(533) المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، م.م.س، ص: 71/1

لكن الشاهيني ألحَّ عليه وكرر إلحاحه، فلم يكن من المقري إلا أن وعده بالشروع في طلبه عند وصوله إلى القاهرة. وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه فقال: "إني لَمَّا تكرر عليَّ هذا الإلحاح، ولم تُقبل أعذارِي التي زَنَدُهَا شَحَاح، عَزَمْتُ على الإجابة لما للمذكور عليَّ من الحقوق، وكيف أقابل بره حفظه الله بالعقوق، وهو الذي يروي من أحاديث الفضل الحسان والصحاح، فوعدته بالشروع في المطلب عند الوصول إلى القاهرة المَعزِيَّة، وأزَمَعْتُ السير عن دمشق المعروفة المزِيَّة..."(534)

وهكذا وجد المقري من شجعه على تحقيق ما صبا إليه، فعرف كتابه - وهو بمصر - طريقه إلى النور، وكان شروعه في كتابته في ذي القعدة من عام 1037هـ (1627م)، يقول: "...إني شرعت بعد الاستقرار بمصر في المطلب، وكتبتُ منه نبذة تستحسنها من المحيين الأسماع والقلوب..."(535)

كما شجع أهل الشام المقري على تأليف كتاب (النفح) فأضحى متعلقا بتشجيعهم له، ذلك لأمر أولها: أن الداعي إلى تأليفه أهل الشام، وثانيها: أن الفاتحين للأندلس هم من أهل الشام وثالثها: أن غالب أهل الأندلس من عرب الشام الذين اتخذوا الأندلس وطنا، ورابعها: أن غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها لشبَّهها بها في القصر والنهر والزهر والعُوطة الفيحاء(536).
لكنَّ محقق الكتاب إحسان عباس يرجح أن فكرة الكتاب كانت تجول في ذهنه قبل ذلك، لأسباب منها:

أ- إعجابه الكبير بلسان الدين ابن الخطيب كان قَمِينا بدفعه إلى كتابة مؤلف عنه وخاصة بإحساسه بالغربة والوحشة اللتين أحس بهما حينما لجأ إلى المغرب.

ب- أن مثل هذا الكتاب كان كفيلا بأن ينفس عن كربيه، ويعود به من خلال أشعار الحنين ومن خلال التاريخ الماضي والقريب إلى وطنه

ت- أن منهج التأليف في لسان الدين كان سهلا مفتوح المسارب أمام عينيه لأنه قد مارس مثل هذا المنهج حينما كتب عن القاضي عياض(ت544) كتابا سماه (أزهار الرياض)

(534) المقري، (نَفْحُ الطَّيِّبِ)، م.س، ص: 80/1

(535) المصدر نفسه، ص: 99/1

(536) المصدر نفسه، ص: 117/1

ث- كان المقرئ كغيره من المغاربة يحس مدى إهمال المشاركة للتراث الأندلسي والمغربي، وحسبك أن تجد لسان الدين - وهو من هو في المغرب والأندلس - محتاجاً إلى من يُعرِّف المشاركة به ويحدثهم عن أخباره، ولهذا وجد المقرئ أن كتابة مؤلف جامع شامل يُحقق هذا الغرض (537).

وقد أشار المقرئ بعد الفراغ من تدوين رحلته (نَفْحُ الطَّيْبِ) التي تقع في ثمانية أجزاء إلى تاريخ الانتهاء منه بمصر، فقال: "وكان الفراغ منه عشية يوم الأحد المُسْفِرِ صباحها عن السابع والعشرين لرمضان سنة ثمان وثلاثين وألف، بالقاهرة المحروسة، والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وألحقت فيه كثيراً في السنة بعدها، فيكون جميعه آخر الحجة تامة سنة تسع وثلاثين وألف..." (538)

من الواضح أن رحالتنا المقرئ كان رجلاً طموحاً طالباً للعلم بلا حدود، ولا يُشبهه بين الشعراء والأدباء - كما ذكر أبو القاسم سعد الله - إلا أبو الطيب المتنبي. كيف ذلك؟ ومؤلفاته لا تشهد إلا على ذلك؛ أفلم يقل المقرئ عن نفسه بعد هجرته إلى المشرق:

وَلِي عَزْمٌ كَحَدِّ السَّيْفِ مَاضٍ وَلَكِنَّ اللَّيَالِي مِنْ خُصُومِي (539)

3 - المصادر المعتمدة في الكتاب:

تمثلت المصادر التي اعتمد عليها المقرئ في كتابه على:

الأول: السَّمَاع: ويتركز غالباً في السماع من عمه الشيخ سعيد بن أحمد المقرئ (540)، وقد ذكره - مدحاً - في شعره عدة مرات، فمن ذلك قوله:

وَقَدْ أَخَذْتُ جَامِعَ الْبُخَارِي عَنْ عَمِّي الْحَائِزِ لِلْفَخَارِ
الْمَقْرِي سَعِيدِ الْإِمَامِ عَنْ مُحَمَّدٍ يُدْعَى خَرُوفاً حِينَ عَنَّ (541)

(537) المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، م.س، ص: 15/1، 16. مقدمة الخقق

(538) المصدر نفسه، ص: 519/7

(539) أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي - 1500 - 1830)، م.م.س، ص: 213/2

(540) سعيد بن أحمد المقرئ: هو أبو عثمان سعيد بن أحمد المقرئ عالم تلمسان في وقته، ولد بتلمسان ونشأ بها وتعلم، أخذ عن والده وعن عبد الواحد الونشريسي، اختلف في تاريخ وفاته فمنهم من يقول (1010هـ) ومنهم من يقول (1030هـ). ينظر: عادل نويهض، (مُعْجَمُ أعلام الجزائر - من صدر

الإسلام حتى العصر الحاضر-)، م.م.س، ص: 311، 312

(541) المصدر نفسه، ص: 428/2. وينظر: 432/2، وينظر: 438/2

وقال: "وحدثني مولايَ العمُّ الإمامُ شيخُ الإسلامِ سيدي سعيدُ بنِ أحمدَ المقرئِ رحمه الله تعالى، عن شيخه ابنِ جلالٍ مُفتيِ حضرَتِي فاس وتلمسان.."⁽⁵⁴²⁾، وقال: "وحدثني عمي الإمام سيدي سعيد المقرئُ رحمه الله تعالى أن العلامة ابنَ مرزوق⁽⁵⁴³⁾ لَمَّا قدم تونس في بعض الرسائل السلطانية..."⁽⁵⁴⁴⁾

والكثير ممن جالسهم وسمع منهم من محدثين وعلماء وشعراء وقد بلغ عددهم ما يقارب أربعمئة وخمسين، وقد صرح بذلك حين قال: "وجملة الذي سمعت منهم نحو من أربعمئة شخص وخمسين..."⁽⁵⁴⁵⁾، ونذكر بعضهم فيما عدده منهم، "وأما شيوخي الذين رَوَيْتُ عنهم بالسَّماع أو بالقراءة فهم كثيرٌ، وأذكر الآن منهم جماعة: فمنهم القاضي أبو علي الحسن بن عبد العزيز بن أبي الأحوص القرشي، والمقرئ أبو جعفر أحمد بن سعيد بن أحمد بن بشير الأنصاري، وإسحاق بن عبد الرحيم ابن محمد بن عبد الملك بن درباس، وأبو بكر ابن عباس بن يحيى بن غريب القوَّاس البغدادي، وصفي الدين الحسين بن أبي منصور بن ظافر الخزرجي، وأبو الحسين محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري، ووجيه الدين محمد بن عبد الرحمن بن أحمد الأزدي بن الدهَّان، وقطب الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن القسطلاني..."⁽⁵⁴⁶⁾ وغيرهم.

الثاني: النقل عن الكتب والمصنفات والرسائل والدواوين: والتي بدورها شكلت نصوصها مادة وفيرة من أهمها: (الإحاطة في أخبار غرناطة) لابن الخطيب، و(المغرب في حلى المغرب) و(اختصار القدح المُعلَّى في التاريخ المحلَّى) لابن سعيد، و(أزهار الرياض في أخبار عياض) للمؤلف نفسه، و(بدائع البدائه) لابن ظافر الأزدي، و(تاريخ علماء المسلمين) لابن الفرضي، و(التكملة لكتاب الصلة) و(درر السمط في خبر السبطين) و(وروضة الآس العاطرة الأنفاس) لابن الآبار، و(خريدة القصر وجريدة العصر) للكاتب الأصفهاني، و(العبر وديوان المبتدأ والخبر) لابن خلدون و(قلائد العقيان

⁽⁵⁴²⁾ المقرئ، (نُفْحُ الطَّيِّبِ)، م.س، ص: 275/5

⁽⁵⁴³⁾ ابن مرزوق: هو محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني المعروف بالحفيد، فقيه المذهب المالكي، نحوي، عالم بالأصول، أخذ عن والده وعمه، ولد عام 766هـ، من آثاره: (المفاتيح المرزوقية لحل الأقفال واستخراج الخبايا الخزرجية) في العروض والقوافي توفي سنة 842هـ. ينظر: ينظر: عادل نويهض، (مُعْجَمُ أعلام الجزائر)، م.م.س، ص: 290

⁽⁵⁴⁴⁾ المقرئ، (نُفْحُ الطَّيِّبِ)، م.س، ص: 433/5

⁽⁵⁴⁵⁾ المصدر نفسه، ص: 552/2

⁽⁵⁴⁶⁾ المصدر نفسه، ص: 550/2

في محاسن الأعيان) و(مطمح الأنفس) لابن خاقان، و(المطرب من أشعار أهل المغرب) لابن دحية ،
و(نيل الابتهاج) لأحمد بابا التنبكي و(وفيات الأعيان) لابن خلكان⁽⁵⁴⁷⁾ والكثير من كتب الأدب
والتفسير وعلوم الحديث والفقهاء وغيرها.

فتارة كان يذكر قول العالم أو الشاعر؛ وتارة يذكر الكتاب وحده، وتارة أخرى يذكر الكتاب
وصاحبه؛ فمن كتب الأدب والنحو: "كتاب سيبويه، والإيضاح، والتكملة، والمفصل، وجمل
الزجاجي، وغير ذلك، والأشعار الستة والحماسة وديوان أبي تمام والمنتبي والمعري". ومن أمثلة ذلك
ما أورده في كتابه (النفح) عن موسى بن سعيد المغربي⁽⁵⁴⁸⁾ (ت. 673هـ): "قال ابن سعيد...،
كما قاله ابن سعيد... قال ابن سعيد في المغرب... انتهى كلام ابن سعيد من كتابه القدر
المُعَلَّى...، حكاها ابن سعيد...، أنشده غير واحد منهم ابن سعيد...".⁽⁵⁴⁹⁾ أو فيما ذكره عن
سيبويه (ت. 180هـ) وكتابه: "فقال سيبويه..، وهذا سيبويه يقول..، وعند سيبويه..، كذا قال
سيبويه..، وقول سيبويه أولى..، وقد ذكره سيبويه..، كان في كتاب سيبويه..، وقرنه في بحره
بمصنف سيبويه..."⁽⁵⁵⁰⁾، أو من الشعراء كقوله: "فنظرت في مرثية أبي الطيب المنتبي لأُمّه،
واكتفيت بنظمها ونثرها، وعقدتها وحلها، وانتخبت قوله منها:

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتٌ أَكْرَمِ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكَ الصَّخْمُ كَوْنُكَ لِي أُمًّا
لَئِنْ لَدَّ يَوْمَ الشَّامِتِينَ بِيَوْمِهَا لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي لَأَنْفِهِمْ رَغْمًا⁽⁵⁵¹⁾

ثالثا: المعاينة والوصف: وهي تتمثل في مروياته الشخصية ومعارفه لِمَا وقع له وعايته أثناء رحلاته
وزياراته، يظهر هذا المصدر بشكل واضح في مقدمة كتابه كما يتمثل أيضا في وصف مصر

⁽⁵⁴⁷⁾ حفيف حجوب بلعيد، (المقري شاعرا)، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، (الجزائر)، 1409هـ/1989م، ص: 267

⁽⁵⁴⁸⁾ علي بن موسى بن سعيد المغربي الغماري الأديب نور الدين، ينتهي نسبه إلى عمار بن ياسر؛ ورد من الغرب وجمال في الديار المصرية والعراق
والشام، وجمع وصف ونظم، وهو صاحب كتاب: (المشرق في أخبار المشرق) و (ملوك الشعر)؛ توفي بدمشق. ينظر: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد

الرحمن، (فوات الوفيات)، تح: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت- لبنان)، 1973م/1974م، ط1، ص: 104/103/3

⁽⁵⁴⁹⁾ ينظر: المقري، (نَفْحُ الطَّيِّبِ)، م.س، ص: 127/1، 146، 466، 151، 199، 125/2، 692، 510/3، 527

⁽⁵⁵⁰⁾ ينظر: المصدر نفسه، ص: 209/2، 230، 537، 550، 561، 578، 80/4، 81، 218/5، 355، 356.

⁽⁵⁵¹⁾ أي: لو لم يكن لك أبٌ شريف، لكان كونك أما يُشرفك ويعنيك عن شرف الآباء. ويقول: لئن سرت الأعداء بموتها فإن لقائي سيفهم، لأنها ولدت
رجلا يرغم أنفهم ويذمهم. ينظر: أبو العلاء المعري، (شرح ديوان أبي الطيب المنتبي)، تح: عبد المجيد دياب، دار المعارف، (القاهرة - مصر)،
1413هـ/1992م، ط2، ص: 264/2، 256. وينظر: أبو الطيب المنتبي، (ديوان المنتبي)، د.ت، دار بيروت، (بيروت- لبنان)، 1403هـ/1983م،

د.ط، ص: 176، 175. وينظر: المقري، (نَفْحُ الطَّيِّبِ)، م.س، ص: 464/2

والقدس ومخاطباته لأهل الشام. ومن أمثلة ذلك وصفه لبيت المقدس قائلاً: "...ثم قصدت بيت المقدس في شهر ربيع من هذا العام - [عام 1029هـ] - ، وقد شملتني بفضل الله جوائز الإنعام وتذكرت عند مشاهدة المسالك الصعبة، قول حافظ الحُفَّاز ابن حجر العسقلاني - رحمه الله تعالى - وهو مما زادني في هذه الزيارة رغبة:

إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ جِئْتُ أَرْجُو
جِنَانَ الْخُلْدِ نُزُلًا مِنْ كَرِيمِ
قَطَعْنَا فِي مَسَافَتِهِ عِقَابًا
وَمَا بَعْدَ الْعِقَابِ سِوَى النَّعِيمِ

فلما دخلت المسجد الأقصى، وأبصرتُ بدائعه التي لا تُستقصى، بهرني جماله الذي تجلى الله به عليه، وسألت عن محل المعراج الشريف فأرشدت إليه، وشاهدت محلاً أمَّ فيه صلى الله عليه وسلم الكرام الهداة...» (552)

إن المصدر الأول والثاني خصَّهما المقري - في الغالب بذكر - أخبار الأندلس ووزيرها لسان الدين ابن الخطيب، فمؤلفاته وكذا غالب المؤلفات - حسب إطلاعي - التي ترجمت له لا تشير إلى أنه؛ شد الرحال إلى بلاد الأندلس، بل ذكر أخبارها فيما رواه وقرأه عن غيره من أعلام الأدب والتاريخ والفقهاء...

أما المصدر الثالث فقد خصه بسرد أخبار رحلاته وأسفاره إلى المشرق والمغرب.

أما بنسبة للشواهد التي أوردها المقري في مصنفه فقد ساد الطابع الشعري عليه - دون شك -، إضافة إلى كثرة الاستشهادات القرآنية والنَّبوية الشريفة، وأقوال العلماء، مما يدل على سعة علمه باللغة والنحو والبلاغة والتفسير والحديث والكثير من علوم اللغة والفقهاء، ومنظوم العرب ومنشوره. أما ما أثير عن العرب من الحكم والأمثال فهو قليل جداً. وسأحاول أن أذكر مثالين لكل شاهد مع الإشارة إلى مواضع الشواهد الأخرى في الهامش.

أ- الاستشهادات القرآنية:

أورد المقري الكثير من الاستشهادات القرآنية لكن غالبها لم تكن للاحتجاج وللاستشهاد بها بل

كانت ضمن ما رواه من أخبار عن أقوال العلماء والأدباء، من ذلك ما رواه عن جده (553)

(552) المقري، (نَفْحُ الطَّيِّبِ)، م.س، ص: 54/1

قال: "...ومنها أنه قال [يعني جده] : سألني بعض الفقهاء عن السبب في سوء بخت المسلمين في ملوكهم، إذ لم يَلِ أمرهم من يسلك بهم الجادة ويحملهم على الواضحة، بل من يغتر في مصلحة دينه، غافلاً عن عاقبة أخراه، فلا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة، ولا يراعي عهداً ولا حرمة، فأجبتُه بأن ذلك لأن المُلْكَ ليس في شريعتنا وذلك أنه كان فيمن كان قبلنا شرعاً،... ولم يكن ذلك في هذه الأمة، بل جعل لهم خلافة، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور-55]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة -247] وقال سليمان (عَلَيْهِ السَّلَام): ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [ص - 35] فجعلهم الله تعالى ملوكاً...» (554)

وأيضاً مما ذكره - المقرئ - من وصايا الوزير لسان الدين بن الخطيب لأهل الأندلس، قال: "ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى من أخرى مما يتعلق بضيق حال المسلمين بالأندلس ما صورته: وإن تَشَوَّفْتُمْ إلى أحوال هذا القطر ومن به من المسلمين، بمقتضى الدين المتين والفضل المبين، فاعلموا أننا في هذه الأيام ندافع من العدو تياراً... ورجونا أن نكون ممن قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدَ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران - 173] (555)

ب/- الاستشهادات النبوية الشريفة:

فمن ذلك استشهاده للفتح الإسلامي بالأندلس على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد، قال: "اعلم أنه لما قضى الله سبحانه بتحقيق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رُؤِيتَ لِيَّ

(553) جده: هو محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى ابن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي بن داود القرشي المقرئ يكنى أبا عبد الله، قاضي الجماعة بفاس وتلمسان، من مؤلفاته: كتاب (القواعد) وكتاب (الطرف والتحف) وكتاب (اختصار الخصل). ينظر: لسان الدين بن

الخطيب، (الإحاطة في أخبار غرناطة)، م.س، ص: 191/2. وينظر: المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، م.س، ص: 203/5

(554) المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، م.س، ص: 283/5

(555) المصدر نفسه، ص: 444/4. وينظر: 570/1، 572، 575، 40/2، 41، 42، 48، 177، 192، 510/3، 141/4، 404/6، 275/7، 276.

تميز المقري بكثرة أشعاره وأشعار غيره، فأحيانا ينسب الشعر لنفسه إن كان له، كقوله واصفا الحُجَّاج إلى بيت الله الحرام: "ووقفنا بباب طلب الآمال خاشعين، وتوسلنا إلى الله بذلك المقام العلي خاضعين، وغَبِطْنَا قوماً سكنوا هنالك فكانوا لحدودهم متى شاءوا على تلك الأعتاب واضعين:

لَا يَقْرَبُ الْخَطْبُ الْمَلِيْمُ مَنِيْعَهُمْ لَا يَطْرُقُ الْكَرْبُ الْمُخِيْفُ قَرِيْبَهُمْ
والله شَرَفَ بِالنَّبِيِّ جَمِيْعَهُمْ مَن نَالَ رُبَّتَهُمْ وَحَازَ صَنِيعَهُمْ⁽⁵⁶¹⁾

وقوله في مدحه للبقاع المقدسة في إحدى رحلاته إليها:

مَرَّ النَّسِيْمُ بِرَبْعِهِمْ فَتَلَدَذَا حَتَّى كَأَنَّ النَّشْرَ صَارَ لَهُ غَذَا
فَصَحَا وَصَحَّ وَصَاحَ لَا أَشْكُو أَدَى قُلْ لِلصَّبَا مَاذَا حَمَلَتْ مِنَ الشَّدَا؟⁽⁵⁶²⁾

وأحيانا أخرى يستشهد بالشعر دون ذكر صاحبه، كما في حنينه لبلاد المغرب أثناء تواجده بالمشرق، قال: "وأ تذكر تلك الأيام التي مرت كالأحلام، فأتمثل بقول بعض الأكابر الأعلام:

يَا دِيَارَ السُّرُورِ لَا زَالَ يَبْكِي فِيكَ إِذْ تَضَحَكُ الرِّيَاضُ غَمَامُ
رُبَّ عَيْشٍ صَحْبَتُهُ فِيكَ غَضٍ وَعَيْوُنُ الْفِرَاقِ عَنَّا نِيَامُ
فِي لَيْالٍ كَأَنَّهُنَّ أَمَانٍ فِي زَمَانٍ كَأَنَّهُ أَحْلَامُ
وَكَأَنَّ الْأَوْقَاتَ فِيكَ كُؤُوسٌ دَائِرَاتٌ وَأُنْسُهُنَّ مُدَامُ
زَمَنٌ مُسْعِدٌ وَإِلْفٌ وَصُؤْلٌ وَمُنَى تَسْتَلِدْهَا الْأَوْهَامُ⁽⁵⁶³⁾

وغالبا ما كان يذكر صاحب البيت أو المقطوعة الشعرية كقوله لما بلغ به الحنين إلى الأوطان: "وأُنشِدُ قولَ غِيْلَانَ⁽⁵⁶⁴⁾:"

أَمَنْزِلَتِي مِي سَلَامٍ عَلَيْكُمَا هَلْ الْأَزْمُنُ اللَّائِي مَضَيْنَ رَوَاجِعُ؟⁽⁵⁶⁵⁾

⁽⁵⁶¹⁾ المقري، (نُفْحُ الطَّيِّبِ)، م.س، ص: 52/1

⁽⁵⁶²⁾ المصدر نفسه، ص: 48/1

⁽⁵⁶³⁾ المصدر نفسه، ص: 18/1

⁽⁵⁶⁴⁾ غيلان أو ذي الرمة؛ هو أبو الحارث غيلان بن عقبة بن ميمش بن مسعود بن حارثة بن عمرو بن ربيعة بن ساعدة بن كعب بن عوف بن ربيعة بن ملكان بن عدي بن عبد مناة ابن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، الشاعر المشهور المعروف بذي الرمة، أحد فحول الشعراء، وصاحبه مئة ابنة مقاتل بن طلبية. توفي بأصبهان، وقيل: بالبادية. ينظر: أحمد بن خلكان، (وفيات الأعيان)، تح: إحسان عباس، م.س، ص: 11/4

وأيضاً ما أنشده من شعر المتنبي فيما ذكره من أخبار موسى بن سعيد لما أبى مفارقة الأندلس إلى

مراكش بأمر من الوزير أبي يحيى: "وما لي لا أنشد ما قاله المتنبي في سيف الدولة:

وَمَنْ كُنْتَ بَحْرًا لَهُ يَا عَلِيٌّ لَمْ يَقْبَلِ الدُّرَّ إِلَّا كِبَارًا" (566)

د- الحكم وكلام العرب:

نادراً ما كان المقرئ يستشهد بما أثر من كلام العرب إلا في بعض السياقات من الكلام، كقوله: "...فكأنه قال ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا الزنبور لسعة العقرب، أي فإذا الزنبور يلسع لسعة العقرب، فاختزل الفعل لما تقدم من الدليل عليه، بعد أن أضمر اللسعة متصلة بالفعل، فكأنه قال فإذا الزنبور يلسعها فاتصل الضمير بالفعل لوجوده، فلما اختزل الفعل انفصل الضمير لعدم الفعل. ونظير هذا من كلام العرب قولهم: "إنما أنت شرب الإبل" أي: إنما أنت تشرب شرب الإبل، فاختزل الفعل، وبقي عمله في المصدر، ولم يرفع لأنه غير الاسم الأول، فلو أضمرت شرب الإبل بعدما جرى ذكره فقلت ما يشرب زيد شرب الإبل، إنما أنت تشربه لاتصل الضمير بالفعل، فلو حذفته لانفصل الضمير فقلت إنما أنت إياه فتدبره تجده منقاداً صحيحاً" (567).

وأيضاً فيما يرويه من فوائده جده أبي عبد الله المقرئ قال: "وقال رحمه الله تعالى: كان الأستاذ ابن الحكم قد بعث إلي بمحرر لأبعث به إلى من يعرضه للبيع، ثم بلغه أن أحمالاً من المتاع التونسي قد وصلت إلى البلد، فكتب إلي: الحمد لله الذي أمر عند كل مسجد بأخذ الزينة، وصلواته الطيبة، وبركاته الصيبة، على من ختم به شريعته وأكمل دينه، وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه والذين يتبعونه، وبعد ما تعلق به الإعلام، أن تعوضوا المحرر بإحرام" (568)، لا يخفى على مثلكم جنسه

(565) م: اسم صاحبه، ومعنى البيت: يا منزلتي ميا هل تلك الأزمان التي كنا نعهدا بك راجعة. وعنوان القصيدة (تحية إلى أطلال ميا). ينظر: التبريزي، (شرح ديوان ذي الرمة)، تقديم: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، (بيروت- لبنان)، 1996/هـ 1416م، ط2، ص: 439. وينظر: المقرئ، (نفع الطيب)، م.س، ص: 14/1

(566) الدر: اللؤلؤ. ينظر: أبو الطيب المتنبي، (ديوان المتنبي)، م.م.س، ص: 366. وينظر: المصدر السابق، ص: 183/1. وينظر المصدر نفسه (أشعار المتنبي): 222/2، 368، 464، 466، 72/3، 194، 222، 235، 106/4، 143، 261.

(567) المقرئ، (نفع الطيب)، م.س، ص: 82/4

(568) الإحرام: في المغرب يطلق على لباس مكون من بردة سوداء وطلسان من الكتان الأسود. المقرئ، (نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، م.س، ص: 259/5

وَمَجَانِسُهُ، وَمِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ: كُلُّ ثَوْبٍ وَلَا يَسُّهُ، وَإِنْ أَرَبِي عَلَى ثَمَنِ الْأَوَّلِ ثَمَنِ الثَّانِي، فَلَسْتُ عَنِ الزِّيَادَةِ وَالْحَمْدِ لِلَّهِ بِالْوَائِي (569).

4- منهج المؤلف في الكتاب:

أولاً: مقدمة المؤلف:

مهد المقرئ رحلته في كتابه (نَفْحُ الطَّيِّبِ) بمقدمة طويلة تعرض فيها لجميع رحلاته؛ فهذه المقدمة هي التي يمكن أن نسميها "رحلة"، فبدأها بسيرته الذاتية، وهذا مطلعها: "يقول العبد الفقير، الذليل المضطر الحقيير، من هو من صالح الأعمال عَرِيٌّ: أحمد بن محمد الشهير بالمقرئ، المغربي المالكي الأشعري، أصلح الله تعالى حاله، وجعل في مرضاته حله وترحاله، ومحا بغيث الطاعة والرضوان أمحاله، وأنجح ببلوغ آماله انتحاه وانتحاله: "أحمد من عرف من حلى الأمصار وعلى الأعيان،... وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي ابتداء الخلق من غير مثال وبراء، وقسم العباد إلى حاضر وباد وظاهر وخامل وقاصر وكامل تشير إليه بالأنامل أيدي الكُبراء،... وأصلي أزكى الصلاة والسلام، هدية لحضرة سيد الأنام، ولبنة التمام، مَنْ زُوِيَتْ لَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمَغَارِبِ وَالْمَشَارِقِ، وَتَمَّ بِهِ نِظَامُ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرَسَلِهِ الْعِظَامِ،... وَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عُلَمَاءِ أُمَّتِهِ الْمُصَنِّفِينَ فِي جَمِيعِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ، وَعِظْمَاءِ سُنَّتِهِ الْمُوَفِّينَ لِلطَّلَابِ بِالْأَرَابِ الْمُحَقِّقِينَ لَهُمُ الظُّنُونَ، وَحُكَمَاءِ شَرَعَتِهِ الْمُتَبَصِّرِينَ بِحُدُوثِ مَنْ مَرَّتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ وَالشُّهُورُ وَكَرَّتْ عَلَيْهِ الْآنَاءُ وَالدهُورُ وَالْأَعْوَامُ وَالسُّنُونَ،...» (570)

بعد الثناء والشكر لله تعالى الواحد القهار، ثم الصلاة والسلام على خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم، وجميع الرُّسل والأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) وصحابته الأبرار (رضوان الله تعالى عليهم) ومن تبعهم إلى يوم الدين بإحسان، أثنى على فضل العلماء والحكماء وجهودهم في شتى العلوم والفنون في مشارق الأرض ومغاربها، وأنها هي التي تبقى وتدوم، ثم بعد ذلك نظم قصيدة من مائة بيت وبيتين، وكأنه أعاد فيها ما استهل به مقدمته نثراً، ومطلعها:

(569) المصدر نفسه، ص: 259/5

(570) المقرئ، (نَفْحُ الطَّيِّبِ)، م.س، ص: 1/1، 2، 3، 4، 5

ظَ فَلَا عِتَابَ وَلَا مَلَامَةَ سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْحُظُوفَ
بَصَرَ وَزَرْقَاءَ الْيَمَامَةِ (571) أَعْمَى وَأَعَشَى ثُمَّ ذُو

وقال أيضا:

ظِلَّ السِّيَادَةِ وَالزَّعَامَةَ أَيُّنَ الذِّينَ تَفِيأُوا
سَةِ وَالسِّيَاسَةَ وَالصَّرَامَةَ (572) أَيُّنَ الْمُلُوكِ ذُوو الرِّيَا

وقال أيضا:

مَعَ صَحْبِهِ تَتَلَوُ سَلَامُهُ وَعَلَيْهِ خَيْرُ صَلَاتِهِ
بَرَقُ الرِّشَادِ لَهُ فَشَامَهُ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَدَا
ذُ كَانَتْ الْحُسْنَى خِتَامَهُ (573) مَا فَازَ بِالرِّضْوَانِ عِبْ

ثم تعرض للحنينه إلى الوطن، - وأقصد ههنا المغرب الأقصى وليس تلمسان-، وذلك أثناء تواجده بالمشرق، فسرد لنا ما كان يشعر به من شوق وحنين ورغبة في العودة إلى تلك البلاد لولا تلك الفتن التي اندلعت بين أولاد السلطان المنصور الذهبي على الحكم، فما كان من المقرئ إلا ترك منصبه ووطنه وأهله قاصدا المشرق عام 1027هـ (1716م)، وقد نوه لذلك في مقدمته حين قال: "إنه لما قضى الملك الذي ليس لعيده في أحكامه تعقب أو ردّ، ولا محيدَ عما شاءه سواء كره ذلك المرء أو ردّ، برحلي من بلادي، ونقلتي عن محل طارفي وتلاذي، بقطر المغرب الأقصى، الذي تمت محاسنه لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصا، وطما به بحر الأهوال فاستعملت شعراء العيث في كامل رونقه من الزحاف إضماراً وقطعاً ووقصاً:

قُطِرُ كَأَنَّ نَسِيمَهُ نَفَحَاتُ كَافُورٍ وَمَسْكَ
وَكَأَنَّ زَهْرَ رِيَاضِهِ دُرُّ هَوَى مِنْ نَظْمِ سِلْكَ (574)

وقال أيضا:

(571) المصدر نفسه، ص: 7/1

(572) المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، م.س، ص: 8/1

(573) المصدر نفسه، ص: 12/1

(574) المصدر نفسه، ص: 14/1

أَحْنُ إِذَا خَلَوْتُ إِلَى زَمَانٍ تَقْضَى لِي بِأَفْيَةِ الرَّبُوعِ
وَأَذْكَرُ طِيبَ أَيَّامٍ تَوَلَّيْتُ لَنَا فَتَفِيضُ مِنْ أَسْفِ دُمُوعِي (575)

يرى أحد الباحثين في سيرة المقرئ وهو الحبيب الجناحاني أن سبب خروج المقرئ من المغرب الأقصى وبالتحديد مدينة فاس هو موافقه المؤيدة لقبيلة (شراكة) التي أصلها من تلمسان، حيث اهتمت هذه الأخيرة بإحداث قلاقل واضطرابات في بلاد المغرب، وكان رأس المقرئ أحد الرؤوس التي تمت المطالبة بها عندما تولى السلطان محمد الشيخ السعدي زمام الحكم (576).

ثم تحدث عن ركوب البحر بأحواله وأهواله في رحلته لما كان قاصدا مصر، فقال:

الْبَحْرُ صَعْبُ الْمَرَامِ جِدًّا لَا جُعِلَتْ حَاجَتِي إِلَيْهِ
أَلَيْسَ مَاءً وَنَحْنُ طِينٌ فَمَا عَسَى صَبْرُنَا عَلَيْهِ (577)

ثم تكلم عن رحلته إلى البقاع المقدسة (مكة والمدينة)، ثم زيارته فلسطين والمسجد الأقصى، ثم عاد إلى مصر حيث تزوج فيها، ولكن حياته الزوجية لم تدم طويلا إذ سرعان ما افترقا، مما جعل الكثير من أهل مصر ينقمون عليه، وهذا ما جعله يشد الرحال إلى مدينة دمشق، ليحدثنا عن علماءها وأدباءها وأخبارها، وعن لقاءه الأول بمن كان السبب الأول في تأليف مصنفنا المطروح للدراسة (نفع الطيب) ألا وهو أحمد ابن شاهين، وذلك بعد ما حدثه المقرئ عن أخبار الأندلس وأجماد وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، لكن المقرئ استصعب ذلك في بادئ الأمر - كما ذكرنا سلفا- لكن بعد الإصرار المتواصل من ابن شاهين عزم على تلبية طلبه، وذلك أثناء استعداده لوداع دمشق والعودة إلى مصر، وهذا ما أنشده أثناء وداعه:

حَلَلْنَا دِيَارًا لِلْغَرَامِ سَرَّتْ بِهَا إِلَيْنَا صَبَا نَجْدٍ بِطَيْبِ نَسِيمِ
وَبَانَ رَدَى الْأَشْجَانِ لَمَّا تَجَاذَبَتْ أَكْفُ الْمُنَى فِيهَا رِدَاءَ نَعِيمِ
فَمَا أَنْشَبْتَنَا الْعَيْسُ أَنْ قَذَفَتْ بِنَا إِلَى فُرْقَةٍ وَالْعَهْدُ غَيْرُ قَدِيمِ
فَإِنْ نَكُّ وَدَعْنَا الدِّيَارَ وَأَهْلَهَا فَمَا عَهْدُ نَجْدٍ عِنْدَنَا بِذَمِيمِ (578)

(575) المصدر نفسه، ص: 17/1

(576) بوكرموش ياسين نبيل، (الأساليب البلاغية في نفع الطيب للمقرئ)، مذكرة ماجستير، جامعة حسنية بن بو علي، (شلف- الجزائر)،

2008/2007م، ص: 4.

(577) المقرئ، (نفع الطيب)، م.م.س، ص: 23/1

(578) المصدر نفسه، ص: 80/1

ثم حدثنا عن شروعه في كتابة مؤلفه أثناء تواجده بمصر، لكنه وبعد فترة استعسر عليه الأمر، وأصابه الضجر والملل، فأرسل إليه ابن شاهين رسالة تحثه على المضي قُدُماً، وأنه قد وعده بإتمام الكتاب، وهذه بعض ما تضمنته الرسالة: "ومما استخلص قلبي من يدي ترحي، وجدد سروري ونبه فرحي، حديث الكتاب وما حديث الكتاب، حديث نَسَخَ بجلاوته مرارة العتاب، وأنساني حرارة المصاب، في الأنسال والأعقاب، وقضى به من حق لسان الدين، دينه الذي تبرع به غريم مليء من البلاغة وهو غير مدين، حتى كأني يا سيدي بهذه البشرية، أحرزت سيواري كسرى، وكان في مسمعي كل حرف إليها منسوب، قميص يوسف في أجفان يعقوب، وحتى كدت أهجر أهلي وبيتي، واسرج لاستقبال هذه البشرية أشهبي وكُميتي، وحتى إنني حاربت نومي وقومي، وعزمت على أن أرحل ناقتي في وقتي ويومي، وإن ذلك التغليس والتهجير، في جنب ما بُشِّرْت به لحقير، وإن موقعها لدى هذا العبد الحقير لخطير..." (579)

ثم ختم الرسالة بقصيدة نفيسة من نظمه يذكره بوعدة الذي وعده إياه أثناء تواجده بدمشق، وهاته بعض من أبياتها:

هَاتِ أَفْدَنِي سَيِّدِي عَنْ عَلَا أَلْ — مَوْلَى لِسَانِ الدِّينِ ذَاكَ السَّرِيِّ (580)

وقال:

مَا قَدْ وَعَدْتَ الْعَبْدَ فِي جَمْعِهِ — مِنْ خَبَرٍ عَنْ فَضْلِهِ مُسْفِرٍ
بِخَطِّكَ الْوَضَّاحِ وَهُوَ الَّذِي — مَخْبَرُهُ يُرْبِي عَلَى الْمَنْظَرِ (581)

وقال أيضاً:

هَذَا ابْنُ شَاهِينَ الْفَتَى أَحْمَدُ — عَنْ ذِكْرِكَ الْمَأْنُوسِ لَمْ يَفْتَرِ
فَاجْعَلْ لَهُ ذِكْرًا كَرِيمًا بِهِ — يَزْدَانُ مَغْبُوطًا إِلَى الْمَحْشَرِ (582)

بعد قراءة المقري لهذه الرسالة تحمس لاستئناف مصنفه وإتمامه حتى آخر حرف منه.

وبعد إيراده رسالة ابن شاهين أورد منهجه في كتابه وكيف قسمه إلى قسمين، ثم إلى أبواب.

(579) المقري، (نَفْحُ الطَّيِّبِ)، م.س، ص: 103/1

(580) المصدر نفسه، ص: 105/1

(581) المصدر نفسه، ص: 105/1

(582) المصدر نفسه، ص: 105/1

ثم ختم المقدمة والتي عاد فيها إلى الاعتذار من صديقه المولى ابن شاهين بداعي أن يصفح له إذا ما وجد فيه قصوراً أو تفریطاً أو إغفالاً؛ وقد صرح بذلك حين قال: "... كما أطلبُ مِمَّن كان السبب في تصنيفه، والداعي إلى تأليفه، استناداً لركن الثقة، واعتماداً على الود والمقة، أن يصفح عما فيه من قصور ويسمح، ويلاحظه بعين الرضى الكليّة ويلمح، إذ ركت شكل منطقته والأشجان غالبية، وقضية الغربية، موجبة للكربة، ولبعض الآمال سالبه..." (583)

ثم ذكر ما أورده في مصنفه بقوله: "وأوردت فيه من نظم وإنشاء، ما يكفي المقتصر عليه إن شاء، ومن أخبار ملوك ورؤساء، وطبقات من أحسن أو أساء، ما فيه اعتبار للمتأمل، وادّكار للراحل المتحمّل، وزينة للذاكر المتجمل" (584)... وأسأل من مبلغ السائلين ما يرجون: أن يصفح عن زلاتي ويسامحني فيما أوردت في هذا الكتاب من الهزل والمجون، الذي جرت المناسبة إليه والحديث شجون، وما القصد منه إلا ترويح قلوب الذين يسوقون عيس الأسمار ويزجون، وفيما أوردت من المواعظ والنصائح، وحكايات الأولياء الذين طيب زهر مناقبهم فائح، والتوسل بمحاسن الأمداح النبوية أن يستر بفضلته سبحانه القبائح، ويرينا وجه القبول بلا اكتتام، ويمنحنا الزلفى وحسن الختام" (585).

تُعد مقدمة المقرئ وحدها مختصراً جامعاً لمختلف رحلاته، فقد استطاع أن يسرد أخبار رحلاته منذ انطلاقه من مسقط رأسه تلمسان حتى فراغه من كتابة مصنفه (نفع الطيب) وهو بمصر حتى فاجأه الموت وهو بها، ولذلك تُعد مقدمة (نفع الطيب) وحدها ذات قيمة أدبية وعلمية عظيمة، لما تضمنته من أخبار وأوصاف وأشعار ورسائل، ولا سيما تلك التي كانت بين المقرئ وصديقه أحمد ابن شاهين.

ثانياً: متن الكتاب:

قسم المقرئ متن كتابه إلى قسمين وقد ضمن كل قسم من قسميه ثمانية أبواب.
أ. القسم الأول: وقد وسمه ب: (فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار).

(583) المقرئ، (نفع الطيب)، م.س، ص: 117/1

(584) المصدر نفسه، ص: 118/1

(585) المصدر نفسه، ص: 121/1

- **الباب الأول:** "في وصف جزيرة الأندلس..."، وجاء فيه (مزايا الأندلس، ومساحتها وأبعادها، وموقعها، والأمم التي استوطنتها، ومناخها وخيراتها، وإشبيلية وإقليمها...) .
- **الباب الثاني:** "في فتح الأندلس..."، وفيه: (أخبار الفتح حسب مختلف الروايات، ونهاية موسى بن نصير وابنه عبد العزيز، ومغانم الأندلس، وحكام بني أمية، وملوك الطوائف ومن بعدهم...) .
- **الباب الثالث:** "في سرد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامي..."، وفيه: (عبد الرحمن الداخل، وأخبار في سيرة المنصور، وملوك الطوائف...) .
- **الباب الرابع:** "في ذكر قرطبة التي كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة..."، وفيه: (وصف قرطبة، وامتزهاها، نهرها وقنطرتها، والفتنة البربرية، وقصائد لابن خفاجة...) .
- **الباب الخامس:** "في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق... ومُخاطبة أعيان دمشق للمؤلف..."، وفيه ذكر الأعلام الذين رحلوا من الأندلس ابتداءً من (عبد الملك بن حبيب السلمي⁽⁵⁸⁶⁾، إلى ابن الأزرق⁽⁵⁸⁷⁾) .
- **الباب السادس:** "في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق..."، وفيه ذكر الأعلام الذين حلوا بديار الأندلس ابتداءً من (المُنَيِّدَرُ الإفريقي^(رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)) [588]... إلى يوسف الدمشقي)
- **الباب السابع:** "في ذكر توقد الأذهان الأندلسية وحب الأندلسيين للمعرفة..."، وفيه ذكر العلماء الذين برعوا في أجوبتهم مما يدل على فضلهم، وابتداءً بـ: (ابن سعيد،

⁽⁵⁸⁶⁾ عبد الملك بن حبيب السلمي المرداسي الأندلسي القرطبي: كان فقيهاً نحويًا شاعرًا، طويل اللسان متصرفاً في فنون العلم. له: كتاب (النسب)، وكتاب (فضائل قريش وأخبارها وأنسابها). ينظر: بكر بن عبد الله أبو زيد، (طبقات النسائين)، دار الرشد، (الرياض - المملكة العربية السعودية)، 1407 هـ/1987م، ط1، ص: 60

⁽⁵⁸⁷⁾ ابن الأزرق: هو قاضي الجماعة بغرناطة أبو عبد الله محمد بن علي ابن محمد بن الأزرق، صاحب (الشرح العجيب على مختصر خليل) و(كتاب السياسة الملخص من مقدمة تاريخ ابن خلدون) وكتاب (روضة الأعلام بمجلة العربية من علوم الإسلام)، توفي عام 896هـ. ينظر: أبو العباس المقرئ التلمساني، (أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض)، تح: مصطفى السقا - إبراهيم الإيباري - عبد العظيم شلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة - مصر)، 1358هـ/1939م، ص: 71/1. وذكرت ترجمته في: (نَفْحُ الطَّيِّبِ)، م.م.س، ص: 699/2

⁽⁵⁸⁸⁾ المُنَيِّدَرُ الإفريقي: المنير الأسلمي - ويقال المنذر-: دخل مصر، ولهم عنه حديث، وسكن إفريقية. وقال ابن يونس: له صحبة، كان يافريقية روى عنه أبو عبد الرحمن الجليلي. قال عبد الملك بن حبيب: دخل الأندلس من الصحابة منذر الإفريقي. ينظر: أبو بكر، جلال الدين السيوطي، (حسن الخاضرة في تاريخ مصر والقاهرة)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الباي الحلبي وشركاه، (مصر)، 1387 هـ/1967م، ط1، ص: 239/1

مرورا بنساء الأندلس كأم السعد بنت عصام⁽⁵⁸⁹⁾...، وانتهى إلى الحجاري⁽⁵⁹⁰⁾
صاحب المسهب)

- **الباب الثامن: "في ذكر تغلب العدو الكافر على الجزيرة..."**، وجاء فيه (الاستلاء على طليطلة، ودخول الأندلس في طاعة الموحدين، والدولة المرينية، ورسائل لسان الدين ابن الخطيب إلى سلاطين بني مرين، وسقوط ميورقة، وتلاحق سقوط مدن الأندلس،...).

ب. القسم الثاني:

وقد وسمه ب: (في التعريف بلسان الدين ابن الخطيب)

- **الباب الأول:** "في ذكر أولية لسان الدين وذكر أسلافه..."، وفيه (أولية لسان الدين، ترجمة والد لسان الدين، ميراث في والد لسان الدين،...).
- **الباب الثاني:** "في نشأته وترقيه ووزارته وسعاده، وما لقي من مكائد حتى وفاته..."، وفيه (عن ابن الأحمر في حق لسان الدين، نقل عن ترجمة لسان الدين بقلمه، عن ابن خلدون في حق لسان الدين، نبذة عن أعداء لسان الدين،...).
- **الباب الثالث:** "في ذكر مشايخه الجله..."، وفيه: (محمد بن أحمد الحسيني السبتي، كلام المقري الجد في أوليته، عبد الحق بن سعيد بن محمد، يونس بن عطية الونشريسي،...).
- **الباب الرابع:** "في مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إلى حضرته العلية..."، وفيه: (رسالة من أبي سالم إلى لسان الدين، رسالة من لسان الدين إلى أبي سالم،...).
- **الباب الخامس:** "في إيراد جملة من نثر لسان الدين وشعره وموشحاته..."، وفيه (فاتحة كتاب "اللمحة البدرية" لسان الدين، الحض على الجهاد، نقول متفرقة من نثره في كتب التراجم، وصف مكناسة في مقامة البلدان، موشحات لسان الدين،...).

⁽⁵⁸⁹⁾ أم السعد بنت عصام بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الحميري: شاعرة أندلسية. تنتمي إلى أسرة قرطبية مشهورة بأدبائها، وبعض أفراد أسرتها يعدون في العلماء. توفيت بمالقة عام 640هـ. وتعرف أيضاً بسعدونة، ولها أخت شاعرة اسمها مهجة. موقع الموسوعة الشعرية، (معجم الشعراء العرب)، <https://shamela.ws/index.php/book/2114>

⁽⁵⁹⁰⁾ الحجاري: هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن الحجاري يكنى أبا عبد الله. كان أستاذاً بمالقة في علم الأدب والنحو. وكان جمّ المعارف بارع الآداب. وله عناية بعلم العقائد وأصول الدين. توفي شهيداً بميورقة، قتلته فئة باغية من الروم بالتراسين بداخل البلد. له كتاب: (المسهب في غرائب المغرب). ينظر: أبو عبد الله بن عسكر - وأبو بكر بن حميس، (أعلام مالقة)، تقديم: عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت - لبنان)، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط - المغرب، 1420 هـ/1999م، ص: 118

- **الباب السادس:** "في مصنفاته في الفنون، ومؤلفاته المحققة..."، وفيه: (سرد أسماء مؤلفات لسان الدين في الإحاطة، معلومات عن كتاب الإحاطة،...)
- **الباب السابع:** "في ذكر بعض تلامذته..."، وفيه: (أبو عبد الله بن زمرك، ابن المهنا الطيب العالم، أحمد بن سليمان بن فركون،...)
- **الباب الثامن:** "في ذكره وأولاده"، وفيه: (عبد الله بن لسان الدين، أشعار لسان الدين في مخاطبة ابنه عبد الله، علي بن لسان الدين وتعليقاته على الإحاطة، وصية لسان الدين لأولاده،...)

ثالثاً: خاتمة الكتاب:

ختم المقرئ كتابه بأمداح في النبي المصطفى المهداة (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، ثم قال: "وكان الفراغ منه عشية يوم الأحد المسفر صباحها عن السابع والعشرين لرمضان سنة ثمان وثلاثين وألف، بالقاهرة المحروسة، والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وألحقت فيه كثيراً في السنة بعدها؛ فيكون جميعه آخر الحجة تنمة سنة تسع وثلاثين وألف، وصلَّى اللهُ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم، دائماً أبداً إلى يوم الدين، آمين" (591).

وكأي رحالة يُدَوِّن رحلاته، فقد اعتمد المقرئ المنهج الوصفي والسردى إضافة إلى المنهج التاريخي الذي تميز به كتابه ولاسيما في ذكر أخبار الأندلس ووزيرها ابن الخطيب

5- أهم جوانب رحلة المقرئ في الكتاب:

لا يختلف اثنان ولا ينتطح عتران في أن المقرئ من أشهر الرحالة المسلمين العرب في القرن الحادي عشر الهجري، وقد شهدت له مصنفاته بذلك؛ ولاسيما كتابه (نَفْحُ الطَّيْب) فقد اهتم فيه بجوانب مختلفة وعديدة أهمها:

أ- الجانب الديني:

أولى المقرئ عناية كبيرة بهذا الجانب، ولاسيما فيما تعلق بالأخبار والمناظرات التي كانت تحدث في بلاط الملوك والأمراء، أو فيما تعلق بمجالس العلماء والفقهاء من أهل الحديث والتفسير والفقهاء

(591) المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْب)، م.م.س، ص: 519/7

والأصول وغيرهم، فعلى سبيل المثال ما ذكره عن بعض مواعظ أبي الفرج ابن الجوزي فيما رواه عن خلافة أبي بكر (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)؛ قال - المقرئ -: "وقال في خلافة أبي بكر (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، بعد أن ذكر أحاديث تدل على خلافته كقوله صلى الله عليه وسلم «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» وغيره، ما صورته: فهذه أحاديث تجري مجرى النص، فهمها الخصوص، غير أن الرفضة في إخفائها كاللصوص، فقال السائل: لما قال: "أقيلوني" ما سمعنا مثل جواب علي (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) "والله لا أفلناك"، فقال: لما غاب علي عن البيعة في الأول، أخلف ما فات بالمدح في المستقبل، ليعلم السامع والرائي أن بيعة أبي بكر وإن كانت من ورائي، فهي رائتي، ومثل ذلك الصدر لا يرائي" (592).

وأيضاً ما أورده عن ابن الجوزي فيما حَدَّثَ في بلاط الخليفة المستضيء بالله؛ قال: "ووعظ [ابن الجوزي] المستضيء (593) يوماً فقال: يا أمير المؤمنين، إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفتُ عليك، فأنا أقدم خوفاً عليك، على خوفاً منك، لمحبتي لدوام أيامك، إن قول القائل: "اتق الله" خير من قول القائل: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وقال الحسن البصري: "لأن تصحب أقواماً يُخَوِّفُونَكَ حتى تبلغ المأمن خير لك من أن تصحب أقواماً يُؤْمِنُونَكَ حتى تبلغ المخاوف". وكان عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) يقول: "إِذَا بَلَغَنِي عَنْ عَامِلٍ ظَالِمٍ أَنَّهُ قَدْ ظَلَمَ الرَّعِيَّةَ وَكَمْ أُغْيِرَهُ فَأَنَا الظَّالِمُ". يا أمير المؤمنين، كان يوسف (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لا يشبع في زمان القحط، لئلا ينسى الجوع، وكان عمر (رضي الله عنه) يَصُرُّ بطنه عام الرَمَادَةِ فيقول: "قَرَقِرِي إِنْ شِئْتَ أَوْلَا تُقَرِّقِرِي، فَوَاللَّهِ لَأَشْبَعْتُ وَالْمُسْلِمُونَ جِيَاعًا". فتصدق الخليفة المستضيء بصدقات كثيرة، وأطلق من في السجن" (594).

ب- الجانب اللغوي والنحوي:

(592) المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، م.م.س، ص: 162/5

(593) المستضيء بالله: هو الحسن بن يوسف بن محمد بن أحمد بن عبد الله، أمير المؤمنين المستضيء بالله ابن المستنجد ابن المقنفي ابن القائم ابن القادر ابن إسحاق ابن المقنن ابن المعتضد ابن الموفق ابن المتوكل ابن المعتمد ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور. بويع بالخلافة بعد وفاة والده المستنجد يوم الأربعاء العاشر من ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة، وعمره يومئذ عشرون سنة وتسعة أشهر ويومان، ومولده يوم الاثنين ثالث عشرين شعبان سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وأمه أم ولد أرمنية اسمها غضة. توفي عام 660هـ. ينظر: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن، (فوات الوفيات)، م.م.س، ص: 370/1. وينظر: أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام)، تح: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، 2003م، ط1، ص: 925/14

(594) المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، م.م.س، ص: 163/5، 164

تعددت القضايا اللغوية التي عُنيَ بها المقرئ في كتابه؛ ولعلنا نستطيع أن نُعدّ بعضاً منها: فمن ذلك الاشتقاق اللغوي في كلمة "الزُرقة" في قول أبي علي عمر الشُّلُوبِين⁽⁵⁹⁵⁾ (ت. 645هـ):

وَكُنْتُ أَظُنُّ الْمِيمَ أَصْلًا فَلَمْ تَكُنْ وَكَانَتْ كَمِيمٍ أُلْحِقْتُ بِالزَّرَاقِمِ

والزرّاقم: الحيات، مشتقة من الزرقة، والميم زائدة⁽⁵⁹⁶⁾

ومن ذلك ما أورده من تصريف الألفاظ كذكره لبعض فوائد ابن الفَخَّار⁽⁵⁹⁷⁾ (ت. 539هـ) المذكور التي حكاها عنه الشاطبي، قال: "قوله حدثني أن بعض الشيوخ كان إذا أتى بإجازة يشهد فيها سأل الطالب المُجَازَ عن لفظ (إِجَازَة) ما وزنه وما تصريفه؟ ثم قال الشاطبي: ولما حدثنا بذلك سأله عنها فأملى علينا ما نصه: وزن (إِجَازَة) في الأصل (إِفْعَالَة)، وأصلها (إِجَوَازَة) فَأُعِلَّتْ بنقل حركة الواو إلى الجيم حَمَلًا على الفعل الماضي استئقلاً، فتحرّكت الواو في الأصل وانفتح ما قبلها في اللفظ، فانقلبت ألفاً، فصارت (إِجَازَة) -بألفين- فحذفت الألف الثانية، عند سيبويه لأنها زائدة والزائد أولى بالحذف من الأصلي، وحذفت الأولى عند الأخفش لأنها لا تدل على معنى وهو المد، وقول سيبويه أولى، لأنه قد ثبت عوض التاء من المحذوف في نحو (زنادقة) والتاء زائدة، وتعويض الزائد من الزائد أولى من تعويض الزائد من الأصلي، للتناسب، ووزنها في اللفظ عند سيبويه إِفْعَالَة وعند الأخفش (إِفَالَة) لأن العين عنده محذوفة"⁽⁵⁹⁸⁾.

ومن ذلك الألفاظ المُعَرَّبَة كقوله فيما أورده من مجالس الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام⁽⁵⁹⁹⁾:
"فجاء في باب الرِّدَة ذكر لفظة (الزِنْدِيق)، فقال بعضهم: هل هي عربيّة أو عجميّة؟ فقال بعض

⁽⁵⁹⁵⁾ أبو علي عمر الشُّلُوبِين: أبو عليّ عُمر بن مُحَمَّد بن عُمر الأزدِيّ، الإشبيليّ، الأندلسيّ، النَّحويّ، المُلقَّب بالشُّلُوبِين، من كبار العلماء بالنحو واللغة. مولده ووفاته بإشبيلية. من كتبه: (القوانين) في علم العربية، ومختصره (التوطئة) و(شرح المقدمة الجزولية) في النحو، و(حواش على كتاب المفصل للزمخشري). توفي عام 645هـ. أحمد بن عثمان بن قَائمَز الذهبي، (سير أعلام النبلاء)، تح: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1405 هـ / 1985م، ط3، ص: 207/23. وينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 62/5

⁽⁵⁹⁶⁾ المقرئ، (نُفْحُ الطَّيْبِ)، م.م.س، ص: 490، 491/3

⁽⁵⁹⁷⁾ ابن الفَخَّار: هو محمد بن إبراهيم بن خلف بن أحمد الأنصاري، المعروف بابن الفخار الملقب أبو عبد الله، فقيه أديب اشتهر بالأدب، توفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة. ينظر: أبو جعفر الضبي، (بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس)، د.ت، دار الكاتب العربي، (القاهرة-مصر)، 1967م، د.ط، ص:

70

⁽⁵⁹⁸⁾ المقرئ، (نُفْحُ الطَّيْبِ)، م.م.س، ص: 355، 356/5

⁽⁵⁹⁹⁾ عزّ الدين بن عبد السلام: هو عبد اللطيف بن الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام. ولد سنة 507هـ، وتفقه بأبيه، وتميز في الفقه والأصول، وله من المصنفات: (تفسير القرآن)، و(مجاز الفرسان)، و(الفتاوى الموصلية)، و(مختصر النهاية)، توفي بمصر عاشر جمادى الأولى سنة 660هـ. ينظر: جلال الدين السيوطي، (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاهن (مصر)،

1387هـ - 1967م، ط1، ص: 314، 315، 316/1

الفضلاء: إنما هي فارسيّة مُعرّبة، أصلها زِنْ دِينَ، أي على دين المرأة، وهو الذي يضم الكفر ويظهر الإيمان،...» (600)

ومن المسائل النحوية - وهي متعددة كذلك - ما أورده عن ابن حكم (601): كان أول اتصالي بالأستاذ أبي عبد الله ابن آجروم (602) أي دخلت عليه وقد حفظت بعض كتاب (المفصل)، فوجدت

الطلبة يعربون بين يديه هذا البيت (603):

عَهْدِي بِهِ الْحَيِّ الْجَمِيعَ وَفِيهِمْ قَبْلَ التَّفَرُّقِ مَيْسِرٌ وَنِدَامٌ

وقد عمي عليهم خبر (عهدي) فقلت له: قد سَدَّتْ الحال - وهي الجملة بعده - مَسَدَهُ، فقال لي بعض الطلبة: وهل يكون هذا في الجملة كما كان في قولك: "ضربني زيدا قائماً" فقلت له: نعم، قال رسول الله، ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ» (604).

وأيضاً ما ذكره عن جده المقرئ لما سأل أبا موسى المشدالي عن قول ابن الحاجب في (السهو) "فإن أحوال الإعراض فمبطل عمدته"، فقال: "معناه فإن أحوال غيره أنه مُعْرِضٌ، فحذف المفعول لجوازه، وأقام المصدر مقام المفعولين كما يقوم مقامه ما في معناه من "أن" و"أن"، قال الله العظيم: ﴿الْمَرْءُ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَ﴾ [العنكبوت - 1، 2] قلت: وأقوى من هذا أن يكون المصدر هو المفعول الثاني، وحذف الثالث اختصاراً للدلالة المعنى عليه: أي فإن أحوال الإعراض كائناً، كما قالوا: خلت ذلك، وقد أعربت الآية بالوجهين، وهذا عندي أقرب، ومن هذا الباب ما يكتب به

(600) المقرئ، (نفع الطيب)، م.س، ص: 178/2

(601) ابن حكم: هو أبي عبد الله ابن أبي القاسم الأنصاري المالقي نزيل سبتة ويعرف بها بابن حكم وبابن أخت أبي صالح، وهو من متأخري المغاربة في المئمة السابعة، ينظر: أحمد بن حجر العسقلاني، (لسان الميزان)، تح: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، 2002م، ط1، ص: 545/4. وينظر: المقرئ، (نفع الطيب)، م.س، ص: 201/5

(602) ابن آجروم: محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، أبو عبد الله المشهور بابن آجروم، وَمَعْنَاهُ بِلَغَةِ الْبُرْبُرِ "الْفَقِيرُ الصُّوفِيُّ"، نحوي، اشتهر برسالته (مقدمة الآجرومية) وقد شرحها كثيرون. وله (فرائد المعاني في شرح حرز الأمان) ويعرف بشرح الشاطبية. وله مصنفات أخرى وأراجيز. مولده ووفاته بغاس عام 723هـ. ينظر: جلال الدين السيوطي، (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، (لبنان - صيدا)، د.ت، د.ط، ص: 238/1، 239. وينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.س، ص: 37/7

(603) البيت للبيد، وفيه (الإنس) بدل (الحي) وهو: عهدِي بِمَا الْإِنْسَ الْجَمِيعَ، وفيه م... قَبْلَ التَّفَرُّقِ مَيْسِرٌ وَنِدَامٌ. ينظر: (ديوان لبيد بن ربيعة)، اعتنى به: حمدو طمّاس، دار المعرفة، 1425هـ/2004م، ط1، ص: 105

(604) المقرئ، (نفع الطيب)، م.س، ص: 225/5

القضاة من قولهم "أعلمَ باستقلاله فلان" أي: أعلمَ فلان من يقف عليه بأن الرسم مستقل، فحذفوا الأول، وصاغوا ما بعده المصدر⁽⁶⁰⁵⁾.

تمثلت طريقة المقرئ في معالجته للجانب اللغوي والنحوي في تنقله بين آراء ما حققه علماء اللغة والنحو والأدب السابقون من تفسيرات وشروحات للمسائل اللغوية والنحوية، مضيفاً إلى ذلك رأيه اللغوي والنحوي، وهذا يُؤكد أنه أديب نحوي متذوق، له قدم راسخة وثقافة واسعة في الأدب واللغة والنحو، كيف لا؟ وقد صنف في هذا المجال عدة كتب مثل: (كتاب إعراب القرآن)، و(إتحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة) وهو رسالة في النحو، و(البدأة والنشأة) وهو في الأدب واللغة والنظم وغيرها، ويبدو أن نتاج هذه المصنفات انعكس أثرها على إبداعه في كتابه (النفح) سواء في النثر أو في الشعر.

ج- الجانب البلاغي والنقدي:

بما أن المقرئ كان له تلك الملكة الأدبية الراسخة، والثقافة اللغوية الواسعة، إضافة إلى ما شهدته مصنفه من كم هائل من أشعار الأدباء والشعراء، وأخبار مجالس العلماء والأمراء، فلا شك أن الجانبين البلاغي والنقدي سيكون لهما نصيب وافر وكبير بين دفتي مصنفه؛ فقد حرص المقرئ حرصاً شديداً على هذين الجانبين، إذ نجد - في الجانب الأول - يتعرض لأهم العناصر البلاغية كالاستعارة والكناية والتشبيه...، أو البديع كالطباق والجناس...، أو الصيغ الأسلوبية التي تكشف عن القيم التعبيرية والتصويرية؛ ثم - يأتي الجانب الثاني - الذي نجد فيه أحياناً يستحسن مواضع الصورة البيانية أو البيت الشعري، وأحياناً ينبه على عدم وجود تناسب بين الأبيات، وأحياناً أخرى يستقبح الصورة الشعرية أو البيت الشعري.

فمن أمثلة ذلك من علم البديع ما حكاه عن السلطان المستنصر الحفصي⁽⁶⁰⁶⁾ لما عرض مرة أجناده، "وقيل: بل سلم عليه الموحدون يوم عيد بتونس، وفيهم شاب مليح وسيم اسم جده

⁽⁶⁰⁵⁾ المقرئ، (نفح الطيب)، م.س، ص: 223، 224/5

⁽⁶⁰⁶⁾ المستنصر الحفصي: هو عمر بن يحيى بن عبد الواحد الحفصي الهنتائي، أبو حفص، المستنصر الثاني: صاحب تونس، مملوك الدولة الحفصية. كان مع أخيه إبراهيم بن يحيى حين تغلب الدعوى ابن أبي عمارة على إفريقية، ونجا بعد مقتل إبراهيم وأبنائه، فرحل إلى قلعة سنان (بقرب تونس) وتسامع العرب به، فجاوزه مبايعين سنة 683 هـ فقاتل بهم المتغلب ابن أبي عمارة، واستعاد تونس. وقتل المتغلب في السنة نفسها، فالتفت عليه البلاد، توفي بتونس سنة 694 هـ. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.س، ص: 69/5

العمان، فسأله السلطان عن اسمه، وأعجبه حسنه، فحجل واحمر وجهه، وازداد حسناً، فقال السلطان هذا المصراع:

كَلَّمْتُهُ فَكَلَّمْتُ صَفْحَةَ خَدِّهِ

وسأل من الحاضرين الإجازة، فلم يأتوا بشيء، فقال السلطان مجيزاً شطره:

فَتَفْتَحَتْ فِيهَا شَقَائِقُ جَدِّهِ

قال المقرئ: "وهذا من البدائع مع ما فيه من التورية والتجنيس" (607).

وأيضاً ما ورد عنه من التصوير البياني وعلم البيان كما في قوله: "لما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن ابن فرحون" (608) نزيل طيبة على تربتها السلام سأل ابن حكيم عن معنى هذين البيتين:

رَأَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ فَأَذْكَرْتَنِي لِيَالِي وَصَلِّهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ
كَلَانَا نَاطِرٌ قَمراً وَلَكِنْ رَأَيْتُ بَعَيْنَهَا وَرَأَتْ بَعَيْنِي

ففكر ثم قال: لعل هذا الرجل كان ينظر إليها، وهي تنظر إلى قمر السماء، فهي تنظر إلى القمر حقيقة، وهو لإفراط الاستحسان يرى أنها الحقيقة، فقد رأى بعينها لأنها ناظرة الحقيقة، وأيضاً فهو ينظر إلى قمر مجازاً، وهو لإفراط الاستحسان لها يرى أن قمر السماء هي المجاز، فقد رأت بعينه، لأنها ناظرة المجاز.

قلت: ومن ههنا تعلم وجه الفاء في قوله (فأذكرتني)، لأنه لما صارت رؤيتها رؤيته، وصار القمر حقيقة إياها، كان قوله "رأت قمر السماء فأذكرتني"، بمثابة قوله فأذكرتني"، فإن بعض من لا يفهم كلام الأستاذ حق الفهم ينشده "فأذكرتني" فالفاء في البيت الأول مبنية على معنى البيت الثاني، لأنها مبنية عليه، قال - المقرئ -: "وهذا النحو يسمى الإيذان في علم البيان" (609).

ومن جانبه النقدي ما وقع للرئيس عبد المهيمن الحضرمي (610) من التشبيه في قوله:

(607) المقرئ، (نُفْحُ الطَّيْبِ)، م.م.س، ص: 323/2

(608) ابن فرحون: هو إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين البعري، ولد ونشأ ومات في المدينة. وهو مغربي الأصل، نسبه إلى يعمر بن مالك، من عدنان. رحل إلى مصر والقدس والشام سنة 792 هـ.. وهو من شيوخ المالكية، له (الديباج المذهب) في تراجم أعيان المذهب المالكي، و(تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام) و(طبقات علماء الغرب). توفي عام 877هـ. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 52/1

(609) المقرئ، (نُفْحُ الطَّيْبِ)، م.م.س، ص: 226/5

(610) عبد المهيمن الحضرمي: هو صاحب القلم الأعلى بفاس، وصدورها في عصره. كان غزير العلم بالأدب والتاريخ. ولد ونشأ بسبتة. وولي كتابة الإنشاء لأبي الحسن المريني بفاس. وتوفي بتونس في الطاعون الجارف. توفي عام 749هـ. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 169/4

لَقَدْ رَاقَبِي مَرَأَى سِجْلِمَاسَةَ الَّذِي يَقْرُّ لَهُ فِي حُسْنِهِ كُلُّ مُنْصِفٍ
كَأَنَّ رُؤُوسَ النَّخْلِ فِي عَرَصَاتِهَا فَوَاتِحُ سُورَاتٍ بِآخِرِ مُصْحَفٍ

قال المقرئ: "وهذا من التشبيه العقيم الذي لم يُسبق إليه فيما أظن. وكان سبب قوله ذلك أن السلطان أمير المسلمين أبا الحسن المريني لما تحرك لقتال أخيه السلطان أبي علي عمر بسِجْلِمَاسَةَ⁽⁶¹¹⁾ فظفر بها استمطر أنواء أفكار الكتاب وغيرهم في تشبيه النخل، فقال عبد المهيمن: "ما مر"، فلم يترك مقالاً لقائل⁽⁶¹²⁾.

وكثيراً ما كان المقرئ يورد آراءه النقدية لاسيما في المجال الشعري، كأن يستحسن البيت أو المقطع الشعري بقوله: ".وهو حسن"، "وما أحسن قوله.."، ومثل ذلك في قوله: "وما أحسن قول عالم الأندلس المالكي اللبيب، عبد الملك السُّلَمي المشهور بابن حبيب⁽⁶¹³⁾:"

لِلَّهِ دَرُّ عِصَابَةٍ صَاحِبَتِهَا نَحْوَ الْمَدِينَةِ تَقْطَعُ الْفَلَوَاتِ
وَمَهَامَهُ قَدْ جُبَّتْهَا وَمَفَاوِزِ مَا زِلْتُ أَذْكَرُهَا بِطُولِ حَيَاتِي⁽⁶¹⁴⁾

وأحيانا كان ينقل نقود العلماء للأبيات كذكره لقول الحجاري في بيت السلطان المستظهر⁽⁶¹⁵⁾:

وَنُجُومُ اللَّيْلِ تَحْكِي ذَهَبًا فِي لَازُورِدِ

قال الحجاري: لو قال لؤلؤاً في لازورد لكان أحسن تشبيهاً⁽⁶¹⁶⁾

⁽⁶¹¹⁾ سِجْلِمَاسَةَ: مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب. ينظر: ياقوت الحموي، (معجم البلدان)، دار صادر، (بيروت- لبنان)، 1995م، ط2، ص: 192/3.

⁽⁶¹²⁾ المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، م.س، ص: 469/5

⁽⁶¹³⁾ عبد الملك بن حبيب السلمي: هو الإمام العلامة، فقيه الأندلس، عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون أبو مروان القرطبي المالكي. ولد في حياة الإمام مالك بعد السبعين ومائة. كان نحويًا، عروضيًا شاعرًا، حافظًا للأخبار والأنساب والأشعار، طويل اللسان، متصرفًا في فنون العلوم، كان من أشد الناس كرها للروافض، مات يوم السبت من رمضان سنة 238هـ بعلة الحصى رحمه الله. ينظر: أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية)، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، (القاهرة - مصر)، النبلاء للكتاب، (مراكش - المغرب)، ط1، ص: 464/3. وينظر: المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، ص: 46/1

⁽⁶¹⁴⁾ المصدر نفسه، ص: 46/1

⁽⁶¹⁵⁾ المستظهر بالله: هو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر، أبو المطرف، المستظهر بالله: أحد من ولي إمارة قرطبة في أيام ضعف الدولة الأموية بالأندلس. بوبع بالخلافة سنة 414. قال مؤرخوه: كان عفيفًا، رقيق النفس، حسن الفهم والعلم، أديبًا يجيد الشعر، توفي عام 414هـ. ينظر: خير الدين الزركلي،

(الأعلام)، م.م.س، ص: 341/3

⁽⁶¹⁶⁾ المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، م.س، ص: 436/1

كما كان للنثر نصيبه من الجانب النقدي عند المقري، كما في عتابه على ابن سعيد في ذكره لسيرة أبي بكر بن العربي؛ فقال: "...انتهى كلام ابن سعيد وغيره... وما وفى ابن سعيد حافظ الإسلام أبا بكر ابن العربي (617) حقه، فلنعززه بما حضرنا من التعريف به..." (618)

وما دمنا نتحدث عن الجانب البلاغي فإننا ننبه على أن أسلوب المقري في كتابه اعتمد على تحرير العبارة وانتقاء الألفاظ والسجع الجميل، وتوشيح النثر بالشعر، فحسي في وصف أسلوبه أن أشير أنه اتبع لسان الدين بن الخطيب في أسلوبه ومنهجه في التحرير، بل حتى في بعض موضوعاته (619). وهذا يبدو واضحاً في كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة).

يظهر لنا من خلال هذه الاشارات النقدية السابقة أن رحالتنا قد وفي الجانبين البلاغي والنقدي حقهما، وهذه دلالة واضحة وملموسة على سعة ذوقه الأدبي والفني والنقدي.

د- الجانب الاجتماعي والحضاري:

تجلى الجانب الاجتماعي عند المقري في وصف عادات مختلف الأمم التي نزل بها وتقاليدها، ولا سيما أهل الأندلس، كوصفه للباس أهلها بقوله: "وأما زيّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم، لا سيما في شرق الأندلس، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلا وهو بعمامة، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك... وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم تراه بعمّة في شرق منها أو في غرب... وكثيراً ما يتزيّ سلاطينهم وأجنادهم بزيّ النصارى المجاورين لهم، فسلاحهم كسلاحهم، وأقبيتهم من الإشكراط (620) وغيره كأقبيتهم، وكذلك أعلامهم وسروجهم. ومحارقتهم بالتراس والرّماح الطويلة للطنع، ولا يعرفون الدبايس.

(617) أبو بكر ابن العربي: هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد، المعروف بابن العربي المعافري الأندلسي الإشبيلي الحافظ المشهور، وكان من أهل النفتن في العلوم، توفي في جمادى الأولى من عام 543هـ في فاس عند رجوعه من مراکش، ودفن بمقبرة الجباني. ينظر: أحمد بن خلكان، (وفيات الأعيان)، تح: إحسان عباس، م.م.س، ص: 296/4. وينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 230/6

(618) المقري، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، م.م.س، ص: 29/2

(619) ينظر: أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي- 1500-1830)، م.م.س، ص: 220/2

(620) الإشكراط: ويقال الاشكيات (ecarlare) نوع من الجوخ (النسيج)، قرمزي أحمر. ينظر: المقري، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، م.م.س، ص: 223/1

ويقول عن طريقة عيشهم: "وأهل الأندلس أشدّ خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك ممّا يتعلّق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعةً على حالة تنبو العين عنها.

وهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذلّ السؤال، فلذلك قد ينسبون للبلخ، ولهم مروءات على عادة بلادهم، لو فطن لها حاتم لفضّل دقائقها على عظامه..."(621)

وأما الجانب الحضاري فتجلى في وصفه لمختلف البقاع والأمصار التي حل بها، كوصفه لعمران المدن، والقصور والحدائق والقلاع والأتجار والأبراج والحيوانات والنباتات...، أو في وصفه للصورة التي صورها غيره من العلماء والرحالة الذين جالوا وصالوا مختلف البلدان والأقطار فسرّدوا لنا أخبارها الدقيق منها والجليل.

فمن أمثلة ذلك مدينة دمشق التي وصفها بقوله حينما نزل بها: "دمشق الشام، ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام، والأدواح المتنوعة، والأرواح المتضوعة، حيث المشاهد المكرمة، والمعاهد المحترمة، والغوطة الغناء والحديقة، والمكارم التي يباري فيها المرء شانه وصديقه، والأطلال الوريقة والأفنان الوريقة، والزهر الذي تخاله مبسماً والندى ريقه، والقضبان الملد... وشاهدت بعض مغانيها الحسنة، ومبانيها المستحسنة... ورأينا من محاسنها ما لا يستوفيه من تأنق في الخطاب، وأطال في الوصف... فالجامع الجامع للبدائع يبهر الفكر، والغوطة المنوطة بالحسن تسحر الألباب لا سيما إذا حياها النسيم وابتكر..."(622)

ثم أنشد:

وَالْغُوطَةُ الْغَنَاءُ حَيٌّ تَ بِالْوُرُودِ وَبِالشَّقَائِقِ
وَالنَّهْرُ صَافٍ وَالنَّسِيمُ مُمُّ اللَّذْنُ لِلْأَشْوَاقِ سَائِقِ

(621) المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، ص: 222/1، 223، 224

(622) المصدر نفسه، ص: 58/1، 59

وقال أيضا: "وقد تذكرتُ بلادي النائيه، بذلك المرأى الشامى الذي يبهر رائيه، فما شئت من أنهار ذات انسجام، أترع بها من جريال الأنس جام، وأزهار متوجة للأدواح، مروحة للنفوس بعاطر الأرواح، وحدائق تعشي أنوارها الأحداق..."⁽⁶²³⁾

وأیضا من أخبار الأندلس ما نقله المقرئ على لسان ابن سعيد: "إنما سُميت بأندلس بن طوبال [أو بن طوفان] بن يافث بن نوح، لأنه نزلها، كما أن أخاه سبت بن يافث نزل العدو المقابلة لها، وإليه تنسب سبتة. قال: وأهل الأندلس يحافظون على قوام اللسان العربي، لأنهم إما عربٌ أو متعربون..."⁽⁶²⁴⁾

وقال ابن سعيد: "وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار، فأكثر فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع، والصحارى فيها معدومة. ومما اختصت به أن قراها في نهاية من الجمال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها، لثلاثين العيون عنها، فهي كما قال الوزير ابن الحمارة⁽⁶²⁵⁾ فيها:

لَا حَتَّ قَرَاهَا بَيْنَ خُضْرَةٍ أَيْكِهَا كَالدَّرِّ بَيْنَ زَبْرَجِدٍ مَكْنُونِ

...وفي الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الممصرة من مثلها، والمثال في ذلك أنك إذا توجهت من إشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش، وهي في نهاية من الحضارة والنضارة، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك، ثم مالقة، وهذا كثير في الأندلس، ولهذا كثرت مدنها وأكثرها مسور من أجل الاستعداد للعدو، فحصل لها بذلك التشييد والتزيين،..."⁽⁶²⁶⁾

وأیضا ما ذكره عن حيواناتها، فقال: "واعلم أن بأرض الأندلس من الخصب والنضرة وعجائب الصنائع وغرائب الدنيا ما لا يوجد مجموعه غالباً في غيرها، فمن ذلك ما ذكره الحجاري في

⁽⁶²³⁾ المقرئ، (نَفْحُ الطَّيِّبِ)، ص: 65/1

⁽⁶²⁴⁾ المصدر نفسه، ص: 125/1

⁽⁶²⁵⁾ ابن الحمارة: هو محمد بن الحمارة الغرناطي أبو عامر، تلميذ ابن باجة، كان بارعاً في علم الألحان وصناعة الأعداد والموسيقى. ينظر: أبو جعفر

الضبي، (بغية المنتمس)، م.م.س، ص: 531. وينظر: أحمد بن خلكان، (وفيات الأعيان)، تح: إحسان عباس، م.م.س، ص: 133/5

⁽⁶²⁶⁾ المقرئ، (نَفْحُ الطَّيِّبِ)، م.م.س، ص: 205/1

(المسهب): أن السمور الذي يعمل من وبره الفراء الرفيعة يوجد في البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية، ويجلب إلى سرقسطة ويصنع بها... «(627).

والقنلية⁽⁶²⁸⁾ حيوان أدق من الأرنب وأطيب في الطعم وأحسن وبراً، وكثيراً ما تلبس فراؤها، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى، ولا توجد في بر البربر إلا ما جلب منها إلى سبتة فنشأ في جوانبها... ويكون بالأندلس من الغزال والأيل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك مما يوجد في غيرها كثير، وأما الأسد فلا يوجد فيها البتة، ولا الفيل والزرافة وغير ذلك مما يكون في أقاليم الحرارة... «(629)

وما ذكره عن ثمارها وفواكهها بقوله: "وأما الثمار وأصناف الفواكه فالأندلس أسعد بلاد الله بكثرتها، ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز، المعدومان في الأقاليم الباردة، ولا يعدم منها إلا التمر، ولها من أنواع الفواكه ما يعدم في غيرها أو يقل، كالتين القوطي والتين الشعري بإشبيلية. وقال ابن سعيد: "...وكذلك التين المالمقي والزبيب المنكي والزبيب العسلي والرمان السفري والخوخ والجوز واللوز، وغير ذلك مما يطول ذكره" «(630).

ما يميز هذا الجانب عند المقري أن وصفه يجيء شاملاً لجميع الجوانب؛ فإذا وصف مكاناً أو سرد خبراً، أو نقل قولاً، فإنه يلمه ويحيط عليه من جميع الجوانب (الفكرية والأدبية والسياسية والاقتصادية والتاريخية والنقدية...)، إذ نراه - مثلاً - إذا مر على أحد الأعلام لأول مرة إلا أورد ترجمة لهذا العلم (نسبه، ولادته، عقيدته، حياته، أخذه للعلم، آثاره، وفاته...)، أو في وصفه لبلد أو مكان معين فإنه يذكر (المجال العلمي والثقافي والحضاري والتاريخي والجغرافي...) لهذا البلد، وهذا دليل واضح على سعة علمه واتساع ثقافته عن مختلف الأمم والحضارات.

هـ- الجانب السياسي:

تركز الجانب السياسي عند المقري - غالباً - على التزايدات والخلافات التي كانت تحدث حول السلطة أو الحكم (الصراع السياسي)، أو طبيعة نظام العدل والقضاء في البلاد، أو المراسلات التي

⁽⁶²⁷⁾ المقري، (نُفْحُ الطَّيْبِ)، م.س، ص: 197/1

⁽⁶²⁸⁾ القنلية: (Conejo): وهو الأرنب الجليبي.

⁽⁶²⁹⁾ المقري، (نُفْحُ الطَّيْبِ)، م.س، ص: 198/1

⁽⁶³⁰⁾ المصدر نفسه، ص: 200/1

كانت بين الملوك والسلاطين كرسائل المدح والتهنئة أو رسائل طلب الإغاثة والعون، أو رسائل التحذير والتنبيه من الأعداء. من ذلك ما أورده المقرئ من رسالة السلطان أبي الحسن المريني (ت. 685هـ) ملك المغرب إلى ملك مصر والشام الصالح أبي الوليد إسماعيل⁽⁶³¹⁾ (ت. 746هـ) يحذره من تربص أعداء الإسلام ببلاد الأندلس، وجاء فيها بعد البسملة والصلاة: "من عبد الله أمير المسلمين، المجاهد في سبيل الله رب العالمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، أخلص الله لوجهه جهاده..."

إلى محل ولدنا الذي طلع في أفق العلاء بدرًا... الملك الصالح أبو الوليد إسماعيل... سلام كريم يفوح زهر الربى مسراه... والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي محاً بأنوار الهدى ظلم الشرك، ونبه الذي ختم به الأنبياء وهو واسطة ذلك السلك، ودحا به حجة الحق فمادت بالكفرة محمولة الأفلاك...⁽⁶³²⁾

وفي أثناء ذلك أحفزنا للحركة عن حضرتنا استصراخ أهل الأندلس وسلطانها، وتواتر الأخبار بأن النصارى أجمعوا على خراب أوطانها، ونحن أثناء ذلكم الشأن، نستخبر الوارد من تلکم البلدان، عما أجلى عنه ليل الفتن بتلكم الأوطان، فبعد لأي وقعنا منها على الخبير، وجاءنا بوقاية حرم الله بكم البشير، وتعرفنا أن الملك استقر منكم في نصابه، وتداركه الله تعالى منكم بفاتح الخير من أبوابه، فأطفأ بكم نار الفتنة وأخمدتها، وأبرأ من أدواء النفاق ما أعل البلاد وأفسدها... فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتفننة الأطوار، الجامعة بين الخبر والاستخبار⁽⁶³³⁾... ونبعثكم بموجب إبطاء إنفاذ هذا الخطاب على ذلكم الجنب: وذلك أنه لما وصلنا من الأندلس الصريخ، ونادى مناد للجهاد عزمًا مثل نداءه يصيخ، أنبئنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صوب، وحتم عليهم باباهم اللعين التناصر من كل أوب، وأن تقصد طوائفهم البلاد الأندلسية بإيجافها، وتنقص بالمنازلة أرضها من أطرافها، ليمحوا كلمة الإسلام منها...⁽⁶³⁴⁾ والرسالة تطول.

⁽⁶³¹⁾ الملك الصالح أبو الوليد هو: إسماعيل بن محمد بن قلاوون، أبو الفداء، علاء الدين، الملقب بالملك الصالح ابن الملك الناصر: من ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام. بويغ بالسلطنة بمصر بعد خلع أخيه الناصر أحمد أول سنة 743 هـ وكانت أمور الدولة مختلة فأصلحها، وحسنت سيرته. ينظر:

(الأعلام)، م.م.س، ص: 324/1

⁽⁶³²⁾ المقرئ، (نُفْحُ الطَّيْبِ)، م.س، ص: 387، 386/4

⁽⁶³³⁾ المصدر نفسه، ص: 389/4

⁽⁶³⁴⁾ المصدر نفسه، ص: 391/4

ومنها رسالة أبي الربيع سليمان بن عبد الله أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي⁽⁶³⁵⁾ إلى ملك السودان بغانة ينكر عليه تعويق التجار، قال: "نحن نتجاوز بالإحسان، وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية، وتآلف على الرفق بالرعية، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجور لا تعانیه إلا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده، وتردد الجلافة إلى البلد مفيد لسكانها، ومعين على التمكن من استيطانها، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية لكننا لا نستصوب فعله، ولا ينبغي لنا أن نهى عن خلق ونأتي مثله، والسلام"⁽⁶³⁶⁾.

أما ما أورده المقرئ من أخبار الأندلس وما شهدته من صراعات سياسية في عصر ملوك الطوائف، فمن ذلك قوله: "و حين خُلع [يعني المعتمد هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر]، وهو آخر خلفاء الجماعة بالأندلس، أسقط ملوك الأندلس الدعوة للخلافة المروانية... واستبدت ملوك الطوائف كابن جهور في قرطبة، وابن عبّاد بإشبيلية، وغيرهما، ولم يعد نظام الأندلس إلى شخص واحد، إلى أن ملكها يوسف بن تاشفين المثلث من برّ العدو، وقتك في ملوك الطوائف، وبعد ذلك ما خلصت له ولا لولده علي بن يوسف، فما صفت لعبد المؤمن بمحمد بن مردنيش الذي كان ينازعه في شرق الأندلس، ثم صفت ليوسف بن عبد المؤمن بموت ابن مردنيش، ثم لمن بعده من بنيه، وحضرهم مرّاكش، وكانت ولائهم تتردد على الأندلس وممالكها، ولم يولوا على جميعها شخصاً واحداً لعظم ممالكها، إلى أن انقرضت منها دولتهم بالمتوكل محمد بن هود من بني هود ملوك سرقسطة وجهاًها، فملك معظم الأندلس بحيث يطلق عليه اسم السلطان، ولم ينازعه فيها إلا زيّان بن مردنيش في بلنسية من شرق الأندلس، وابن هلال في طبيرة من غرب الأندلس، ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته، ولما قتله وزيره ابن الرُّممي بالمرية زاد الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر. وكان أهل غرب الأندلس في المائة السابعة يخطبون لصاحب إفريقية السلطان أبي زكرياء يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص، ثم تقلصت تلك الظلال، ودخل الجزيرة الانحلال، إلى أن استولى عليها حزب الضلال، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين... وقد ذكرت

⁽⁶³⁵⁾ عبد المؤمن بن علي: هو أبو الربيع الموحد سليمان بن عبد الله، ولي بجاية، وشارك في بعض الأعمال الحربية ضد ابن غانية بتونس؛ وقال الشقندي فيه إنه من مفاخر بني عبد المؤمن، كان قديراً على النظم حافظاً للأدب، وله ديوان شعر. ينظر: (3) أحمد المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، م.س، ص: 105/3

الهامش

⁽⁶³⁶⁾ المقرئ، (نَفْحُ الطَّيْبِ)، م.س، ص: 105/3

في هذا الكتاب جملة من أخبار ملوك الأندلس... وبنو جهور المشار إليهم قريباً كانوا وزراء الأمويين، ثمّ إنّه لما انتشر سلك الخلافة استبدّ بقرطبة الوزير أبو الحزم بن جهور من غير أن يتعدى اسم الوزارة⁽⁶³⁷⁾.

و- الجانب التاريخي والجغرافي:

لو قارنا اهتمام المقري بالجانب التاريخي مع الجوانب الأخرى التي ذكرت سابقاً (الديني والنحوي واللغوي...)، فإننا نجد أكثر نصيباً وحظوة؛ إذ نجده توسع وأفاض في ذكر الأخبار والأحداث التاريخية سواء المتعلقة منها بالأمكن والأمصار، أم الأزمنة والأيام، أم الشخصيات والأعلام، ولعل هذا راجع إلى طابع الكتاب الذي يسرد لنا أخبار الأندلس من يوم فتحها - بفضل الله تعالى - ومنتته - في ربيع الأول من عام 92هـ (711م) إلى يوم سقوط غرناطة آخر دولة إسلامية بها عام 710هـ؛ إضافة إلى سرده لرحلاته المشرقية والمغربية.

وكان أكثر المصادر الذي اعتمدها المقري في الجانب التاريخي كتاب (المقتبس) لأبي حيان الغرناطي⁽⁶³⁸⁾، و(المسهب في غرائب المغرب) للحجاري، و(المغرب في حلى المغرب) لابن سعيد، و(الإحاطة في أخبار غرناطة) لابن الخطيب.

وأمثلة هذا الجانب - كثيرة ومتنوعة - نذكر منها ما ورد من أخبار فتح الأندلس حسب مختلف الروايات؛ إذ يقول المقري: "وذكر الحجاري وابن حيان وغيرهما أن أوّل من دخل جزيرة الأندلس من المسلمين يرسم الجهاد طريف"⁽⁶³⁹⁾ البربري مولى موسى بن نصير الذي تنسب إليه جزيرة طريف التي على الحجاز، غزاها بمعونة صاحب سبتة يليان النصراني، لحقده على لُذريق صاحب الأندلس، وكان في مائة فارس وأربعمائة راجل، جاز البحر في أربعة مراكب، في شهر رمضان

⁽⁶³⁷⁾ المقري، (نُفْحُ الطَّيْبِ)، م.س، ص: 301/1، 302

⁽⁶³⁸⁾ أبو حيان الغرناطي: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الشيخ الإمام الحافظ العلامة فريد العصر وشيخ الزمان وإمام النحاة، أثير الدين أبو حيان الغرناطي، توفي عام 745هـ، له: (البحر المحيط " في تفسير القرآن العظيم)، (تحف الأريب بما في القرآن من الغريب)، (كتاب الأسفار الملخص من كتاب الصفار)، (شرح سيبويه). ينظر: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن، (فوات الوفيات)، م.م.س، ص: 78. 71/4

⁽⁶³⁹⁾ طريف: هو طريف بن مالك البربري ويكنى أبا زُرْعَةَ، وتنسب إليه جزيرة صغيرة في بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)، وهي جزيرة صغيرة محصنة، يربطها بشبه جزيرة الأندلس حالياً جسر بحري. وأطلق اسم القائد الفاتح طريف بن مالك على الجزيرة والمدينة. ويقال: إن موسى بن نصير بعثه قبل طارق في أربعمائة رجل، فزل بهذه الجزيرة في رمضان سنة إحدى وتسعين، وبعده دخل طارق. ينظر: محمود شيت خطاب، (قادة فتح الأندلس)، مؤسسة علوم القرآن - منار للنشر والتوزيع، 1424 هـ/2003م، ط1، ص: 58/1. وينظر: ابن عذاري المراكشي، (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب)، تح: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، (بيروت-لبنان)، 1983م، ط3، ص: 5/2

سنة إحدى وتسعين، وانصرف بغنيمةٍ جليلةٍ، فعقد موسى بن نصير صاحب المغرب لمولاه طارق بن زياد على الأندلس، ووجهه مع يليان صاحب سبته⁽⁶⁴⁰⁾

وقال - المقرئ -: "قال ابن حيان: إن أول أسباب فتح الأندلس كان أن ولي الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير مولى عمّه عبد العزيز على إفريقية وما خلفها سنة ثمانٍ وثمانين فخرج في نفرٍ قليلٍ من المطوّعة، فلمّا ورد مصر أخرج معه من جندها بعثاً، وفعل ذلك في إفريقية، وجعل على مقدمته مولاه طارقاً، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم، حتى بلغ مدينة طنجة، وهي قسبة بلادهم وأم مدائنهم فحصرها حتى فتحها، وأسلم أهلها، ولم تكن فتحت قبله، وقيل: بل فتحت ثم استغلت⁽⁶⁴¹⁾ .

وقال: "قال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله: وحديث الفتح، وما منّ الله به على الإسلام من المنح، وأخبار ما أفاء الله من الخير، على موسى بن نصير، وكتب من جهاد، لطارق بن زياد، مملول قصاصٍ وأوراق، وحديث أفول وإشراق...⁽⁶⁴²⁾

وقال: "قال: ابن بشكّو⁽⁶⁴³⁾: إنّه طارق بن عمرو، فتح جزيرة الأندلس ودوّحها، وإليه نسب جبل طارق الذي يعرفه العامة بجبل الفتح، في قبة الجزيرة الخضراء، ورحل مع سيّده بعد فتح الأندلس إلى الشام وانقطع خبره⁽⁶⁴⁴⁾

وقال: "قال ابن حيان في (المقتبس): ذكروا أن لذريق لم يكن من أبناء الملوك، ولا بصحيح النسب في القوط، وأنّه إنما نال الملك من طريق الغضب والتسوّر عندما مات إغطشة الملك الذي كان قبله، وكان أثيراً لديه، مكيناً، فاستصغر أولاده لمكانه، واستمال طائفة من الرجال مالوا معه، فانتزع الملك من أولاد إغطشة واستبقاهم، فكانوا هم الذين دبروا عليه - فيما ذكر - عندما لقي رجال العرب المقتحمين عليه بالأندلس من تلقاء بحر الرقاق وعليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نصير...، فالتقوا بوضع يدعى وادي لكّة من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبلي

⁽⁶⁴⁰⁾ المقرئ، (نُفْحُ الطَّيْبِ)، م.م.س، ص: 229/1، 230

⁽⁶⁴¹⁾ المصدر نفسه، ص: 230/1

⁽⁶⁴²⁾ المصدر نفسه، ص: 230/1

⁽⁶⁴³⁾ ابن بشكّو⁽⁶⁴³⁾: مُحدِّثُ الأندلسِ، أبو القاسمِ خَلْفُ بنِ عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَسْعُودِ بنِ مُوسَى بنِ بَشَكُّو⁽⁶⁴³⁾ الأندلسي، القرطبي، ولد سنة 494هـ. صاحبُ (تاريخ الأندلس) و(معرفة العلماء الأفاضل) و(صلة تاريخ أبي الوليد ابن الفرّضي) في مُجلدتين، و(غوامض الأسماء المبهمة). ينظر: أحمد

بن عثمان بن قايماز الذهبي، (سير أعلام النبلاء)، م.م.س، ص: 139/21، 141

⁽⁶⁴⁴⁾ المقرئ، (نُفْحُ الطَّيْبِ)، م.م.س، ص: 230/1

مكان عبورهم، وذلك لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين من الهجرة، فانهزم القوط أعظم هزيمة، وقتل ملكهم لذريق، وغلبت العرب على الأندلس، فصارت أقصى فتوحهم من أرض المغرب، ومصداق موعد نبيهم، صلى الله عليه وسلم، والكفيل بفتح ما بين المشرق والمغرب عليهم بوحى الله تعالى إليه أنجزه لهم بفتح الأندلس، والله القوة⁽⁶⁴⁵⁾.

وأيضاً نذكر ما رواه من أسماء ملوك الأندلس بحسب التسلسل الزمني، يقول المقرئ: "وقد رأيت أن أسرد هنا أسماء ملوك الأندلس من لدن الفتح إلى آخر ملوك بني أمية، وإن تقدّم، ويأتي ذكر جملة منهم بما هو أتمّ مما هنا؛ فنقول:

"طارق بن زياد مولى موسى بن نصير.

ثمّ الأمير موسى بن نصير، وكلاهما لم يتخذ سريراً للسلطنة.

ثمّ عبد العزيز بن موسى بن نصير، وسريه إشبيلية.

ثمّ أيوب بن حبيب اللخمي، وسريه قرطبة، وكل من يأتي بعده فسريه قرطبة أو الزهراء والزاهرة بجانبيها إلى أن انقضت دولة بني مروان على ما ينه عليه.

ثمّ الحر بن عبد الرحمن الثقفي.

ثمّ السّمح بن مالك الخولاني.

ثمّ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي.

ثمّ عنيسة بن سحيم الكلبي.

ثمّ عذرة بن عبد الله الفهري.

ثمّ يحيى بن سلمة الكلبي.

ثمّ عثمان بن أبي نسعة الخثعمي.

ثمّ حذيفة بن الأحوص القيسي.

ثمّ الهيثم بن عدي الكلابي.

ثمّ محمد بن عبد الله الأشجعي.

ثمّ عبد الملك بن قطن الفهري.

ثمّ بلج بن بشر بن عياض القشيري.

⁽⁶⁴⁵⁾ المقرئ، (نُفْحُ الطَّيْبِ)، م.م.س، ص: 248/1، 249

ثمّ ثعلبة بن سلامة العاملي.

ثمّ أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي.

ثمّ ثوابة بن سلامة الجذامي.

ثمّ يوسف بن عبد الرحمن الفهري.

وهنا انتهى الولاة الذين ملكوا الأندلس من غير موارثة، أفراداً، عددهم عشرون فيما ذكر ابن سعيد، ولم يعتدوا في السّمة لفظ الأمير" (646).

وختتم بقول ابن حيّان: "مدّتم منذ تاريخ الفتح من لذريق سلطان الأندلس النصراني - وهو يوم الأحد لحمس خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين - إلى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك قرطبة - وهو يوم الأضحى لعشر خلون من ذي الحجّة سنة ثمان وثلاثين ومائة - ست وأربعون سنة وخمسة أيام" (647).

ثم ذكر حكام بني أمية من أولهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك حتى آخرهم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر، ثم الحموديين، ثم ملوك الطوائف ومن بعدهم.

أما الجانب الجغرافي فيظهر بوضوح في الباب الأول من الرحلة، والذي يتعلق بوصفه لجزيرة الأندلس ك: (مساحتها وأبعادها، وسكانها، وأقاليمها، وجزرها...)

من ذلك ما ذكره في مساحتها: "قال: قال المسعودي: بلاد الأندلس تكون مسيرة عمائرها ومدنها نحو شهرين، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة..."

ونحوه لابن اليسع (648) إذ قال: "طولها من أربونة (649) إلى أشبونة وهو قطع ستين يوماً للفراس المجد..."

(646) المقرئ، (نُفْحُ الطَّيْبِ)، م.م.س، ص: 298/1

(647) المصدر نفسه، ص: 299/1

(648) ابن اليسع: اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع الغافقي الجياني، أبو يحيى مؤرخ، من العلماء بالقرءات، صاحب كتاب (المعرب في آداب المغرب) كتبه بمصر للسلطان صلاح الدين الأيوبي، توفي عام 575هـ. ينظر: أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام)، م.م.س، ص: 550/12. وينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 191/8

(649) أربونة (Narbonne) آخر ما استولى عليه العرب من جهة الساحل الأندلسي الشرقي. وأشبونة: هي التي تسمى اليوم لشبونة (Lisbon) أو ليسبوا عاصمة البرتغال. ينظر: أبو عبد الله ياقوت الحموي، (معجم البلدان)، م.م.س، ص: 195/1. [أشبونة]

وقال: "قال ابن سعيد: "وهذا يقرب إذا لم يكن للفارس المجدّ، والصحيح ما نص عليه الشريف، من أنّها مسيرة شهر، وكذا قال الحجاري، وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك فعملوا لي حسابا بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهر بنيف قليل".

وقال: "قال الحجاري في موضع كتابه: إن طول الأندلس من الحاجز إلى أشبونة ألف ميل ونيف؛ انتهى".

ثم قال: "وبالجملة فالمراد التقريب من غير مشاححة، كما قال ابن سعيد، وأطال في ذلك..." (650)

وقال في مناخها وأقاليمها ما نقله عن الرازي في قوله: "أنّ الأندلس في آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة التي هي رُبع معمور الدنيا في موسطة من البلدان... معتدلة الهواء أكثر الأزمان لا يزيد فيّظها زيادة منكرة تضر بالأبدان وكذا سائر فصولها في أعم سينها تأتي على قدر من الاعتدال وتوسط من الحال..." (651)

إنّ الجانين التاريخي والجغرافي يبرزان بوضوح المنهج الذي سار عليه المقرئ في مصنفه؛ إذ نجده يورد الكثير من أقوال العلماء من ذوي الاختصاص في موضوع معين، سواء ذلك كان في سرد الخبر أو في وصف المكان أو الزمان.

ونستنتج مما ذكر سابقا أنّ المقرئ قد أمّم بمعظم الجوانب والقضايا التي تُتيح للقارئ معرفة متنوعة:

1- تنوع القيمة العلمية لمصنفه (نفح الطيب) وذلك من حيث المعلومات التي قدمها

أدبيةً أو تاريخيةً أو سياسيةً أو دينيةً... رغم أن المقرئ غاب عنه ما لم يستحضره

عند كتابة مصنفه، وكم من مرة صرح بذلك "ولا أذكره إذ غاب عني"، "وذكره

في موضع آخر لم يحضرنى الآن"، "... في خبر طويل لم يحضرنى الآن، إذ تركته مع

كتبي بالمغرب، جمعني الله بها على أحسن الأحوال"، "وله نظم لم يحضرنى الآن

شيء منه"، "وقال بعض الأندلسيين ممن لم يحضرنى اسمه الآن"، "وهو طويل لم

يحضرنى منه الآن سوى ما ذكرته..." (652)

(650) المقرئ، (نفح الطيب)، م.م.س، ص: 127/1

(651) المصدر نفسه، ص: 140/1

(652) المصدر نفسه، ص: 131/6، 475/5، 20/4، 212/2، 475، 190/1

2- قدرة المقرئ العالية على الجمع بين عدة قضايا في قالب لغوي واحد دليل قاطع على علو مهاراته في ترويض أدوات اللغة العربية.

3- كتاب (نفح الطيب) يعد "موسوعة الأندلسية" - كما سماه أبو القاسم سعد الله (653) لأنها لم تسرد لنا رحلات المقرئ فقط، بل جاءت جامعة مفصلة لرحلات الكثير من الأعلام والشخصيات. كما أنها جاءت جامعة لعدد هائل من المؤلفات الأدبية حتى أنه لا يزال بعضها في خبر الضياع إلى يومنا هذا. ومهما كان الأمر، فإن عمل المقرئ كما قال سعد الله لا يفوته في بابه إلا عمل ابن خلدون في تاريخه، وإن كان ابن خلدون قد وضع المقدمة في نظرية علم الاجتماع والاقتصاد السياسي والعمران، فإن المقرئ قد وضع في (نفح الطيب) مقدمة لا غنى عنه في حياة الأندلس وعلمائها وشعرائها، وقد صدق شكيب أرسلان في وصفه لـ(نفح الطيب) بأنه "حقيقية أبناء وقمطر حوادث، وخزانة آداب، وكشكول لطائف، وديوان أشعار"⁽⁶⁵⁴⁾، حتى أنه قد قيل فيه: "إنه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، الذي لم يقرأه ليس بأديب"⁽⁶⁵⁵⁾

4- تميز أسلوب المقرئ - في الغالب - بالسجع والجناس وتنميق الكلام، ولعل هذا يعود إلى كون السجع والجناس أقوى من غيرهما من الأساليب على تحقيق أكبر قدر ممكن من الإيقاعات الصوتية التي تُترب الأذن؛ وذلك يظهر بكل وضوح في المواضع - وما أكثرها - التي كان يمدح فيها شخصية بارزة أو مكانا ذا قيمة دينية أو تاريخية كبيرة.

5- من خصائص المقرئ - كذلك - وهذا ما لا نجد في غالب المؤلفات الرحلية أنه يسرد لنا الحدث أو الخبر ثم يعلق عليه بمقطوعات شعرية سواء كانت نظمه أو نظم غيره، وكأنه ينثر لنا الخبر ثم يُعيده نظما، وهو منهج تميز به ابن الخطيب في تحرير النصوص، وهذا دليل قاطع على تأثر المقرئ بابن الخطيب.

⁽⁶⁵³⁾ أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي - 1500 - 1830)، م.م.س، ص: 218/2، 222

⁽⁶⁵⁴⁾ شكيب أرسلان، (الخلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية)، منشورات مكتبة الحياة، (بيروت - لبنان)، د.ط، ص: 154/1

⁽⁶⁵⁵⁾ المصدر نفسه، ص: 153/1

6- يُمكن إدراج كتاب (نفح الطيب) تحت مصنفات التراجم والأنساب، وهذا لما حملته دفتاه من تعريفات وتراجم لمختلف العلماء والأدباء والشعراء والملوك

وحتى الأنبياء والرُّسل (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) والصحابة والتابعين (رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِم) أجمعين، فمعظم الباحثين والدارسين يعدون إليه خاصة في تراجم أعلام الأندلس وتجدر الإشارة أن كتاب (نفح الطيب) كتاب كبير تضمّن ثمانية أجزاء، رغم أن صاحبه اختصر وأوجز فيه؛ وكم من مرة صرح بذلك، كقوله: "ولو اجتمعت على كتي المخلفة بالمغرب لأتيت في ذلك وغيره بما يشفي ويكفي..."، "وأتى في المكتوب بأنواع... مما تركت ذكره هنا"، "...ما اختصرته من كلام الخطيب ابن مرزوق"، "...ومما خوطب به لسان الدين... أختصر لكم الكلام فأقول..."⁽⁶⁵⁶⁾. ولو خصصنا كل هذه الأطروحة لكتاب مثل (نفح الطيب) لضاقت به، وما وسعته لدراسته والإمام بجميع مسائله وقضاياها، وحسيّ أي حاولت أن أقدم نظرة مختصرة عن مُصنّفٍ يُعد من أهم المؤلفات التي شهدها الأدب الجزائري في العهد العثماني من القرن الحادي عشر الهجري (18م).

والحمد لله أن كان للجزائر عَلم من أعلام الأدب العربي كالرحالة أحمد المقرئ التلمساني الذي لم يُوفى حقه في نسبه إلى الجزائر، فكثيرا من المترجمين له ركزوا على حياته في المشرق والمغرب وتأثره ببلاد الأندلس، وكأنه لا صلة له بالجزائر أصلا.

فرحم الله تعالى رحالتنا المقرئ، كان أديبا ولغويا وفقهيا ومحدثا، برزت مواهبه في طريقة كتاباته وما (نفح الطيب) إلا مثال واحد على إبداعه وموهبته المتدفقة.

⁽⁶⁵⁶⁾ ينظر: المقرئ، (نفح الطيب)، م.م.س، ص: 104/1، 537/2، 149/3، 18/6

المبحث الثاني: خطاب الرحلة في كتاب: (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحساب)

والحساب

تُعتبر "رحلة ابن حمادوش الجزائري" (ت. ما بين 1197 - 1200هـ) المسماة (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحساب) قطعة مهمة من التراث الجزائري في القرن الثاني عشر الهجري (18م) كتبت في العهد العثماني. كما اشتهر صاحبها الرحالة عبد الرزاق ابن حمادوش بالعلم والمعرفة والطب ومختلف العلوم بما فيها الهندسة والفلك وهذا يدل على سعة أفكاره ومعارفه التي تطوّرت بفضل اجتهاداته والأخذ عن علماء هم شعلة العلم والمعارف التي رسمت له طريق الفكر والإبداع.

ولعل الدراسة التي بين أيدينا تظهر معالمها أكثر في دراسة تحليلية لخطاب الرحلات من خلال تسليط الضوء على مختلف جوانبها الأدبية والتاريخية والنقدية والسياسية والاجتماعية...

وما دامت النسخة الحالية المتوفرة وهي الجزء الثاني فقط - لأن الجزء الأول والثالث مفقودان - فإن فاتحتها جاءت مقتضبة، فليس فيه الديباجة المعهودة في غالب المصادر الأدبية، فليس فيها الهدف من التأليف، والأسباب التي دفعت بصاحبها إلى التأليف، وخطته، والسبب من اختيار هذا العنوان ونحو ذلك مما جرت عليه عادات المؤلفين والكتاب.

فأما الجزء الأول، فإن صاحبه قد أشار إليه أكثر من مرة في الجزء الثاني، كقوله: "وفي يوم الخميس، ثالث وعشرين رمضان، موافق ثامن عشر أكتوبر تّمتّ الجزء الأول من هذا التأليف" (657)

وقد رجح محقق الكتاب أبو القاسم سعد الله بناءً على أن الجزء الثاني المتوفر بين أيدينا يُغطي رحلات ابن حمادوش إلى المغرب الأقصى، فأَنَّ الجزء الأول أو الثالث من الرحلة يمكن أن يكون

(657) عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، (رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة: "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحساب")، تح: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، (الجزائر)، 1983م، د.ط، ص: 124/2

قد خصه برحلاته إلى المشرق، لأن ابن حمادوش قد قام بأداء فريضة الحج سنة 1125هـ قبل ذهابه إلى المغرب الأقصى سنة 1156هـ⁽⁶⁵⁸⁾.

وأما الجزء الثالث فقد انتاب محقق الرحلة الغموض حول وجوده، أي هل الرحلة تحتوي على جزء ثالث حقا؟ "وذلك لأن الجزء الثاني مبتور الآخر، ودليل ذلك أن رحلة الجزء الثاني تنتهي عند قول ابن حمادوش: "وأما شرح النخبة للحافظ ابن حجر..."⁽⁶⁵⁹⁾، وقوله أيضا في الصفحة ما قبل الأخيرة من الجزء الثاني حين قال: "وسياي، إن شاء الله، في الخاتمة التي نختم بها هذا الرقم في تلقين الذكر مزيد من هذا". وقوله "مزيداً من هذا"⁽⁶⁶⁰⁾ يعني: مزيداً من أخبار مجالس مشايخه. وإضافة إلى ذلك كون الجزء الثاني لا يحمل أي خاتمة؟ مما يؤكد أن صاحبه أورده في ختام الجزء الثالث من الرحلة. أو أن الجزء الثاني هو الأخير، ولكن خاتمته في خبر الضياع.

وهذا معناه أنها تفتقر إلا المعلومات الأساسية التي تأتي عادة في الخاتمة مثل التاريخ ومكان الكتابة أو النسخ أو اسم الكاتب. والإشارة إلى كون النسخة هي آخر الجزء أو تليه أجزاء أخرى ونحو ذلك"⁽⁶⁶¹⁾.

ومع أن رحلة ابن حمادوش لا يتوفر منها إلى الجزء الثاني الخاص برحلاته المغربية، فإن القارئ لهذا الجزء يدرك تماماً أن ابن حمادوش كان على دراية وعلم بفن كتابة خطاب الرحلات الذي جمع فيه بين العديد من العلوم التي لم نجد لها عند غيره.

1- عنوان الكتاب:

يذكر محقق الكتاب أن عنوان الكتاب هو (لِسَانُ الْمَقَالِ فِي النَّبَاِ عَنِ النَّسَبِ وَالْحَسَبِ وَالْحَالِ) وهذا العنوان لم يكتب في صلب الكتاب وإنما كتب في الحاشية اليسرى عند قوله: "يقول عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش... الجزء الثاني من رحلته"⁽⁶⁶²⁾ وبعد كلمة "رحلته" من بداية الجزء الثاني لمصنفه لم يكتب عنوان الرحلة في نفس السطر وإنما توجد إشارة بخط قصير "علامة توقف".

⁽⁶⁵⁸⁾ ينظر: سميرة أنساعد، (الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الهجريين - ق19/17م-)، م.م.س، ص: 35

⁽⁶⁵⁹⁾ ابن حمادوش الجزائري، (رحلة ابن حمادوش الجزائري)، م.م.س، ص: 307/2

⁽⁶⁶⁰⁾ المصدر نفسه، ص: 14/2 من مقدمة المحقق

⁽⁶⁶¹⁾ المصدر نفسه، ص: 306/2

⁽⁶⁶²⁾ المصدر نفسه، ص: 13/2

كما يذكر أن هناك أيدي أخرى امتدت إلى عنوان الرحلة من النسخة التي تحصل عليها في المكتبة العامة بالرباط تحت رقم (463) ودليل ذلك وجود كلمات تحت العنوان محابها بعضهم بتمرير القلم الأسود عليها عدة مرات، لذلك لا يُمكن الاهتداء إلى معناها، يقول أبو القاسم سعد الله:

"ولعلها عبارات تملك أزهاها المالك الجديد للنسخة، وقد تكون هي عبارة تملك الشيخ المفتي أحمد العمالي الجزائري وأن الذي أزهاها هو الشيخ عبد الحي الكتاني بعد انتقال النسخة إليه، وفي أعلى يسار نفس هذه الصفحة عبارة تمليك واضحة وهي: "تملكة الحاج علي ابن الحاج سعيد"، وتحت هذه العبارة كلمة (عام؟) لكننا لم نستطع قراءة التاريخ، كما أننا لم نستطع أن نتبين من هو الحاج علي ابن الحاج سعيد ولعله أحد حضر مدينة الجزائر، كما أن الحاشية اليسرى من النص تحمل عبارة "مكتبة عبد الحي الكتاني" بفاس وكذلك ختم المكتبة العامة بالرباط" (663)

2- سبب تأليف الكتاب:

إنَّ أسباب تأليف الرحلة -وكما ذكر سالفًا- تبقى مجهولة نظرا لغياب الجزء الأول الذي كثيرا ما يصرح فيه المؤلفون الدوافع والأسباب التي دفعتهم إلى تأليف مصنفاتهم؛ لكن ومن خلال الإطلاع على السيرة الذاتية لرحالتنا ابن حمادوش نحاول استنتاج مجموعة من الأسباب التي أدت بابن حمادوش إلى تأليف رحلته.

بالنسبة للسبب الأوّل والمتمثّل في الرّحلة نفسها، فعلل ابن حمادوش كتب في الرّحلة من أجل الرّحلة فقط، كونه يرتحل باستمرار من أجل السّفَر والعمل والتجارة والتّعرف على بلدان مختلفة بمختلف ثقافتها وحضاراتها، فهو عاش فترة طويلة حتى أنّ رحلته دامت أكثر من أربع سنوات فرحلته كانت ممتعة إلى درجة التشويق، فقد تعرّف على علماء وشيوخ، وبفضلهم طوّر معارفه ودراسته وأخذ عنهم الكثير من العلوم التي ساهمت في ازدهار القدرة الأدبية للرحالة الذي كان رحالة بامتياز (664).

والسبب الثاني هو استظهار ابن حمادوش لمقدرته على الكتابة وذلك بتسجيل يومياته وسردها "كقوله: "أول يوم منه الأربعاء أخذت المنوى على ألفية العراقي وحاشية سيدي عبد

(663) ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 13/2، 14

(664) خضر موسى محمد حمود، (أدب الرّحلات وأشهر أعلام العرب ونتائجهم)، دار الكتب، العلمية، (بيروت- لبنان)، 2011م، ط1، ص: 19

الرحمن الفاسي على البخاري... وفي يوم الخميس ابتدأت نسخ نسخة من ألفية العراقي على السيرة المحمدية⁽⁶⁶⁵⁾

ما أراده ابن حمادوش من خلال رحلته هو إبراز قدرته على الكتابة الأدبية من أجل إعطاء نموذج أدبي راق، فحقاً رحلته كانت نموذجاً أدبياً سامياً لأنه عبّر عن الأحداث بكل صدق وعفوية، وكان موقفه واضحاً وبارزاً تجاه ما يحدث وما يُشاهد، فلقاؤه بالعلماء جعله يدرس لهم ويحاول إبراز مقدرته على الكتابة مع أنه رحّالة منفرد عن البقية.

أما السبب الثالث، فقد يكون رغبة ذاتية تعتريه بتسجيل الأحداث مع إبراز قدرته على سردها، فهي مشوّعة بأخبار وتعاليق واستطرادات مختلفة، تتضح لنا في القسم الخاص بالحديث عن المغرب الأقصى، من أول نقطة إلى آخر نقطة.

2- المصادر المعتمدة في الكتاب:

تمثلت المصادر التي اعتمد عليها ابن حمادوش في رحلته في أمور:

أولاً: المعاينة ووالصف: وهي المصدر الغالب، فالذي ميز رحلة ابن حمادوش أن صاحبها كان شاهداً على كل الأحداث والأخبار التي سردها في مصنفه منذ انطلاقه من أول يوم عند جبل طارق على ظهر سفينة فرنسية استأجرها ثلاثة تجار جزائريين في يوم الإثنين الأول من محرم 1156هـ (14 فبراير 1743م) إلى آخر نقطة وهي عودته إلى مدينة تطوان المغربية⁽⁶⁶⁶⁾

الثاني: السّماع: وتمثل في سماعه ممن لقيهم من علماء المغرب والجزائر، فكان يأخذ منهم عن طريق المشافهة والسّماع، ولا يُحدّث بما سمع وأخذ منهم إلا بعد أن يُجَوِّزُ له ذلك، أي بعد الحصول على الإجازة منهم. وكان أولهم الشيخ أحمد الوردزي الذي لقيه في أول مدينة حل بها، يقول ابن حمادوش: "فدخلتُ تطاون في أول الساعة السابعة وصليت الظهر بها جماعة، فلقيت من علمائها

⁽⁶⁶⁵⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 69/2

⁽⁶⁶⁶⁾ عمر بن قينة، (في الأدب الجزائري الحديث)، م.م.س، ص: 99، 100. وينظر: عبد الرزاق ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش الجزائري)، م.س، ص: 31/2

الشيخ أحمد الورززي⁽⁶⁶⁷⁾، فسلمتُ عليه⁽⁶⁶⁸⁾، كما لقي الكثير من شيوخ المغرب محمد البناي الفاسي، وأحمد السرايري، وأحمد ابن مبارك، وأبو مدين بن الحسن المكناسي.

ومن علماء الجزائر الذين جلس إليهم محمد بن ميمون الذي كان يُسميه "شيخنا"، والقاضي بن مصطفى العنابي، ومحمد بن نيكرو.

ورغم ذكر ابن حمادوش الكثير من علماء الجزائر في رحلته، ورغم معاصرته لشخصيتين بارزيتين من رحالة وعلماء الجزائر، وأخص بالذكر أحمد ابن عمار و الحسين الورثلاي⁽⁶⁶⁹⁾ إلا أننا لا نجد لهما ذكرا إلا في موضع واحد خص به ابن عمار حين أورد شهادته - ابن عمار - له - ابن حمادوش - على شهادة الورززي له؛ فقال: "...فيقول العبد الفقير إلى عفو مولاه الغني القدير أحمد ابن عمار بوأه الله دار القرار..."⁽⁶⁷⁰⁾

ومع أن ابن حمادوش كانت تربطه علاقة وثيقة ومعرفة شخصية بابن عمار إلا أننا نراه مر عليه مرور الكرام، وحسي وأظن أنه وفاه حقه في الجزء الأول أو الثالث اللذين يرجح أن ابن حمادوش خصهما برحلته إلى المشرق - كما ذكر سابقا-، وابن عمار كانت رحلته مشرقية.

الثالثا: النقل عن الكتب والمصنفات والرسائل والدواوين: اعتمد ابن حمادوش على العديد من كتب المتقدمين ووثائقهم ككتاب (الروض الفائق في المواعظ والرفائق) لشعيب بن سعد بن عبد الكافي (ت. 801هـ)، و(روضة الأزهار) لعبد الله جنان، و(تاريخ الدول) لأبي الفرج الملقبي، و(الأنس الجليل تاريخ القدس والخليل) للعُلَيْمي عبد الرحمن الحنبلي، وكتاب (لطائف أخبار الأول فيمن تصرف بمصر من أرباب الدول) ويُعرف ب: (تاريخ الخلفاء) لمحمد بن عبد المعطي الإسحاقبي (ت. 1060هـ)، إضافة إلى (صحيح البخاري) و(مختصر الخليل).

⁽⁶⁶⁷⁾ أحمد الورززي: وهو من كبار علماء وقته، والورززي نسبة إلى مدينة تقع جنوب المغرب تسمى ورزوات، وله مؤلفات وآراء اجتهادية جعلت معاصريه ينسبونه إلى الاعتزال. توفي سنة 1179هـ. ينظر: أبو القاسم سعد الله، (محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال-)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1410هـ - 1990م، ط3، ص: 164. وينظر: (رحلة ابن حمادوش الجزائري)، م.س، ص: 31/2 الهامش

⁽⁶⁶⁸⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 31/2

⁽⁶⁶⁹⁾ ذكر تعريفهما في ص: 13 (ابن عمار)، و ص: 15 (الورثلاي) من المبحث الثالث للفصل الثاني من الرسالة

⁽⁶⁷⁰⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 260/2

كما أخذ في الطب من كتب محمد الرازي (ت.320هـ)، وابن سينا (ت.428هـ). والفلك من كتب أحمد البيروني (ت.440هـ)، ومحمد البتاني (ت.317هـ)، وأبو معشر البلخي (ت.279هـ). والهندسة والرياضيات من كتب اقليدس النجار وأبولونيوس النجار وأبو علي المهندس المصري⁽⁶⁷¹⁾، إضافة إلى كثير من المصنفات في الكيمياء والفيزياء وطب الأعشاب والفلسفة... فمن خلال تنوع مصادر ابن حمادوش في رحلته نجد اعتمده أنواعا كثيرة من الشواهد منها:

أ- الاستشهادات القرآنية:

لم نلمح من آيات الذكر الحكيم في رحلة ابن حمادوش سوى القليل منها هنا وهناك، كما في قوله عند اتمامه من تأليف مقامة كتّابها في أولاده وزوجه (الزهراء): "وفي يوم الخميس السادس والعشرين ألفت المقامة الحالية: الحمد لله محول الأحوال... ومنذر بالعناء بعد اللذة. فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥٩﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٦٠﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٦١﴾﴾" (672) [الانشراح-5،8]

وقال أيضا: "علما مني أن الدنيا دار كدر، وقليل فيها ما يسر... لقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل-127،128]

ولقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ تَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢١٧﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿٢١٨﴾ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٢٢٠﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ﴿٢٢١﴾ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢٢٢﴾﴾ [الطلاق-2،3] (673)

ب- الاستشهادات النبوية الشريفة:

⁽⁶⁷¹⁾ المصدر نفسه، ص: 138/2، 139، 140، 141، 142
⁽⁶⁷²⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 164/2
⁽⁶⁷³⁾ المصدر نفسه، ص: 165/2. وينظر استشهادات أخرى ص: 65، 66، 67، 224/2

على عكس الشواهد القرآنية، فإن الأحاديث النبوية الشريفة وردت بكثرة في رحلة ابن حمادوش، ويرجع ذلك - ربما - لاستناده إلى (الموطأ) للإمام مالك، و(صحيح البخاري)، و(مختصر الخليل) كمصدر، ولا سيما في المسائل الفقهية والعقائدية.

من ذلك ما أورده عن صحيح البخاري في وصفه لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "قال البخاري في باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الكتاب: حدثني يحيى بن بكير قال: حدثنا الليث عن عقيل: قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوِي قَطُّ إِلَّا وَهَمَّا يَدِينَانَ الدِّينَ وَلَمْ يَمُرْ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفِي النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً...»⁽⁶⁷⁴⁾ والحديث يطول.

وأيضاً مما أورده عن مجالسة الشيخ محمد بن أحمد المسناوي في باب آداب دخول المسجد، قال: "ومما أسمعني (رحمه الله) بلفظه حديث أبي ذر الطويل من طريق الشيخ ابن غازي بسنده إلى أبي ادريس الخولاني، عن أبي ذر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، قال: «دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ وَحْدَهُ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّ لِلْمَسْجِدِ تَحِيَّةً وَإِنَّ تَحِيَّتَهُ رَكْعَتَانِ فَقُمْ فَارْكَعْهُمَا، قَالَ: فَقُمْتُ فَارْكَعْتُهُمَا، ثُمَّ عُدْتُ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ...»⁽⁶⁷⁵⁾ والحديث يطول أيضاً.

ج/- الاستشهادات الشعرية:

كثيراً ما كان يورد ابن حمادوش منظوماته الشعرية، كمدحه للشيخ محمد البناي حين لقيه في مدينة تطوان، والتي جاء فيها:

سَمَوْتَ فَلَمْ يَكُنْ بِقُرْبِكَ نَازِلٌ
فَأَنْتَ هُوَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ فِي الْوَرَى
فَكُنْتَ فِي أَوْجِ الْعِزِّ تُمَطَّرُ بِالسُّؤْلِ
لِكَهْفِكَ قَدْ تَأَوَى الرَّكَّابُ لِلظَّلْلِ
طَلَعْتَ بِأَرْضِ الْعَرَبِ كُنْتَ نَهَارَهُمْ
فَفِي نُورِكَ الْإِسْلَامُ تَذْهَبُ فِي السُّبْلِ

⁽⁶⁷⁴⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 203/2 إلى 208. وينظر: أبو عبد الله البخاري الجعفي، (صحيح البخاري)، تح: محمد زهير بن

ناصر الناصر، م.م.س، [باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه]، رقم الحديث: 3905

⁽⁶⁷⁵⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 50/2، 51. وينظر: أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، الحنبلي، (فتح الباري شرح

صحيح البخاري)، تح: محمود بن شعبان بن عبد المقصود وآخرون، مكتبة الغرابة الأثرية، (المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية)، مكتب تحقيق دار الحرمين، (القاهرة - مصر)، 1417هـ - 1996م، ط1، ص: 273/3 [باب إذا دخل المسجد فليركع ركعتين]. وينظر استشهادات أخرى ص:

157/2، 165، 297، 298، 299، 300، 301، 302، 303

وَقَدْ حَسَدَ الشَّرْقَ الْمَغَارِبَ فِيكُمْ فَأَرْسَلَنِي نَرْوِي الرِّوَايَةَ بِالنَّقْلِ (676)

وأحيانا يورد بعض الأشعار دون ذكر أصحابها، كالشعر الذي رواه عند قراءته لكتاب (الفتح) لجعفر أبي زيد البسطامي (ت858هـ): "فلما رأينا أمره قرأنا عليه قول الشاعر:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعَهُ وَجَاوِزُهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ" (677)

أو فيما أورده عن موت ابن سينا (ت.428هـ) بقوله: "وفيه قال بعضهم:

مَا نَفَعَ الرَّئِيسُ مِنْ حِكْمَةِ الطِّبِّ وَلَا حِكْمَةِ عَالِي النِّيَرَاتِ
مَا شَفَاهُ الشِّفَاءَ مِنْ أَلَمِ الْمَوْتِ وَلَا نَجَاهُ كِتَابِ النَّجَاتِ" (678)

وأحيانا أخرى يُسَمَّى صاحب البيت، كذكره لقصيدة محمد بن حازم الأندلسي القرطاجني المقلوبة من قصيدة امرئ القيس في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم:

بِعَيْنِكَ قُلْ إِنْ زُرْتِ أَفْضَلَ مُرْسَلٍ قِفَا نَبِّكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزَلٍ
وَفِي طَيْبَةٍ فَأَنْزِلْ وَلَا تَعْشِ مَنْزِلًا بِسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ (679)

إن كثرة الأشعار التي أوردها ابن حمادوش في رحلته، ولا سيما تلك التي من نظمه وإنشاده دليل واضح على سعة علمه وثقافته بالشعر.

د- الحكم وكلام العرب:

من ذلك ما أورده في تدريسه لكتاب (روضة الأزهار) للطالب عبد الله جنان (680)، حيث قال: "فلما أصبح يوم الخميس السابع عشر أتى خبر أن المركيين انكسروا في هذه الليلة... فقلت له [يقصد عبد الله جنان]: مصائب قوم عند قوم فوائد، وهو مثل قديم..." (681)

(676) ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.م.س، ص: 39/2

(677) المصدر نفسه، ص: 217/2. والبيت لعمر بن معد يكرب من قصيدة مطلعها:

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُورْقِنِي وَأَصْحَابِي هَمُوعِ

(678) ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.م.س، ص: 141/2

(679) المصدر نفسه، ص: 53/2.

(680) عبد الله جنان: هو محمد بن أحمد الجنان الأندلسي المتوفى سنة 1050هـ بفاس، كان من أبرز علمائها، تولى إمامة جامع الشرفاء، وكان صديقا لأحمد

المقري، من مؤلفاته: (الطرز على المختصر). ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 9/6

(681) ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.م.س، ص: 104/2. والمثل مأخوذ من قصيدة المتنبي في مدح سيف الدولة:

بَدَا قَضَتْ الأَيَّامَ مَا نَبَّيْنَ أَهْلِهَا مَصَابِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ

أو ما ذكره في إحدى مقاماته "...جمعت تسيطر مؤدب الصبيان، وشغب الولدان، وغلظة الملوك، ونشأة الصعلوك، كما قيل: "أنفٌ في السَّماء، وأست في الماء" (682)

4- منهج المؤلف في الكتاب:

بما أن الجزء الثاني للرحلة لا نجد فيه أيُّ مقدمة؛ فالأكيد أنها في الجزء الأول؛ ولعل صاحبها ابن حمادوش نبه فيها إلى المنهج الذي سار عليه في تدوين مادته الرحلية. وفيما يخص المنهج الذي سلكه ابن حمادوش في هذه الرحلة، فقد ذكر أبو القاسم سعد الله أنه "كان يكتب مسوّدّة رحلة ويؤكد هذا الرأي عبد الحي الكتّاني وأنها بخط يد المؤلف نفسه، ولم يكن مضمونها منسجما ومتناسقا باستثناء قسم المغرب مع وجود تسلسل زمني بين أجزاء الرحلة فهو اتبع طريقة تسلسل وتتابع السنوات، وكل رحلاته كانت عبارة عن أحداث ووقائع شاهدها وربما عجائب وطرائف تعرّض لها بالصدفة وهذا أمر وارد" (683).

وقد اعتمد ابن حمادوش في رحلته على ثلاثة أنماط (سردي ووصفي وتاريخي)، وإن كان النمط السردي هو السائد في رحلته.

أ- النمط السردي: فقد كان يسرد كتاباته مع شيخه "ابن ميمون" كما تحدّث كذلك عن أشياء أخرى من باب الصدفة ودليل ذلك ذكره لولاية الجزائر وربما لوجود علاقة بينه وبينهم، وما نستنتجه هو أن المحور الأساس في رحلات ابن حمادوش هو ذكره لهؤلاء الولاية، وما عداه عارض أو يأتي في الدرجة الثانية (684).

ب- النمط الوصفي: تميزت الرحلة العربية بأسلوبها الوصفي إذ نجد الرحالة يصف ما شاهده من معالم، وما انفعّل به وصفا عاديا، أو وصفا مليئا بالحرارة والتفاعل (685)، وذلك ما وجدناه عند رحالتنا ابن حمادوش "من وصف نتيجة للمشاهد التي صادفها كوصفه لثياب بلاد المغرب والجزائر

(682) المصدر نفسه، ص: 165/2

(683) ينظر، أبو القاسم سعد الله، (الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري)، عالم المعرفة، (الجزائر)، 2001م، د.ط.، ص: 58

(684) ينظر، المرجع نفسه، ص: 58

(685) ينظر، عمر بن قينة، (في الأدب الجزائري الحديث)، م.م.س، ص: 122

"ثم إن البلاد فرحت كلها وازينت يوم الخميس، إلا أنهم زينتهم بثياب ملبوس النساء يعلقون القفاطين والمحارم وغيرها من خروم حرير وما تيسر بخلاف زينة بلادنا"⁽⁶⁸⁶⁾

ج- النمط التاريخي: تميز أسلوب ابن حمادوش بتاريخ حوادثه بالتاريخ الهجري "العربي" وغالبا ما يضع إلى جانبه التاريخ المسيحي، ونادرا ما يؤرخ أيضا بالتاريخ الإسكندري كقوله في بداية رحلته: "الجزء الثاني من (رحلته لسان المقال) مبدؤه من أول ليلة الاثنين فاتح عام 1156 عربية الموافق رابع عشر فبراير ثاني شهوره سنة 1743 مسيحية وخامس شهور سنة 2054 أسكندرية"⁽⁶⁸⁷⁾ تركيزه كان كبيرا على التواريخ والسنوات وهي نقطة اهتم بها وأصبحت سمة يختص بها.

وأسلوب ابن حمادوش جاء بسيطا جدا، "فرغم أن عبارته فصيحة فإنه كثيرا ما يسوق الجملة سوفا عاميا لا يخضع لقواعد الإعراب، وهذا ما جعل الحركات تختفي أحيانا، خصوصا بالنسبة للفاعل والمفعول والتمييز، وتناسب العدد ونحو ذلك"⁽⁶⁸⁸⁾.

ويمكن أن نعدد بعض كلمات العامية التي استعملها ابن حمادوش ككلمة (أفرائصيص) في قوله: "فلما أخبره رايسنا أفرائصيص وإنه في كروة أهل الجزائر..."⁽⁶⁸⁹⁾

أو كلمة (الفلوكة) في قوله: "وألقى بعض أصحابنا كانوا نزلوا في الفلوكة قبل ذلك"⁽⁶⁹⁰⁾

أو كلمة (شاشية) في قوله: "وكان لي صندوق فيه ثلاثة وأربعون تزيينة شاشية تونسي"⁽⁶⁹¹⁾

أو كلمة (قفطان) في قوله: "الحمد لله، تزوج على بركة الله... على صداق مبارك ميمون قدره ما بين نقد محضر وحال منظر وكالي مؤخرا أربعمئة دينار جزائرية خمسينية العدد من سكة التاريخ وقفطان واحد قذيفة"⁽⁶⁹²⁾ وفردان اثنان وقفطان اثنان صوفا..."⁽⁶⁹³⁾

⁽⁶⁸⁶⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.م.س، ص: 94/2

⁽⁶⁸⁷⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.م.س، ص: 29/2

⁽⁶⁸⁸⁾ المصدر نفسه، ص: 22/2

⁽⁶⁸⁹⁾ المصدر نفسه، ص: 30/2

⁽⁶⁹⁰⁾ المصدر نفسه، ص: 31/2

⁽⁶⁹¹⁾ المصدر نفسه، ص: 32/2

⁽⁶⁹²⁾ قذيفة: واليوم تنطق قطيفة. ينظر: المصدر نفسه، ص: 244/2. الهامش

أو كلمة (بُؤْبُة) في قوله: "خرجنا لباب الجَزِير رمى العليج حسن بُنْبَة واحدة ضحى..."⁽⁶⁹⁴⁾

كما عرف أسلوب ابن حمادوش في طريقة عرضه للحوادث والأخبار بالكثير من الاستطرادات والانتقال من الموضوع الرئيسي إلى مواضيع أخرى ثم العودة إلى الموضوع الرئيسي (وهو عامل الزمن، أي سرد الحوادث زمنياً)، ويظهر ذلك بوضوح أثناء إيراد ابن حمادوش لطريقة قراءة (صحيح البخاري) في الجزائر، وإيراده ولاية الجزائر، وعقود الزواج... إلخ.

• متن الرحلة

من خلال اطلاعنا على مضمون رحلة ابن حمادوش، نستطيع القول بأنه يمكن تقسيم محتواها إلى ثلاثة أقسام وهي كالتالي:

أ- قسم رحلات المغرب الأقصى: من الصفحة 29 إلى 112. باشر المؤلف كتابة رحلته في 1156هـ (1743م) دون تحديد المكان لا في البداية ولا في تاريخ الفراغ من كتابتها عام 1160هـ (1747م) وهذا يعني أنه استغرق في تدوين رحلته أربع سنوات كاملة، ويتضح شكل الرحلة في القسم الخاص بحديثه عن المغرب الأقصى فقط؛ أي هو الذي يصح أن نسميه رحلة أو (الرحلة المغربية)

يذكر ابن حمادوش في هذا القسم أنه سافر إلى المغرب من أول نقطة وهي جبل طارق، وهو أول عنوان استعمله المؤلف - (المؤلف عند جبل طارق) - دل على بداية رحلته باتجاه المغرب الأقصى على ظهر سفينة فرنسية - كما ذكرنا سابقاً -.

والظاهر أن ابن حمادوش ذكر لنا في هذا القسم كل ما شاهده وعاشه من تجارب في رحلته إلى المغرب منذ دخوله أول مدنها وهي مدينة تطوان يقول: "صبيحة السبت، بعد شروق الشمس، خرجنا من جبل طارق، ألقينا مراسينا... فدخلت تطوان في أول الساعة السابعة"⁽⁶⁹⁵⁾. ثم غادر تطوان باتجاه مكناس أو مكناسة "عند الزوال من يوم الأحد 26 صفر من عام 1156هـ الموافق 10 أبريل من سنة 1743 مسيحية"⁽⁶⁹⁶⁾، ثم توجه إلى مدينة فاس صباح الخميس خرجنا من

⁽⁶⁹³⁾ المصدر نفسه، ص: 244/2

⁽⁶⁹⁴⁾ المصدر نفسه، ص: 253/2

⁽⁶⁹⁵⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م. س، ص: 31/2

⁽⁶⁹⁶⁾ المصدر نفسه، ص: 77/2

مكناسة في قافلة عظيمة... فسرنا السير الحثيث حتى دخلنا فاس بعد صلاة المغرب بكثير، ونزلنا في فندق النجارين، فأصبحنا يوم الجمعة بها 09 ربيع الأول من عام 1156 الموافق 22 أبريل من سنة 1743 مسيحية⁽⁶⁹⁷⁾

ويبدو أن ابن حمادوش سرد لنا كل لحظة عاشها في هذه المدن المغربية كوصفه لثورة حاكم تطوان "أحمد الرّيفي باشا ضد السلطان مولاي عبد الله عام 1156م⁽⁶⁹⁸⁾، فهي تروي أحداثاً مهمة استقاها من الواقع الذي عايشه، كما تحدث عن عادات وتقاليده سكان المغرب؛ إضافة إلى عجائب وغرائب ما رأى في هذه البلاد، كما أورد ابن حمادوش تفصيلاً مهماً عن كل الدروس والمجالس التي حضرها في المغرب، فذكر أسماء العلماء الذين التقى معهم، فمنهم من سمع منه، ومنهم من قرأ عليه، ومنهم من ناقشه وناظره.

وعليه يمكننا أن نقسم رحلة ابن حمادوش إلى المغرب إلى ثلاث وحدات: الوقائع والحوادث، العادات والتقاليد، الشيوخ والعلماء.

ب- قسم رحلات الجزائر: من الصفحة 113 إلى 278، وهو قسم عن المؤلف نفسه في الجزائر، يقول: "عند غروب الشمس.. إلى أول ساعة من يوم الإثنين التاسع من الشهر المذكور [صفر] موافق ثاني عشر من مارس دخلنا مرسى الجزائر"⁽⁶⁹⁹⁾

وهذا القسم "ترد أخباره مفرقة ضمن قصص واستطرادات، وهي عبارة عن مذكرات وحوادث يومية عن قراءاته وملاحظاته ونشاطه"⁽⁷⁰⁰⁾، وكأنها سيرة ذاتية عن المؤلف نفسه، فقد ذكر أخباراً متفرقة عن حياته الشخصية التي كانت قاسية وصعبة في الجزائر، لأنه كان فقيراً فتسبب له ذلك في كثرة المشاكل مع زوجته الثانية ومع عائلته الأخرى أيضاً، يقول: "فحين أتيت للغداء نصف النهار فوجدت الأهل في قلق، ففي يوم الجمعة خرجوا كلهم وأيقنوا أنني بعد خروجهم أتعب مع الزوجة كثيراً لأنها لا تستطيع السكنى وحدها، فبقيت في هول عظيم من الزوجة... غَضِبْتُ لدار أخيها

⁽⁶⁹⁷⁾ المصدر نفسه، ص: 80/2

⁽⁶⁹⁸⁾ المصدر نفسه، ص: 75/2

⁽⁶⁹⁹⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 113/2، 114

⁽⁷⁰⁰⁾ مقدم فاطمة، (الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش الجزائري)، مذكر ماجستير، كلية الآداب واللغات والفنون، (السانية- وهران)، 2011/2010م، ص: 15. نقلاً عن: أبو القاسم سعد الله، (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978م، د.ط، ص:

وأرادت الفراق، وكان بيني وبينها ولدان سيدي حسن وسيدي حسين اصلحهما الله، صغارا لم يبلغوا عاما، فبقيت متحيرا⁽⁷⁰¹⁾.

وقال: "... باتت أُمي عندي، فأخذت تلوم سعدي حتى قالت: يا ليتني لم ألدكم ذكورا لسوء سعدكم، وكنت تعبت في السنة الماضية في المغرب من مرض وخسارة وضيق، ولم أرق قط ما رأيت فيه من ضيق العيش والخسارة، والعياذ بالله، حتى أيقنت الهلاك، فلما قدمت وجدت من الزوجة مثل ذلك، ولم أرها فرحت بقدمي، لأنها أيقنت أن أكثر المال ضاع لي فلم يبق لها غرض فيّ، ولم تر لما عندي من العلم⁽⁷⁰²⁾

شهد قسم رحلات الجزائر سيرة ذاتية عن المؤلف ابن حمادوش، فأورد أخباراً عن حياته وأزواجه وولديه (الحسن والحسين)، وما عاشه من ضيق الحال والأحوال وكساد تجارته، ولكنه مع ذلك لم يترك أمور العلم والمعرفة، فقد جالس محمد بن ميمون⁽⁷⁰³⁾ أحد أكبر شيوخ الجزائر وعلمائها، يقول: "أول يوم منه [يعني جمادى الأولى من عام 1158] ابتدأت مع شيخنا ابن ميمون، في داره، بعد سرد الكردبوس⁽⁷⁰⁴⁾، سرد عيان مسائل ابن حجة في الأدب... سرد قصيدة مالك بن المرحل، نظم فصيح ثعلب في اللغة... وفي يوم الأربعاء، عرض علي الشيخ (الإتقان في علوم القرآن) تأليف الشيخ السيوطي. فقرأت فيه فصل ما نزل من القرآن على لسان الصحابة وموضع فواتح السور⁽⁷⁰⁵⁾". وقال: "وفي يوم الأحد حادي عشر رجب الموافق ثامن وعشرين يولييه ابتدأنا سرد صحيح البخاري في الجامع الكبير.."⁽⁷⁰⁶⁾

⁽⁷⁰¹⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 115/2

⁽⁷⁰²⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 115/2

⁽⁷⁰³⁾ محمد بن ميمون: هو أبو عبد الله محمد بن ميمون الزاوي النجار، يعد (رحمه الله) أحد أقطاب أهل النظر، ومن كبار العلماء الواسعي الإطلاع الراسخين في العلم، الذين خدموا الثقافة الإسلامية في العهد التركي بالجزائر، عاش في النصف الأول من القرن الثاني عشر هجري 18م. من أشهر مؤلفاته: (التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر الحمية). ورغم كل ما قدمه إلا أنه لم يوف حقه، لأننا قل ما نجد له ذكرا في كتب السير والتراجم. ينظر: علي علوش، (معجم مشاهير المغاربة)، تنسيق: أبو عمران الشيخ، تقرير: ناصر الدين سعيدوني، جامعة الجزائر، د.ت، ص: 527. وينظر: الربيعي بن سلامة، عمار ويس، محمد العيد تاورته، عزيز العكاشي، (موسوعة الشعر الجزائري)، (جامعة تيزي وزو- الجزائر)، 2002م، ط1، ص: 901/1.

⁽⁷⁰⁴⁾ الكردبوس: يعني كتابه (الاكتفاء). وابن الكردبوس: هو عبد الملك بن قاسم ابن الكردبوس التوزري، ابن مروان: مؤرخ، نسبته إلى "توزر" بتونس صنف (الاكتفاء في أخبار الخلفاء) في الأهمية بتونس. توفي بعد 575 هـ. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 161/4

⁽⁷⁰⁵⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 216/2

⁽⁷⁰⁶⁾ المصدر نفسه، ص: 216/2

كما فرغ ابن حمادوش أثناء تواجده بالجزائر من تأليف كتابيه (الجوهر المكنون من بحر القانون) في الطب، وكتاب (الدرر على المختصر).

ج- قسم الكتب والوثائق: ويتضمن هذا القسم مصادرًا كثيرةً من كتب ووثائق المتقدمين أو المعاصرين له -وقد تقدم معنا ذلك-، بالإضافة إلى مجموعة من الأسانيد والإجازات والقصص كقصة (الفيل) وقصة (العنقاء)، وكذا مجموعة من عقود الزواج على عادة أهل مدينة الجزائر.

ومعنى ذلك أن مؤلف الرحلة اعتمد على كتب ووثائق مكتوبة للمتقدمين، أما المعاصرين له فكان يأخذ عنهم بالمشافهة والسماع، فهذه العوامل ساهمت بشكل أو بآخر في تكوين شخصية ابن حمادوش العلمية والثقافية، ضف إلى ذلك كله تجربته الشخصية، فكثيرا ما كان يروي أحداثا في رحلته شاهدها عيانا أو عاشها، "فالتطورات الاجتماعية والسياسية والعلمية التي تحدث عنها في المغرب والجزائر كان مصدرها الأول التجربة الشخصية لابن حمادوش"⁽⁷⁰⁷⁾، فهي المصدر الغالب عليه في جمع كل معلومات رحلته.

5- أهم جوانب رحلة ابن حمادوش في الكتاب:

شهدت رحلة ابن حمادوش العديد من الجوانب والقضايا التي تضمنت الكثير من الموضوعات والمسائل في شتى المجالات، وجُلّها كان صاحبها شاهدا عليها ومعانينا لها، وقد حاولت أن أجمع أهم هذه الجوانب فيما يلي:

أ- الجانب الديني:

بما أن رحلة ابن حمادوش اعتمدت على أكبر المصادر الإسلامية ك: (صحيح البخاري) و(موطأ الإمام مالك) و(مختصر الخليل)، فلا شك أن هذا الجانب سيكون له عناية كبيرة عند ابن حمادوش ، وذلك يظهر جليا لقارئ الرحلة، ويمكن أن نقسم هذا الجانب إلى: الجانب العقدي، والجانب الفقهي.

⁽⁷⁰⁷⁾ ينظر: أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م)، م.م.س، ص: 427، 428/2

فمن الجانب العقدي كالمناظرة التي وقعت بين صاحب الرحلة وشيخه الورززي في مسألة من الأفضل الملائكة أو الرُّسل ((عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ))⁽⁷⁰⁸⁾، قال: "حضرت مجلس الشيخ سيدي أحمد الشيخ الورززي بجامع عند باب الملاح، يدرس ليلا التفسير، فألفيته أول ليلة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [77] من سورة هود وكان ليلة الأحد رابع عشر محرم إلى ليلة الثلاثاء ثالث وعشرين الشهر المذكور، فقرأ قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ من سورة يوسف، فقال: ووجه تشبيه النسوة يوسف بالملك ما جبل في قلوب الخلائق من تفضيل الملك على الإنس.

فقلت له: إن الأشعري يأبي هذا، وظننت أي لجأت إلى كهف حصين، فغضب وقال: ما هو إلا أن حبه أشرب في قلوبكم. فأمسكت عنه إلى الغد... فقلت: أتقول بتفضيل الملك على الأنبياء ولم تستثني سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال لي: أو ليس يقول الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾، وهو جبريل، ولا شك أن المعلم أفضل من المتعلم؟ ثم لما أكثر عليّ قلت له: أي لم أستحضر الجواب... فقال: اذهب فاستنجد عليّ بمن شئت؟ فذهبت أفكر في الجواب، فوجدت أنه عمم فيه فاستحضرت منه جوابا.

ثم تكلمت مع الشيخ الفاضل البناي فقال لي: مالك ولذلك المعتزلي. إنه قد جمع من مذاهب المعتزلة أربعة مذاهب: معتزلة⁽⁷⁰⁹⁾ وقدرية⁽⁷¹⁰⁾، وعدّ اثنين آخرين، ثم قال لي: لكن كان دليله من

⁽⁷⁰⁸⁾ مسألة المفاضلة بين الملائكة والأنبياء: مذهب أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم، أن الأنبياء والأولياء أفضل من الملائكة. وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن صالح بن آدم والملائكة أيهما أفضل؟ فأجاب بأن صالح البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية، فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى مزيهين عما يلبسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الرب، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير حال صالح البشر أكمل من حال الملائكة. قال ابن القيم: (وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالح كل منهم على حقه). ينظر: أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية، (مجموع الفتاوى)، تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، (المدينة النبوية- المملكة العربية السعودية)، 1416هـ/1995م، ص: 343/4. وينظر: شمس الدين ابن قيم الجوزية، (بدائع الفوائد)، د.ت، دار الكتاب العربي، (بيروت، لبنان)، د.ط، ص: 163/3

⁽⁷⁰⁹⁾ المعتزلة: هم أصحاب واصل بن عطاء الغزال الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، ظهوروا في أوائل القرن الثاني، وسلخوا منهجا عقليا متطرفا في بحث العقائد الإسلامية. مرادهم التأويل وصرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه وما يخالف ظاهره وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من أهل الأصول والفقه ولهذا يقولون التأويل على خلاف الأصل والتأويل يحتاج إلى دليل. ابن قيم الجوزية، (الصواعق المرسله في الرد على الجهمية والمعتزلة)، تح: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، (الرياض- المملكة العربية السعودية)، 1408هـ، ط1، ص: 158/1. ابن ظاهر البغدادي، (الفرق بين الفرق)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، (بيروت- لبنان)، 1416هـ/1995م، د.ط، ص: 20، الشهرستاني، (الملل والنحل)، تح: محمد بن فتح، مكتبة الأغلو المصرية، (القاهرة- مصر)، 1375هـ/1956م، 50/1

الكتاب فدلينا على أفضلية النبي من الكتاب، وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَقَدَّمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴿٣٣﴾ [البقرة-31،33]. فيه دليل على أنه علم الملائكة أجمعين. والاجماع منعقد على أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل منه، فهو أفضل من الملائكة.

فلما كان الغد، أتته [أي الورززي] فأتى بكتاب فيه أن اجماع أهل السنة منعقد على أن الأنبياء أفضل من الملائكة واجماع المعتزلة منعقد على أن الملائكة أفضل. قلت: أليس هذا شاهدا لي؟ قال: لا. قلت: ألم تقل إنك أخذت تفضيل الملائكة من قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾؟ قال: نعم. قلت: يلزم من دليلك أن يكون جبريل وحده أفضل لا جميع الملائكة.

قال: هو أحدهم، وجنس الملائكة أفضل من جنس الآدمي. قلت: إن كان هذا، فلي دليل يرده، قلت: ﴿قَالَ يَتَقَدَّمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فهذا دليل على أن آدم علم جميع الملائكة، فهو أفضل من كلهم صراحة بخلاف دليلك. فقال لي: أو لك الملائكة غير هذه. فقلت له: ألسنت تقول: الجنس؟ فقال: ليس هكذا. فقلت: أي مذهب تتبع؟ قال: أنا لا أفقد أحدا. قلت فلم تدرس سيدي الخليل؟ قال لي: أما في الفروع فأقصد مالكا وأما في الأصول فلا. فقلت: فما يقال فيك؟ قال: أنا رجل مُحَمَّدي. فقلت: ومن يُبلغك الكتاب والسنة ان لم تقتف آثار هؤلاء؟ ثم انصرفت عنه. فلم أعد إلى مجلسه أصلا. نسأل الله أن يهدينا ويهديه إلى الحق، والسلام، وظني أنه يميل إلى مذهب الجرابية⁽⁷¹¹⁾ فإنهم يجبونه⁽⁷¹²⁾.

تدل هذه المناظرة التي جرت بين ابن حمادوش وشيخه الورززي على استقلال رأي ابن حمادوش وقوة شخصيته خاصة في المجال الديني، فرغم أن الورززي أجاز تلميذه ابن حمادوش، إلا أن هذا الأخير لم يكن موافقا لشيخه في كل شيء، ولا سيما ما تعلق بالجانب العقدي.

⁽⁷¹⁰⁾ القدرية: هم الذين يذهبون إلى إنكار القدر. وأولهم على الأرجح معبد الجهني المقتول سنة 80هـ وتبعه على ذلك غيلان بن مسلم الدمشقي المقتول في عهد عبد الملك بن مروان. (الفرق بين الفرق للبيهقي)، م.س، ص: 70، وأبو زكريا يحيى ابن شرف النووي، (شرح صحيح مسلم)، المطبعة المصرية،

(الأزهر- مصر)، 1347هـ/1929م، 1/150-151

⁽⁷¹¹⁾ مذهب الجرابية: لعله يقصد المعتقد الذي كان عليه سكان جزيرة جربة الاباضية بتونس.

⁽⁷¹²⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 66، 65/2، 67.

وأما الجانب الفقهي فمثل ما ذكره عن الشيخ جلال الدين المحلي (أحد أئمة علماء الشافعية) في إحدى دروسه في مسألة الفرق بين الفرض والواجب في مسح رُبع الرأس⁽⁷¹³⁾، هل هو واجب أم فرض؟ يقول ابن حمادوش: "زعم بعض من ادعى العلم قبل أن ينظر في كتبه [يعني الشيخ جلال الدين المحلي]، فضلا عن أن يتعلمه، وأنه لحل المشكلات أهلا، فسأله هذا الفاضل بما صورته: ما تقول في قولكم: الفرض ما ثبت بدليل قطعي والواجب ما ثبت بدليل ظني، مع قولكم أن مسح ربع الرأس فرض مع كونه ثبت بدليل ظني، فما جوابكم تؤجرون؟

فأجابه بما صورته: الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه: اعلم أن الحنفية جعلوا مسح ربع الرأس في الوضوء هو الفرض، واستدلوا بقول أنس (رضي الله عنه)، قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يتوضأ وعليه عمامة قطنية فأدخل يده من تحت العمامة فمسح مقدم رأسه. رواه أبو داوود وسكت عنه. فظاهره استعاب تمام المقدم وتمامه هو الربع المسمى بالناصية. وقول عطا إنه صلى الله عليه وسلم، توضأ فحسر العمامة ومسح مقدم رأسه، وقال ناصيته فإنه حجة عندنا وإن كان مرسلا، وإن اعترض عليه بأن ثبوت الفعل كذلك لا يستلزم نفي جواز الأقل. وأجيب بأن مسح ما دونه لو كان يُجزى لفعله صلى الله عليه وسلم، ولو مرة في العمر تعليما للجواز، ودفع بأن الجواز مستفاد من غير الفعل، وهو اطلاق الآية فلا يحتاج إليه، وهذا يشرح رواية الأصل لعدم وروده عليها. وطريقة الاجمال في الآية والتحاق حديث المغيرة بها بيان أفعاله، وأفعاله ممنوعة لعدم صدق صده عليها، بل هي مطلقة كقوله تعالى: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل - 20]. فلا يتم الاستدلال بها على فرضية الربع. ولا يجوز المسح على ما جاوز الأذنين من الشعر لعدم كونه من الرأس حقيقة وحكما. والباء من (بِرُّوْوسِكُمْ) للإلصاق وليست لتبعض⁽⁷¹⁴⁾.

(713) قال ابن كثير (رحمه الله تعالى): "﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ اختلفوا في هذه الباء هل هي للإلصاق؟ وهو الأظهر، أو للتبعض؟ وفيه نظر، على قولين. ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع بيانه إلى السنة، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله تعالى): "﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ وقوله: ﴿فَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ يقتضي إصاق المسموح. لأن الباء للإلصاق. وهذا يقتضي إيصال الماء والصعيد إلى أعضاء الطهارة. وإذا قيل: إمسح رأسك ورجلك، لم يقتض إيصال الماء إلى العضو، وهذا بين أن الباء حرف جاء لمعنى لا زائدة كما يظنه بعض الناس". ينظر: تقي الدين ابن تيمية، (التفسير الكبير)، تح: عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، دت، دط، ص: 48/4.

(714) ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.م.س، ص: 157، 158، 159

ب- الجانب اللغوي والنحوي والصرفي:

لم يعن كثيرا ابن حمادوش بهاته الجوانب الثلاثة (اللغوي والنحوي والصرفي)، كما أن رحلته لم تخلو منها كذلك؛ إذ نجد بعض الأمثلة - وإن قلت-؛ مبتورة هنا وهناك في صفحات رحلته، من ذلك ما أورده عن لفظة (التاريخ) في اللغة، يقول: "أما لفظة التاريخ فإنها محدثة في لغة العرب لأنه لفظ مُعَرَّب من (ماه رُوز)، لأن عمر (رضي الله عنه) قصد التوصل إلى الضبط من رسوم الفرس، فاستحضر الهرمزان وسأله عن ذلك، فقال: لنا به حساب نسميه ماه رُوز، ومعناه حساب الشهور والأيام، فعَرَّبوا الكلمة، فقالوا: نُؤرخ، ثم جعلوا اسمه: التاريخ، واستعملوه ثم طلبوا وقتا يجعلونه أولا لتاريخ دولة الإسلام واتفقوا أن يكون المبدأ الهجرة من مكة إلى المدينة..." (715)

أو في النحو - وقد تقدم المثال معنا- كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة- 6] قال: "...والباء من (برؤوسكم) للإصاق وليست لتبويض" (716).

وحتى الجانب الصرفي كما في تصغير الألفاظ ككلمة (جَرَادَة)، قال: "وأبوهم هي الجرادة... وذلك أنه إذا صغرهما تقول: جُرَيْدَةٌ" (717).

أو الميزان الصرفي كقوله: "ومنها في نظم ما جاء من الجموع على (فَعَال)

وَهِيَ جَمْعٌ وَهِيَ فِي الْوِزْنِ فِعَالٌ	مَا سَمِعْنَا كُلَّمَا غَيْرَ ثَمَّانَ
وَعِرَافٌ وَعِرَامٌ وَرِخَالٌ	فَرِبَابٌ وَفِرَادٌ وَتُؤَامٌ
جَمْعٌ بَسَطٌ هَكَذَا فِيمَا يُقَالُ (718)	وظَنَّانٌ جَمْعٌ ظَنٌّ وَبَسَاطٌ

لم يُعن صاحب الرحلة كثيرا بهاته الجوانب ولا سيما الجانبين (النحوي والصرفي)؛ وهذا يُعد حلقة ضعف في الرحلة تُحسب عليه، ولعل ذلك ما جعل محقق الكتاب ينوه في كل مرة إلى أنه "وجد

(715) ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م س، ص: 202/2

(716) المصدر نفسه، ص: 159/2

(717) المصدر نفسه، ص: 133/2

(718) المصدر نفسه، ص: 49/2. والأبيات اختلفت في نسبتها، هل هي للزمخشري أم صدر الأفاضل النحوي (ت617ه)؟ ينظر: أبو بكر، جلال الدين السيوطي، (نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار)، جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين، (المملكة العربية السعودية)، 1424هـ/2005م، د.ط، ص: 361/1. وينظر: السيد محمود آل غازي العاني، (بيان المعاني)، مطبعة الترقوي، (دمشق- سوريا)، 1382هـ/1965م، ط1، ص: 365/2

كثيرا من الأخطاء النحوية والإملائية، فأحيانا كان يُصلحها وأحيانا أخرى يتركها على حالها»⁽⁷¹⁹⁾.

وهذا ليس انتقاصا لرحالتنا ابن حمادوش، وإنما هو من باب التنبيه والتصحيح، فرغم هذه الأخطاء الواردة في الرحلة إلا أنّ الأمثلة - المذكورة سابقا- توحى لنا أن ابن حمادوش كان رحالة ذا دراية وثقافة باللغة والنحو والصرف وغيرها من علوم الأدب.

ت- الجانب البلاغي والعروضي:

للجانب البلاغي حضور بارز، وإن كان لم ينبه عليه ابن حمادوش، إلا أن بيانه وبديعه يظهر جليا في شعره وأسلوبه الذي تميز بكثرة استطراداته كقوله: "وكان الذي ابتدأت معه الروضة اسمه سيدي عبد الله، من ذرية جنان... وكان مزاحا فصار يطلب أن لا أسافر حتى ينال من القراءة ما يريد. وما ظننت أنه يُستجاب له فيّ لما رأى من حاله أنه غير مستقيم. فلما أصبح يوم الخميس السابع عشر أتى الخبر أن المركبين انكسرا في هذه الليلة وكانت مرسى تطوان لا ينجو فيها مركب إذا هبت الريح الشرقية، فأصبحت كئيبا حزينا وأصبح فرحا مسرورا، فقلت له: مصائب قوم عند قوم فوائد، وهو مثل قديم... فأيقنت أن نصحي له أورثني غشه، فجزاءه مجازة التمساح أو مجازات سنمار..."⁽⁷²⁰⁾

أو استطراده فيما أورده عن سماعه لصحيح البخاري من شيخه محمد ابن سيدي الهادي، فيقول: وفي يوم السبت ثاني عشرة، موافق ثامن شتنبر (سبتمبر) حضرت سرده صباحا، فقرأ ممليه سيدي محمد ابن سيدي الهادي فضائل الصحابة... ومن الغد قرأ المملي المذكور منه إلى باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم. فخرجت إلى دكاني، قبالة باب الجامع الكبير، وأتيت بجزء فيه الثمن الخامس وأوله باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، فمسكته في يدي فتمم القراءة إلى أن وقف على كتاب المغازي..."⁽⁷²¹⁾

⁽⁷¹⁹⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 108/2 هامش الصفحة بتصرف. وينظر تنبيهات وتصحيحات الحق في الهامش، ص: 39/2،

⁽⁷²⁰⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.م.س، ص: 103/2، 104

⁽⁷²¹⁾ المصدر نفسه، ص: 122/2

وأيضاً ما أورده من بديع (طباقي) كـمجالسته لشيخه محمد بن ميمون، وهذا حين قال: "فلما رأينا أمره قرأنا عليه قول الشاعر:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئاً فَدَعُهُ وَجَاوِزُهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ⁽⁷²²⁾

أو كتضمينه للبيت الثامن في قصيدته (الحنين إلى الأهل)؛ والذي جاء فيها:

أَسْرَبَ الْقَطَا هَلْ مِنْ مُعِيرٍ جَنَاحَهُ لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ نَزِيلُ⁽⁷²³⁾

وهو تضمين من بيت قيس بن الملوحي العامري الملقب بـ: (مجنون ليلى) والذي جاء فيه:

أَسْرَبَ الْقَطَا هَلْ مِنْ مُعِيرٍ جَنَاحَهُ لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أَطِيرُ⁽⁷²⁴⁾

أو اقتباسه في وصفه لمدينة فاس بقوله: "ومنها نحو ربع البلد جنات معروشات..."⁽⁷²⁵⁾ وهو من

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرِ مَّعْرُوشَاتٍ﴾ [الأنعام- 141]

ومن سجع الكلام ما أورده في مقامته التي كتبها في زوجه (الزهراء): "وفي يوم الخميس السادس والعشرين ألفت المقامة الحالية: ... لما جرى القضاء المحتوم، والأمر الملزوم، بأن خف الريش، وأكل الجويش، ومضض العيش، فخلفني الجيش، وكثر الصرف، وقصر الطرف، وجفت الاخوان، وقلت الأخدان، وغلب الزمان، فارتفعت الأقران، وصعبت التجارة، وسهلت الخسارة، قرنت بـجارة غرة، عيشتها مرة، البذرة عندها ذرة، وميرة الحجيج عندها بعة، لا يشبعها الجليل، ولا تعباً بالقليل..."⁽⁷²⁶⁾

⁽⁷²²⁾ المصدر نفسه، ص: 217/2

⁽⁷²³⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 108/2

⁽⁷²⁴⁾ قيس بن الملوحي العامري (ديوان مجنون ليلى)، تح: يسري عبد الغني، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1420هـ/1999م، ط1، ص: 97

⁽⁷²⁵⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 94/2

⁽⁷²⁶⁾ المصدر نفسه، ص: 164/2

ومن صور البيان تشبيهه لولديه الحسن والحسين في قوله: "ونزلت في حيني ودخلت داري في أول الساعة الثانية، فوجدت عندي ولدين، سيدي الحسن وسيدي الحسين، ولدتهما زهرا، زوجتي، توأمين... فوجدتهما كالفهدين، فسُرت بهما"⁽⁷²⁷⁾.

وأما الجانب العروضي فقد تمثل في تسمية بحور المقطوعات الشعرية والقصائد، من ذلك ما قاله في نظمه عند حنينه إلى دياره: "فقلت منشدا من الطويل:

لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ أَصْبِرُ صَابِرًا وَهَذَا أَنَا فِي هَذَا الْأَوَانِ ذَلِيلٌ
أَنُوحُ عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ صَبَابَةً نَوَاحِي الشَّكَايِ تَحْسُبُونِي جَمِيلٌ⁽⁷²⁸⁾

وأحيانا كان يسرد أخبار ما كان يقع في مجالس الملوك والحكام كإيراده لقول الخليفة المعتمد بالله للرحالة خرداذبة: "ما مترلة الايقاع وأنواع الطرق وفنون النغم؟ قال" قلنا: في ذلك ما تقدم أن مترلة الايقاع من الغناء مترلة العروض من الشعر، وقد وصفوا الايقاع ووسموه بسمات، وسموه بأسماء ولقبوه بألقاب، وهو خمسة أجناس، ثقيل الأول وخفيفه، وثقيل الثاني وخفيفه، والهزج خفيفه، والايقاع هو الوزن، ومعنى وقع أي وزن، ولم يوقع لم يوزن، أي: خرج عن الوزن، والخروج: ابطاء عن الوزن أو سرعة وتعجيل...

"فالثقل الأول نقره ثلاثة ثلاثة متواليات، إلا أن بين كل ثلاثة وثلاثة وقفة. و ثقيل الثاني نقرة اثنتان متواليات، وواحدة بطيئة، واثنتان مزدوجتان. ووخفيف الرمل نقرة اثنتان مزدوجتان بين كل زوج وقفة، والهزج نقرة واحدة واحدة متساويات ممسكة. و خفيف الهزج واحدة واحدة متساويات في نسق واحد أخف قدرا من الهزج...

ثم قال: "...لكن جملة الايقاع في الرقص تسعة أجناس، الخفيف والهزج والرمل وخفيف الرمل والثقل، وخفيف الثقيل الثاني وثقله، وخفيف الثقيل الأول وثقله"⁽⁷²⁹⁾.

⁽⁷²⁷⁾ المصدر نفسه، ص: 114/2

⁽⁷²⁸⁾ ابن خلدون، (رحلة ابن خلدون)، م.س، ص: 108/2

نادرا ما نجد الرحلات الجزائرية عُنيت بالجانب العروضي، وإن كان ابن حمادوش لم يتعمق فيه؛ إلا أنه أوحى لنا أنه من كل بحر أخذ نصيبا وقدرًا حسب مستطاعه.

ث- الجانب النقدي:

تضمنت رحلة ابن حمادوش الكثير من الاشارات النقدية المتفرقة، وتمثل ذلك في تعليقات المؤلف على كلام من لقيهم أو سمع عنهم من الشيوخ والعلماء والشعراء، كاستحسانه لكلام يحيى الشاوي الملياني (ت. 1096هـ) حين استفسره رحالتنا عن أحد الأغاز فقال: "سألت شيخنا حافظ العصر سيدي يحيى الشاوي (رحمه الله)، عن قول القائل، وأظنه الجلال السيوطي، فأجابني في الحال، على

ارتجال بقوله:

هُم سَبْعَةٌ مِنْ بَيْضَةِ خُلِقُوا مَعًا وَمَثَلُهُمْ فِي ثَوْبِ خَزِ مَوْرُودٍ
حَوَاجِبُهُمْ سَبْعُونَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ وَأَعْيُنُهُمْ تَسْعُونَ صُورَةَ هُدْهِدٍ
أَبُوهُمْ رَجِيمٌ مَارِدٍ مُتَمَرِّدٍ وَقَدْ جَمَعْتُ مِنْ لَفْظِ لُغْزٍ مُقَيَّدٍ

فانظر كيف جمع السؤال والجواب ونص على ذلك بأوجز عبارة وألطف إشارة⁽⁷³⁰⁾

ثم علق على رأي محمد الشافعي التونسي في نفس اللغز: "ولا يخفى ما فيه من التكلف وتخطئة ما لم يخط قائله، ولو قال في السبعة التي خُلِقُوا مَعًا وفي السبعة التي في ثوب خز مورد الأرضين السبعة، وحواجبهم سبعون ليل، وأعينهم سبعون،... لكان أقرب إلى الصواب. والله أعلم"⁽⁷³¹⁾

ثم وازن بين نثره هذا وشعره - محمد الشافعي - قائلا: "وقد نظم الشيخ الشافعي كلامه المتقدم فقال:

أَيَا رَاكِبًا تَهْوَى بِهِ عَصَوِيَّهِ يُحَاجِي بِدَوْرِ الْعِلْمِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ
أَتَيْتُ خَيْرًا بِالْمَعَايَاتِ شَاحِطًا يُخَاطِبُ لَأ تَهْلِكَ أَسَى وَتَجَلَّدُ
فَخُذْ مَا خَبَطَتِ الْأَرْضُ أَجْلِسُهُ مَدَى وَتُوِّ بِحَدِيثِ مُسْنَدٍ وَمُسَدَّدِ

⁽⁷²⁹⁾ المصدر نفسه، ص: 188، 189/2. وينظر: المسعودي أبو الحسين علي بن الحسين، (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،

م.م.س، ص: 35/4

⁽⁷³⁰⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 131/2

⁽⁷³¹⁾ المصدر نفسه، ص: 135/2

أَرَى السَّبْعَةَ الْأُولَى السَّمَاوَاتِ وَالتِّي
تَلِيهَا بَنَاتُ النَّعْشِ عِشَاقُهُ الْجِد
حَوَاجِبُهَا صُبْحُ بَوَجْهِ سَمَائِهِ
وَإِحْصَاؤُهُ سَبْعُونَ بِالْجَزْمِ سَيِّدِي
وَتَسْعُونَهَا فِيءٌ هُوَ اللَّيْلُ ذُو الدُّجَى
وَمَظْهَرُهَا فِيهِ لِأَهْلِ التَّشْهُدِ (732)

قال ابن حمادوش: "فأنت ترى كيف اضطرب في المعنى. ففي النثر قال غير الذي قال في الشعر لأنه اجتهاد وقد تحول، وكلاهما بعيد، وأقرب للصواب ما قلت، والله أعلم (733)

وأحيانا كان يستحسن شعر غيره من ذلك ما أورده تحت باب: "شعر حسن"، قال الشاعر (734):
وَعَشِيَّةٌ قَدْ كُنْتُ أَرْقُبُ وَقْتَهَا
سَمَحْتُ بِهَا الْأَيَّامَ بَعْدَ تَعَذُّرِ
نَلْنَا بِهَا آمَالَنَا فِي رَوْضَةٍ
تَهْدِي لِنَاشِقِهَا شَمِيمُ الْعَنْبَرِ
وَالْوَرَقُ تَشْدُو وَالْأَرَاكَةُ تَنْشِي
وَالشَّمْسُ تُرْفَلُ فِي قَمِيصٍ أَصْفَرِ (735)

وأحيانا أخرى كان ابن حمادوش ينتقد شعره كانتقاده مرثيته الطويلة في الشيخ أحمد ابن المبارك عند وفاته، إذ يقول: "وقد رثيته بقصيدة بقدر بضاعتي، ولم يرثه أحد قبلي فيما علمت فقلت:

أَفَلْتِ يَا شَمْسُ الْعَرَبِ فِي حَجَبِ الشَّرَى
وَأَبْقَيْتِ فَأَسَا فِي الظَّلَامِ وَفِي الغَمِ
فَحَيْرَتِ رِصَادًا وَعَطَلْتَ آلَةَ
وَفَرَّحْتَ شَيْطَانًا قَهْرَتَهُ بِالرَّجْمِ
أَيَا شَيْخَنَا شَيْخَ الْجَمَاعَةِ أَحْمَدَ
أَنْجَلَ مُبَارَكٌ وَصَلَتْ ذُو الرَّحِمِ (736)

(732) وردت "التسهد" بسين. لا نظن أنه خطأ في الطبع لأن محقق الكتاب صحح الكثير من الألفاظ الواردة في رحلة ابن حمادوش، وكثيرا ما كان يصحح هذه الألفاظ في هامش الصفحات؛ كما أنه نبه إلى أنه لم يتمكن من تصحيح الكثير من الألفاظ ولم يذكر السبب، ولعل لفظي: (بوجـ) و(التسهد) من تلك الألفاظ التي تغافل عنها أبو القاسم سعد الله.

(733) المصدر السابق، ص: 136/2

(734) الأبيات للشاعر محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم بن مرج الكحل يكنى أبا عبد الله. قدم مالقة مرارا وأقام بها مدة. وأبو عبد الله هذا من فحول شعراء الأندلس المفلحين. كان رحمه الله شاعرا مجيدا وكاتباً مطبوعاً. سلس الطبع رائق المعاني سهل الألفاظ ذاكراً للآداب متصرفاً بأنواع البلاغات. ينظر: أبو عبد الله بن عسكر، وأبو بكر بن حميس المالقي، (مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار)، تقديم وتخريج وتعليق: الدكتور عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت - لبنان)، دار الأمان للنشر والتوزيع، (الرباط - المغرب)، ط1، 1420 هـ/1999م. ص: 166.

(735) بين البيت الثاني والثالث ينقص بيت ألا وهو: وَالذَّهْرُ مِنْ نَدَمٍ يَسْفُهُ رَأْيُهُهَ فِيمَا صَفَا مِنْهُ بَغْيٌ تَكْـُـرُ وَيُنظَرُ: عبد الرزاق ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش الجزائري)، م.س، ص: 307/2. وينظر القصيدة: أبو العباس المقرئ التلمساني، (أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض)، تح: مصطفى السقا/إبراهيم الإياري/عبد العظيم شليبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة - مصر)، 1358هـ/1939م. ص: 315/2.

(736) ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 87/2

كما كان ابن حمادوش في بعض الأحيان يبنه على بعض المؤلفات، فيذكر حسننها وسيئها، كتعليقه على كتاب (تاريخ الدول) للملطي بقوله: "وهو كتاب عجيب حسن الصنيع، لولا أنه محشو كفرا تزل فيه الأقدام، فيجب التحذير منه، والله المستعان" (737).

كان للجانب النقدي حضور بارز في رحلة ابن حمادوش، حيث عالج الكثير من القضايا النقدية سواء كانت في الشعر أو في النثر، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على شيء واحد ألا وهو حسه النقدي، وذوقه الأدبي الذي تمتع به.

ج- الجانب الاجتماعي والحضاري:

عاجلت رحلة ابن حمادوش الكثير من القضايا الاجتماعية بدءاً بالمؤلف نفسه؛ فكثيراً ما كان رَحَّالنا يُعبر عن حاله الاجتماعي والضائقة المزرية التي كان يعيشها ولاسيما مع أهله وزوجه، من ذلك قوله: "... باتت أُمِّي عندي، فأخذت تلوم سعدي حتى قالت: يا ليتني لم ألدكم ذكوراً لسوء سعدكم، وكنت تعبت في السنة الماضية في المغرب من مرض وخسارة وضيق، ولم أر قطُّ ما رأيت فيه من ضيق العيش والخسارة، والعياذ بالله، حتى أيقنت الهلاك، فقدمت وجدت من الزوجة مثل ذلك، ولم أرها فرحت بقدمي، لأنها أيقنت أن أكثر المال ضاع لي فلم يبقى لها غرض فيّ، ولم تر لما عندي من العلم... فلم أحظ بهذه العلوم عندها. فله الصبر" (738).

وقال: "فحين أتيت للغداء نصف النهار وجدت الأهل في قلق، ففي يوم الجمعة خرجوا كلهم وأيقنوا أنني بعد خروجهم أتعب مع الزوجة كثيراً لأنها لا تستطيع السكنى وحدها، فبقيت في هول عظيم من الزوجة... غَضِبْتُ لدار أخيها وأرادت الفراق، وكان بيني وبينها ولدان سيدي حسن وسيدي حسين أصلحهما الله، صغاراً لم يبلغوا عاماً، فبقيت متحيراً" (739).

(737) المصدر نفسه، ص: 143/2

(738) ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 115/2

(739) المصدر نفسه، ص: 115/2

وقال - متحسرا- على كساد تجارته: "فرجعت كثيبا محزونا لقلّة ذات يدي، لأنّ كلما عندي سلعة كاسدة لا يمكن أن يؤخذ منها خبزة، وكثرة المطر وقلّة ما يباع واشتغال الناس بشؤونهم واجتماعهم وغربتي..."⁽⁷⁴⁰⁾

كما كان ابن حمادوش كثيرا ما يسرد لنا عادات وتقاليد سكان المغرب كسرده لعادة أهل تطوان لما نزل بها. "وكانت عادة قبيلة بتطوان ابتدعوها، إنهم يأخذون كلما معك، ويحملونه إلى دار العشر"⁽⁷⁴¹⁾... ثم يدفعون ما لا منفعة لهم فيه، ثم يتخلصون إلى أكل أموال الناس بالباطل، فيفتحون كلما معك ويأخذون خمسة لكل مائة مكسا، وتدفع من يدك زائدا على الخمسة أجرة العدول والعساس والحمال والقواني وكل الملائم⁽⁷⁴²⁾

وما ذكره أيضاً من تقاليد أهل فاس ولباسهم: "ثم أن البلاد فرحت وازينت يوم الخميس، إلا أن زيتهم بثياب ملبوس النساء، يعلقون القفاطين والمحارم وغيرها من خروم حرير وما تيسر، بخلاف زينة بلادنا... ومنها أن عادتهم يأكلون في يوم العنصرة هشيم أذنان الضأن بالقرفة والكسكس، وهذا أكل غالب أهل فاس..."

ومنها أن رجالهم لا يتعممون إلا القليل، وأن نساءها لهم عمائم كبار إما من حرير فثمانية عشر ذراعا بذراع بني آدم المعلوم في الأسواق وأكثر... أو يتعممون بالشاش الهندي، وأو بالشقة الجيدة المصري"⁽⁷⁴³⁾.

وأحيانا كان ابن حمادوش يستقبح بعض عادات المغرب كقوله: "من أقبح ما في المغرب كله حماماتهم، ويؤدون عوراتهم فيها..."⁽⁷⁴⁴⁾

كما كان للجانب الحضاري نصيب وافر في رحلة ابن حمادوش تمثل في وصف المعمار والآثار التي زخرت بها بلاد المغرب وكذلك حدائقها وحيواناتها، من ذلك ما قاله في بسايتها: "ومن غريبها

⁽⁷⁴⁰⁾ المصدر نفسه، ص: 108/2

⁽⁷⁴¹⁾ دار العشر: دار الجمارك أو الديوانة

⁽⁷⁴²⁾ المصدر نفسه، ص: 31، 32/2

⁽⁷⁴³⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 94/2

⁽⁷⁴⁴⁾ المصدر نفسه، ص: 94/2

قسمة مياهها حتى تعم البلاد كلها من البساتين ودُور وغيرها...ومنها نحو ربع البلد جنات معروشات...فيها ثلاثة جداول ماء أحدها كبير أقمنا فيه سبعة أيام بسبع شياه، ومنها أن الزرزور ساكن فيها في أركانه كالبرطال يبيض بيضا رقيقا طويلا بين الزرقة والخضرة زنجاري. وكذا في مكناس وصومعها مسكونة بالشقشاق المسمى عندنا بالالارج⁽⁷⁴⁵⁾ يبيض ويفرخ⁽⁷⁴⁶⁾.

ورغم أن رحلة ابن حمادوش تميزت بالقوة السرديّة والدقة الوصفية، إلا أنه زيادة على ذلك كان يدعم وصفه بصور وجداول وخرائط تزيد من قوة التصوير لدى القارئ وكأن الشيء الموصوف أمامه، فمن أمثلة ذلك ما أورده من غرائب مرّجٍ شاهده أثناء توجهه إلى مدينة مكناس: "ومن غرائب ما رأيت أن في هذا المرج قوارب يصطادون بها السمك والطير والبيض، ويتعدون عليها من ناحية إلى أخرى، ويحملون عليها أحمال الزرع وغيره، وهي من حُرم البردي: يعقدون حزمة بحبال الدوم الرقاق ويجعلونها وسطا، ويعقدون حزمتين يجعلون من كل ناحية واحدة عالية يمينا وشمالا، ووسطها منخفض، ويحملون ذلك بالربط من مقدمها، ويشدون ربط الكل... ويركب فيها ويمسك في يده عودا طويلا يكتد به ولا يقذف... وتلك الخطوط المحوقة داخله هو موضع ربطه بالخزم، حبال الدوم الرقاق، وهذا غريب جدا ما رأيت مثله قط. ولا يضع تحته لا قرع ولا قرب بخلاف ما يوجد في النيل فإنه لا يبلغ هذه الصحة"⁽⁷⁴⁷⁾



قارب من ورق البردي

⁽⁷⁴⁵⁾ يقصد طائر البراج الذي يعيش في المرتفعات خاصة في صوامع المساجد والأعمدة الكهربائية.

⁽⁷⁴⁶⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 94/2

⁽⁷⁴⁷⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 74/2

نلاحظ مقارنة المؤلف بين ما يجري في وديان المغرب ووادي النيل بمصر، وهذا يدل على أن ابن حمادوش شد الرحال إلى مصر قبل المغرب، وربما كان سرد لنا أخبارها في الجزء الأول.

ح- الجانب السياسي والاقتصادي:

شهدت رحلة ابن حمادوش العديد من القضايا السياسية، لعل أبرزها وأهمها تلك الثورة الكبيرة التي شهدتها المغرب عام 1156هـ، والتي تمثلت في انقلاب حاكم مدينة تطوان أحمد الريفي باشا على السلطان مولاي عبد الله. وحسيبني أبي أحاول أن أختصر ما جاء على لسان ابن حمادوش في وصف هذه الثورة: "...وذلك أن يوم الخميس سابع أبريل الموافق لثالث وعشرين صفر، وقع قتال بين العسكرين الذي أشرت إليه أول هذا الجزء. وذلك أن الباشا أحمد بن عبد الله الريفي كثر ماله وتجبر في نفسه وطغى على عباد الله حتى قرر المكوس كأنها سنة، ثم من تجبره أراد أن يدعي السلطنة لنفسه، فلم يمكنه ذلك لأن عادة أهل المغرب لا يطيعون إلا الأشراف، ثم أدلى بحجة وأنه شريف فعرفها كبارهم وأنها زور... فجهز الريفي محلة عظيمة وذهب يحاصر فاس، فلما تمت الحسوم خرج مولاي المستضيء بنور الله⁽⁷⁴⁸⁾ بمحلة أخرى ونزل قبالة الريفي وأتت محلة العبيد ونزلت بازاء الجميع، وبقيت فاس محصورة حتى هموا أن يهدموها فبعث الريفي على تطوان وأتوا بالمساحي والمكاتل، وأقسم أنه لا يُبقي فيها شجرا ولا حجرا... فبلغ ذلك علماء فاس فاشتد عليهم الأمر وكانوا تحالفوا مع العرب والبرابر فجمعوهم لهذا الخميس، وأصبح علماءهم يخطبون عليهم بأن هذا جهاد قد وجب وعيب قد قرب، فتأهبوا لقتالهم، ولو رأيتم النصارى خلفكم فاتركوهم واشتغلوا بقتال هؤلاء الظالمين الباغين... فرفعوا الريات وانسلوا عليهم من كل حدب، والسلطان مولاي عبد الله في وسطهم، فلما رأى الباشا ذلك ركب في فرسانه ورجاله... ونادى مولاي عبد الله حين رأى انكسار العبيد وفرارهم: اتركوا العبيد وعليكم بريفي الباشا أحمد ولد القائد علي بن عبد الله، فأدركوه... وتركت محلته فأكلت كلها [أي أُبيدت كلها] ومحلة العبيد كلها، وفر الفارون، فلم يدروا ما وقع بعد ذلك"⁽⁷⁴⁹⁾.

⁽⁷⁴⁸⁾ المستضيء بنور الله: تولى السلطنة في فاس ونواحيها سنة 1151 وبعد حروب وفتن مع أخيه عبد الله استقر في أصيلا 1164 ثم انتقل إلى سجلماسة

سنة 1166 وظل بها إلى أن توفي سنة 1173. ينظر: ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش الجزائري)، م.س، ص: 75/2

⁽⁷⁴⁹⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 75/2

وزاد ابن حمادوش قائلا: "ومن الغد الأربعاء، أنا جالس في بيتي في فندق الرحبة القديمة بستة فلوس اكرتريت لليوم، إذا بالناس دخلوا، قالوا سمعنا المنادي ينادي بنصر مولاي عبد الله..."⁽⁷⁵⁰⁾

ثم بعد ذكر عدة مواضيع ك(توجهه إلى فاس- وإصابته بالحمى- ووفاة الشيخ ابن المبارك- وعادات أهل فاس والجزائر...) عاد لمواصلة قصة السلطان مولاي عبد الله بعد مقتل الريفي؛ إذ يقول: "فلما قُتل الباشا، ذهب بجنوده [أي السلطان عبد الله] إلى طنجة ليخرج الأموال والذخائر... فلما أراد توجيه ما عبأ إلى فاس قيل له أن مولاي المستضيء بنور الله في ثمانية آلاف فارس منتظر، فخرج السلطان بجيوشه حتى بلغ دار العباس، موضعا قريبا من القصر، فتلاقا العسكرات فحمل عسكر السلطان على عسكر مولاي المستضيء فولوا الأدبار من حينهم، فبقي عسكر السلطان يضرب أعناقهم ويأخذ خيلهم وسلاحهم حتى لم يبق إلا من فر من القليل... وفر

المستضيء حتى دخل سلا فاجتمع عليه من اجتمع وناق عليه رباط سلا فبقي بينهم القتال مدة..."⁽⁷⁵¹⁾

ومن القضايا السياسية التي ذكرها ابن حمادوش - كذلك- رفض استقبال سفير عثماني في الجزائر، يقول: "وفي حادي عشر منه [جمادى الأولى] موافق عشره يونيه دخل رجل من آل عثمان سفيرا، يسمى عندهم قَبْجِي، بات في المرسى، ومن الغد طلع راكبا واحده، لم تتوجه له الاختيارية لعلمهم أن ليس تحت مجيئه منفعة"⁽⁷⁵²⁾

أما الجانب الاقتصادي فتمثل غالبا في تجارة ابن حمادوش، حيث كثيرا ما كان يسرد لنا أخبار تجارته من سلع وربح وخسارة ومقايضة، من ذلك ما قاله: "ثم بقيت في فاس إلى يوم الجمعة الثانية عشر من شوال المذكور الموافق ثمانية عشر نوفمبر قايضت جميع سلعتي بمائة وخمس أذرع ملف

⁽⁷⁵⁰⁾ المصدر نفسه، ص: 78/2

⁽⁷⁵¹⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 95/2، 96

⁽⁷⁵²⁾ المصدر نفسه، ص: 120/2

وردي بل عكري وسبعة وثلاثين رطلا ونصف قشينية، فهذا جميع ما قطعت سلعتي، وخمسة عشر مثقالا مغربية، وهي عشر سلطانية صفر، وخمسة أوراق فضة...» (753)

أو قوله في تهربه من دفع الضريبة أو المكس - كما سماه- في مرسى تطوان: "...خرجت من تطوان... وكان لي ما ذكرت أولا من الملف والقشينية، وكنت أخذت ذلك من الخواجة الحاج عبد الخالق عديل، واشترطت عليه أن لا ندفع عليها مكسا في مرسى تطوان، فكتب لي بذلك لصاحبه الحاج الطاهر سخسوخ، فلما وصلت إليه قبض الورقة وأجاز ذلك... وإن جملة ما عندي مائة ذراع مغربية وخمسة أذرع ملف شكرناط، أي أحمر، لكن الوصف لم أكتبه في ورقتي، وربع قنطار ونصف ربع قشينية...» (754)

ما ميز رحلة ابن حمادوش أن صاحبها كان شاهدا على كل أحداثها ووقائعها، فهي تروي لنا أحداثا سياسية واقتصادية واجتماعية مهمة استقاها صاحبها من واقع عصره وعائشه هو، ولم يروه عن أحد غيره، وهذا الطابع الواقعي كان مصدرا قويا ميز ابن حمادوش عن كثير من الرحالة الذين كانوا يسردون بعض الوقائع عن غيرهم.

خ- الجانب التاريخي:

عُني ابن حمادوش بعناية كبيرة بهذا الجانب؛ إذ يمكننا ملاحظته بوضوح في القسم الأخير من الرحلة من الصفحة 167 إلى الصفحة 233 بدأ من تاريخ صدر الإسلام وبنو أمية، مرورا بخلفاء الدولة العباسية، وانهاء إلى سلاطين آل عثمان، فأحيانا نجد رحالتنا ابن حمادوش يتوسع في سرد الأخبار التاريخية كقصة أصحاب الفيل أو هجرة النبي صلى الله عليه وسلم أو قصة مقتل الحلاج...، وأحيانا أخرى نجد يوجز في سرد القصة كقصة مقتل الخليفة هارون الرشيد (ت. 193هـ) أو قصة الخليفة المأمون...

وكان مصدر ابن حمادوش الأول في هذا الجانب هو كتابي: (الاكتفاء) لابن الكردبوس و(تاريخ الدول) لأبي الفرج الملطي.

(753) المصدر نفسه، ص: 98/2

(754) المصدر نفسه، ص: 111، 112، 113/2

وأمثلة هذا الجانب عديدة نحاول انتقاء بعضها مما رواه ابن حمادوش عن تاريخ صدر الإسلام وبني أمية: "أول الإسلام ملك النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ثم تولى بعده أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم تولى بعده عمر الفاروق رضي الله عنه، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم علي رضي الله عنه، ثم الحسن بن علي رضي الله عنهم أجمعين، فخُلِعَ لأنه السادس.

ثم معاوية ابن أبي سفيان الأموي، ثم ابنه يزيد، ثم معاوية بن مروان بن الحكم، ثم عبد الملك ابن مروان، ثم عبد الله ابن الزبير، فخُلِعَ لأنه السادس، وقُتِلَ، ثم الوليد بن عبد الملك، ثم سليمان بن عبد الملك، ثم الوليد بن يزيد، فخُلِعَ لأنه السادس وقُتِلَ.

ثم دولة بني العباس. قال الكردبوس، بعد البسملة ذكر بني العباس بن عبد المطلب بن هاشم، وسبب ظهورهم على بني أمية"⁽⁷⁵⁵⁾

أو في قصة مقتل البرامكة والخليفة هارون الرشيد، فقال: "وفي عام 190هـ قتل البرامكة ومعهم جعفر⁽⁷⁵⁶⁾، ومات هارون الرشيد بطوس بقرية يقال لها سباد من بلاد خرسان يوم السبت لأربع ليال خلون من جمادي الأخيرة عام 193هـ، وهو ابن أربعة وأربعين سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما، وتولى ابنه الأمين"⁽⁷⁵⁷⁾

كما شهدت رحلة ابن حمادوش الكثير من تراجم الأعلام ووفياتهم من: رُسل وأنبياء (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)، وخلفاء وسلاطين، أدباء وشعراء،...، ونذكر بعض التراجم التي أوجز فيها ابن حمادوش فمنها:

ذِكْرُ أَيُوبَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): "وهو من أئمة الروم، لأنه ولد العيص، وهو أيوب بن بوص بن رازخ ابن العيص بن اسحاق بن إبراهيم (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ)، وكان أيوب نبيا في عهد يعقوب، وعاش ثلاثا وتسعين (93)، ومن ولده بشر بعثه الله بعد أيوب وسماه ذا الكفل".

⁽⁷⁵⁵⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 167/2

⁽⁷⁵⁶⁾ جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك أبو الفضل البرمكي وزير الرشيد هارون. ذكر أنه توفي عام 187هـ بخلاف ما ذكره ابن حمادوش. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.س، ص: 9/6. وينظر: ابن عساکر، (تاريخ دمشق)، تح: عمرو بن غرامة العمري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،

1415هـ/1995م، د.ط، ص: 174/72

⁽⁷⁵⁷⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 176/2

ومنها ذكر شعيب (عَلَيْهِ السَّلَام): "قد اختلف في نسبه، فقيل إنه من ولد إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَام)، وقيل من ولد بعض الذين آمنوا بإبراهيم" (758).

ومنها ذكر مولد الرسول صلى الله عليه وسلم: "وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل، وكان قدوم أصحاب الفيل قبل ذلك في نصف محرم، فبين الفيل وبين مولده صلى الله عليه وسلم خمس وخمسون يوماً، وولد يوم الإثنين لعشر أو لاثني عشرة خلون من ربيع الأول، وبين مولده الشريف وهبوط آدم (عَلَيْهِ السَّلَام) ستة آلاف ومائة وثلاث وستون سنة، والله أعلم" (759)

وذكر من الرسل والأنبياء: (لوط وموسى وداوود ويونس وعيسى (عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَام))
وذكر من الخلفاء: هارون الرشيد وابنه المأمون عبد الله بن هارون الرشيد (ت218هـ)، ثم المعتصم (ت227هـ)، والواثق (ت232هـ)، والمتوكل (ت247هـ)، والمنتصر (ت248هـ)، والمستعين (ت252هـ)، والمعتز (ت255هـ)، والمهتدي (ت256هـ)، والمعتمد (ت280هـ)، والمعتضد (ت289هـ)،... إلى الراشد (532هـ) (760)

وذكر بشوات الجزائر: من عبد الله بلك باشا عام 1064م... إلى إبراهيم باشا خزناجي عبدي عام 1145م (761)

وذكر سلاطين الدولة العثمانية: من أولهم السلطان عثمان خان عام 641هـ... إلى الخامس والعشرين السلطان محمود خان عام 1143هـ. وزاد المؤلف: "وهو باق إلى الآن" (762) أي أن ابن حمادوش كان من معاصري آخر خليفتين لدولة العثمانية وهم السلطان أحمد خان عام 1115هـ والسلطان محمود خان، ذلك لأن ولادة المؤلف كانت عام 1107هـ من شهر رجب.

وذكر العلماء لاسيما أصحاب الطب والفلك والهندسة والرياضيات والفيزياء وغيرها، فذكر أبا معشر البلخي (ت279هـ)، ومحمد البتاني (ت317هـ)، ومحمد الرازي (ت320هـ)، والفارابي

(758) المصدر نفسه، ص: 210/2

(759) المصدر نفسه، ص: 212/2

(760) ينظر: المصدر نفسه، ص: 171/2 - 201

(761) ينظر: ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 225/2 - 233

(762) ينظر: المصدر نفسه، ص: 233/2 - 235

(ت339هـ)، وابن سينا (ت428هـ)، وأحمد البيروني (ت440هـ)، واقليدس النجار، وغيرهم... (763)

وإضافة إلى هذه الثروة التاريخية؛ ضمت الرحلة ثروة اجتماعية تمثلت في العديد من عقود الزواج التي كانت تعقد في فترة الحكم العثماني، وقد قدم لنا ابن حمادوش الكثير من صيغ العقود التي كانت تكتب في ذلك العهد، نذكر من بينها عقد زواج أخت المؤلف والذي نص على مايلي:

"الحمد لله، تزوج على بركة الله وعونه، وعلى منهاج الشرع القويم وطريقة [هناك حذف في النسخة]... المكرم الأجل الزكي الأفضل السيد علي الحرار بن الحاج علي، أمين الحرارين كان، مخطوبته وكريمته البنت آسيا البكر في حجر والدها المكرم الأجل السيد الحاج محمد الدباغ⁽⁷⁶⁴⁾ ابن حمادوش على صداق مبارك ميمون قدره ما بين نقد محضر وحال منظر وكالي مؤخرا أربعمائة دينار جزائرية خمسينية العدد من سكة التاريخ وقفطان واحد قذيفة... ألف الله بينهما باليمن والبركة، وخار لهما في حالتي السكون والحركة..."⁽⁷⁶⁵⁾

ويبدو لنا من خلال هذه الوثيقة أن أسرة المؤلف جُلها من الحرفيين فأبوه وعمه ينسبان إلى صناعة الدباغة، وتزوجت أخته من أسرة تمارس الحرارة، وتزوج هو من أسرة تتعاطة الصفارة.

ورغم الطابع الواقعي الذي ساد في الرحلة إلا أنه تخللها بعض الخرافة والخيال، مثل قصة (العنقاء مع سيدنا سليمان **عَلَيْهِ السَّلَام**) والمعروف أن العنقاء طائر أسطوري نجده في القصص والروايات الخيالية كقصة (السندباد)، إضافة إلى ذلك أن المؤلف لم يسمي المصدر الذي انتقى منه هذه القصة، وحتى أنها لا توجد في أي مصدر من مصادر السير، أو كتب قصص الأنبياء **عَلَيْهِمُ السَّلَام**. ونحاول في هذا السياق أن نسرد بعض ما جاء في هذه القصة، قال ابن حمادوش: "ابتدأت مطالعة سرد سيرة لم تُسمى فيها حكاية العنقاء مع سيدنا سليمان... عاتب سليمان **عَلَيْهِ السَّلَام** العنقاء

⁽⁷⁶³⁾ ينظر: المصدر نفسه، ص: 139/2 - 143

⁽⁷⁶⁴⁾ الدباغ: وهو الذي يُهذب الجلود ويُعالجها، والدباغ: ما يُدبغ به الجلود. ينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، (كتاب العين)، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط، ص: 395/4 [باب: العين والبدال والباء]. وينظر: محمد بن أحمد بن الأزهرى الهروي، (تهذيب اللغة)،

تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، (بيروت- لبنان)، 2001م، ط1، ص: 94/8. [باب الغين والبدال]

⁽⁷⁶⁵⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 243/2، 244

في بعض عقابه فقال لها: إنك تأتين كذا وتفعلين كذا، فقالت له: والله رب السماء والثرى لنحرص على الهدى ولكن قضاء الله تعالى يأتي إلى منتهى علمه وقدره. فقال لها سليمان: صدقت لا حيلة في القضاء، فقالت العنقاء: لست أومن بهذا، قال سليمان ألا أخبرك بأعجب العجب؟ قالت بلى، قال: إنه ولد الليلة غلام بالمغرب وجارية بالمشرق وهذا ابن ملك وهذه ابنة ملك يجتمعان في أمنع المواضع وأهوالها على سفاح بقدر الله فيهما، قالت العنقاء يا نبي الله وقد ولدا؟ قال: نعم الليلة، فقالت: فهل أخبرت بهما وما اسم أبويهما؟ قال: نعم كذا كذا، قالت العنقاء: لكني يا نبي الله أفرق بينهما وأبطل القدر، قال لها فإنك لا تقدرين على ذلك، قالت: بلى. فأشهد سليمان عليها - صلى الله عليه -، الطيور وكفلها اليوم، فصارت اليوم كفيلتها.

ومرت العنقاء وكانت في كبر الجمل عظما ووجهها وجه انسان وتديها تدي المرأة ويدها وأصابعها كذلك، فتحلقت في الهواء حتى أشرفت على الدنيا...⁽⁷⁶⁶⁾

ربما أراد ابن حمادوش إضافة بعض الإثارة والتشويق على رحلته، فأورد هذه الحكاية.

د- جانب العلوم:

يُعد هذا الجانب من الخصائص التي ميزت رحلة ابن حمادوش عن غيرها من الرحلات، فقد عُني رحالتنا بمجالات هذا الجانب من طب وصيدلة وفلك ورياضيات وفيزياء وكيمياء وهندسة وفلسفة... وهذه العناية لا نجد لها عند سابقيه ولا معاصريه الذين صبوا جلّ اهتمامهم على سرد أخبار رحلاتهم ومشاهدات أسفارهم.

ويعد اهتمام ابن حمادوش بماته العلوم أمراً طبيعياً لأنه اشتهر عنه أنه كان طبيباً مُجداً، والمعروف أن الطبيب يهتم بالعلوم التي تقارب مجاله، فقد كان ابن حمادوش يمزج بين التجربة والمشاهدة؛ "حيث كان يخرج للجبال المجاورة لمدينة الجزائر لإجراء التجارب والتقاط الأعشاب والتدرب على رمي القنبلة ووزنها وبارودها ومسافة انطلاقها. وعندما كان في المغرب سجل ملاحظات علمية

⁽⁷⁶⁶⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 220/2-224

هامية أثناء مروره من تطوان إلى فاس والعكس، فلاحظ ملوحة وعذوبة الأمياه، وأنواع الأشجار والطيور والحيوانات وغرائبها، كما لاحظ حركات النجوم، وعالج عدة أمراض كالحمى وأمراض الأعضاء التناسلية وغيرها⁽⁷⁶⁷⁾. ومصادر ابن حمادوش في هذه العلوم عديدة ومتنوعة، وقد سبق الإشارة إليها.

وأمثلة هذه العلوم كثيرة نحاول أن نعدد بعضها فيما يلي:

أ- الطب والصيدلة:

يصرح ابن حمادوش قائلا: "...فالحمد لله على ذلك، فإن الأعشاب المقيدة في تألفي كلها معروفة عندي. فاليوم، والحمد لله، أنا عشاب وصيدلاني طيب في بعض الأمراض"⁽⁷⁶⁸⁾ قوله (تألفي) يعني كتابه الكبير (الجوهر المكنون من بحر القانون) في الطب، وقد لخص لنا ابن حمادوش ما جاء فيه بقوله: "ابتدات تأليف الجوهر من بحر القانون، تأليف حسن في الطب... وقد جعلته مرتبا على أربعة كتب:

الكتاب الأول: في السموم وذوات السموم وعلاجاتها.

الكتاب الثاني: في الترياقات وما يجري مجراها إن وجد من الباذ زهرات وبعض المعاجين الذي يضطر إليه المرء.

الكتاب الثالث: في الأمراض، مرتبا ذلك على جدول حنين ابن اسحاق المتطبب...

ونويت أن أجعل الكتاب الرابع في حل ألفاظ المفردات وتعريبها ما أمكن، إن شاء الله وبالله تعالى التوفيق"⁽⁷⁶⁹⁾.

والكتاب الرابع طبع منفصلا بعنوان (كشف الرموز في بيان الأعشاب) وهو مترجم أيضا إلى اللغة الفرنسية.

ومن علاجات الأمراض التي ذكرها ابن حمادوش علاج أمراض المعدة كما جاء في قوله: "وفي يوم الخميس عشرين من جمادى الثانية... ركبت معجون على معجون منوال الفلاسفة، لكن لم أسبق به، وسميته معجون الصلاح ومعجون الواحد، لأن عدد وزنه يجمعها واحد. وفي السابع والعشرين

⁽⁷⁶⁷⁾ ينظر: أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م)، م.م.س، ص: 428/2، 427.

⁽⁷⁶⁸⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 164/2.

⁽⁷⁶⁹⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 160/2، 161.

طبخت شراب المصطكي، وهو من أفخر الأشربة، أخذته عن الشيخ سيدي الحاج عبد الوهاب أدراق... في شرح حديث: «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البرودة»⁽⁷⁷⁰⁾ وهذا الشراب يقوم في منفعه مقام الخمر، وصفته أوقية مصطكى تُطبخ في خمسة أرطال ماء حتى يبقى أقل من النصف، ثم يُصفى ويُلقى عليه مثله عسل متزوع الرغوة ويُطبخ حتى يكون في قوام الأشربة ويُحفظ، فتلقى أوقية منه في رطل من ماء ويُشرب، وهو نافع جدا، وبالله التوفيق⁽⁷⁷¹⁾

ويسرد لنا علاجه للحمى بعد إصابته بها: "... كانت أصابني حمى شديدة، فلم أستطع القراءة، حتى ألهمني الله أن أشتري ثلاثة أثمان من الكين كينه، فاشتريتها بستة موزرنات، فلما أخذتني واشتد بي بردها ضحي... دقت الثمن الأول وشربته في فنجال قهوة من البن، فلما استقر في بطني أمسكت الأعضاء كلها عن الاختلاج إلا عرقا واحدا في يدي اليمنى بقي يختلج اختلاجا يسيرا، فلما شربت الثمن الثاني انقطع من كل عضو، ثم شربت الثمن الثالث فلم يبقى بي ألم منها، إلا أنها لما كسر سورتها الدواء كأنهما تعاندا وتدافعا فتقلت من شدة الحرارة ولازمي النوم، فبقيت كذلك إلى غروب الشمس، فانصرفت تلك الحرارة عني، والحمد لله، وقمت توضأت وصليت ما فات وما حضر، وبت نعم مبيت، وكان آخر ما رأيت الحمى، والحمد لله⁽⁷⁷²⁾

ب- الفلك:

يقول: "وفي يوم الجمعة سادس وعشرين ذي القعدة ابتدأت تأليفا في علم الفلك، جمعت فيه غريب ما أتعلم. فمنها سبعة تواريخ فيه كلها تعلمتها: العربي والمسيحي والاسكندري... وزدت فيه الفارسي والملكي والقبطي والعبري"⁽⁷⁷³⁾

وكثيرا ما كان يظهر علم الفلك في أسلوبه، إذ يقول مثلا في تاريخ ثورة زاوارة 1158هـ: "اقترن المريخ وزحل يوم الجمعة أول يوم من ربيع الأول موافق ثاني وعشرين مارس في تاسع وعشرين من

⁽⁷⁷⁰⁾ قال علماء الحديث: "أما الحديث الدائر على ألسنة كثير من الناس: «الحمية رأس الدواء، والمعدة بيت الداء، وعودوا كل جسم ما اعتاد»، فهذا الحديث إنما هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، ولا يصح رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم. ينظر: محمد ناصر الدين الألباني، (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة)، دار المعارف، (الرياض - المملكة العربية السعودية)، 1412هـ / 1992م، ط1، ص: 419/1

⁽⁷⁷¹⁾ ينظر: ابن حنادوش، (رحلة ابن حنادوش)، م.س، ص: 121/2

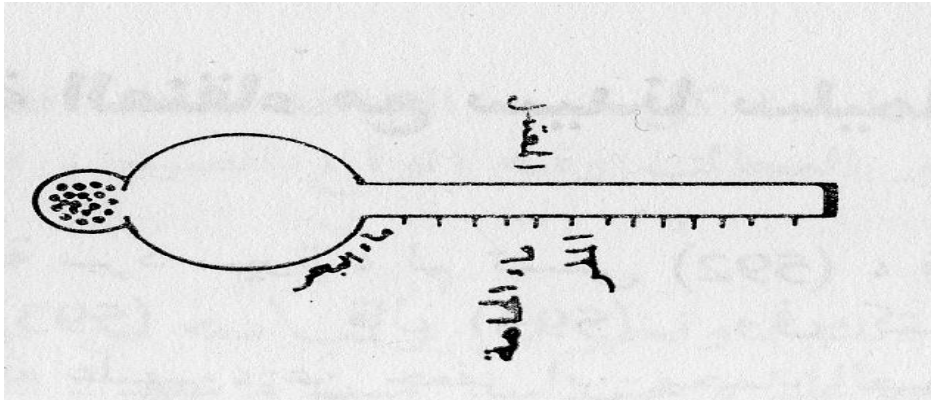
⁽⁷⁷²⁾ ابن حنادوش، (رحلة ابن حنادوش)، م.س، ص: 84/2

⁽⁷⁷³⁾ المصدر نفسه، ص: 264/2

السنبلة، وهما راجعان، واجتمع الشمس والقمر وعطارد والرأس في أواسط الحمل والطاقع عشرون من السرطان...»⁽⁷⁷⁴⁾

ج- الكيمياء:

أبرزها كان صنعه لميزان الماء وهو بالجزائر، يقول: "وماء البحر هو أخف الأمياه يصل إلى منتهى مجوف، وتلك النقط التي أسفله مثلها فيه من حب الرصاص الرقيق. فإذا كان الماء أثقل منه غرق المجوف بقدر ثقله، إما بدرجة أو درجتين أو أكثر. فماء "الحامة عندنا وماء تالاملي"⁽⁷⁷⁵⁾ أسماء مائين أعدل الأمياه عندنا بلغ إلى السادسة، فهو أثقل من ماء البحر بستة أدراج، وماء المطر وبعض الآثار أثقل منه بدرجة وأثقل من ماء البحر بسبعة أدراج، وما كان أثقل منه يغرق أكثر لأن جملة نقطه ثلاثة عشر، خمسة حمر والسادسة خضرا وفوقها ستة حمر والسابعة خضرا، وهو من غريب ما رأيت"⁽⁷⁷⁶⁾



[رسم لميزان الماء من المخطوط]

د- الهندسة:

قال: "وفي يوم الخميس مو في عشرين من صفر ألفت "فتح المجيب في علم التكعيب". وسببه أني كنت أطلع تأليفا في المساحة والهندسة من تأليف النصارى، فوقع على مسألة من علم التكعيب

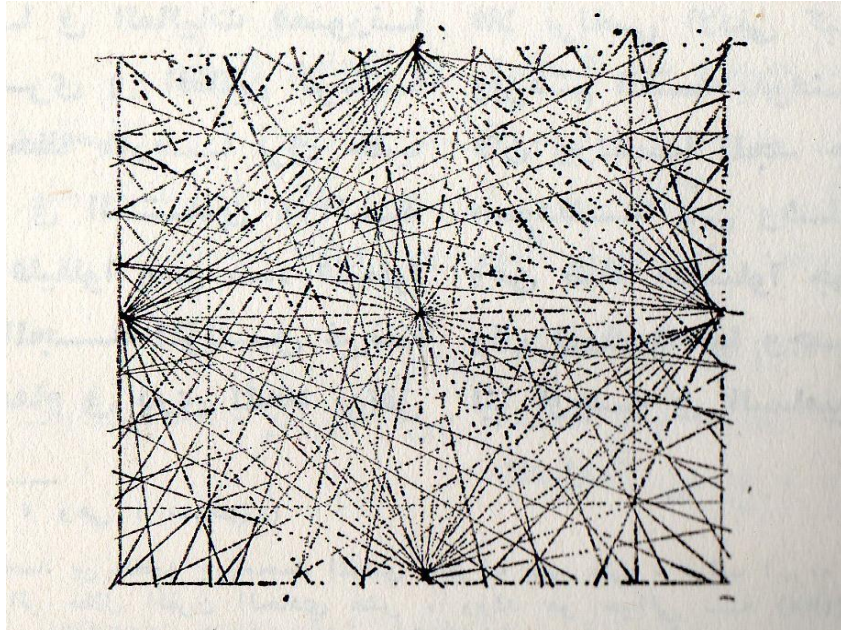
⁽⁷⁷⁴⁾ المصدر نفسه، ص: 163/2

⁽⁷⁷⁵⁾ (الحامة) و(تالاملي): تنطق اليوم: (التلملي): اسمان لضاحيتين في مدينة الجزائر. ينظر: (الرحلة)، ص: 219/2

⁽⁷⁷⁶⁾ المصدر نفسه، ص: 219/2

فأعملت فكري حتى أخرجتها، ثم بدا لي أن أوّلف فيها، وكنت أحق أن لي فيها تأليفا قبل فأضفتها له⁽⁷⁷⁷⁾.

ويظهر في رسمه لخارطة رياح البحر، يقول: "وفي يوم الإثنين ابتدأت خارطة رياح البحر، وهي صنعة هندسية سهلة المأخذ: تدور دائرة بقناص بلا حبر، ثم تخط من كل ناحية من نواحيها الأربع خطا أسود، تصير الدائرة خطوطا مربعة، ثم تقسم الدائرة على اثنين وثلاثين قسما متساوية، وتخط خطوطها بعد أن تجعل مركزها دائرة ومركز كل قسم كذلك، وتخط من كل إلى الأخرى خطا، والله المستعان⁽⁷⁷⁸⁾"



[صورة من المخطوط]

هـ- الرياضيات (الحساب):

قال: "وقع لبعض مدعي الحساب إشكال في مسألة ، فعرضها على بعض أصحابي فأتاني يستفتيني فيها، وكنت لأكثر من عشر سنين لم أخض مثلها، وهي: هلك هالك وترك أما وزوجة وأخوين لأم وأخوين لأب، والتركة خمسة وثلاثون دينارا وثوبا وخاتما، فأخذت الأم الخاتم ودفعت أحد

(777) ابن حدادوش، (رحلة ابن حدادوش)، م.س، ص: 265/2

(778) المصدر نفسه، ص: 255/2

عشر ديناراً، وأخذت الزوجة الثوب وأربعة دراهم. كم كانت التركة؟ وكم ثمن الثوب والخاتم؟
ففكرت فيها ملياً ثم أجريت القلم في القرطاس، فكان الجواب شاهداً بالحواس، فحمدت الفتاح،
وأثبتته في الصحاح، فقلت: العمل في ذلك أن تصحح الفريضة وتسقط سهام المصالحين لأنها من
باب الصلح من الفريضة وتسقط أربعة دراهم المحمولة على الثوب من الاحدى عشر الذي دفعت
الأم أو من الخمسة والثلاثين مجموع الناظر وتحمل الدراهم على الدراهم. فإن طرحت الأربعة من
الاحدى عشر، الباقي سبعة تحملها على الخمسة والثلاثين، أو إن طرحت الأربعة من الخمسة
والثلاثين يكون الباقي احدى وثلاثين تحملها/ على الاحدى عشر يكون في صورتين اثنان
وأربعون. فهو ما يُقسم على بقية الورثة غير المصالحين. فيكون لأخوين الأب ثمانية عشر لكل
تسعة لكل واحد، وإذا كان لأخوين الأم أربعة وعشرون وهي اثنا عشر لكل واحد. وإذا كان
لأخوين الأم ثمانية عشر لأولهم ثلاثة سهام في أصل الفريضة، وهي مثل سهام الزوجة، فلزوجة
ثمانية عشر ديناراً مثلهما. وقد أخذت أربعة منها، فيكون الباقي، وهو أربعة عشر، ثمن الثوب،
ويكون للأم من التركة سهمان، فهي مثل أحد الأخوين للأم. وقد أخذ كل واحد اثني عشر، فهي
مثله اثني عشر، وقد دفعت من يدها احدى عشر، فيكون ثمن الخاتم ثلاثة وعشرون ديناراً، فإذا
ضمت الثلاثة والعشرين ديناراً ثمن الخاتم إلى الأربعة عشر درهماً ثمن الثوب يكون سبعة وثلاثين
ديناراً، أجمعها إلى الخمسة والثلاثين، التركة، يكون جميع التركة اثنين وسبعين ديناراً، وبالله
التوفيق. وهذه صورتها:

				3		2	
12	31	2 : 1	42	14	35 ث خ	24	12
12	23				خ	04	2
18	14				ث 4	06	3
12		0 : 0	12	4		04	4
12		0 : 0	12	4		04	
09		0 : 0	09	3		03	3
9		0 : 0	09	3		03	

أما زوجة
أم } أخا
أخا }
أب } أخا
أخا }

[صورة من المخطوط]

وهذا الوجه الذي حضرني وإن كان يصح بأوجه آخر⁽⁷⁷⁹⁾

و- الفلسفة:

يقول: "وفي سادس عشرة، موافق أول يوم فصل الصيف، ابتدأت نسخ كتاب الجدل، وفي العشرين منه تمت شرح الجدل، وفي الحادي والعشرين من ابتدأت كتاب النجاح لابن سينا في المنطق، وفي الثالث والعشرين تمت كتاب الجدل للسمرقندي، وفي السادس والعشرين منه تمت كتاب الأحكام والطلاسم لابن البناء..."⁽⁷⁸⁰⁾

وإضافة إلى كل هذه العلوم أشار ابن حمادوش إلى علوم أخرى ألف فيها، لكنه اكتفى بالإشارة إليها فقط كالملاحاة أو (علم البلوط) كما سماه، والجغرافيا كرسمه لصورة الكرة الأرضية.

ومن خلال كل ما تقدم يتضح لنا يقينا أن كتاب (لِسَانُ الْمَقَالِ فِي النَّبِيَّاتِ عَنِ النَّسَبِ وَالْحَسَبِ وَالْحَالِ) يُعد قطعة مهمّة من تراث الجزائر خلال القرن الثاني عشر هجري (18م)، فقد حاول صاحبه ابن حمادوش ومن خلال رحلته المغربية سرد العديد من الجوانب العلمية والأدبية نحاول استنتاجها في ما يلي:

- تزخر الرحلة بمعلومات جمة عن عصره (فكريا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا)، كما تزخر بمعلومات كثيرة عن معاصريه وسابقه من مختلف الأعلام والشخصيات (رُسل وأنبياء (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)، وخلفاء وأمراء، وعلماء وفقهاء، وأدباء وشعراء...)

- اهتم ابن حمادوش بكل ما هو علمي من طب وصيدلة وفلك وحساب وهندسة... في عصر سادت فيه الثقافة الأدبية والفقهية والتصوف، وهذا ما لم نعرفه عند من سبقه أو عاصره، وهذا ما يُسمى الشذوذ الفكري.

⁽⁷⁷⁹⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.س، ص: 152/2، 153

⁽⁷⁸⁰⁾ المصدر نفسه، ص: 120/2

- جمع ابن حمادوش بين العمل (التجارة) وطلب العلم، فهو حين اهتم بتعلم الطب والصيدلة ركب الأشربة وصنع المعاجين والأدوية لبيعها، وهكذا زواج في شخصيته بين رجل العلم ورجل التجارة.

- جمع ابن حمادوش بين الجانب الثري والجانب الشعري في تناوله للكثير من الموضوعات.
- جمعت الرحلة بين عدة الأتماط، على غرار النمط السردى، والوصفى، والحوارى، وحتى التفسيري.

- التوثيق الدقيق لوقائع وأحداث الرحلة، فقد وثق صاحبها كل ما شاهده وعايه في سفره، إذ نجد يذكر التاريخ الهجري ثم الميلادى وحتى التاريخ الأسكندري في بعض الأحيان لكل خطوة يقوم بها.

- إضافة إلى الطابع الواقعي الذي زحرت به الرحلة، فقد تميزت بدقة الوصف وقوة التصوير، حيث تُمكن القارئ للرحلة من تصوير المشهد أو الخبر الذي يتم وصفه أو سرده وكأنه أمامه.

- التسلسل الزمني ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالرحلة، وهذا يزيد من طابعها الواقعي.

- تضم الرحلة وثائق لا غنى عنها للباحثين في التاريخ الاجتماعى والأدبى والدينى.

- تعد مصدراً مهماً في حياة المؤلف بعد أن صرح بضياغ مؤلفاته فهي مرآة أسفاره ونشاطه العلمى. كما أن الاجازات والعقود والقصص التي أوردتها ستظل مصدراً هاماً لدراسة الأدب وتاريخ الرجال والتراجم.

وما يميز الرحلة - أيضاً- هو ذكر التفاصيل الدقيقة بكل حذافيرها دون الإيغال أو إدخال عنصري الغموض والإبهام الذي يجعل القارئ لا يستوعب الرحلة أو بالأحرى لا يفهم أجزاءها ومعانيها. فرحلة ابن حمادوش كانت مفهومة وواضحة المعاني، وذات معانٍ موحية توحى بالبساطة والانسجام، إضافة إلى أنه وظّف مصطلحات بالعامية وهذا ما جعل الرحلة تبدو بسيطة وذات مستوى راقٍ.

لكنّ ما يُعاب على الرحلة أنّها تفتقر إلى الوحدة العضوية، وربما ذلك يعود إلى المنهج الذي سار عليه ابن حمادوش، فطريقة سرده للحوادث والأخبار كثيراً ما يتخللها الانتقال والاستطراد.

إضافة إلى ذلك فإنه بالرغم من فصاحة عبارته إلا أنه كثيرا ما كان يسوق الجملة سوقاً عامياً لا تخضع للقواعد الإعرابية والإملائية، وكثيرا ما كان ينبه على ذلك محقق الرحلة، بل صرح بأنه قد ترك تصحيح الكثير من الأخطاء على حالها وذلك لكثرتها.

ضف إلى ذلك أن هذا الخلط بين الفصحى والعامية يجعل الرحلة تُشكّل وتُعتم على القارئ ولاسيما في الأبيات الشعرية والقصائد، زد إلى ذلك أنها لم ترد مضبوطة الشكل، فلو كانت مضبوطة لكانت أهون على الأقل. وقد حاولت - مع استشارة أهل التخصص - أن أضبط الأبيات التي وردت في هذه الدراسة.

ومع ذلك فنحن لا نقلل من أهمية هذه الرحلة، فهي ستظل مصدرا لا غنى عنه للمهتمين بدراسة الحياة العلمية والاجتماعية والسياسية في المجتمع الجزائري والمغربي في فترة الحكم العثماني.

فالقارئ لهذا الجزء من الرحلة يدرك تماما أن ابن حمادوش كان على دراية وعلم بفن أدب الرحلات، الذي يجمع بين العلم وبين الأدب في نسق خاص يختاره كل كاتب رحالة. فجمع ابن حمادوش في رحلته كل ما تعلق بالعلوم التي حصلها من طب وكيمياء وفلك ورياضيات ومنطق في موضع ثم ذكر شيوخه ومن أجازوه في موضع آخر، وذكر ما ألفه في مختلف العلوم. وقدم مع كل هذا معلومات تاريخية واجتماعية واقتصادية، وعرض مقطوعات نثرية وشعرية من إبداعه أو إبداع غيره، ثم تعرض إلى سرد أحداث رحلته، وما يعرض له من مواقف وأحاسيس وفق ترتيب زمني دقيق باليوم والشهر والسنة⁽⁷⁸¹⁾.

فكل هذه الجوانب احتواها الجزء الثاني فقط، ولو عثرنا على الأجزاء الضائعة لتمكنا من معرفة أمور أخرى كثيرة عن شخصية ابن حمادوش.

لكن ومع كل هذه الجوانب التي عني بها ابن حمادوش نقول أن رحلته لم تُوف حقه من الدراسات والبحوث، والاهتمام بها ضعيف، رغم أنها من كتب الرحلات القليلة جدا والمتوفرة التي دُونت في العهد العثماني، فالكثير من كتب الرحلات التي دُونت في هذا العصر ما زالت إلى يومنا هذا في قيد الضياع.

(781) ينظر: سميرة أنساعد، (الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الهجريين-19/17م)، م.م.س، ص: 35

ولعل هذا النسيان والإهمال لهذه الشخصية الهامة في تاريخنا الأدبي والثقافي هو ما جعل الكثير من الطلاب اليوم لا يسمعون عن الرحالة ابن حمادوش ومصنفه (لسان المقال) أو بالأحرى لا يعرفون عنه شيئاً.

المبحث الثالث: خطاب الرحلة في كتاب: (فَتْحِ الْإِلَهِ وَمِنتِهِ فِي التَّحَدُّثِ

بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ)

مع دخول القرن الثالث عشر الهجري نجد أن الخطاب الرَّحلي واصل تطوره بشكل كبير، حيث شهد تأليف العديد من المصنفات الرَّحلية كما شهد العديد من الرحلات إلى مختلف الأمصار والبلدان لعل في مقدمتها، بلاد الحجاز، التي كانت لغرضين مقصودين ألا وهما الغرض الديني والغرض العلمي، وهذا الأخير هو الذي كان هدف الرحالة المعسكري صاحب كتاب (فَتْحِ الْإِلَهِ وَمِنتِهِ فِي التَّحَدُّثِ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ) محمد أبو راس النَّاصري (ت.1238هـ)

يُعد أبو راس النَّاصري من أبرز أعلام الجزائر في ميدان الرحلات خلال الفترة الأخيرة من الحكم العثماني، إذ لا يمكننا كتابة فصل في الأدب أو التاريخ خلال هذه الفترة دون ذكر محمد أبي راس، فقد استطاع الكشف من خلال تأليفه الكثيرة التي قاربت السبعين مؤلفاً عن شخصيته الخاصة بطلبه للعلم ومآخذه على العلماء ورحلاته من أجل ذلك. ولعل كتابه (فَتْحِ الْإِلَهِ وَمِنتِهِ) هو أبرز وأهم هذه المؤلفات؛ فبغض النظر عن طبيعة ما جاء فيه، وتركيز صاحبه الحديث عن نفسه، وعن مختلف أطوار حياته، اختلف الباحثون في تصنيف هذا المؤلّف، فبعضهم يدرجه ضمن الرحلات الحجازية وبعضهم الآخر يدرجه في أدب السيرة الذاتية التي لا يكتبها في العادة إلا المشاهير والنقاد والأدباء، فهم كما نعلم يتفقون "أن كاتب السيرة الذاتية ليس كاتباً عادياً، ذاك أن الذي يكتبها هو من بلغ شوطاً كبيراً من حياته الأدبية أو الفكرية أو السياسية أو المهنية العامة"⁽⁷⁸²⁾

وقد وصلت إلينا بفضل الله تعالى ثلاث نسخ من الكتاب، كاملة غير ناقصة، واضحة الخط سالمة من الأخطاء، وقد اعتمد عليها محمد بن عبد الكريم الجزائري، فحقق الكتاب وطبعه في جزء واحد، وهذه النسخ المخطوطة هي:

الأولى: مخطوطة الشيخ عبد الحي الكتاني المغربي، وتوجد المخطوطة في الخزانة العامة بالرباط.
الثانية: مخطوطة الشيخ عبد الرحمن الجليلي الجزائري.

⁽⁷⁸²⁾ محمد البارد، (عندما تتكلم الذات - السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث-)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (دمشق-

الثالثة: مخطوطة الشيخ أحمد جلول البدوي الجزائري (783)

كما قام المحقق بالمقارنة بين النسخ الثلاثة، وعَرَّفَ بكثير من الأعلام والبلدان، كما شرح الكثير من الألفاظ والمعاني.

ويبدو أن صاحب (فَتْحِ الْإِلَهِ) عرف الترحال منذ صغره، فهو لم يكتفِ بالتنقل بين المدن الجزائرية فحسب، بل تنقل إلى تونس ومصر وفلسطين والشام والحجاز؛ فكانت هذه الأخيرة موضوع رحلته التي اكتست الطابع العلمي الرّصين بجميع جوانبه.

1- عنوان الكتاب:

جاءت رحلة أبو راس تحت عنوان (فَتْحِ الْإِلَهِ وَمِنْتَهُ فِي التَّحَدُّثِ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ)، ولعله عنوان استقاه صاحبه من كتاب قدوته وسلفه في طلب العلم جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت926هـ)، وقد صرح بذلك: "...فسلفي فيه الإمام عبد الرحمن السيوطي... سماه: (نُزُولِ الرَّحْمَةِ فِي التَّحَدُّثِ بِالنُّعْمَةِ الشَّامِلَةِ) وهو وغيره في ذلك سلفي أيضا" (784)

وما هو ملاحظ أن عنوان (فَتْحِ الْإِلَهِ وَمِنْتَهُ فِي التَّحَدُّثِ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ) لا يوحي من ظاهره أن الأمر يتعلق برحلة لانعدام العلامة التجنيسية فيه، إلا أن ذلك لا ينفي عنه صفة الرحلة باعتبار أن بنية الترحال والسفر حاضرة فيه، وما يؤكد ذلك أن هناك من الدارسين من يتحدث عن عنوان آخر لهذا المؤلف، يتجلى فيه التجنيس بصورة واضحة بحضور كلمة (رحلة) فيه، وهو (عُدَّتِي وَنَحَلَّتِي فِي تَعْدَادِ رِحْلَتِي) إلا أن هذا العنوان لم يشتهر كثيرا، ولم يوظفه المحقق والسبب في ذلك - في أغلب الظن - يعود إلى وجود بعض العناوين فيه (المؤلف) لا تدخل في دائرة الرحلة (785).

والملفت للانتباه أن الرحالة في آخر هذا المؤلف أشار إلى عنوان آخر لرحلته بقوله: "هذا ما حضرني من الأسئلة في وجهتي وأثناء رحلتي التي هي مَلَأُ الْعَيْبَةَ، فِي طَوْلِ الْعَيْبَةِ إِلَى مَكَّةِ

(783) محمد أبو راس، (فَتْحِ الْإِلَهِ وَمِنْتَهُ فِي التَّحَدُّثِ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ)، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، (الجزائر)،

1990م، ص: 12

(784) المصدر نفسه، ص: 16

(785) الطاهر حسيني، (الرحلات الجزائرية في العهد العثماني - بناؤها الفني أنواعها وخصائصها-)، مذكرة دكتوراه، جامعة قاصدي مرباح، كلية الآداب

واللغات، (ورقلة- الجزائر)، 2013/2014م، 1434/1435هـ، ص: 313

وغيرهما" وهذا العنوان ربما جاء أسوة برحالة سابقين، وأخص بالذكر ابن رُشيد السبتي الفهري (ت721هـ) التي اشتهرت رحلته بهذا العنوان. وقد ذكره أبو راس في رحلته أكثر من مرة.

1- سبب تأليف الكتاب:

هناك سببان رئيسيان دفعا بأبي راس إلى تأليف رحلته (فتح الإله) وهما: (سبب علمي وسبب ديني) وإن كان السبب الأول أقوى من الثاني، رغم أن كلا السببين يقترن أحدهما بالآخر.

أ- **السبب العلمي:** إن عزم أبي راس على القيام برحلاته جميعها لم يكن إلا لمقصد واحد، وهدف محدد، وغاية واضحة، ألا وهو طلب العلم وتحصيله، حيث سار على درب من سبقه من قدوته من الرحالة العلماء، يقول أبو راس: "وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير، والأسانيد الجماهير: كرحلة ابن رشيد السبتي، والخطيب المرزوق، ورحلة أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي..." (786)

وكثيرا ما كان أبو راس يذكر فضل مجالس العلم والعلماء كقوله: "اعلم أي - ببركة الشيوخ ومحبة أهل الرسوخ- واجهت كلا منهم بآداب وتأملت فيه، وأمعت النظر فيما زبر في كتابه، أو خرج من فيه بإذعان وقبول، لتحصيل كل مامول، فحصلت لي - عند ذلك- مَصَّةٌ من حليب التوفيق، وحصاة من ماء التحقيق، فَنَمْتُ في لُبِّ مَنْ سَمِعَهَا وَوَعَاها، وثمرت في قلب من قام بحقها ورعاها.

وعمل بمقولة الإسكندر - التي أوردتها- حين سئل: لماذا تعظم شيخك أرسطو على والدك؟، فقال: "والدي سبب الحياة الفانية، وشيخي سبب الحياة الباقية" (787) يقصد العلم.

ب- **السبب الديني:** حج أبو راس مرتين على الأقل، الأولى سنة 1204هـ (1789م) (788)، والثانية 1226هـ (1813م). وقد أشار إلى ذلك في مصنفه دون الخوض في التفاصيل مكتفيا بقوله: "ثم رحلت لأم القرى ذات المكارم والعلی والعرى التي لا بغيرها

(786) أبو راس، (فتح الإله)، م.م.س، ص: 91

(787) المصدر نفسه، ص: 41

(788) ينظر: أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م)، م.م.س، ص: 379/2

تُقاس...ولما ذهب للحج سنة ست وعشرين...ثم رحلت لطيبة بعد هذه الغيبة..."(789). وقال: "لما أُبْتُ من الحج..."(790)

وعدم سرد أخبار هذه الرحلات الحجية دليل واضح على أن (فتح الإله) جاء للسرد أخبار العلماء ومجالسهم، أما هذه الرحلات فرمما خص بها إحدى مصنفاته الكثيرة.

ويبدو أن شد الرحال إلى البقاع المقدسة كانت فرصة كبيرة استغلها أبو راس لطلب العلم، فتنقل إلى مصر والشام وفلسطين وغيرها حيث التقى بأكابر علماء هذه الأمصار فحصل منهم ما استطاع تحصيله، وقرأ عليهم ما استطاع قراءته، وإن كان اختلف مع بعضهم فيمن ناظرهم وذاكرهم في المسائل العقديّة والفقهية واللغوية والنحوية.

ورغم أن بعض الدارسين صنفوا رحلة أبي راس ضمن الحجازيات (رحلات الحج) فإن نمطها الحقيقي هو علمي بامتياز. كما أن القارئ للرحلة يدرك من الوهلة الأولى أن غرضها الأول هو علمي محض، ثم تلحقها الأسباب الأخرى لعل في مقدمتها أن رحلتها أراد أن يُخلد حياته و يضعها بين يدي غيره ليتخذها قدوة ويستفيد من توسع ثقافته من خلال تنقلاته ورحلاته التي قادته إلى مختلف أقطار الوطن العربي شرقاً وغرباً، حيث كان يجالس العلماء ويناقش معهم القضايا، بل كان يناظر الأجلة منهم فيعترفون له بنباهته، وسعة علمه، وعمق فكره.

2- المصادر المعتمدة في الكتاب:

تعددت منابع أبو راس في رحلته، حيث يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: السماع والمشاهدة: جلس أبو راس عند الكثير من العلماء والفقهاء، المنقسمين بين المشرق والمغرب.

أ- علماء الجزائر: وأولهم والده أحمد بن عبد القادر الذي كان عالماً بعلوم القرآن، وقد صرح به أبو راس بقوله: "أقول: أول شيوخه والدي الشيخ أحمد، قرأت عليه إلى ﴿تلك الرُّسل فضلنا...﴾... ولم أقرأ: أ.ب.ت.ث... الخ وتعلق حفطي ما تحتها من غير تعليم"(791)

(789) أبو راس، (فتح الإله)، م.م.س، ص: 118، 119

(790) المصدر نفسه، ص: 59

والرحالة أحمد ابن عمار الجزائري، الذي كان يُلقبه بشيخ الإسلام، ومدحه أكثر من مرة، كما في قوله:

لَعِبَ بِأَطْرَافِ الْكَلَامِ لِسَانُهُ وَالْفَضْلُ مَوْقُوفٌ عَلَى تَبْيَانِهِ
فَأَمْنَحُ إِلَيْهِ السَّمْعَ عِنْدَ حَدِيثِهِ تَسْمَعُ فَصِيحَ الْقَوْلِ مِنْ سَحْبَانِهِ
أَوْجُلُ بِذَهْنِكَ فِي مَحَاسِنِ نَظْمِهِ تَظْفَرُ بِبَحْرِ الشُّعْرِ مِنْ حَسَانِهِ
مَا خَاضَ يَوْمًا نَظْمَهُ فِي حِكْمَةٍ إِلَّا اخْتَفَى سُقْرَاطُ بَيْنَ دِنَانِهِ⁽⁷⁹²⁾

ومن علماء الجزائر البارزين - أيضا-: أحمد ابن عمار الجزائري، ومحمد بن لبنة، ومحمد الصادق ابن أفغول وابنه محمد ابن محمد الصادق ابن أفغول، وأبو عبد الله المغيلي، العربي ابن نافلة وأخوه أحمد ابن نافلة، ومحمد بن عبد القادر القاضي، ومحمد بن عوالي الزلماطي، والقاضي محمد ابن جعدون، والعربي بن قيزان، وأحمد ابن عبد الحليم الساعون، ومحمد بن عبد الرحمن التلمساني، ومحمد بن الحفاف،...

ب- علماء المغرب العربي: أحمد ابن عبد الله السوسي المغربي، محمد بن قاسم المحجوب التونسي(ت1243هـ)، ومحمد بن حسين بن بيرم الحنفي التونسي (ت1214هـ)، عبد القادر بن عبد الله المشرفي، عبد القادر بن شقرون الفاسي (ت1219هـ)، وعبد القادر بن أحمد الرياحي التونسي(ت1266هـ)،...

ج- علماء المشرق: مرتضى الزبيدي (ت1205هـ)، ومحمد الأمير المصري (ت1232هـ)، وعبد الله بن حجازي إبراهيم الشرقاوي الأزهري (ت1227هـ)، عثمان بن أحمد بن بشر النجدي (ت1290هـ)، وعبد الرحمن التادلي المكي، وعصمان الشامي،...

وجُلُّ هؤلاء العلماء كان لهم صيتٌ واسعٌ وصدى كبير في النحو واللغة والفقهِ وعلوم الحديث والتفسير والبلاغة وغيرها.

ثانياً: النقل عن الكتب والمصنفات والرسائل والدواوين: شهدت رحلة أبي راس كماً جماً من

⁽⁷⁹¹⁾ المصدر نفسه، ص: 42

⁽⁷⁹²⁾ أبو راس، (فُتْحُ الْإِلَهِ)، م.م.س، ص: 48

مختلف مصادر الأدب والتاريخ والعقيدة والأصول والفقه والتفسير وعلوم القرآن والحديث، كان أصحابها من نخبة وجهابذة هذه العلوم، إضافة إلى العديد من دواوين الشعر والشروح والحواشي. نحاول أن نعدد منها ما ورد بكثرة في رحلة أبي راس:

(تاريخ بغداد) لأبي بكر أحمد الخطيب البغدادي (ت463هـ)، و(إحياء علوم الدين) لأبي حامد الغزالي(ت505هـ)، و(مقامات الحريري) لأبي محمد القاسم بن علي الحريري (ت516هـ)، و(الشفاء بتعريف حقوق المصطفى) للقاضي عياض(ت544هـ)، و(الدرر اللوامع في قراءة نافع) لمحمد ابن بَرِّي (582هـ)، و(معجم الأدباء) لياقوت الحموي(ت626هـ) ، و(أزهار الروضتين في أخبار الدولتين) لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي(ت665هـ)، و(الألفية) و(تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) لابن مالك الطائي (ت672هـ)، و(وفيات الأعيان) لأبي بكر ابن خلكان اليرمكي الإربلي (ت681هـ)، و(ملء العيبة في طول الغيبة إلى مكة وطيبة) لابن رشيد السبتي(ت721هـ)، و(جمع الجوامع) أو (الجامع الكبير) لتاج الدين بن تقي الدين السبكي(ت771هـ)، و(الإحاطة في أخبار غرناطة) لابن الخطيب (776هـ)، و(تاريخ مكة) لحافظ تقي الدين الفاسي (ت832هـ)، و(رفع الإصر عن قضاة مصر) لابن حجر العسقلاني(ت852هـ)، و(حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة) و(الأشباه والنظائر) لجلال الدين السيوطي (ت911هـ)، و(نَفْحُ الطَّيِّبِ مِنْ غُصْنِ الْأَنْدُلُسِ الرَّطِّيبِ) لأحمد المقرئ (ت1041هـ)، و(تاج العروس في شرح القاموس) لمرتضى الزبيدي (ت1205هـ) (نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض) لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي(ت1069هـ)، و(الرحلة العياشية أو ماء الموائد) لأبي سالم عبد الله بن محمد العياشي(ت1090هـ)، إضافة إلى (الموطأ) للإمام مالك، و(صحيح البخاري) و(مختصر الخليل)،... (793)

(793) ينظر: أبو راس، (فتح الإله)، م.م.س، ص: 16، 17، 22، 33، 54، 56، 66، 97...

ثالثاً: المعاينة والسرد: تمثل هذا المصدر في التجربة الشخصية التي عاشها أبو راس في أسفاره عبر مختلف الأقطار والأوطان؛ فعلى عكس معاينة المقرئ وابن حمادوش اللذين كانا يعاينان الأحداث والأماكن ثم يصفانها بوصف دقيق، وكان أبو راس لا يهتم بوصف المكان أو الحدث إلا نادراً، بل يُعنى العناية الدقيقة بسرد أخبار مجالس العلم، وحلق الذكر ومن حضرهم من العلماء والطلبة؟

أما بالنسبة للشواهد التي وردت في الرحلة فقد غلبت الاستشهادات القرآنية والحديثية، وأقوال المحدثين والفقهاء بكثرة، ولاسيما أن الرحلة ساد عليها الطابع الديني بشكل كبير. إضافة إلى الأبيات والمقطوعات الشعرية التي استدل بها رحالتنا خاصة في مدح علمائه ومشايخه. ويمكن أن ننتقي بعض الشواهد التي أوردها أبو راس في (فتح الإله):

أ/ - الاستشهادات القرآنية:

قال أبو راس في (فتح الإله): "... ثم سافرت أول صومي ل: (مَازُرْنَةَ)⁽⁷⁹⁴⁾ ... فلقيت -على صغري- مشقة المشي، لكن ذلك شأن أهل السفر للعلم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ

ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾⁽⁷⁹⁵⁾ [الكهف - 62]

وقال: "وقد جرينا في فنون، والحديث شجون، حتى وقعنا في قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة - 7]،...⁽⁷⁹⁶⁾

وقال - أيضاً-: "وقد حضرت حلقة الشيخ محمد أبي طالب... فأعرضت عنه. مع ما يدعيه من اشارات غيب، ولا يلحقه فيها عندهم عيب، ويقول لكثير العوام من الطلبة: اذهبوا لأرضكم تدرسون، ولا يصعب عليكم ما يستنبطون وتقيسون. فإذا بهم في غاية البلادة لا يفهمون ما يُقال، وغرّوا بذلك إمعة الرجال، فلا يطيقون شيئاً سهلاً أو بتكلف، ومع ذلك ﴿تَحَسَّبُهُمُ الْجَاهِلُ

أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة - 273]

⁽⁷⁹⁴⁾ مَازُرْنَةَ: مدينة بولاية غليزان، بناها منديل بن عبد الرحمن أول القرن السادس الهجري (الثاني عشر ميلادي)

⁽⁷⁹⁵⁾ أبو راس، (فتح الإله)، م.م.س، ص: 20

⁽⁷⁹⁶⁾ المصدر نفسه، ص: 96

وكان يعمل أسواقا حافلة بإجابة ما يقول على زعمه كافة، ويعدهم بالدعاء في ذكره والفريضة والنافلة فكلّ يدفع مالا للظفر بما أراد، وطلب وارتاد، حتى يجمع من ذلك مالا وفيها ﴿تَحَسُّبُهُ﴾

الظَّمَّانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا»⁽⁷⁹⁷⁾ [النور - 39]

ب- الاستشهادات النبوية الشريفة:

من ذلك ما أورده في مَنْ تكلم بغير علم. قال: "قلت: ومن تحرّز العلماء من آفات النفس ودعواتها كثرة قولهم: "لا أدري". فقد سئل مالك عن اثنين وأربعين مسألة فقال في ثلاثين منها: "لا أدري"، لكن قال: محمد المحلّي⁽⁷⁹⁸⁾: إنه بصدد الاجتهاد فيها. قال في (الإحياء): وكان عبد الله ابن عمر - رضي الله عنهما - سئل عن عشر مسائل، فيجيب عن واحدة، ويسكت عن تسع. وكان عبد الله ابن عباس (رضي الله عنهما) يُجيب عن تسع، ويسكت عن واحدة. وكان سُفيان الثوري وأضرابه قولهم: "لا أدري" أكثر من قولهم: "أدري"، لذلك قال عبد الله ابن وهب: ولو شئت أن أملاً ألواحي من قول مالك "لا أدري" لفعلت. وقال الإمام الغزالي في (الإحياء) قال صلى الله عليه وسلم: «مَا أَدْرِي أَعَزَّيْرُ نَبِيِّ أُمَّ لَأ؟ وَمَا أَدْرِي أَتَّبِعُ مَلْعُونٌ أَمْ لَأ؟ وَمَا أَدْرِي أَذُو الْقَرَيْنِ نَبِيٌّ أَمْ لَأ؟»⁽⁷⁹⁹⁾. ولما سئل عن خير البقاع وشرها، قال: «لَا أَدْرِي» إلى أن أعلمه الله بأن خير البقاع المساجد، وشرها الأسواق. وقال صلى الله عليه وسلم: «لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي رَبِّي»⁽⁸⁰⁰⁾. وقال أبو الحفض النيسابوري: "العالم هو الذي يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة: من أين أجبت؟... وكان عبد الله بن عمر يقول: "أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُونَا جِسْرًا تَعْبُرُونَ

⁽⁷⁹⁷⁾ أبو راس، (فتح الإله)، م.م.س، ص: 46. وينظر استشهادات أخرى، ص: 42، 47، 44، 48، 64، 92، 96، 99، 102، 164
⁽⁷⁹⁸⁾ حسين بن محمد الخلي: فقيه شافعي مصري. له (كشف اللثام عن أسئلة الأنام) و (الكشف اللثام عن إرث ذوي الأرحام) في المواريث، و (كشف الأستار عن مسألة الإقرار) رسالة في المواريث، و (منتهى الإيرادات لجدول المناسخات) شرح به جدول ابن الهائم، و (فتح رب البرية على متن السخاوية) حساب، و (مزيد النعمة لجمع أقوال الأئمة). توفي عام 1170 هـ. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 257/2
⁽⁷⁹⁹⁾ حديث صحيح. أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة ينظر: ناصر الدين الألباني، (صحيح وضعيف سنن أبي داود)، تنسيق: أحمد عبد الله، برنامج منظومة التحقيقات الحدينية - الجاني - من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة (الإسكندرية- مصر)، ص: 2/1. رقم الحديث: 4674. وينظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، (إحياء علوم الدين)، د.ت، دار المعرفة، (بيروت- لبنان)، د.ط، ص: 70/1
⁽⁸⁰⁰⁾ البيهقي، (دلائل النبوة)، تح: وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد المعطى قلججي، دار الكتب العلمية - ودار الريان للتراث، 1408هـ/1988م، ط1، ص: 296/6. [باب جماع أسئلة اليهود وغيرهم]. وينظر: ناصر الدين الألباني، (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة)، دار المعارف، (الرياض - المملكة العربية السعودية)، 1412 هـ/1992م، ط1، ص: 344/3. الحديث رقم: 1198 [حديث ضعيف]

عَلَيْهِ لِحَهِمَّ؟". رضوان الله عليهم، وأرضاهم عنا وعن ذريتنا يارب العالمين. أعذنا الله منها والمسلمين. آمين يا رب العالمين" (801).

ج/- الاستشهادات الشعرية:

تنوعت الاستشهادات الشعرية عند رحالتنا أبي راس بين نظمه ونظم غيره من مختلف العصور،

كمدحه لشيخه أحمد بن العربي ابن نافلة بقول زهير بن أبي سلمى:

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ⁽⁸⁰²⁾

وقال في مدح شيخه أحمد بن عبد الله السوسي المغربي: جوده الطيب، ونسمة من روض عراره الطيب، كما قال الشاعر الحكيم أبو الطيب أحمد بن الحسين المتني:

وَأَخْلَاقُ كَافُورٍ إِذَا شَتَّتْ مَدَحَهُ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ تُمَلِي عَلَيَّ فَأَكْتُبُ⁽⁸⁰³⁾

وقال في زوجه: "ثم خطبت امرأة من أولاد الشيخ... محمد بن يحيى... فزوجنيها وعملت خيمة من الشعر كما قال أبو العلاء المعري:

فَالْحَسَنُ يَظْهَرُ فِي شَيْئَيْنِ رَوْنَقُهُ بَيْتٍ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ بَيْتٍ مِنَ الشَّعْرِ⁽⁸⁰⁴⁾

وأحيانا يكتفي بقوله: "قال الشاعر" أو "قال الآخر"، كقوله: "...لأن الأكل والشرب يُخشى منهما السقم، فلذا دعا صلى الله عليه وسلم، وكما قال الشاعر:

فَإِنَّ الْأَلَمَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ⁽⁸⁰⁵⁾

⁽⁸⁰¹⁾ أبو راس، (فُتْحُ الْإِلَهِ)، م.م.س، ص: 18. وينظر استشهادات أخرى، ص: 43، 93، 96، 100، 107، 103، 136، 146، 163

⁽⁸⁰²⁾ الوشيج: هو القنا الملتف، وهو جمع وشيجة. ينظر: زهير بن أبي سلمى، (ديوان زهير بن أبي سلمى)، اعتنى به وشرحه: حمدوس طماس، دار المعرفة، (بيروت- لبنان)، 2005/هـ1426، ط2، ص: 51. ومحمد أبو راس، (فُتْحُ الْإِلَهِ وَمَنَابِتُهُ فِي التَّحَدُّثِ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ)، م.م.س، ص: 45

⁽⁸⁰³⁾ معنى البيت: إن كانت الهموم شغلتنني عن الشعر، فإني إذا شئت مدح كافور، فإن أخلاقه تبعثني على مدحه، فأكتبه وإن لم أتفكر فيه. ينظر: أبو العلاء المعري، (شرح ديوان أبي الطيب المتني)، تح: عبد الحيد دياب، م.م.س، ص: 106/4. وينظر: محمد أبو راس، (فُتْحُ الْإِلَهِ وَمَنَابِتُهُ فِي التَّحَدُّثِ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ)، م.م.س، ص: 51

⁽⁸⁰⁴⁾ البيت مفسر للذي قبله، وهو: حَسُنْتَ نَظْمَ كَلَامٍ تُوصِفِينَ بِهِ ... وَمَنْزِلًا بِكَ مَعْمُورًا مِنَ الْخَفْرِ. ينظر: أبو الحسين اليونيني البعلبي، (مشيخة شرف الدين اليونيني)، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، (مصر)، 1423هـ/2002م، ط1، ص: 138. وأبو راس، (فُتْحُ الْإِلَهِ)، م.ن، ص: 22

⁽⁸⁰⁵⁾ المصدر نفسه، ص: 103

د- الحكم وكلام العرب:

إنَّ ما أثر من كلام العرب وأقوال العلماء بدا قليلا مقارنة بالاستشهادات الأخرى، حيث لم يورد أبو راس سوى ما رواه عن نفسه بقوله: "ثم إن البايات أمراء بلادنا لما علموا كثرة الطلبة وازدحامهم عندي كما قيل: "إنَّ المورّد العذب كثير الزّحام"، عملوا لي كرسيا..."(806). وهذا مثل يضرب في العلماء والشيوخ الذين كان لهم صدى واسع في العلم والمعرفة، فلو أردت الجلوس عندهم ما وجدت مكانا تجلس فيه من كثرة الازدحام والتسابق على المكان.

أو ما رواه عن شيخه المشرفي لما ذهب إلى شيخه ابن الدين الأصغر، فقال له: "إني أريد السكنى في موضع يقال له (أبو العوينات)، فقال له شيخه: السرّ في الساكن لا في المسكن. قلت: "ومن هذا ما يُحكى أن الزنبور سأل النحلة أن تعلمه نسج الشهدة، فعلمته، ثم صار يُنافسها، ويُفاجرها، ويقول لها: أنا خير منك، ونسجي خير من نسجك، وما لك عليّ فضل، فقالت: إن تساوينا في النسج أو فقتني فيه، فأين العسل؟ فسكت وتأمّل في ذلك فإذا هو لم يقدر على عسل كعسلها، فقالت له: يا زنبور! "السرّ في الساكن لا في المسكن". أي السرّ في العسل الذي يسكن في الشهد، لا في نسج الشهد، فسلم لها واعترف"(807)

2- منهج المؤلف في الكتاب:

تميز أبو راس بمنهج علميّ دقيق؛ قسم من خلاله مادته الرحلية إلى خمسة أبواب، تحدث وفضّل فيها عن جميع مراحل حياته العلمية، وقد جاء مضمون هذه الأبواب على النحو التالي:

الباب الأول: وسّمّاه: (ابتداء أمري) في هذا الباب ركز الحديث عن مولده ونسبه وطفولته، وبعض أفراد أسرته، فتحدث عن والده وأمه وأخته وأخيه الأكبر، وعن جده وأسلافه الذين أبرز مكانتهم وعلو همتهم في العلم والمعرفة، وكأنه قصد الإخبار بالمجد التليد له ولعائلته. وكذلك تحدث عن أولى خطواته وتنقلاته للتحصيل العلمي وللتعليم في نفس الوقت.

(806) أبو راس، (فَتْح الإله)، م.م.س، ص: 23. والكلام من بيت بشار بن برد: يَزْدَجُمُ النَّاسُ عَلَيَّ بِأَبِيهِ وَالنَّهْلُ الْعَذْبُ كَثِيرُ الرَّحَامِ (ديوان بشار بن برد)، تح: بدر الدين العلوي، دار الثقافة، (بيروت- لبنان)، 1981م، د.ط، ص: 213

(807) أبو راس، (فَتْح الإله)، م.م.س، ص: 54، 55

الباب الثاني: وسماه: (في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي: شريعة، وحقيقة، وقرآنا، وطريقة) والعنوان بهذه الصورة - لا شك - أنه يحمل دلالات التواضع والاعتراف بالجميل، المكنى عنه بقوله: "النافضين عني قشب أوساخي". وقد تحدث فيه عن فضل العلم والعلماء، وتحدث عن العلماء الذين أخذ عنهم، والذين التقى بهم وأجازوه والذين ناظرهم، مستهلا بوالده مرورا بعلماء الجزائر والمغرب ثم تونس ومصر والحجاز والشام.

الباب الثالث: وسماه: (في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما ولقاء العلماء الأعلام، و ما جرى لي معهم من المراجعة والكلام) وهذا الجزء هو المهم في موضوعنا، رغم الحاجة إلى الأبواب الأخرى في تفاصيل أخرى لم يذكرها أبو راس، فهذا الباب يُسوِّغ لنا تصنيف هذا المؤلف ضمن فن الرحلة.

وقد تحدث فيه عن رحلاته والتي بدأت صوب المشرق بغرض الحج، والتي استغل أيامها وشهورها في طلب العلم، وهذه الرحلة قادته في البداية إلى بعض مناطق الوطن، كالجزائر وقسنطينة ثم إلى تونس، ومصر، وبلاد الشام، وفلسطين، ثم الحتام بالعريش في شمال سيناء بمصر.

الباب الرابع: وسماه (في الأسئلة وما يتعلق بها)، وجاء مكملا للباب الثالث، فإن كان الباب الثالث سرد رحلات أبي راس، فإن الباب الرابع فصل في أخبار هذه الرحلات، حيث ركز صاحبها على تعداد المجالس التي حضرها، والمسائل التي عرضت عليه، وناقش أمرها، وأجاب عنها، في مختلف الأقطار والأماكن التي زارها، أو مر عليها أثناء رحلته، إضافة إلى مناظراته التي كانت بينه وبين علمائها ومشايخها.

الباب الخامس: وجاء تحت عنوان (العَسَجِد⁽⁸⁰⁸⁾ والإبريز⁽⁸⁰⁹⁾) في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز)، وهو بمتلة مُلحقٍ عدد فيه أبو راس مصنفاًته، لأن الظاهر - كما يبدو - أن الباب الرابع هو آخر وخاتم الأبواب في (فتح الإله)، فقد ختمه بقوله: "هذا ما حضرني من الأسئلة

⁽⁸⁰⁸⁾ العَسَجِدُ: الذهب، اسم جامع للجواهر كُله، من الدر والياقوت. ينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، (العين)، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، م.م.س، ص: 315/2. [باب الرباعي من العين]، مادة: عَسَجِد

⁽⁸⁰⁹⁾ الإبريز: وهو الذهب الخالص أو الخلي الصافي. ينظر: أحمد بن الأزهرى الهروي، أبو منصور، (تهديب اللغة)، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - لبنان)، 2001م، ط1، ص: 278/6. [باب الهاء والزاي]. وينظر: إسماعيل بن سيده المرسي، (المخصص)، تح: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - لبنان)، 1417هـ/1996م، ط1، ص: 295/3. [الذهب]. وينظر: ابن منظور، (لسان العرب)، م.م.س، ص: 311/5. [الباء الموحدة]، مادة: برز

في وجهتي وأثناء رحلتي...والله يرزقنا بالتوفيق وحلاوة التحقيق، وعلم وايقان، وتدقيق واتقان.
"والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق".
يتلوه عدة تآليفي والله الموفق. اللهم اغفر لنا ولوالدينا ومشايخنا! آمين!"(810)

أما الباب الخامس فقد عدد أبو راس عناوين ما ألف وعلق على بعضها، شرحا، وتوضيحا،
وتعريفا بالمضمون. وجاءت تصانيفه مقسمة كآلآتي: (القرآن الكريم، الحديث، الفقه، النحو،
التصوف، الأصول، العروض، التاريخ، الأدب، القصائد والمنظومات).

وهذا المنهج في تقسيم الأبواب يشبه إلى حد كبير تقسيم أحمد المقرئ في مصنفه (نُفْحُ الطيب) إلا
أنه يختلف من حيث الترتيب. كما أنه لو نظرنا إلى أسلوب أبي راس نجد قريبا جدا من أسلوب
المقرئ الذي تميز بسجع الكلام وانتقاء الألفاظ وتحرير العبارة وتوشيح النثر بالشعر. وهذا يبدو
واضحا عند أبي راس ولاسيما في مدحه لأعلام العلم، من ذلك نذكر ما قاله في شيخه: "ومنهم
شيخنا العلامة الجلي، السيد عثمان الحنبلي، ذو المعاني الفائقة، والتدقيقات الرائقة، إن تأمل متؤمل
بعين الانصاف، عرف ما اشتملت عليه محاسن الأوصاف، حاز قصب السبق في مضمار الاجادة،
وميدان الاصابة والافادة، قد دلت على جودة منشئها وأنظار مبدئها نسائم الأسعار، تشرق من
رونق معانيه، وعظائم الأمور تستعار من معاليه..."(811)

ولعل هذا الأسلوب في التدوين يرجع إلى تأثر أبي راس بالمقرئ الذي نجد له ولمصنفه (نُفْحُ الطيب)
الكثيرا من الذكر في رحلة أبي راس كقوله: "وقال أحمد المقرئ الذي ألف (نُفْحُ الطيب)..."،
"ومن (نُفْحُ الطيب) للمقرئ ما نصه..."، "والذي في نُفْحُ الطيب ما نصه..."، "وهذا دون ما في
(نُفْحُ الطيب)"، "وقد قال في مخاطبته الشيخ أحمد المقرئ مؤلف (نُفْحُ الطيب)..."(812)

وعلى عكس أسلوب المقرئ؛ فإن أسلوب أبي راس تخلله بعض ألفاظ العامية وإن كانت قليلة

(810) أبو راس، (نُفْحُ الإله)، م.م.س، ص: 165

(811) المصدر نفسه، ص: 62

(812) ينظر: المصدر نفسه، ص: 98، 148، 149، 160

جدا، ككلمة (برئوص) أو (شاشية) في قوله: "وإني ليلة الجمعة نائم كأني في سوق، فلقيني رجل أزرق في عباءة وبرئوص وأحسب أن على رأسه شاشية دُوم، وفي يديه قفة دُوم..."⁽⁸¹³⁾ وقال: "فأتوني بعشرة شواشٍ فائقات..."⁽⁸¹⁴⁾

وعلى غرار النمط السردى الذي نجده سائدا في جل الرحلات العربية، فإن رحلة أبي راس اكتست نمطا حواريا ساد في جميع أبوابها - عدا الباب الخامس-، وتمثل ذلك في سرده لأخبار مجالس العلماء والفقهاء، أو المناظرات التي كانت تحدث بينه وبينهم، فقارئ الرحلة سيلمح - بلا شك- كثيرا من الكلمات: (قُلْتُ، فقال لي، فقلت له، فقلنا، ونحن قلنا، وقال له، وها أنا أقول، فأجبت، وأجيب...)

ومع هذا النمط الحوارى، والأسلوب المسجوع، والمنهج العلمى الرصين، والترتيب التسلسلى الدقيق يبرز الرحالة أبو راس صاحب الشخصية القوية المتفوقة، وصاحب السبق والفضل العلمى الذى صورته لنا على مدى محطات رحلته والتي تظهر في تكرار صيغة محددة من العبارات مثل: "لقبوني بالحافظ أصدقهم الله في ذلك"، "فأكرموني غاية الإكرام"، "وقد أظهرني الله عليهم في كل ذلك"، "فاعترفوا بفضلى وصحة قولى"، "فعرِّف حقى وصار كأنه رقى..."⁽⁸¹⁵⁾

فقارئ الرحلة سيلاحظ - بلا شك- أن الشخصية المركزية (أبا راس) استعملت في السرد، كما في الحوار، ضمير المتكلم سواء بصيغة المفرد أو بصيغة الجمع، رغبة منها في أن ترسم صورة تبرز من خلالها تميزها وغلو مكائنها وتفوقها الذاتى.

5- أهم جوانب رحلة أبي راس الناصري:

عُني أبو راس بالكثير من الجوانب والمسائل؛ لعل أبرزها تلك المناقشات والمناظرات التي وقعت بينه وبين من لقيهم من علماء الأمصار والأقطار التي حل بها، فكان مصنفه (فتح الإله ومنتها) جامعا لهذه الجوانب والتي في مقدمتها:

⁽⁸¹³⁾ أبو راس، (فتح الإله)، م.س، ص: 21

⁽⁸¹⁴⁾ المصدر نفسه، ص: 117

⁽⁸¹⁵⁾ ينظر: المصدر نفسه، ص: 91، 95، 104، 107، 116، 117

أ- الجانب الديني:

أخذ هذا الجانب حصة الأسد من رحلة أبي راس؛ إذ أننا لا نبالغ لو قلنا إن الرحلة كلّها حملت طابعا دينيا، وذلك يظهر جليا في أجزاء الرحلة التي ضمت في طياتها العديد والكثير من المسائل العقديّة والفقهية وعلوم التفسير والحديث، ولاسيما أن صاحبها ذو مذهب صوفي رافقه في جميع أجزاء رحلته، ونحاول أن نعدد بعض ما ورد من هذا الجانب:

- الجانب العقدي: قال أبو راس: "سُئلت عن قول شيخ المالكية: الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد⁽⁸¹⁶⁾ عن قوله في أول (الرسالة): "وأنه فوق عرشه المجيد بذاته"، فأجبت بأن شارحها: الشيخ أبا الحسن⁽⁸¹⁷⁾، قال: أخذ عليه في قوله "بذاته" بأن هذه اللفظة لم يُرد بها السمع، وأحسن ما قيل في دفع الإشكال: إن الكلام يتضح ببيان معنى الفوقية، والعرش والمجيد والذات. فالفوقية عبارة عن كون الشيء أعلى من غيره، وهي حقيقة في الأجرام كقولنا: زيد فوق السطح. ومجازية في المعاني كقولنا: السيد فوق عبده. وفوقية الله تعالى على عرشه فوقية معنوية بمعنى الشرف، وهو بمعنى الحكم والملك، فترجع إلى معنى القهر. والعرش اسم لكل ما علا. والمراد هنا خلق عظيم من جوهرة خضراء فوق السماوات وهو أول المخلوقات على الأصح. والمجيد - بالحفظ - صفة للعرش، وبالرفع، أي: هو المجيد، أي: العظيم. و"ذات الشيء حقيقته" حقيقته، والضمير في "بذاته" يعود على "العرش" والباء بمعنى "في"، وأن يعود على الله، فيكون المعنى أن الفوقية له تعالى بالذات، لا بالغير: من مال أو ضخامة الملك أو نحوه"⁽⁸¹⁸⁾.

وقال: "قلت: وكان الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن الحاج أحمد المغربي الطرابلسي، المعروف بـ (التاجوري)⁽⁸¹⁹⁾... يدرس في (الرسالة)، فقرئ عليه - يوما - "وأنه فوق عرشه المجيد بذاته"، فذكر

⁽⁸¹⁶⁾ أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن القيرواني المالكي ويقال له مالك الصغير. الإمام العلامة القدوة الفقيه عالم أهل المغرب. توفي رحمه الله سنة 386هـ. كان بصيراً بالرد على أهل الأهواء. من مصنفاته: كتاب (الثقة بالله والتوكل على الله) و(المعرفة والتفسير) وكتاب (إعجاز القرآن) و(النهى عن الجدل)، و(رسالته في التوحيد) الذي أخذ منها هذا المثال، و(من تحرك عند القراءة). ينظر: أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية)، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، (القاهرة - مصر)، النبلاء للكتاب، (مراكش - المغرب)، ط1، ص: 367/5. وينظر: أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام)، تح: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، 2003م، ط1، ص: 647/8.

⁽⁸¹⁷⁾ أبو الحسن علي بن محمد المنوفي العدوي الشاذلي، توفي سنة 939هـ، وشرحه يسمى (كفاية الطالب الرباني). ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 11/5.

⁽⁸¹⁸⁾ أبو راس، (فَتْحُ الإِلَهِ)، م.م.س، ص: 131.

⁽⁸¹⁹⁾ عبد الرحمن بن محمد بن أحمد، أبو زيد التاجوري: فلكي، نسبتة إلى التاجور (قرية بالمغرب) له كتب في الفلك منها (رسالة في العمل بربع المقنطرات) و(رسالة في الفصول الأربعة) (ورقات في معرفة وضع بيت الإبرة على الجهات). ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 331/3.

ما أجيب به: من أن لفظة "بذاته" دُست عليه في كتابه، فأنكره بعضهم، وقال: كل عبارة اعترضت يجاب عنها بذلك، فلا يبقى اعتراض على عبارة، فغضب الشيخ، وقال: هذا امام مجمع على جلالته، لم يوصف بشيء مما يوهمه اللفظ. ثم قال السائل: تسكت؟ والا أتكلم، وكرره، فقال الطالب: لوجه الله لا تتكلم، فذهب الشيخ مغضبا، وسئل الطالب بعد ذلك، فقال: خفت فوت الدرس وأنا جنب، فحضرت في المسجد وأنا جنب، فزجرني الشيخ بما رأيتم. قلت قد علمت أن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه- 5] من المتشابه، كحديث: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ»⁽⁸²⁰⁾، وغير ذلك. وقد خاض العلماء في ذلك، وكثر كلامهم فيها، حتى أن بعضهم جره ذلك إلى الاعتزال كابن تيمية، وقال تلميذه محمد شمس الدين ابن قيم الجوزية:

الأشعرية زادوا (لاما)، واليهود زادوا (نوناً)، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، قالوا: استولى. وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال اليهود: حنطة. وفي (الخفاجي) على (الشفاء): كره مالك - رحمه الله - التحدث بالأحاديث الموهمة للتشبيه: ك«يَنْزِلُ رَبُّنَا» ونحوه. والحاصل أن في إفهامهم اختلافا كثيرا، فكيف يزيد شيخ المالكية "بذاته"، لأن العلماء حارت أفكارهم قبل الزيادة، فكيف بعدها؟! وما أظن أن لفظة "بذاته" إلا مدسوسة عليه من بعض من يريد الفتنة. ألا ترى أن فقيها سأل الإمام مالك عن هذه الآية، فقال له الامام: "الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة. والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة" ... كيف يبقى - بعد هذا- أن يزيد شيخ المالكية تشغيبا وفتنة؟! معاذ الله أن يقع هذا منه! وسئل عنه الامام أحمد بن حنبل، فقال: "الاستواء كما أخبر، لا كما يخطر للبشر". وسئل عنه الامام الشافعي فقال: "آمنت بلا تشبيه، وصدقت بلا تمثيل، واتهمت نفسي في الإدراك، وأمسكت عن الخوض فيه كل الامساك". وسئل عنه الامام أبو حنيفة، فقال: "من قال: لا أعرف الله أفي السماء أم في الأرض؟ فقد كفر، لأن هذا القول يوهم أن للحق مكانا، فهو مشبه. وهذا الذي ذهب إليه الأئمة الأربعة..."⁽⁸²¹⁾

⁽⁸²⁰⁾ أحمد بن حجر أبو الفضل العسقلاني، (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، ترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي، إخراج وتصحيح، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، (بيروت - لبنان)، 1379هـ، د.ط، ص: 30/3. الحديث رقم: 1145 [باب الدعاء والصلاة من آخر الليل]. وينظر: محمد بن صالح بن

محمد العثيمين، (شرح رياض الصالحين)، دار الوطن للنشر، (الرياض - السعودية)، 1426هـ، د.ط، ص: 221/2

⁽⁸²¹⁾ أبو راس، (فَتْحُ الْإِلَهِ)، م.س، ص: 132

وقد اعترف أبو راس مثل غيره من العلماء أن هذه المسألة - [مسألة الاستواء] - من أصعب المسائل التي جف فيها حبر العلماء، ولا يجب الخوض فيها سداً لذريعة عقيدة المسلم. يقول أبو راس: "وسئلت بالشام عن أصعب مسألة من مسائل، التي تتعلق بالتوحيد، فقلت قول شيخ المالكية [أبو زيد القيرواني]: "استوى على عرشه المجيد بذاته". وقول الغزالي: "ليس في الإمكان" الخ... - وقد تقدمتا- فإن قال الشيخ عبد الرحمن المجدوبي التونسي: ليس في علم الكلام أشكل من ثلاث مسائل: مسألة كلامه - تعالى! - والقدرة الاكتسابية، والرؤية. فينبغي اعتقاد الحق فيها، وترك ما سواه" (822)

- الجانب الفقهي: قال: "وسئلت: بمجلس علماء الجزائر ب: الجامع الأعظم، يوم الخميس وذلك سنة أربعة عشرة ومائتين وألف عن "القهوة" و"الدخان"، وعمّا يسفّ منه أو يشم، فأجبت: ذكر الشيخ علي الأجهوري (823) عن الخطاب أن الشراب المتخذ من قشور "البن" المسمى بـ "بالقهوة"، اختلف الناس فيه، فمنهم متغال في الحل يرى أن ذلك قرابة ومنهم متغال في التحريم يراها كالخمر. والحق أنه في ذاته لا اسكار فيه، وإنما فيه تنشيط للنفس، ويحصل من مداومته ضرورة تؤثر في البدن عند تركه: كاعتیاد أكل اللحم بالزعفران... (824)

وسئلت عنها الشيخ زروق (825)، فقال: ليس بمستكره، ولكن تحرم على من طبعه "الصفراء" أو "السوداء" لاضرارها ببدنه وعقله. وأما من كان بلغمياً فإنها توافقه. وقد كثرت في هذه الأيام فينبغي للعاقل اجتنابها، إلا لضرورة... والله درّ القائل:

أَقُولُ لِأَصْحَابِي عَنِ الْقَهْوَةِ انْتَهُوا وَلَا تَجْلِسُوا بِمَجْلِسِ هِيَ فِيهِ
وَلَيْسَتْ بِمَكْرُوهٍ وَلَا بِمُحَرَّمٍ وَلَكِنْ غَدَتْ مَشْرُوبَ كُلِّ سَفِيهِ

ثم قال: والحاصل: أنها تُحرم لهذه العوارض، ومن سلم منها رجعت في حقه لأصل الإباحة. والبن أصله في بلاد "زَيْلَع" (826) و"الحبشة"، ثم ظهر باليمن آواخر القرن التاسع... (827)

(822) أبو راس، (فَتْحُ الإِلَه)، م.س، ص: 134، 135

(823) علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علي، أبو الإرشاد، نور الدين الأجهوري: فقيه مالكي، من العلماء بالحديث. مولده ووفاته بمصر عام 1066هـ. من كتبه (شرح الدرر السنينة في نظم السيرة النبوية)، و(النور الوهاج في الكلام على الإسراء والمعراج) و(شرح رسالة أبي زيد)، و(مواهب الجليل في شرح مختصر خليل)، و(غاية البيان في إباحة الدخان). ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 13/5

(824) أبو راس، (فَتْحُ الإِلَه)، م.س، ص: 159

(825) هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى، المعروف بأحمد زروق، من أهل فاس (بالمغرب)، وأحد أعلام المحدثين المتصوفة. توفي سنة 899هـ. من كتبه (شرح مختصر خليل) في فقه المالكية ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 91/1

وأما الدخان وسفه وشمه، فقال: الشيخ الجولاني: علق بحفظي، من كراسة كانت بين يدي مولاي عبد الله بن طاهر الحسيني أنها - أي: "طابة" - مندرجة تحت المفسدات للعقول، لإحداثها سببا وأن أكل المحروق لا يجوز، ولو خبزا، وأن فيها إضاعة مال، ويتعاطاها الأشرار، لقلّة حياثهم، وأن تسمية الفسقة لها ب: "طابة" حرام عليهم لتشريفهم لها به، كما سمو الخمر بأسماء شريفة. وقال أحمد المقرئ الذي ألف (نفع الطيب) لما سئل عنها، قال: "لا نص عندي صريح فيها، وأدلة تحريمها مبحوث في بعضها"... وقال الأطباء: إنه يميت القوة. وصرح بعض التونسيين بحرمة لكونه يضعف الجماع. والحاصل أن مفسده كثيرة، وبالحرمة جزم أبو السعود⁽⁸²⁸⁾ عالم اسطنبول حيث قال:

حَرَامٌ شُرْبُهُ لَأَنَّ فِيهِ
فَحَالَ مَنَعُهُ بَيْنَ الْحَالِ
تَيَقَّنَ لَيْسَ فِيهِ غَيْرُ ضُرٍّ
وَمَا فِيهِ سِوَى إِثْلَافٍ مَالٍ⁽⁸²⁹⁾

وقال أيضا: "وسئلت عن التعليل المسلم في كراهية الماء المستعمل في الحدث. فأجبت: بما لابن مرزوق، أما مراعاة للخلاف، وإما عن الغالب على أعضاء المتطهرين أن ينفصل منها شيء يصير الماء مضافا، وإن لم يظهر أثره، وعلى الثاني نعم، فتشبه مسألة الماء المخالط بما يوافق صفته... وبالثاني بني القول بمنع استعماله على قول القابسي أن يسير الطاهر يسلب ماء التطهير، وإن لم يغيره. والله أعلم"⁽⁸³⁰⁾

وقال أيضا في مسألة صوم شهر رجب: "...ثم تناظرنا في استحباب صوم (رجب)، فأخرج - [يقصد شيخه أبا العباس الشيخ أحمد العباسي] - تأليفا للسيوطي، فيه مرجوحية صومه، فقلت هو شافعي، وهذا الشيخ خليل المالكي يقول في ترغيب صوم شهور، منها (رجب)، ما نصه: "والحرم، ورجب، وشعبان..."، فسكت فلله درّه! ما أحسن مناظرته! وأثبت مناظلته! وأحلى مفاكته!"⁽⁸³¹⁾

⁽⁸²⁶⁾ زَيْلَع: هم جيل من طرف السودان. ينظر: أبو عبد الله ياقوت الحموي، (معجم البلدان)، م.م.س، ص: 164/3. [زيلع]

⁽⁸²⁷⁾ أبو راس، (فَتْحُ الْإِلَهِ)، م.س، ص: 160

⁽⁸²⁸⁾ محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود: مفسر شاعر، من علماء الترك المستعربين. ولد بقرب القسطنطينية، وهو صاحب التفسير المعروف باسمه وقد سماه (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم). توفي عام 982هـ. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 59/7

⁽⁸²⁹⁾ أبو راس، (فَتْحُ الْإِلَهِ)، م.س، ص: 160، 161

⁽⁸³⁰⁾ المصدر نفسه، ص: 159

⁽⁸³¹⁾ أبو راس، (فَتْحُ الْإِلَهِ)، م.م.س، ص: 100

تمثل منهج أبو راس في عرض المسائل الفقهية أو العقدية في عرضه لآراء وأقوال العلماء والفقهاء في المسألة الواحدة، ثم يستنبط خلاصة رأيه، بقوله: "والحاصل" أو "وأقول" أو "وأجيب". وهذا يدل على سعة علمه وتوسعه بين أقوال العلماء والمحدثين في العقيدة والفقه، وإن كانت نزعت الصوفية لا تفارقه أبداً، فالمتصفح لرحلة أبي راس سيلاحظ ميله الكبير للعلماء ومشايخ الصوفية والدفاع عنهم.

كقوله في رده التهم المنسوبة إلى بعض علمائها: "ومن الذين قيل فيهم بالكفر إلى (القطبانية) (832): الشوزي وابن احلى، وابن قسي، وابن السكين، والعفيف التلمساني، والعجمي والأيكلي، والأقطع، وآخر من ذكرهم به أبو حيان، والظن بهم براءتهم، ولكن ضاقت عنهم العبارة عن حقائق صريح العلم، فادت بظاها ما يتوهم مع براءتهم منه... (833) هذا ما لخصناه من مشيخة الصوفية المتكلم فيهم وبراءتهم. هذا وقد قال الخفاجي في شرح (الشفاء): النصاري والباطنية يقولون: إن الله حل في بعض الأجسام وهذا أمر لا يُعقل. وقد نسب لبعض الصوفية عبارات تقتضي ذلك إما جهلاً أو مؤولة بما يوافق الحق، فإن ما هم عليه: من الزهد والكرامات، يقتضي أنهم على قدم النبوة. فأما ما نقل عنهم إما دسيسة أو كلام على اصطلاحاتهم، يعرفه أهله. وأقول: لا تظهر الخوارق العظام على من لم تخلص عقيدته من الأوهام هذا ما لا يكون بحال، ولو قاله من

قال:

"فَمَا الْكَرَجُ⁽⁸³⁴⁾ كَالدُّنْيَا وَلَا النَّاسُ أَقْسَامُ"⁽⁸³⁵⁾

(832) القطبانية: أو القطبية أو القطب أو القطب الغوث: وهي أعلى المراتب والدرجات في معتقدات الصوفية، وقد ظهرت في القرن الخامس، وتفسيرهم: بأن مدد أهل الأرض يكون من جهته، وأن الله إذا أنزل إلى أهل الأرض خيراً من هدى ورزق ونصر فإنه يُرَلِّه عليه، ثم منه يفيض إلى سائر الخلق. وقد يدعي أحدهم أنه منه مدد ملائكة السماوات وطير الهواء وحيثان الماء، وأنه يعطي الملك وولاية الله لمن يشاء ويصرف ذلك عن من يشاء. ونحو هذه المقالات التي تجعل للقطب نوعاً من الإلهية والربوبية التي لم تحصل للأنبياء. فهذا وأمثاله من أعظم الكذب والحال، ومن أعظم الشرك والضلال، وهو شبيه بالإفك والشرك الذي ذم الله به المشركين وأهل الكتاب. وكل من يقرأ هذه التصريحات يقتنع بأن الصوفية يخرجون بالقطب عن نطاق البشرية، ويخلقون به في عالم الربوبية. ينظر: تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الحارثي، (جامع المسائل لابن تيمية)، تح: محمد عزيز شمس، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، 1422هـ، ط1، ص: 16/2، 74.

(833) أبو راس، (فتح الإله)، م.م.س، ص: 154

(834) الكرج: بلدة بين همدان وأذربيجان في أقاليم بلد فارس. ينظر: أبو عبد الله ياقوت الحموي، (معجم البلدان)، م.م.س، 10/1

(835) أبو راس، (فتح الإله)، م.م.س، ص: 155

أو قوله: "وسئلت - بمكة المشرفة- عن أبي طالب⁽⁸³⁶⁾ أحد رجال الطريقة الصوفية لم يقال له (المكي)... كان من العلماء الصالحين، والمشايخ الكاملين. وما وجد في (تاريخ بغداد) للخطيب أبي يليق بمقامه، إنما هو من سوء سمع، أو بقصد الطعن عليه"⁽⁸³⁷⁾.

كما أضاف أبو راس شيئا من القراءات المتواترة عن الجزائر وإفريقيا والأندلس؛ فقال: "فأتقنت على الشيخ منصور القرآن برواية (قَالُونَ) و (وَرَش) عن شيخهما نافع. ومن تلامذة ورش أبو يعقوب الأزرق. قال أبو الفضل الخزاعي: أدركت أهل مصر على قراءته. قال: وهو الذي أشار إليه محمد ابن بري في نظمه (الدرر اللوامع) بقوله:

وَقَدْ رَوَى الْأَزْرَقُ عَنْهُ الْمَحْضَا فِيهَا بِهَاطَةً كَذَاكَ أَرْضَا..."

أي الإمالة المحضة، لا الخفيفة. وأما أهل إفريقية فغالب قراءتهم (قَالُونَ) وأما أهل الأندلس فعلى قراءة أبي الأزهر عن (ورش)"⁽⁸³⁸⁾.

وقال في جده عبد القادر الناصري: "وكان مذهبه في رسم القرآن على طريقة المشاركة: كل محذوف يثبت، وكل تعويض يتركه وبينه. وهي طريقة بعض القراء..."⁽⁸³⁹⁾

كما أن المتصفح للرحلة سيلاحظ منذ الوهلة الأولى، أن أسلوب أبي راس ساد فيه كثرة المدائح والثناءات على العلماء والمشايخ وأضرحتهم إلى درجة الغلو فيهم في بعض الأحيان، وهذا منهج معروف عند الصوفية والطرقية وغيرهم. من ذلك ما قاله في شيخه مرتضى الزبيدي: "ومنهم شيخنا الامام المشهور، الذي هو في الأقطار معروف ومذكور، سيف الله الأمضى ووليه الأرضى، ذو الرأي الأمضى، والعزم الأفضى، أبو الفيض الامام مرتضى، الصالح الصوفي، الحبر الحنفي، العلامة الحجة، الحافظ المحقق الكبير الثقة الثابت الواعظ...الأستاذ المقرئ الجود البياني العروضي

⁽⁸³⁶⁾ أبو طالب محمد بن علي بن عطية، الحارثي، لم يكن من أهل مكة، وإنما كان من أهل الجبل وسكن مكة فنسب إليها، توفي عام 386هـ. وقدم بغداد فوعظ الناس فخلط في كلامه فتركوه وهجروه. وقال محمد بن طاهر المقدسي في كتاب الأنساب: إن أبا طالب المكي المذكور لما دخل بغداد واجتمع الناس عليه في مجلس الوعظ خلط في كلامه، وحفظ عنه أنه قال: ليس على المخلوقين أضر من الخالق، فبدعه الناس وهجروه، وامتنع من الكلام بعد ذلك.

ينظر: ابن خلكان، (وفيات الأعيان)، م.م.س، ص: 303/4. وينظر: أحمد المقدسي الشيباني، (الأنساب المتفقة في الخط المتماثلة في النقط والضبط)، تح: دي يونج، طبعة:

ليدن: بريل، 1282هـ/1865م، ص: 153/1، 154

⁽⁸³⁷⁾ أبو راس، (فَتْحُ الْإِلَهِ)، م.م.س، ص: 144، 145

⁽⁸³⁸⁾ المصدر نفسه، ص: 19، 20

⁽⁸³⁹⁾ المصدر نفسه، ص: 25

المتفنن المحقق المتحلّي المتخلّي المتخلق ولي الله العارف به بلا ريب أريب... ذو الكرامات والاستقامات، ممن عظم نعمة الله به على خلقه...»⁽⁸⁴⁰⁾

وقال عن ولادته: "ولدت بالموضع المار حملتني أمي ووالدي إلى الشيخ الصالحن الوليّ -الذي كاد أن يكون كالجيلي⁽⁸⁴¹⁾ - شيخ بعض شيوخه: الشيخ، علي بن موسى اللبوخي أجلى صلحاء أرض اليعنوبية، فبارك عليّ وأخبر بغيب خوارق وعادات تكون لي مودات علم: من علم وعمل صالح، وغنى، وحفظ، وإصلاح وشيخ طلبة ولفيف، ودرس، وخطابة، وقضاء، وتصنيف. فكان كما قال في إشارته الغيبية...»⁽⁸⁴²⁾

وما يُثير الانتباه في رحلة أن صاحبها عُني عناية شديدة بمذاهب وطوائف الأعلام؛ إذ لا يكاد يمر القارئ على علمٍ من الأعلام إلا ويجد ذكراً مرجعيته ومذهبه، كقوله - مثلاً -: "أما الذي كان يفتي الناس بالمذاهب الأربعة: الشيخ عبد العزيز الدريني، وشيخ الإسلام بن جماعة المقدسي، والشيخ شهاب الدين أحمد الشهير بـ "الأقِطَع"، والشيخ علي التَّبَيْتِي الضرير، والشيخ أحمد ابن الحاج المانوي التلمساني، وجماعة كثيرة، ومؤلف هذا الكتاب: محمد أبو راس الناصري، وفقه الله"»⁽⁸⁴³⁾

قال: "وأما الباقلائي فاشتهر شافعيًا، والأصح مالكي. ومنهم إبراهيم ابن مالك البغدادي، كان حنفيًا، ولما قدم الشافعي بغداد ترك مذهبه، واتبعه.

ومنهم: أبو جعفر بن نصر الترمذي رأس الشافعية بالعراق، كان - أولاً - حنفيًا، فلما حج رأى ما يقتضي انتقاله لمذهب الشافعي...

ومنهم: جعفر الطحاوي، كان شافعيًا، وتفقه على خالد المزني. ثم تحول حنفيًا بعد ذلك.

ومنهم: الخطيب البغدادي الحافظ، كان حنليًا، ثم انتقل شافعيًا

ومنهم: أبو عثمان الحداد، كان مالكيًا، ثم انتقل شافعيًا

ومنهم ابن فارس: صاحب كتاب (الجملة في اللغة) كان شافعيًا تبعًا لوالده، ثم انتقل مالكيًا

⁽⁸⁴⁰⁾ أبو راس، (فَتْح الإِله)، م.س، ص: 57، 58

⁽⁸⁴¹⁾ الجيلي: هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي: مؤسس الطريقة

القادرية. من كبار الزهاد والمتصوفين. ولد في جيلان (وراء طبرستان). توفي عام 561هـ. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 47/4

⁽⁸⁴²⁾ المصدر السابق، ص: 19

⁽⁸⁴³⁾ أبو راس، (فَتْح الإِله)، م.م.س، ص: 155، 156

ومنهم السيف الآمدي الأصولي المشهور، كان حنبلياً، ثم انتقل شافعيًا... ومنهم شيخ الإسلام كمال الدين يوسف الدمشقي، كان حنبلياً ثم انتقل شافعيًا. ومنهم جمال الدين ابن هشام صاحب (المغني) كان شافعيًا، ثم انتقل حنبلياً قبل موته بخمس سنين.

ومنهم: ابن مالك النحوي، كان مالكيًا، ولما نزل دمشق بالشام انتقل شافعيًا... ومنهم الشيخ خليل، كان أبوه: إسحاق وسلفه حنفي المذهب، ونشأ هو - أولاً - على ذلك ثم رده أبوه مالكيًا⁽⁸⁴⁴⁾

كما عدد العديد من الطوائف والفرق كالماتوردية والأشعرية والمعتزلة والقدرية وغيرهم، ولاسيما في نقده لكتاب (التكوين) لشيخه السنوسي في مسألة تعطيل الأفعال والصفات.

صرح أبو راس في بداية قوله بأنه كان مثل مَنْ عددهم على لسانه، يأخذ من جميع المذاهب الأربعة، وهذا إن دل يدل على أن رحالتنا كان على دراية وعلم وفهم بجميع المذاهب. وهذا راجع - ربما - إلى الكثير مِمَّنْ جالسهم أثناء رحلاته وتنقلاته بين المشرق والمغرب من شيوخ وعلماء وفقهاء اختلفوا بين مذهب وآخر، فجمع هو بين هذه المذاهب في الفتوى والاستنباط؛ فأخذ عن هذا! وترك من هذا! وناظر هذا! إلا أن وفقه الله تعالى للفتوى بما حصله وأصله من جميع علوم الدين الإسلامي من عقيدة وفقه وتفسير وحديث وقراءات...

ب- الجانب اللغوي والنحوي:

لم تحمل الرحلة كثيرا من أمثلة الجانب اللغوي رغم أن أبا راس صرح أكثر من مرة بأنه ناظر وناقش الكثير من العلماء في المسائل اللغوية كقوله: "وسألته عن أشياء فقهية وأصولية ونحوية ولغوية... فبهت ولم يجب بشيء"⁽⁸⁴⁵⁾ يقصد الشيخ عبد الرحمن البدوي القرومي.

ومن أمثلة ما ذكر في هذا الجانب قوله في لفظة (رَشَدَ): "وسئلت بتلمسان عن (رَشَدَ) أتفتح شينه أم تكسر؟ ففي حديث مسلم وسنن أبي داود: أن ثابت بن قيس بن شماس خطيب الأنصار، قال بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يُطِعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ»⁽⁸⁴⁶⁾ بفتح الشين.

⁽⁸⁴⁴⁾ أبو راس، (فَتْحُ الإِلهِ)، م.م.س، ص: 157، 158

⁽⁸⁴⁵⁾ المصدر نفسه، ص: 92

⁽⁸⁴⁶⁾ (صحيح مسلم)، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، م.م.س، ص: 594/2. الحديث رقم: 870. [باب تخفيف الصلاة والخطبة]. (ومسند أبي داود

الطيالسي)، تح: محمد بن عبد الحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث بدار هجر، دار هجر للطباعة والنشر، (القاهرة- مصر)، 1419هـ/1999م،

ط1/ص: 363/2. الحديث رقم: 1119. [أحاديث عدي بن حاتم]

فأجبت: بما في (المصباح): أن (رَشَدَ) من باب تعب، وقتل، فهو أرشد، والاسم الرشاد، ويتعدى بالهمزة. وكذا لغيره. قال الخفاجي: "فشين رَشَدَ مفتوحة في الحديث، وهو المشهور رواية، ويجوز كسرهما، ورُوي أنه من باب عَلِمَ أيضا". قلت: ومن غريب ما حكاه تاج الدين السبكي في (طبقاته) أن شهاب الدين ابن مرحل⁽⁸⁴⁷⁾ قرأ على الحافظ المنذري⁽⁸⁴⁸⁾ (رَشِدَ) بكسر الشين، فرد عليه وقال: رَشَدَ - بالفتح - فقال: قال الله العظيم: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ، فقال ابن المرحل: وكذلك قال: ﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾. فسكت الحافظ المنذري لأن فعل المضموم مضارع فعل المفتوح أو المضموم. والثاني مفتوح، فتعين الأول، فأجابه أن مصدره ورد على فعل - بالتحريك - وهو مصدر فعل المكسور. قال ابن هشام: والذي في كتاب سيبويه كَسَخَطَ، فجاء السماع على وفق سماع ابن المرحل. فله دره"

قلت: ومن اشارة الغيب أن ابن رشيد الفهري... حضر (الجمعة) بالجامع الأعظم بالتونس، فسمع الخطيب على المنبر يقول: "وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ" - بفتح الشين - فقال: قلت له: بكسرهما، فلم يرجع، فلما قدمت لتلمسان، ذهبت لشيخنا الشيخ إبراهيم المصمودي، فأول ما وقعت عيناه عليّ قال: رَشَدْتَ، ورَشِدْتَ يا ابن رشيد اللغتان فصيحتان حكاهما قطرب فتعجبت⁽⁸⁴⁹⁾

وأیضا ما ذكره في اسم (الجزولي)⁽⁸⁵⁰⁾، قال: "ولقيت علماء البليدة وجرى لي ذكر (الجزولي)، ففتحت جيمه، فقال لي أحد تلامذة صاحب الترجمة: سمعت شيخي يضم الجيم، ولا أدري أهو

⁽⁸⁴⁷⁾ هو عُمَرُ بْنُ مَكِّيِّ بْنِ عَبْدِ الصَّمَدِ، الشَّيْخُ الْإِمَامُ، ذُو الْفَتُونِ، زَيْنُ الدِّينِ ابْنُ الْمُرْحَلِ الشَّافِعِيِّ كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ زَمَانِهِ، دِينًا مَسْتَمْسِكًا بِطَرِيقَةِ السَّلَفِ، تَفَقَّهُ بِابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ، وَسَمِعَ مِنَ الْمُنْذَرِيِّ. تُوْفِيَ عَامَ 691هـ. ينظر: أبو بكر جلال الدين السيوطي، (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى الباي الحلبي وشركاه، (مصر)، 1387هـ/1967م، ط1، ص: 419/1

⁽⁸⁴⁸⁾ عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، أبو محمد، زكي الدين المنذري: عالم بالحديث والعربية، من الحفاظ المؤرخين. له (الترغيب والترهيب) (ومختصر صحيح مسلم) (ومختصر سنن أبي داود)، توفي بمصر عام 656. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 30/4

⁽⁸⁴⁹⁾ أبو راس، (فَتْحُ الْإِلَهِ)، م.م.س، ص: 164، 165

⁽⁸⁵⁰⁾ محمد بن سليمان بن داود بن بشر الجزولي [بضم الجيم] السملالي الشاذلي: من أهل سوس المراكشية. تفقه بفاس، وحفظ (المدونة) في فقه مالك، وغيرها. صاحب (دلائل الخيرات) ومات مسموما (فيما يقال) بمكان يدعى (آفغال) عام 870هـ. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 151/6

رأي نقلا عن ذلك أم لا؟ فبقي ذلك معمورا به قلبي، ومشتغلا به لبي، وكثر سؤالي على ذلك وبحثي، حتى طالعت بقسمطينة (تاريخ العلامة الياضي)، فوجدته نص على ضم الجيم⁽⁸⁵¹⁾.

وقال أيضا: "ولقيت: العلامة الأمين مفتي الجزائر وخطيبها السيد الحاج علي ابن الأمير، فوجدته يدرس في خطبة الإمام خليل، وقد ذكر فيها لواء الحمد، فقال: قضيبه من زمردة خضراء، ففهم أنه من نوع العقيق، فقلت: أيها السيد ليس الأمر كما عبرت، وإنما المراد به الزبرجد، لأن الأخضر من الياقوت، يقال له: (زبرجد)، والأحمر يقال له: (البرهان)، والأبيض يقال له: (النميط)، لأن أمور الآخرة أجمل من نفائس أمتعة الدنيا: من ياقوت وجوهر، وذهب، وفضة، وسندس⁽⁸⁵²⁾.

وعلى خلاف الجانب اللغوي، فإن أمثلة الجانب النحوي تعددت وتنوعت، ولا سيما أن رحالتنا عُني منذ صغره بدراسة النحو وشروحه، وقد صرح بذلك في أكثر من مرة، كقوله: "فتعلقت بحفظ (ألفية ابن مالك)، وسردها لبعض طلبتي، ففتح الله عليَّ فيها، حتى جعلت على شرح الشيخ المكودي حاشيتين: صغرى وكبرى⁽⁸⁵³⁾. ولما ظهر بي علامات النفع للطلبة تنافس الأشياخ في أخذني، لتدريس أولادهم..."، وقال: "وفي آخر القرن (الثاني عشر) أكثرت من تدريس (الألفية) بشرح (البهجة المرضية)⁽⁸⁵⁴⁾ وغيرها⁽⁸⁵⁵⁾".

ومن أمثلة ذلك ما جرى بينه وبين عالم الجزائر وفقهها الشيخ محمد بن الحفاف في قوله: "ما تقول في النسخة التي يقول فيها: "العبد الفقير المضطر لرحمة ربه"؟ قلت - أبو راس - : فالمضطر - على هذه النسخة - يجوز أن يكون نعنا للعبد أو الفقير، لقول السمين⁽⁸⁵⁶⁾ في (إعراب القرآن) ان الشيء إذا نعت بنعت وأوتي بعده بنعت أخص جاز أن يكون نعنا للأول أو الثاني. وأما (الفقير) - في هذه النسخة - فهو نعت قطعاً لما قبله وقول التائي: "صفة مبالغة عطف بيان أو بدل" - الخ -

⁽⁸⁵¹⁾ أبو راس، (فتح الإله)، م.س، ص: 96

⁽⁸⁵²⁾ المصدر نفسه، ص: 92

⁽⁸⁵³⁾ الحاشية الكبرى أسماءها: (الدرّة اليتيمة)، والحاشية الصغرى أسماءها: (النكت الوافية بشرح المكودي على الألفية)

⁽⁸⁵⁴⁾ (البهجة المرضية في شرح الألفية) لجلال الدين السيوطي

⁽⁸⁵⁵⁾ أبو راس، (فتح الإله)، م.س، ص: 23، 24

⁽⁸⁵⁶⁾ أبو العباس، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي، الفاهري، الشافعي، المعروف ب(السمين)، أحد أعلام العربية والقراءات والتفسير. من مؤلفاته: (تفسير القرآن)، (الدر المصون في إعراب القرآن)، (القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز). توفي عام 756هـ. ينظر: أبو بكر جلال الدين السيوطي،

(حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة)، م.س، ص: 536/1

هو جرى منه على غير الغالب في أنهما قد يكونان مشتقين، كما صرح بذلك ابن عصفور في الأول، والأزهري في الثاني. ⁽⁸⁵⁷⁾

وأيضاً ما ذكر في ما جرى في حضرة باي وهران: "وكنت - مرة - قصدت (وهران) وافداً على حضرة... السيد محمد باي ابن عثمان... إلى أن قلت: الأمر الفلاني كلا شيء - بفتح الهمزة - فقال لي... قل: (كلاً شيء) بكسر الهمزة، ألا ترى أنك تقول: (جئتُ بلا زادٍ) بكسر الدال؟ وحرف (لا) لا عمل له، فقلت له: إن (الكاف) لا تُعيق (لا) عن العمل، كهزمة الاستفهام - والباي رحمه الله ينظر إلينا - ثم ذهبت وفي قلبي من كلامه شيء، فعملت على ذلك تأليفاً، فلما قرأه استحسنته، وأراه للباي... وسميت هذا التأليف (بُغية المرتاد، في كلا شيء وجمت بلا زاد). ونظير هذا أن أبا عمرو (عثمان) ابن الحاجب دخل على القاضي ابن خلكان، لأداء شهادة بالاسكندرية، عن من قال لزوجته: "إن كلمت زيدا، إن دخلت الدار فأنت طالق"، فقال: تطلق بعكس الترتيب. ولما علمت منه أنه لم يرتضيه ذهبت وألّفت فيها تأليفاً آخر، وبعثته له، فأعجبه، مثل سؤال عضد الدولة ابن بويه للامام الفارسي عن (قام القوم إلا زيدا) قال: إنه يصح رفعه بتقدير (امتنع) - وهم سائرون في (ميدان شيراز) - فأجاب الفارسي السلطان بجواب، فلم يرتضه، وقال: هذا جواب ميداني. قال الفارسي: فلما رجعت إلى أهلي عملت تأليفاً في دلائل نصبه، ولما نظره السلطان استحسنته، رحمه الله! ⁽⁸⁵⁸⁾

وقال في امتحان علماء مصر له: "اجتمعت مع علماء مصر بالجامع الأعظم، وتناظرنا وتذاكرنا في مسائل جمّة. ثم قالوا لي من لقب ب(الحافظ)، لا بد له أن يختص بشيء دون غيره. وأنت ما تحفظ؟ فقلت: أحفظ كذا وكذا متنا من سائر العلوم... قلت أحفظ (ألفية ابن مالك)، و(منظوم البيان) ما من باب فيهما إلا وأعرف كم فيه من بيت بديهة... فشرعوا في امتحاني وتزييف مكاني ومكاني، فأخرج أحدهم كتاب (الألفية) وفتح من آخره، فخرج له (باب التصغير)، فقال لي: كم فيه من بيت؟ فقلت: فيه اثنان وعشرون بيتاً، فحسبوه فوجدوه ثلاثة وعشرين، فصاحوا وضحكوا، وأرادوا تزييف نقدي، وتكذيب ما عندي، قلت: ناولوني الكتاب، فأخذته وطالعتة، فإذا فيه بيت من جمع التكسير أدخلت فيه سهواً من الكاتب، وتأمّلتها، فإذا في أولها (حاء) بالحمرة، لا يدركها

⁽⁸⁵⁷⁾ أبو راس، (فتح الإله)، م.م.س، ص: 95

⁽⁸⁵⁸⁾ المصدر نفسه، ص: 100، 101

إلا المتأمل، وفي آخرها (طاء) كذلك اشارة إلى أنهما هنا خطأ، كما هي عادة الطلبة، فرأوا ذلك، ولم تطب أنفسهم، حتى رأوا تلك البيت بعيتها في (جمع التكسير)، وزاد عدم انصافهم، حتى طالعوا نسخا عديدة صحاحا من (الألفية) وحسبوا فيها أبيات (باب التصغير)، فلم يجدوا فيه، إلا اثنين وعشرين، كما قلت، ولم يجدوا تلك البيت فيه، بل وجدوها في الباب فوفا، وهو: (باب جمع التكسير)، فألقوا السلم واعترفوا لي بالفضل والنبيل...» (859)

تمثلت طريقة أبي راس في المجالين اللغوي والنحوي في عرضه للمناظرات والمناقشات التي وقعت له أثناء تنقلاته، فكم من آراء نحوية ولغوية استعرضها أبو راس؟ وكم من العلماء بين الأقطار اعترفوا له بعلو فكره، وقوة حجته، وسعة معرفته؟.

وعلى عكس الرحلات الجزائرية التي نادرا ما كنا نلمح فيها اهتمام الرحالة الجزائريين بهذا الجانب - النحوي-، ولاسيما في فترة الحكم العثماني، فإن رحلة (فتح الإله ومنتته) والتي عُني صاحبها بهذا الجانب عناية شديدة تجعل رحلته ذا خاصية فريدة تميزها عن غيرها من الرحلات الجزائرية.

ت- الجانب البلاغي والنقدي:

إنّ الجانب البلاغي من رحلة أبي راس كان هو الآخر - أيضا- ذا نصيب وافر، فأسلوبه المليء بالسجع والاقباسات والتضمينات، والصور البيانية التي كان يستعرضها في مناظراته، والآراء التي كان يبديها في كلامه، كقيلة بأن نقول عن رحالتنا أنه كان ذا دراية وعلم بعلم البيان والبديع والنقد والشعر. ولعل الأمثلة التالية توضح ذلك:

فمن سجعه ما أورده عن مدينة (تلمسان) في قوله: "وها أنا أذكر نبذة في مدحها، نظرا إلى ما كانت عليه في سالف الأزمان، وأما الآن فهي كالأمس الدابر، والميت القابر، وقد استولى على أكثرها الخراب، وناح على خاوي عروشها الغراب، فأقول: تلمسان: وما أدراك ما تلمسان! فبقعة الظل الأبرد، ونسيجه المنوال المفرد، وكناش الغيد الخرد، وكرسي الامارة، وبجر العمارة، ومهوى هوى الغيث الهتون، وخروب التين والزيتون... ذات الأفلاذ الوادعة، والدعوة الصادقة

(859) أبو راس، (فُتْحُ الإِلهِ)، م.س، ص: 116، 117

الصادعة، المجانبة لكل فادحة فازعة، المعمرة بالقراءة والتكبير والتهليل، والعلم الدقيق الأثيل، والجنود كالكتيب المهيل، والخيال تتجاوب بالصهيل، الآتي لها التيسير من ربها والتسهيل، فأصبحت خامدة الحس ضيقة النفس، "كأن لم تكن بالأمس..." (860)

وكان أبا راس - في هذا القول - مزج بين مدحه لمدينة (تلمسان) وبين الرثاء والتحصير عليها، فرمما هذا راجع إلى ما آلت إليه هذه المدينة في عصره من ضيق الحال وعسر الأحوال، فهي المدينة الوحيدة التي أوردها أبو راس دون أن يسرد لنا أخبار من لقيه من علماءها وطلبتها سوى من صوب له لفظة (نَظْم) دون ذكر اسمه.

ومن اقتباساته قوله: "فرايت الشيخ مصطفى المهدي يُدرس في القسم الثاني، ولم يُبال بي أحد من الطلبة، كأني "نَسِيًّا مَنَسِيًّا" (861)

وقوله: "فكان بينهما حرب لم تنسج الأزمان على منوالها... وعوضنا النظر الكريه من المنظر الكريم، وطاف عليها طائف من ربنا "فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيم" (862)

وقوله: حتى إن الشيخ قدورة من جملة تلامذته، فضلا عن قرابته وحفدته. وكان لم يعجبه ما يفعل السيد الشيخ المذكور- [يقصد الشيخ عبد القادر بن محمد بن سليمان السماحي]. ويُكاتبه باللجأ إلى السنة التي عليها الدين يدور، فجعل مواعظه "نَسِيًّا مَنَسِيًّا" (863)، وَبَدَّه وَرَاءَهُ ظَهْرِيًّا (864)

وقوله: "... ولم يجدوا تلك البيت فيه، بل وجدوها في الباب فوقه، وهو: (باب جمع التكسير)، فألقوا السلم واعترفوا لي بالفضل والنبل..." (865)

(860) أبو راس، (فَتَحَ الإِله)، م.س، ص: 108

(861) المصدر نفسه، ص: 43. [مریم- 23].

(862) يقصد حرب فتح وهران بين النصارى والمسلمين. المصدر نفسه، ص: 74. [القلم- 20]

(863) [مریم- 23].

(864) ﴿وَأَخَذَتْ مُوهُ وَرَاءَ كُمُ ظَهْرِيًّا﴾ [هود-92] ﴿فَتَبَدُّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [سورة آل عمران: 187]. المصدر نفسه، ص: 47

(865) ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّنُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ﴾ [النحل- 28] ﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْترِلَوْكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ﴾ [النساء-

91] ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَمَ﴾ [النساء- 94] المصدر نفسه، ص: 117

ومن تضمين الكلام ما قاله: "ثم ركبت البحر إلى مصر... ودخلت بناءها المبهت المعجب، وخارجها المنبت المنجب، فحمدت الرؤوف المنزل، ذا العطايا الجزل، حتى صار "قفاً نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ" عنا بمعزل ذا العمارة الهامية... (866)

ومن المسائل البلاغية التي تطرق إليها أبو راس في رحلته، المناظرة الطويلة التي وقعت بين شيخه أحمد بن عمار وبين الشيخ عثمان القطب أبي سعيد الباجي في باب قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة-29]. قال أبو راس: "قال [ابن عمار]: "...ظهر لي بعد الافتراق وهو أن يكون الكلام جارياً على أسلوب مجاز الحذف بتقدير مضاف، أي بإثم قتلي، من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي بإثم قتلتك إياي، فعارضني [أبو سعيد الباجي] بأن عبد الحكيم (867) قال في (حواشي المطول): لا يسوغ ارتكاب المجاز إلا عند تعذر الحقيقة، فاستهجت تخصيص نسبة ذلك لعبد الحكيم... فلا ينبغي أن ينسب إلى قائل دون قائل، ولا أن يخص به واحد دون آخر، وأيضا المسألة أصولية، وليست بيانية، وإن ذكرت في كتب البيان، فإنما هي على سبيل الاستطراد... وعارضته بأن ذلك إنما هو في مقام الاستدلال واستنباط الأحكام. وأما في المقامات الخطابية والأساليب البلاغية فالجواز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح. ثم قال لي: يمكن أن يوجد ارتكاب المجاز هنا والعدول على الحقيقة بضيق الوقت كما قالوا في قول الصياد (غزال) (868)، فعارضته بأن ذلك إنما ذكره في أحوال المسند إليه: أعني توقف الحذف على مثل النكتة المذكورة إنما يكون في أحد طرفي الإسناد الذي هو ركن في الكلام. وأما في هذا المقام من حذف المضافات والمتعلقات التي هي فضلات فيكفي في الحذف قصد الاختصار مع ظهور المعنى وسهولة حضور ذلك المحذوف بالبال. وأنت خبير بأنه لا يمكن هذا التوجيه، لأن المقام - هنا - مقام اطناب إذ هو مقام وعظ ومناشدة وتخويف، فالمناسب

(866) أبو راس، (فُتِحَ الإله)، م.س، ص: 115. وينظر: امرئ القيس، (ديوان امرئ القيس)، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، (بيروت- لبنان)، 1425هـ/2004م، ط2، ص: 14

(867) عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي السيلكوتي البنجابي: فاضل، من أهل سيالكوت التابعة للاهور، بالهند. له تأليف، منها (عقائد السيلكوتي) و(حاشية على تفسير البيضاوي) لم تكمل، و (حاشية على الجرجاني) في المنطق. توفي عام 1067هـ. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص:

(868) يعني قول الصياد: "غزال" فإن المقام لا يسع أن يقال: هذا غزال فاصطادوه. ومرد ذلك إلى ذوق البليغ. ينظر: جلال الدين القزويني، (الإيضاح في علوم البلاغة)، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، (بيروت- لبنان)، د.ت، ط3، ص: 5/2 الهامش

فيه عدم الحذف. ثم ظهر لي -بعد- أنه يمكن أن يوجه الحذف ويحسن بنكتتين، أحدهما: معنوية، والأخرى: لفظية، فالأولى: استفادة العموم مع حذف المضاف، لأن الإضافة ترد لما ترد إليه اللام: من قصد العهد، والجنس، والاستغراق، وهذا الأخير هو الأنسب في المقام، أي: أريد أن تبوء بكل إثم هو لي، وهو داخل في باب الإرهاب والتخويف من قوله: بإثم قتلتي، فإنه إثم واحد، وإن كان عظيماً، وضعيفاً. يغلبان قويا، فكيف بأكثر، والثانية: حصول الازدواج والمعادلة بين طرفي الكلام، بخلاف ما لو ذكر المضاف.

ولما حصل هذا القدر في الجواب، وتحرر هذا الكلام بتوفيق ملهم التحقيق والصواب، أمسكت عن البحث والخوض...

ثم قال - ابن عمار -: "هذا وقد كان بعض الحذاق من الطلبة ذكر لي عن (تفسير الجلالين) أن الكلام في الآية على تقدير (لا) النافية قبل (أريد)، أي: إني لا أريد أن تبوء بإثمي، فعارضته بأن بلاغة القرآن تستغني عن مثل هذا التكلف والتقدير الذي هو على خلاف الأصل. ثم قررت له إن المراد - والله أعلم - "أني أريد أن تبوء أنت بإثمي إن قتلتي، دون أن أبوء أنا بإثمك إن قتلتك دفاعاً عن نفسي، إذ لا ينجيني منك إلا الدفع بالقتل، وقد اضطررتني إليه" (869)

لم يُعلق أبو راس على هذه المناظرة، مع أنه في غالب المناظرات والمجالس التي سردها في رحلته كان يبدي رأيه فيها، إما مصوباً أو مرجحاً لإحدى أطراف هذه المناظرات، ولعل سبب ذلك راجع إلى موافقته لشرح وتفسير شيخه أحمد ابن عمار في الآية السابقة، أو تقديراً واحتراماً للمكانة التي كان يحملها شيخه في ذلك العصر فقد كان من أبرز الأعلام علماً ومعرفةً وثقافةً.

وأما الجانب النقدي فتمثل عند أبي راس في عدة آراء: رأيه في العلماء ومجالسهم، رأيه في بعض المصنفات والكتب، استحسانه لبعض الأشعار والأقوال، تصويب بعض ما رآه تصحيفاً أو تحريفاً لبعض ما ورد عن بعض العلماء والفقهاء. فأما الرأي الأول فمثاله كقوله بعد مجالسته ومناظرته لشيخه أبو العباس الشيخ أحمد العباسي - وقد تقدم المثال -: "...ثم تناظرنا في استحباب صوم (رجب)،... فسكت فله درّه! ما أحسن مناظرته! وأثبت مناظرتي! وأحلى مفاكحتي!" (870)

(869) أبو راس، (فتح الإله)، م.م.س، ص: 92، 93، 94، 95

(870) أبو راس، (فتح الإله)، م.م.س، ص: 100

وقوله أيضا: "... ثم رحلت إلى (العريش) فلم أجد بها عالما آنس إليه، ويكون التعويل عليه" (871)

وأما الرأي الثاني (رأيه في بعض المصنفات والكتب) كقوله في كتاب السيوطي: "... ثم قال: "ورزقت التبحر في العلم". ثم بالغ في التحدث بنعم الله في التأليف، سماه: (نُزُولِ الرَّحْمَةِ فِي التَّحَدُّثِ بِالنُّعْمَةِ الشَّامِلَةِ) وهو وغيره في ذلك سلفي أيضا" (872)

وقال عن كتاب (التكوين) لما سئل عنها بمصر: "... فأجبت بأن المصنف، وهو الشيخ السنوسي أحل بها في كتبه الخمسة غاية الإحلال. وها أنا - إن شاء الله - أُبين لحنها وفحواها..." (873)

وكذلك قال في كتاب (كفاية المحتاج، لمعرفة من لبس الديباج) لشيخ أحمد بابا التنبكي: "... وأطال في ذلك..." (874) يقصد كثرة مدحه لمؤلفه.

وأما الرأي الثالث (استحسانه لبعض الأشعار) والأقوال كقوله في استحسان بعض الأشعار: "ما أحسن ما قال بعضهم:

سَارَتْ مُشْرِقَةً وَسِرَتْ مُعْرَبًا شَتَانٌ مَا بَيْنَ مُشْرِقٍ وَمُعْرَبٍ" (875)

أو قوله - أيضا- في مدح قصيدة العبدري: "وله قصيدة وحيدة مفيدة، مشهورة عند علماء المغرب، وهي در النظام وحر الكلام، والأمر الخارق، من عند الخالق ضمَّنها ذكر البلاد الذي

رآها من قسطينة إلى مراکش، منها ما نصه في أول مطلعها:

وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ طُرًّا سَوَى زَيْدٍ وَعَمْرٍ وَغَيْرِ شَيْءٍ

إلى أن قال:

وَلَوْلَا اللَّهُ مِتُّ هَوَى وَشَوْقًا وَكَمَ لِلَّهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ

(871) المصدر نفسه، ص: 120

(872) المصدر نفسه، ص: 16

(873) المصدر نفسه، ص: 136

(874) المصدر نفسه، ص: 17

(875) البيت: لابن أبي حنبل، شاعر، من أهل تلمسان. سكن دمشق، وولي مشيخة الصوفية بصهرنج منجك (بظاهر القاهرة) ومات فيها بالطاعون عام 776هـ. له أكثر من ثمانين مصنفًا، منها: (مقامات) وكتاب (ديوان الصباية) و (منطق الطير). ينظر: أبو بكر جلال الدين السيوطي، (حسن الخاضرة في تاريخ مصر والقاهرة)، م.م.س، ص: 571/1. وينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 268/1. وينظر: المصدر السابق، ص: 151

وزاد بقوله: "والقصيدة التي آخرها الياء المكسورة المشددة من أصعب الشعر وأشقه" (876).

وأحيانا كان يستحسن بعض الأقوال، كما في قوله لما دخل مدينة فاس: "ولما لقيت علماءها

وعرفني فقهاؤها... وما علموا أني لست ممن يقعق له بالشن، فأحضرت الأنقال، وحللت ما امغره من الاعتقال بالفعل والقوة، ونقضت ما عقده: عروة عروة. وقد سود بذلك الاعتراض... وما أحسن قول الإمام القَاسِي" (877): "أحق الخيل بالركض المعار" (878)

أو قوله في ما قيل عن أحوال تلمسان: "وما أحسن ما قيل: "يا تلمسان! اصبري على كمد الزمان وكده، وقلب مِحَنَّة، وذهاب رفته، فعسى الله أن يأتي بالفتح وأمر من عنده" (879)

وأما الرأي الرابع (تصويب بعض ما رآه تصحيفا أو تحريفا) كقوله: "ومنهم الشيخ عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين، العكي - بفتح العين - المرسي الأندلسي، المتوفى بمكة سنة تسع وستين وستمائة عن خمسين سنة. وهذا هو الصواب. ولعل ما في نفع الطيب تصحيف" (880)

وفي بعض الأحيان يقر للذي صوب له، كقوله في أحد علماء تلمسان: "وجلست مع أحد بقيتهم فرأى لفظ (نَظْم) بخطي بضادٍ، فقال: بل بظاء مُشالة، فطالعت (القاموس)، فوجدت الصواب منه. والله أعلم" (881).

(876) محمد أبو راس، (فَتْح الإله)، م.م.س، ص: 98. وينظر القصيدة: محمد العبدري، (رحلة العبدري)، تح: علي إبراهيم كردي، م.م.س، ص: 97 البيت: 7. وص: 99 البيت الأخير. وكلمة (وَوُجِدًا) مكان (وَشَوْقًا) في الشطر الأول.

(877) علي بن محمد بن خلف المعافري القيرواني، أبو الحسن ابن القاسي: عالم المالكية يافريقية في عصره. كان حافظا للحديث وعلله ورجاله، فقيها أصوليا من أهل القيروان. نسبته إلى (المعافرين) من قرى قابس، خليت قبل القرن التاسع للهجرة. توفي عام 403هـ. له تصانيف، منها (المهد) في الفقه وأحكام الديانات، (المنقذ من شبه التأويل) و(ملخص الموطأ). ينظر: أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية)، م.م.س، ص: 38/6. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 326/4

(878) أبو راس، (فَتْح الإله)، م.م.س، ص: 102

(879) المصدر نفسه، ص: 108

(880) إن التاريخ الذي ذكره أبو راس موافق لتاريخ أحمد المقرئ. ينظر: المصدر نفسه، ص: 148. وينظر: المقرئ، (نفع الطيب)، م.م.س، ص: 197/2

(881) أبو راس، (فَتْح الإله)، م.م.س، ص: 108

لا شك أن هذا الجانب (النقدي) يعكس لنا بوضوح شخصية أبي راس المعجبة بنفسها، الفخورة بما أنجزته وقدمته طيلة فترة مجالستها لأكثر العلماء والشيوخ، فالإشارات النقدية التي كان يقدمها رحالتنا دليل واضح على علو ذوقه الأدبي وفكره العلمي.

ث- الجانب الاجتماعي والحضاري:

لم يُعنى كثيرا أبو راس بالجانبين الاجتماعي والحضاري، فعلى عكس ما هو متداول عن الكتب والمصنفات الرحلية أنها تعنى عناية شديدة بسرد "أخبار العوالم من وصف لعادات وتقاليد شعوبها، وغرائب وعجائب وهندسة ومعمار وآثار"⁽⁸⁸²⁾... فإنّ رحلة أبي راس لم تُعنى بذلك، إلا في حالات نادرة جدا.

من ذلك ما ذكره عن حاله وحال عيشه في ابتداء رحلته وهو صغير: "وإن كانت رحلة حملني بعض الطلبة على أكتافه، ومع ذلك أني أقرئهم، وأسلك لهم ألواحهم، وأسأل لهم من البيوت يأكلون، وإن عجزت عن السؤال في البيوت بعض الأيام ضربوني. وقد استمرت سنين عريانا: لا لباس لي، إلا خرق كالعدم. وما لبست نعلا إلى أن قرب صومي، ولما قدرت على السعي صرت أطلب من البيوت، ثم أبيع وأكتسي"⁽⁸⁸³⁾

إنّ هذه الحياة القاسية التي عاشها رحالتنا في بادئ أمره هي التي أدت به - ربما- إلى إظهار صورة المعجب والمعتز بنفسه في الكثير من أطوار رحلته، خاصة أنه انقلب حاله، فذاع صيته، واشتهر علمه بين علماء المشرق والمغرب، حتى أنه كان يناظر الأجلة منهم فيعرفون له بنباهته، وسعة علمه، وعمق فكره.

وهو في هذا المقام يحاول أن يُخلد رحلته فيثبت لقارئها ثمرة طلب العلم وقيّمته، وأن هذا العلم لا يقاس بطول القامة، وكبر العمامة، ولا يعترف بالأشبار ولا بالأحجام.

⁽⁸⁸²⁾ كمال بن محمد الريامي، (مشاهير الرحالة العرب)، كنوز للنشر والتوزيع، (القاهرة- مصر)، 1434هـ/2013م، ط1، ص: 3 بتصرف

⁽⁸⁸³⁾ أبو راس، (فَتْح الإلَه)، م.س، ص: ، ص: 19

وأما العادات والتقاليد فلم يورد سوى ما ذكره عن بعض عادات العلماء في إكرام طالب العلم، كعلماء الشام وفلسطين ومصر...، فقال: "رحلت إلى الشام فتكلمت مع علمائها...ولما أردت السفر جمعوا لي دراهم كثيرة، وزاد قدر الكفاية فخرجت، ووَدَّعوني وشيَّعوني..."⁽⁸⁸⁴⁾

وقال: "ثم رحلت إلى غزة...ولقيت علماءها وأمرائها، فضيفوني، وأكرموني..."⁽⁸⁸⁵⁾

يبدو أن أبا راس وحتى في وصفه لعادات وتقاليد الأمم، لم يخرج عن الميدان العلمي، إذ نجد يورد عادات العلماء والشيوخ بدل عادات الأمم والشعوب.

أما الجانب الحضاري فتمثل في وصفه لبعض البلدان التي حل بها، بناءً وشكلاً وهندسة، كقوله لما سأله باي تونس حمودة باشا⁽⁸⁸⁶⁾: "ثم سألتني عن أشياء عديدة وعن (قصر الأجم)⁽⁸⁸⁷⁾، قلت: هو من بناء هنداسة الفرنج والروم، حتى إنه كانت تطلع الشمس كل يوم في كوة من كواه على عدد تنقلها ذهاباً وإياباً، فهو من عجائب الدنيا. ثم سألتني - رحمه الله - عن (قسمطينة)⁽⁸⁸⁸⁾، فأجبت بأن صاحب (القاموس) قال فيها: هي حصن من حصون إفريقية، ثم سألتني عن (القيروان) فقلت: احتطه عقبة بن نافع الفهري وسط القرن الأول، ثم سألتني عن (المعلقة)⁽⁸⁸⁹⁾ و(الحنايا)⁽⁸⁹⁰⁾، وغيرهما مما بإفريقية وبرقة: كمدينة (لبدة الخراب)⁽⁸⁹¹⁾، فأجبت بما عندي، فاستحسن ذلك كله، رحمه الله"⁽⁸⁹²⁾.

⁸⁸⁴ أبو راس، (فَتْح الإله)، م.م.س، ص: 119، 120

⁸⁸⁵ المصدر نفسه، ص: 120

⁸⁸⁶ حمودة بن علي بن حسين بن علي تركي أبو محمد: أحد بابايات تونس في عهد الدولة العثمانية. توفي عام 1229هـ. ينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 282/2

⁸⁸⁷ قصر الأجم: هو معروف أيضا بقصر الكاهنة، وهو في مدينة المهديّة بتونس. ينظر: أبو عبد الله عبد المنعم الحميري، (الروض المعطار في خير الأقطار)، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، (بيروت- لبنان)، 1980م، ط2، ص: 13. مبارك بن محمد المليبي الجزائري، (تاريخ الجزائر في القديم والحديث)، المؤسسة الوطنية للكتاب، (الجزائر)، 1406هـ/1986م، ص: 22/1

⁸⁸⁸ قسمطينة: وهي مدينة قسنطينة، وردت في الرحلة باسم (قسمطينة)، وأحياناً كان يسميها: (قصر طينة). ينظر: أبو راس، (فَتْح الإله)، م.م.س، ص:

123

⁸⁸⁹ المعلّقة: وهي قلعة قديمة في مدينة قرطاجنة التونسية ينظر: أبو عبد الله عبد المنعم الحميري، (الروض المعطار في خير الأقطار)، م.م.س، ص: 462

⁸⁹⁰ الحنايا: وتسمى (قنوات المياه) أو (الغرف المقوسة)، تعد من عجائب المنشآت المائية الرومانية، استخدمت منذ القدم في نقل الماء. من مدينة زغوان إلى قرطاج. ينظر: أبو عبد الله ياقوت الحموي، (معجم البلدان)، م.م.س، ص: 323/4

⁸⁹¹ لبدة الخراب: تقع قرب مدينة طرابلس الليبية، وآثار هذه المدينة من الرخام والحجارة الهرقلية. ينظر: أبو الحسن بن سعيد المغربي، (الجغرافيا)، تح:

إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، (بيروت- لبنان)، 1970م، ط1، ص: 146

⁸⁹² أبو راس، (فَتْح الإله)، م.م.س، ص: 115

أو ما قاله في وصفه لجامع (قيطنة) بمدينة معسكر أو (أم عسكر) - كما سماها-: "ذهبت (لقيطنة) ذات يوم، أسأل في البيوت ما يأكله الطلبة، ووقفت بباب الجامع، فإذا نواله⁽⁸⁹³⁾ كبيرة بمحراها وعن يمينه بيت الشيخ المشرفي"⁽⁸⁹⁴⁾

وقال في مصر: "ثم ركب البحر إلى مصر... ودخلت بناءها المبهت المعجب، وخارجها المنبت المنجب، فحمدت الرؤوف المنزل، ذا العطايا المجزل، حتى صار "قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ عَنَا بِمَعزِلٍ، ذا العمارة الهامية، كأمواج البحور الطامية، ذا العلوم الزاهرة (بالأزهر)، والعساكر القاهرة (بالقلعة) و(المزهر)، و(الفسطاط)⁽⁸⁹⁵⁾ و(مشهد الإمام)، (وجامع ابن طولون)⁽⁸⁹⁶⁾ و(الأهرام)..."⁽⁸⁹⁷⁾

وقال في فاس: "ورحلة إلى مدينة فاس... فهي أم قرى المغرب الوافرة، وخزائن المزار والشهرة الساحرة، والأنباء المسافرة، ذات الأرجاء الدانية والقاصية، والأطواد الراسخة الراسية، والمباني الباهية، والأزهار الزاهية، والحاسن الشاهية... حيث آثار السلطان إدريس⁽⁸⁹⁸⁾ المجاهد.."⁽⁸⁹⁹⁾

ومن غرائب وعجائب ما ذكره أبو راس في رحلته ما أخبرنا به شيخه عبد الله المشرفي، قال: "فمن ذلك ما أخبرني به، قال: بينما أنا أمشي عند الشيخ أحمد أمعاز، وإذا برجل لقيني، أحمر، غليظ، حافٍ، كأنه من رجال (قليعة)، فقال له: مَنْ أنت، فقل: من الناس، قال: فقلت له: أنت من عفاريت الجن، أرسلك السيد العربي بن بركان المهاجي إلى الحاج بن مشرف لتضره؟ فإذا به رجع

⁽⁸⁹³⁾ نواله: أو الرُّمُورْدُ، بالصَّمِّ: كلمة فارسية ويقصد بها: الرَّقَاقُ المَلْفُوفُ باللَّحْمِ. ينظر: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، (تاج العروس من جواهر القاموس)، تح: علي الهلاي، م.م.س، مادة: ورد. ومادة: يسر

⁽⁸⁹⁴⁾ أبو راس، (فَتْحُ الإِلكة)، م.س، ص: 43

⁽⁸⁹⁵⁾ الفسطاط: كانت الفسطاط تعرف ب(باب أليون) وهو الموضع المعروف بالقصر، فلما افتتح عمرو ابن العاص (رضي الله عنه) باب أليون في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سنة عشرين، اختطت قبائل العرب حول فسطاط عمرو بن العاص فسميت الفسطاط لهذا. ينظر: أحمد بن إسحاق اليعقوبي، (البلدان)، م.م.س، ص: 168، 169

⁽⁸⁹⁶⁾ نسبة إلى أحمد بن طولون، أبو العباس: الأمير صاحب الديار المصرية والشامية والثغور. تركي مستعرب. بنى الجامع المنسوب إليه في القاهرة. ومن آثاره أيضا: قلعة يافا (بفلسطين). توفي عام 270هـ. ينظر: أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام)، م.م.س، ص:

267/6. وينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 140/1

⁽⁸⁹⁷⁾ أبو راس، (فَتْحُ الإِلكة)، م.س، ص: 115

⁽⁸⁹⁸⁾ إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى، أبو القاسم: ثاني ملوك الأدارسة في المغرب الأقصى، وباني مدينة فاس، وتوفي بها عام 213هـ. عبد الرحمن المغراوي،

(موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية)، م.م.س، ص: 277/3. ينظر: خير الدين الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 278/1

⁽⁸⁹⁹⁾ أبو راس، (فَتْحُ الإِلكة)، م.س، ص: 101

ثورا عظيما، وعدا عدو الفرس، وأنا أنظر إليه، وذنبه على رأسه، حتى توارى عني...»⁽⁹⁰⁰⁾

إنّ الملاحظ من هذا الجانب - أيضا- أن وصف أبي راس جاء مقيدا ومختصرا، وكأنّ برحالتنا لا يريد أن يصف لنا كثيرا من أخبار هاته البلدان التي حل بها، سوى جانبها العلمي، - وهذا الذي صرحنا به سابقا- فوصفه يمكن عده في بضعة أسطر بخلاف ما شاهدناه في الرحلتين السابقتين (نفح الطيب) و(لسان المقال) والتي عُني صاحبها بالجانبين الاجتماعي والحضاري بأدق التصوير وأشد العناية.

والراجع أنّ هذا التغافل يرجع إلى أن أبا راس ترك الجانب الاجتماعي والحضاري لمؤلفات أخرى خصها بذلك، ككتابه المشهور (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار) الذي سرد فيه أبو راس أخبار المغرب العربي في ذلك الوقت، ولا سيما الجهة الغربية من القطر الجزائري. فدوّن مختلف الغرائب والعجائب واللطائف التي شاهدها، ووصف مختلف المعالم والآثار التي عاينها، فكان هذا المصنف صورة لهذه المدن من جهة، وترويحا على النفس من جهة، وتماشيا مع بضاعة العصر من جهة أخرى. "ولكن الغريب في الأمر أن هذا الكتاب كان لا يتوفر إلاّ باللغة الفرنسية، بعدما تم نشره فصولا في (المجلة الإفريقية)، ثم نشر على حدة عام 1885م بالجزائر"⁽⁹⁰¹⁾. وظلت هذه الفترة عاتمة حائرة دون أن يتقدم أحد إلى مخطوط الكتاب، إلا أن شاء الله تعالى أن وفق محمد غالم سنة 2005م بتحقيق وتقديم مخطوط (عجائب الأسفار) بجزئيه، معتمدا بالدرجة الأولى على النسختين المحفوظتين في المكتبة الوطنية بالجزائر. يقول أبو القاسم سعد الله: "ولعل أحدهم يقتدي بابن عبد الكريم فينشر (عجائب الأسفار) و(الحلل السندسية) وغيرهما من آثار أبي راس التي ما تزال والحمد لله موجودة... لأن أبا راس في الواقع من أهم مؤلفي العهد العثماني، وإذا عُرفت جميع آثار أبي راس ودرست دراسة علمية فقد تضاهي أو تفوق آثار أحمد المقرئ أهمية"⁽⁹⁰²⁾

⁽⁹⁰⁰⁾ أبو راس، (فتح الإله)، م.س، ص: 53

⁽⁹⁰¹⁾ أبو القاسم سعد الله، (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر)، دار البصائر للنشر والتوزيع، (حسين داي- الجزائر)، 2007م، د.ط، ص: 338/2

⁽⁹⁰²⁾ المرجع نفسه، ص: 339

ج- الجانب السياسي:

لو قارنا هذا الجانب مع جميع الجوانب الأخرى التي عُني بها أبو راس في رحلته، سنجد هذا الجانب في ذيل الترتيب والأقل نصيباً، مع أنه (أبو راس) واكب الحقبة الأخيرة من العهد العثماني؛ هذه الحقبة التي شهدت العديد من الحروب والصراعات الداخلية والخارجية، ومع ذلك فإن أبا راس لم يُعنى كثيراً في رحلته بالقضايا السياسية ولا حتى الاقتصادية التي كانت تشهدها البلدان التي نزل بها، ولاسيما تلك التي كانت تحت الحكم العثماني، على غرار الجزائر وتونس ومصر، ولعل أبرز واقعة أشار إليها أبو راس هي واقعة (فتح وهران) لما كان يمدح الشيخ السنوسي ابن السنوسي، فقال: "وكان هذا السيد... شجاعاً جواداً سخياً مجاهداً، قُتل مجاهداً في معركة عظيمة بين المسلمين ونصارى (وهران)، فكان بينهما حرب لم تنسج الأزمان على منوالها ولا أتت الأيام الحبالى بمثل أجنة أهوالها من قاسها ب(حرب الفجار) إفك وفجر، ومن شبهها ب(حرب داحس) و(الغبراء) فما عرف الخبر، ومن نظرها بشعبها يوم جيلة، فهو ذوبلة، أو عادها ب(بطن عاقل)" (903): فهو غير عاقل، أو احتج ب(يوم ذي قار) فهو في المعرفة ذو افتقار... " (904)

ومن ذلك ما كتبه عن قيام الطريقة الدرقاوية: "ولما رجعت [فاس] قلدت الفتوى ثم القضاء والخطابة. ولما عُزلت سنة إحدى عشرة [1211هـ] شمرت لشرح (المقامات)... ثم وفدت على السلطان مولاي سليمان (905)... ثم عمتنا فتنة (درداوة) (906) وأنا لم أكن فيها، كما قال الشيخ عامر الشعبي للحجاج بن يوسف: "وقد خبطتنا فتنة لم نكن فيها أتقيا بررة، ولا أقويا فجرة" مع ما دهمنا من الطاعون، الذي تهرّب منه الواعون، فاتصلت علينا صراصر النكبات والبلبات من الخوف والجوع والروع، والذي في الفؤاد مودوع" (907).

(903) بطن عاقل: منطقة تقع جنوب وادي الرمة على الطريق بين مكة والبصرة. ينظر: أبو عبد الله باقوت الحموي، (معجم البلدان)، م.م.س: 69/4

(904) أبو راس، (فَتْح الإله)، م.م.س، ص: 73

(905) أبو ربيع، مولاي سليمان سلطان المغرب الأقصى، كان علماً من أعلام المغرب في شتى الفنون. من مؤلفاته: (شرح الموطأ)، (حاشية علي الزرقاني

على المواهب)، (رسالة العناء). توفي عام 1238هـ. ينظر: أبو راس، (فَتْح الإله)، م.م.س، ص: 127

(906) درقاوة: أو (الدرداوية) نسبة إلى مؤسس طريقتهم أبي عبد الله محمد العربي بن أحمد الدرداوي المغربي، وهي طائفة صوفية كحمداوة، وعيساوة،

وعليواة وحملوه، ظهرت ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي بالمغرب بحجة إسقاط الحكم العثماني. ينظر: محمد بن بشير الإبراهيمي، (آثار الإمام

مُحمَّد البشير الإبراهيمي)، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، 1997م، ط1، ص: 105/2

(907) أبو راس، (فَتْح الإله)، م.م.س، ص: 24

عُرف عن أبي راس أنه كان منتصرا انتصارا كبيرا للحكم العثماني عامة وبايات الجزائر خاصة، فرغم أنه كان من أهل التصوف، إلا أن ذلك لم يشفع في الثورة الدرقاوية التي قامت ضد بايات الغرب الجزائري. فكم كان أبو راس يشيد في كتبه بفضل ولاية آل عثمان وبدورهم في نشر الإسلام، ومحاربة الحملات الصليبية على المغرب الإسلامي.

لم يُولي أبو راس عناية كبيرة بهذا الجانب (السياسي) رغم أنه واكب العديد من الأحداث والتطورات السياسية المهمة في تاريخ الجزائر وفي تاريخ العالم الإسلامي، فقد شهد عصره الحملة الفرنسية على مصر (1213هـ/1798م)، وصعود محمد عليّ (1219هـ/1805م)، وبداية الإصلاح في الدولة العثمانية، وحملة أوريلي (1775م)، وحملة أكسموث الأوروبيين على الجزائر (1816م)⁽⁹⁰⁸⁾، إلا أنه اكتفى بذكر (فتح وهران) و(ثورة درقاوة) فقط، وسبب ذلك يعود إلى غرض رحلته التي أرادها أن تكون ذات طابع علمي بامتياز.

ح- الجانب التاريخي والجغرافي:

ضمت رحلة أبي راس بعض الوقائع والأحداث التاريخية، كما ضمت العديد من الأخبار والتراجم والأنساب، ولاسيما ما تعلق بتاريخ المغرب العربي والإسلامي.

من ذلك ما قاله في تاريخ تلمسان: "ولما رجعت من فاس، دخلت تلمسان، فسُئلت عن علمائها، وملوكها، ومن اختطها، فقلت: أول من اختطها (بنو يفرن) قبل الإسلام، ثم شاركهم إخوتهم: (مغراوة) فيها، وكان بينهما منافسة وحروب، كما كان بفاس بين زيري بن عطية المغراوي، - ويروي ابن يعلى الإفريقي- ولما نزل عليهما يوسف بن تاشفين سنة اثنين وسبعين وأربعمائة اختط تلمسان الجديدة - هذه المسكونة الآن- فصار الناس ينتقلون من القديمة على الجديدة... ثم ملكها الموحدون ثم بنو مرين، ثم بنو عبد الوادي، ومنهم أخذها الأتراك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، ثم صارت بين الفريقين فتنة إلى أن صفت للأتراك سنة ست وخمسين من القرن المذكور..."⁽⁹⁰⁹⁾

وقال في أنساب العرب: "وقال لي [السلطان مولاي سليمان] - أيضا- أن بني قحطان أهل اليمن - كلهم من ذرية إسماعيل بن الخليل - عليهما السلام- وكذلك كل الناس، فقلت: يا مولانا! إن

⁽⁹⁰⁸⁾ ينظر: أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م)، م.م.س، ص: 377/2

⁽⁹⁰⁹⁾ أبو راس، (فَتْح الإلَه)، م.م.س، ص: 107، 108

العرب العاربة البادية، وهم: عاد، وثمود، وطّسّم، وجَدّيس، وجُرْهُم، والسُّلَفَات، وعبد صَحْم، وعبد يَالِل، هؤلاء الثمانية شعوب كلّهم إسماعيل⁽⁹¹⁰⁾. وأما أهل اليمن فالمشهور أنّهم ليسوا من نسله. وقال ابن جرير الطبري: إنّهم من نسله، وعليه فالعرب كلها من نسل إسماعيل. وسألني - أدام الله نصره - عن الملوك السعدية وبني وطّاس وبعض أهل الزوايا، فأجبت بما عندي وعلمت أن له يدا في التاريخ والأنساب وأيام العرب. وذلك العلم الذي تعني به الملوك قديما. وقد قلت إن ملوك السعدية انقرض ملكهم سنة تسع وخمسين وألف، هل بقي أحد منهم؟ فقال لي: بقي اثنان هما: بفاس الجديد، ولا أعلم غيرهما، مع بعد العهد بانقضاء ملكهم⁽⁹¹¹⁾.

كما تعرض لبعض تراجم الأعلام، كقوله: "ومنهم الإمام الأكبر محي الدين محمد بن عربي الحاتمي: نسبة إلى عبد الله بن حاتم الطائي الجواد، أخي عدي بن حاتم الصحابي، ولا عقب لحاتم إلا منه. ولد بـ(مرسية) سنة ستين وخمسمائة وانتقل إلى (إشبيلية) ومات بدمشق سنة ثمان وثلاثين وستمائة ليلة الجمعة ثاني عشر ربيع الثاني. قرأ السبع عن ابن خلف، وحدث عن الرعييني وابن بشكوال وغيرهما. كان ظاهري المذهب..."⁽⁹¹²⁾

وقد كان لرحالتنا - كما يبدو - نصيب في علم الجغرافيا، يدل على ذلك قوله: "وسألني [الشيخ ابن منصور] - يوما - نصره الله عن حد المغرب الأقصى، فقلت: قال ابن خلدون: حده (وُجْدَة) وجدّد ذلك الحد أول القرن الثاني عشر مع الجدك السلطان (مولاي) إسماعيل وأترك الجزائر، فقال لي: رأيت حده (تَأْفَنَة)، فسكت خشية منه..."⁽⁹¹³⁾

لعل هذه العناية بالجانب التاريخي ترجع إلى أن أبا راس ذاع صيته كثيرا في هذا الجانب، فرغم أنه ألف تقريبا في كل فرع من فروع العلوم المعروفة في عصره، فإن أغلب مصنفاته كانت في جانب التاريخ والأنساب والتراجم، يقول أبو القاسم سعد الله: "ومن كتبه التي لم يذكرها في رحلته عشرون كتابا معظمها في التاريخ والأنساب"⁽⁹¹⁴⁾

⁽⁹¹⁰⁾ كذا في الأصل يعني من نسل إسماعيل (عليه السّلام)

⁽⁹¹¹⁾ أبو راس، (فَتْح الإلّه)، م.س، ص: 107

⁽⁹¹²⁾ المصدر نفسه، ص: 149

⁽⁹¹³⁾ المصدر نفسه، ص: 107

⁽⁹¹⁴⁾ ينظر: أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م)، م.م.س، ص: 380/2

إنّ هذه الجوانب - السابقة الذكر - تكشف لنا عن مدى سعة إطلاع أبي راس ومدى إحاطته بمختلف العلوم التي واكبها في عصره، فكانت رحلته (فَنَح الإله ومِنْتِه فِي التَّحْدِثِ بِفَضْلِ رَبِّي وَنَعْمَتِهِ) شاهدة على الكثير من مراحل حياته العلمية، لعلنا نحاول حصرها فيما يلي:

1- القيمة العلمية لرحلة (فتح الإله)، فقد جمعت الكثير من العلوم التي توسع فيها أبو راس كالعقيدة والفقه والقراءات، واللغة والنحو، والبلاغة والنقد وغيرها.

2- غزارة المؤلفات العلمية لأبي راس، فقد عدد هو نفسه في رحلته ثلاثاً وستين كتاباً بين صغير وكبير في مختلف الفروع، لكن وللأسف الشديد لا يزال الكثير منها قيد الضياع، أو مخطوطاً في المكتبات ينتظر يداً تشتغل عليه.

3- قدرة أبي راس العالية على الجمع بين آراء وأقوال العلماء والفقهاء، وحصرها وتنظيرها في المسألة الواحدة، وهذا نلمحه بوضوح في مناظراته ومناقشاته فيمن لقيهم من علماء المشرق والمغرب.

4- تميز أسلوب أبي راس بسجع الكلام وتنميق العبارة وكثرة الاقتباسات والتضمينات، في غالب أطوار رحلته (فتح الإله)، وهذا أسلوب ساد في تلك الفترة التي واكبها أبو راس، حيث بات السجع يميز أغلب الكتابات النثرية والشعرية. والذي هو أقوى من غيره من الأساليب على تحقيق أكبر قدر ممكن من الإيقاعات الصوتية التي تَطْرَبُ لها أذن القارئ أو السامع، لكون السجع يجري في ذلك مجرى الشعر.

5- تميزت رحلة أبي راس بتسلسلها الزمني مثلما حدثت على أرض الواقع، وهو في ذلك لم يخرج عن نهج سابقه من الرحالة، وهذا يعني أن الالتزام بتسلسل الأحداث وتتابعها في الرحلة، يعتبر من التقاليد الراسخة فيها، ولعل الذي يفرض ذلك هو أن الرحلة تنقل واقعا مُعاشاً، وكثيراً ما يحرص أصحابها على إقناع المتلقي بواقعية ما ينقلون.

6- تُعد رحلة (فتح الإله) أفضل مَنْ ترجمت لصاحبها، فهي بامتزاج سيرة ذاتية للمؤلف نفسه وللكتير من أعلام الجزائر والمغرب العربي الذين كان لهم صدأ واسع في مجال العلم والمعرفة، والتي لا نجد للكثير منهم ترجمة في كتب السير والتراجم المشهورة.

7- تعتبر رحلة أبي راس وثيقة مهمّة من التراث الجزائري خلال القرن الثالث عشر الهجري (18م)، كتبت في الحقبة الأخيرة من العهد العثماني، الذي تميّز بكثرة الصراعات والتراعات والثورات الداخلية والخارجية.

ولعل ما يُعاب على الرحلة أنّ صاحبها لم يُوثق رحلاته توثيقاً زمنياً، كما هو شأن جل الرحلات المعروفة، والتي اهتم أصحابها اهتماماً دقيقاً بتقديم تواريخ أخبارهم ورحلاتهم، باليوم والشهر والسنة، حتى أن بعضهم قدم تواريخ أخرى غير الهجري أو الميلادي؛ - على غرار ما رأيناه في الرحلة السابقة (لابن حمادوش)-. فالفارئ لرحلة أبي راس يدرك تمام الإدراك، أن الرجل لم يعر التحديدات الزمنية اهتماماً يذكر؛ فقد ظل سرد الأحداث عنده يسير في اتجاه واحد نحو النهاية، بعيداً عن الضبط الزمني الذي جاء مبهما تارة، أو مشاراً إليه بعبارات ذات دلالات عامة تارة أخرى.

وكما أهمل أبو راس الجانب الزمني، نجده أيضاً - كما أشرنا سابقاً - أهمل الجانب المكاني؛ إذ أنه لم يُعن بوصف الأمكنة والبقاع الذي كان يشد الرحال إليها إلا نادراً، وربما هذا راجع إلى الاهتمام المفرط للرحلة بالجانب العلمي، وتلهفه الدائم للقاءات العلماء ومناقشاتهم ومناظراتهم والإفادة والاستفادة منهم، حال بينه وبين الاهتمام بالجانبين الزمني والمكاني.

وعموماً فرحلة أبي راس المسماة (فَتَحَ الْإِلَهِ وَمِنتَهُ فِي التَّحَدِثِ بِفَضْلِ رَبِّي وَنَعْمَتِهِ)، لم تكن كأى رحلة عرفها تاريخ الجزائر في فترة الحكم العثماني، كونها حملت بين دفتيها كل ما له علاقة بالعلم، ومنبته، وطلبه، وتأصيله، وشيوخه، ومادته، هذا من جهة. أما من جهة أخرى فهو الجانب الأدبي لصاحب الرحلة، والمتمثل في مزجه بين الشعر والنثر المسجوع من حيث طريقة عرضه للموضوعات.

وهكذا يتضح أنّ مساهمة أبي راس النّاصري في التراث الجزائري عامة، والأدب الجزائري خاصة كانت مساهمة كبيرة عظيمة، تجعل العاقل يتعجب كل العجب! لماذا هذه الشخصية الرّحالة لم تأخذ حقها في الدراسة والبحث؟ ولماذا آثاره ومنجزاته لم تعن بدرس وتدقيق رغم غزارة إنتاجه وذيوع صيته في زمانه؟ فإذا استطعنا الإجابة على مثل هذه الأسئلة، كان حريّاً بنا أن نسأل طلابنا في يوم من الأيام عن: مَنْ أبو راس النّاصري العسكري؟ وما هي أشهر مصنفاته؟

وحسيّ - في هذا المقام- أنّي حاولت في فصلنا هذا، أن أُلَمَّ بغالب الجوانب التي عُني بها رحالتنا الثلاثة (المقري، ابن حمادوش، أبو راس) في مصنفاتهم الرحلية من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الهجري، ولو حاولنا أن نلخص مضمون هذا الفصل في جدول لجاء كالآتي:

<p>الرحالة و رحلته</p>	<p>أحمد المقرئ (نَفْحُ الطَّيْبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ) (ق11هـ/ق17م)</p>	<p>عبد الرزاق ابن حمادوش (لِسَانُ المَقَالِ فِي التَّبَا عَنِ النَّسَبِ وَالْحَسَبِ وَالْحَالِ) (ق12هـ/ق18م)</p>	<p>أبو راس النَّاصِرِي (فَتْحُ الإِلَهِ وَمِنْتِهِ فِي التَّحْدِثِ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ) (ق13هـ/ق19م)</p>
<p>أسباب الرحلة والتأليف</p>	<p>- الغرض العلمي</p>	<p>- العمل والتجارة - تسجيل رحلاته في شكل مذكرات تخليدا لها</p>	<p>- الغرض العلمي - الغرض الديني - كتابة سيرة ذاتية عن نفسه</p>
<p>المصادر المعتمدة</p>	<p>- السماع والمشاهدة - المعاينة والوصف - النقل عن الكتب</p>	<p>- المعاينة والوصف - السماع والمشاهدة - النقل عن الكتب</p>	<p>- المعاينة والسرد - السماع والمشاهدة - النقل عن الكتب</p>
<p>منهج المؤلف في الرحلة</p>	<p>- مقدمة طويلة (استعرض جميع رحلاته) - القسم الأول: أخبار الأندلس. - القسم الثاني: أخبار الوزير لسان الدين ابن الخطيب</p>	<p>- القسم الأول: رحلات المغرب الأقصى - القسم الثاني: رحلات الجزائر - القسم الثالث: الكتب والوثائق والإجازات</p>	<p>الباب الأول: سيرة ذاتية عن نفسه الباب الثاني: أشياخه الباب الثالث: رحلاته المشرقية والمغربية الباب الرابع: مناظرته ومناقشاته الباب الخامس: آثاره</p>
<p>أسلوب المؤلف</p>	<p>- انتقاء الألفاظ والسجع الجميل وتوشيح النثر بشعر في غالب أطوار الرحلة - أسلوب فصيح خالي من العامية</p>	<p>- أسلوب بسيط غير متكلف . - استعمال الكثير من الألفاظ العامية مع عدم مراعاة القواعد الإملائية والإعرابية.</p>	<p>- انتقاء الألفاظ والسجع الجميل في كل أطوار الرحلة - تحلله بعض الألفاظ العامية</p>
<p>نمط الرحلة</p>	<p>- السرد - الوصفي - التاريخي</p>	<p>- السرد - الوصفي - التاريخي</p>	<p>- السرد - الوصفي - الحوار</p>

2- يظهر الجدول التالي أوجه التشابه والاختلاف بين الرحالة من حيث العناية بالجوانب السابقة الذكر في كل مبحث:

تتبع الإشارة (✓) عناية الرحالة بالجانب

تتبع الإشارة (-) عدم عناية الرحالة بالجانب

الجوانب	أحمد المقرئ التلمساني	ابن حمادوش الجزائري	أبو راس الناصري
الجانب الديني	✓	✓	✓
الجانب اللغوي والنحوي	✓	-	- اللغوي ✓ النحوي
الجانب الصرفي	-	✓	-
الجانب البلاغي والنقدي	✓	✓	✓
الجانب العروضي	-	✓	-
الجانب الاجتماعي والحضاري	+	✓	-
الجانب السياسي والاقتصادي	✓	✓	-
الجانب التاريخي والجغرافي	✓	✓	✓
جانب العلوم (الطب، الفلك،...)	-	✓	-

3- سير خط الرحلات:

اسم المكان أو الموضوع	أحمد المقري التلمساني	ابن حمادوش الجزائري	أبو راس التاصري
الجزائر (العاصمة)	✓	✓	✓
قسنطينة	✓	-	✓
تلمسان	✓	-	✓
وهران	-	-	✓
معسكر	-	-	✓
البليدة	-	-	✓
تطوان	✓	✓	-
فاس	✓	✓	✓
مكناس	-	✓	✓
مراكش	✓	-	-
تونس	✓	-	✓
القاهرة	✓	✓	✓
الإسكندرية	✓	✓	✓
مكة	✓	✓	✓
المدينة المنورة	✓	✓	✓
دمشق	✓	-	✓
القدس	✓	-	✓
غزة	✓	-	✓
طرابلس	-	✓	-

- نستنتج من هذا الجدول أنّ الرحلة الثلاثة اشتركوا في شد الرحال إلى المدن التالية: (الجزائر العاصمة، فاس، مكناس، القاهرة، الإسكندرية، مكة والمدينة)، بينما اشترك المقري وأبو راس في (قسنطينة، تلمسان، دمشق، القدس، غزة)، واشترك أبو اس وابن حمادوش في مدينة (مكناس)، كما اشترك المقري وابن حمادوش في مدينة (تطوان)، أما المدن المتبقية فقد اختص كل رحلة بالرحلة إليها.

خاتمة

خاتمة

لكل رحلة نهاية وها نحن بعد هذه الدراسة الرَّحلية البحيثة والملتعة بين ربوع الرحلات الجزائرية نخط الرحال لنلخص أهم النتائج التي توصلنا إليها في هذا البحث وهي كالآتي:

أ- الهوية النصية للرحلة قائمة على بنية السفر الشامل للذهاب والإياب المرتبطين بذات فاعلة قامت بالسفر، وكتبت مراحلها في نص مكتمل يتوجه إلى قارئ معين بخطاب يحمل سمة رحلة، يمتزج فيه سرد أخبار السفر ووصف الناس والأشياء، وما يستدعيه ذلك من تحفيز الذاكرة لاسترجاع الوقائع والأحداث في تتابع أو تعاقب على مدى زمني تحدده البداية والنهاية.

ب- خطاب الرحلة فن من الفنون التراثية المتجذرة في الأدب العربي، وهو كما لاحظنا فن مفتوح له قابلية احتضان جميع العلوم والجوانب والفنون، ويعتبر أصدق الفنون وأقدرها على التعريف بالواقع، ونقل صورة حية للقارئ أو المتلقي.

ت- نمط خطاب الرحلات فن قائم بذاته يحوي الكثير من المعلومات التي تهم الأديب والمؤرخ والفقيه والاقتصادي والاجتماعي والسياسي والجغرافي وغيرهم.

ث- خطاب الرحلة مزيج من الخطابات الأدبية التي يُضمَّنُها الرحال في أثناء رحلاته.

ج- كتب الرحلات باعتبارها مفاتيح شخصيات الرحالين تمثل وعي عصرها والشاهد على ما فيه من أحداث، كما تكشف عن ميول الشخصيات. وتحليل الرحلات يكشف عن طبيعة النصوص التي تحمل دلالات أدبية ودينية وعلمية واجتماعية وثقافية وتاريخية، وكل نص من هذه النصوص يحمل علامة مميزة له.

ح- تعددت دوافع وأغراض الرحلات بين دافع ديني وعلمي، ودافع سياسي، ودافع اقتصادي (تجاري)، ودافع سياحي... فكان الدافع الديني والعلمي في مقدمتها. كما تعددت مصادر الرحلات، فمن الرحالة من رجح كفة المعاينة على السماع، وهناك من رجح السماع على المعاينة، وهناك من وجه اهتمامه إلى مصنفات العلماء والفقهاء بما في ذلك الرحلات سابقة، إلا أن كفة المعاينة والمشاهدة كانت ذات قيمة أكبر من غيرها من المصادر؛ ذلك لما عايشه الرحالة من تجربة واقعية دَوَّنَهَا، ولم يحدثه غيره بذلك، ولم يقرأه في كتاب أحد آخر.

خ- انقسم خطاب الرحلات بين نوعين:

رحلات واقعية فعلية وهي التي يكون لها دوافع ملموسة.

رحلات خيالية وهي التي لا تتأسس على التجربة المعيشة في

الواقع، وإنما تتجسّد في الخيال.

د- كتب الرحلات تعد مصدرا للعديد من النصوص الأدبية الشعرية والنثرية، فلقد انفرد بعضها برواية عديد من الآثار الأدبية وذلك حرصا من الرحالة أنفسهم على أن تضم رحلاتهم هذه الإبداعات، ولم يكتفوا بهذا بل قاموا بتضمين الرحلة إبداعاتهم الخاصة وذلك في سياق تدوينهم لها مما جعل هذه الرحلات ذات أهمية خاصة فأغلب الرحالين لم تعرف لهم أشعار أو كتابات باستثناء تلك التي أوردوها في رحلاتهم.

ذ- الرحلات الجزائرية تُعد قليلة الكمّ والعناية والشهرة إذا ما قورنت بالرحلات العربية الأخرى، إلا أنها ستبقى مصدرا هاما من مصادر تاريخ الجزائر.

وقد بدا لنا أن الأدب الجزائري ثريّ بهذا الفن، يشهد على ذلك القيمة المعرفية للرحالة الجزائريين، سواء الداخلية التي قادتهم إلى مختلف أنحاء الوطن، أو الخارجية التي كانت وجهتهم فيها في الغالب نحو المشرق. ولقد استطاعت الرحلات الجزائرية خلال العهد

العثماني، أن تنقل لنا صورة الحياة بجميع مكوناتها ومختلف مظاهرها، وقد بدت لنا الحياة في هذا العصر من خلال هذه الرحلات متميزة بأمر عدة أهمها:

أ- رصد تنوع المعالم الحضارية في مختلف الجوانب الحياتية في البلدان التي قصدوها، كما عكست أحوال مجتمع المغرب العربي وعاداته، وكشفت عن الانتماء لثقافة الذات والفهم لثقافة الآخر.

ب- سيطرة المظاهر الدينية بأبرز صورها في هذا العهد، حيث تعددت الزوايا، وانتشرت في جميع أرجاء الوطن، و سيطرت الصوفية على عقول العامة من الناس، و حتى على الخاصة من العلماء، والفقهاء، والأدباء. فضلا عن العامة من الناس.

ت- كثرة الاضطرابات الداخلية و الخارجية، و التي كانت من الدوافع التي دفعت بعض الجزائريين للهجرة، بحثا عن المكان الآمن و المناسب للعيش.

ومن خلال الوقوف على نماذج من الرحلات الجزائرية في العهد العثماني، تبين أن هذه الرحلات بمختلف أنواعها، تميزت بخصائص امتازت بها عن غيرها، كما تألفت مع بعضها وتلاقت في العديد من الأمور المشتركة حيث لاحظنا:

أ- تنوع القيمة العلمية للمصنفات الثلاثة وذلك من حيث المعلومات التي قدموها سواء الأدبية أو التاريخية أو السياسية أو الدينية... رغم أنهم اختصروا وأجزوا في الكثير من المواضيع، هذا إضافة إلى النسيان وعدم الاستحضار الذي انتابهم في الكثير من المرات، وكم كانوا يصرحون بذلك في رحلاهم.

ب- الطابع الواقعي الذي زحرت به هذه المصنفات، فقد تميزت بدقة الوصف وقوة التصوير، حيث تمكن قارئ الرحلة من تصوّر المشهد أو الخبر الذي يوصف أو يسرد وكأنه أمامه. زد على ذلك التسلسل الزمني الذي ارتبط ارتباطا وثيقا بالرحلة، وهذا يزيد من طابعها الواقعي.

- ت- أحالت على الكثير من المصنفات الرحلية الأخرى، والتي كان أصحابها أصحاب سبق في هذا الميدان على غرار محمد الفكون وأحمد ابن عمار والورثاني وغيرهم. كما ضمت عددا هائلا من النصوص الأدبية والتاريخية والجغرافية التي لا يزال بعضها في طي النسيان إلى يومنا هذا.
- ث- وهي مصدر مهم في حياة أصحابها، فهي بمتلة مرآة تعكس تجربتهم ونشاطهم العلمي المعاش خلال هذه الأسفار
- ج- وهي أفضل من ترجمة لأصحابها، فهي بمتلة سيرة ذاتية لهم، كما تضمنت ترجمات للكثير من أعلام الجزائر والمغرب العربي الذين كان لهم صدأ واسع في مجال العلم والمعرفة، والتي لا نجد للكثير منهم ترجمة في كتب السير والتراجم المشهورة. وبذلك يمكن إدراج هذه المصنفات تحت كتب التاريخ والأنساب والسير والتراجم الأعلام.
- ح- قدرة أصحابها العالية على الجمع بين آراء وأقوال العلماء والفقهاء، وحصرها والاستفادة منها في المجالس والمناظرات، وهذا نلمحه بوضوح في المسائل الدينية والأدبية.
- خ- تنوعت أساليب التدوين بين الأساليب الفصيحة التي أفرغت طاقتها في روح المزاوجة بين الجمل والعبارات وتقليب المعنى على وجوهه المختلفة وقوة العبارة، وسلامة اللفظ، وتوظيف سجع الكلام وكثرة الاقتباس والاستطراد، كما هو الحال عند المقري وأبي راس، وبين أسلوب يمزج بين الفصحى والعامية كما عند ابن حمادوش.
- د- الجمع بين النثر والشعر في طريقة تناولهم للموضوعات.
- ذ- تفاوتت درجة العناية بالجوانب والفنون، فالمقري أولى عناية كبيرة بالجانب الأدبي والتاريخي، وابن حمادوش أولى عنايته بجانب العلوم (من طب وصيدلة وفلك...)، وأبو راس وجه أكبر اهتمامه إلى الجانب العلمي.
- ر- خضعت لبناء معماري واحد؛ إذ أن جميعها كانت موحدة الإطار أعني أنها اعتمدت على ثلاث خطابات: خطاب التقديم، وخطاب المتن، وخطاب الختام، وجميعها تقريبا افتتحت بمقدمة وانتهت بخاتمة.

ز- أن الشخصية المركزية، وهي شخصية الرحالة في جميع الرحلات، هي الأساس الذي تبنى عليه جميع مكوناتها، و المحور الذي تدور حوله جميع أحداثها، يتجلى ذلك في سيطرتها على الرحلة عبر مختلف محطاتها ، قولا و فعلا ، من البداية إلى النهاية ، ذهابا وإيابا ، وهو ما جعل الشخصيات الأخرى - المتألفة أو المتنافرة مع الرحالة - تظهر في خدمة الشخصية المركزية.

س- هناك رحلات يغلب على سرد أحداثها طابع الإطناب والاستطراد، وهو ما نجده بصورة واضحة في الرحلات التي يكون فيها السارد حرا، لا يخضع لسلطة مثلما وقفنا عليه مع المقرئ وابن حمادوش، بينما هناك رحلات تتميز بالإيجاز و الدقة في سرد الأحداث، وقد لاحظنا ذلك عند أبي راس.

ش- العامل المكاني و الزماني من البنيات التي يستحيل أن تستغني عنهما الرحلة، مهما كان نوعها ومهما كان زمنها، إلا أن التعامل مع هذين البنيتين يختلف من رحلة إلى أخرى. فأحيانا نجد رحلات تحتفي بهذا المكان فتحدده و تصفه، وتتغنى بمكوناته، و تبرز علاقته بالشخصيات ومدى تفاعله معها، من خلال تأثيره فيها ومدى تأثيره بها، كما نجد في المقابل رحلات أخرى، وهي قليلة، لا تولى المكان أهمية كبرى، فلا تحدده، ولا تصفه، ولا تهتم بجماليته على غرار رحلة أبي راس، الذي طغى عليها الاهتمام بالمسائل العلمية و المناظرات، وبالعلماء والمؤلفات.

ص- كما اختلفت الرحالة كذلك في طريقة التوثيق ولاسيما تعاملهم مع الزمان ، فقد ألفينا منهم من حدده تحديدا دقيقا ، فأشار إليه باليوم، و الشهر، والسنة، و حتى الوقت في بعض الأحيان، و هذا ما كشفت عنه رحلة ابن حمادوش، كما وجدنا من الرحالين من لم يدقق في التحديدات الزمنية، و إنما أشار إليها بإشارات عامة كعبارة (و في ذلك اليوم) وعبارة (بعد يوم أو بعد شهر) كأبي راس، إلا أن جميع الرحالة - وتلك ملاحظة ذات دلالة - وظفوا أوقات الصلاة واليوم ، للدلالة على الزمن و تحديده.

ض - توثيق وحفظ العديد من الموروثات الجزائرية والمغربية ونقلها بصورة حية وحقيقية، خاصة وأن العديد منها مهدد بالضياع. فالرحلات أعطت بذلك صورا واقعية لبعض مظاهر الحياة في مختلف البلدان من عادات وتقاليد ومعتقدات...

إنّ وقوفنا على الجوانب التي عُني بها الرحالون الجزائريون، قد أثبت أن الجزائر تتربع على أدبٍ وتاريخٍ غنيٍّ ومتنوع الضروب والفروع، فهما يمثلان العلم والثقافة الوطنية والعزة والكرامة للشخصية الجزائرية إلا أن المؤسف حقا، أن كثيرا من هذه الرحلات، لم تصلها أيادي المحققين، ولم تتصد لها أقلام الباحثين، بحكم ضياعها، أو لاستحواذ بعضهم ممن لا يقدرون قيمتها عليها.

ومنه فإن تحقيق المخطوط وطبعه ودراسته هو واجب ومسؤولية الباحثين والدارسين، ولعلّ تضافر جهود الدارسين يوصلنا إلى جمع هذا الموروث الجزائري ونفض الغبار عنه ونشره واستثماره، وفتح آفاق جديدة للبحث، فما جهل غالب طلابنا اليوم بأعلام الرحلة الجزائرية، ولاسيما في العهد العثماني أو في الأدب الجزائري القديم بصفة عامة؟ إلا من هذا الإهمال والتقصير.

وأخيرا أقدم بعض الاقتراحات حول موضوع خطاب الرحلات ولحجي الأدب العربي:

1. أدعو دارسي الأدب العربي إلى أن يهتموا بأدب الرحلات، وأن يكتبوا عن خطاب الرحلة الجزائرية حتى يتسنى لطلابنا اليوم معرفة موروثهم الرحلي وأعلامه ومصنفاته.
2. تحتاج المكتبات الجزائرية إلى توفير كتب الرحالين الجزائريين، ولاسيما المشهور منها؛ فلا يجوز أن نتغنى برحلاتنا دون أن تتوفر مكتباتنا الجامعية على مصنفاتهم.
3. أرجو من مسؤولي المناهج في الجامعات أو الأقسام العربية أن يضمنوا مقررات دراسية من هذه الرحلات، فهي تنطوي على قيمة فكرية وعلمية وفنية كبيرة.

وفي الختام أشكر الله -جلا وعلا- على توفيقه لي على إتمام هذا البحث بعد مشقة وعناء، كما أسأله أن يكون عملي هذا عملا صالحا مقبولا، ينفعي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، واشكره على آلائه ونعمه إنه سميع مجيب وآخر دعوانا أن الحمد رب العالمين.



أحمد ابن محمد المقرئ التلمساني

أ- اسمه، لقبه ونسبه:

أجمع الباحثون والمؤرخون على أن اسم المقرئ هو: (أحمد)، ومما يؤكد هذا القول ما ورد في بداية كتابه (أزهار الرياض في أخبار عياض):

فَيَقُولُ أَحْمَدُ دُو الْقُصُو رِ الْمَقْرِي إِذَا انْتَسَبَ (٩١٥)

واشتهر المقرئ بلقب واحد ظل ملازماً له ولم يفارقه كلما ذكر اسمه، وهو شهاب الدين^(٩١٦)، وقد يكتفى بإطلاق لقب (الشَّهَاب) عليه.

وعليه فهو أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقرئ هكذا عرفه أحد المعاصرين له وهو الحجي^(٩١٧) في (خلاصته) وأصل المقرئ من (مَقْرَة) بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة وراء مفتوحة، وهي إحدى قرى تلمسان الجزائرية، ولذلك اشتهر بالمقرئ على حد قول الحجي، وقيل بفتح الميم وسكون القاف (المقرئ)، لغتان أشهرهما الأولى، نسبة إلى قرية تلمسان المتقدمة، وإليها نسبة آبائه^(٩١٨) وقال ياقوت الحموي: "مقرة بالفتح ثم السكون وتخفيف الراء... مدينة بالمغرب في بر البربر قريبة من قلعة بني حماد"^(٩١٩). فيما ذهب آخرون كالزركلي إلى تعريفه بـ (المقرئ) ضم الميم وسكون القاف^(٩٢٠)

^{٩١٥} أحمد المقرئ، (أزهار الرياض في أخبار عياض)، م.م.س، ص: 3/1

^{٩١٦} إسماعيل باشا البغدادي، (هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون)، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)،

1992م، ص: 157/1

^{٩١٧} محب الدين بن محمد الحجي الحموي، (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر)، دار صادر، (بيروت- لبنان)، ص: 302/1

^{٩١٨} المصدر نفسه، ص: 302/1

^{٩١٩} ياقوت الحموي، (معجم البلدان)، م.م.س، ص: 175/5

^{٩٢٠} الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 237/1

أما صاحبنا المقرئ فيقول إن مقره من قرى (زاب إفريقية)، وقد انتقل منها جده إلى (تلمسان)⁽⁹²¹⁾، وأضاف: "ولدت بتلمسان، وولد بها أبي، وجددي، وجد جدي" ⁽⁹²²⁾

وكان يكنى بأبي العباس، أما عن تاريخ مولده فالجمع عليه من الباحثين أنه ولد في الربع الأخير من القرن العاشر الهجري، وقد اختلفوا في تحديد السنة على عدة أقوال فقد عينها الزركلي في (أعلامه) بسنة 992هـ (1584م)، واضعاً علامة استفهام حول هذا التاريخ ⁽⁹²³⁾

أما القول الثاني فيحدد تاريخ ولادته بعام 986هـ (1578م)، وهذا التاريخ أثبتته أبو حامد محمد العربي بن الشيخ أبو المحاسن الفاسي، وهو رفيق المقرئ في الدراسة حيث أثبت قوله: "حدثني الفقيه الفاضل سيدي محمد بن مبارك الكفيف الزعري أنه سأل سيدي أحمد المقرئ عن مولده فقال له: ولدت سنة ست وثمانين وتسعمائة" ⁽⁹²⁴⁾

وهناك قول آخر وهو أن ولادته كانت عام 1000هـ (1591م) ومن الذين قالوا بذلك ليفي بروفنسال ⁽⁹²⁵⁾، غير أن أحد الباحثين يشكك في صحة هذا التاريخ وذلك بناء على تتبع نشأة المقرئ وحوادث حياته حسبما يقصها محمد عبد الله عنان يقول أنه ولد قبل ذلك التاريخ بعدة أعوام، فهو أولاً يذكر لنا أنه نشأ بتلمسان إلى أن رحل عنها في زمن الشيبية إلى مدينة فاس سنة تسع وألف، فلو كان مولده سنة 1000هـ، لما تحدث هنا عن الشيبية إذ يكون عمره عندئذ تسعة أعوام فقط أعني غلاماً حدثاً، وهو مالا ينصرف إليه الشباب ⁽⁹²⁶⁾

والمقرئ أشعري مالكي المذهب، نشأ بتلمسان وقرأ بها ⁽⁹²⁷⁾، وحفظ القرآن على عمه الشيخ الجليل العالم أبي عثمان سعيد بن أحمد المقرئ مفتي تلمسان ستين سنة ومن جملة ما قرأ عليه

⁽⁹²¹⁾ المقرئ، (نفع الطيب)، م.م.س، ص: 205/5

⁽⁹²²⁾ المصدر نفسه، ص: 136/7

⁽⁹²³⁾ الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 237/1

⁽⁹²⁴⁾ محمد بن عبد الكريم، (المقرئ وكتابه نفع الطيب)، دار مكتبة الحياة، (بيروت- لبنان)، ص: 126

⁽⁹²⁵⁾ لويس ماسينيون، هنري لامنس، ليفي بروفنسال وآخرون (دائرة المعارف الإسلامية) تر: أحمد الشنتاوي وآخرون، دار المعارف، (بيروت- لبنان)،

مادة: [المقرئ أحمد بن محمد]

⁽⁹²⁶⁾ يوكرموش ياسين نبيل، (الأساليب البلاغية في نفع الطيب)، مذكرة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة حسينية بن بو علي، (شلف- الجزائر)،

2008/2007م، ص: 7. نقلاً عن: مريم قاسم طويل، يوسف علي الطويل، (مقدمة التعليق على نفع الطيب)، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)،

ص: 1/ز

⁽⁹²⁷⁾ المقرئ، (نفع الطيب)، م.م.س، ص: 1/1 مقدمة المؤلف

صحيح البخاري سبع مرات، وذكر أنه وصف بلده تلمسان، وجعلها بلدة عظيمة من أحاسن بلاد المغرب، كما روى عن عمه "الكتب الستة" بسنده عن أبي عبد الله التيسبي، عن البحر أبي عبد الله بن مرزوق عن أبي حيان، عن أبي جعفر بن الزبير، عن أبي الربيع عن القاضي عياض بأسانيده المذكورة في كتاب (الشفاف) (928)

ب- نشأته وثقافته:

ولد أحمد المقرئ ونشأ وتثقف في تلمسان، وقد ظل وفيها لهذا التكوين الأصلي حتى وهو يتمتع بالجاه والحظوة في القاهرة ودمشق، وفي الثالثة والعشرين من عمره غادر تلمسان إلى فاس (929)

وقد تولى المقرئ أثناء تواجده بالمغرب وظائف سامية كالإمامة والخطابة والفتوى، وهي وظائف العلماء البارزين في عهده في الجزائر أيضا. وكان بعض سلاطين المغرب يقدمون علماء الجزائر، وخصوصا تلمسان، لأسباب سياسية تتعلق بسياساتهم من الدولة العثمانية عموما والجزائر بصفة خاصة، وإذا كان بعض علماء الجزائر قد سجلوا انطباعهم نحو العثمانيين، معهم أو ضدهم، فإن أحمد المقرئ لم يسجل، حسب علمنا، انطباعه سواء عندما كان في الجزائر أو عندما كان في المغرب أو حتى بعد أن هاجر إلى المشرق (930)

ثم عاود بعد ذلك الرجوع إلى تلمسان في آخر عام 1010هـ ليعود إلى فاس عام 1013هـ (1604م) ليستقر بها مفتيا وقاضيا وخطيبا (931).

وفي أواخر شهر رمضان عام 1027هـ (1617م) (932)، وكان سبب رحيله إثر اختلال أحوال المملكة بسبب صراع أولاد المنصور الذهبي على الحكم فترك منصبه ووطنه وأهله قاصدا حج بيت الله الحرام (933)، وإن كان يرى أحد الباحثين في سيرة المقرئ وهو الحبيب الجنحاني إلى أن سبب

(928) الحفناوي، (تعريف الخلق برجال السلف)، تقديم: محمد رؤوف القاسمي الحسيني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، (الرباط- الجزائر)

ص: 52/1

(929) أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م)، م.م.س، ص: 213/2

(930) المرجع نفسه، ص: 214/2

(931) المقرئ، (نفح الطيب)، م.م.س، ص: 1/1، 2 مقدمة المؤلف

(932) المصدر نفسه، ص: 4/1

(933) المحي الحموي، (خلاصة الأثر)، م.م.س، ص: 302/1

خروج المقرري من فاس كان لمواقفه المؤيدة لقبيلة شراكة التي أصلها من تلمسان، حيث أهتمت بإحداث قلاقل واضطرابات في عهد السلطان محمد الشيخ السعدي⁽⁹³⁴⁾

ومهما يكن من أمر فإن المقرري وصل في عام 1028هـ (1618م) من شهر رجب إلى مصر حيث أقام بها مدة قصيرة ليسافر في البحر إلى الحجاز لرؤية الحرمين الشريفين، حيث وصل إلى جدة فأكمل العمرة أوائل ذي القعدة من العام المذكور وأقام فيها منتظرا وقت الحج وبعد أن حج نوى الإقامة هناك، فحال من دون ذلك حائل ليقصد بعدها طيبة الشريفة لزيارة قبر الرسول ﷺ⁽⁹³⁵⁾

وفي عام 1029هـ (1619م) عاد المقرري إلى مصر⁽⁹³⁶⁾، حيث تزوج من امرأة من عائلة الوفايين نسبة إلى محمد وفاء الإمام المشهور المتصل بأدارة ملوك المغرب الأقصى، ولكن حياتهما الزوجية لم تدم إذ سرعان ما انفصلت عرى الوثاق فطلقها مما جعل الكثير من أهل مصر ينقمون عليه وظهر هذا في شعره حين قال:

تَرَكْتُ رُسُومَ عَزِي فِي بِلَادِي وَصِرْتُ بِمِصْرَ مَنَسِي الرُّسُومِ
وَرَضْتُ النَّفْسَ بِالتَّجْرِيدِ زُهْدًا وَقُلْتُ لَهَا عَنِ الْعُلَيَاءِ صُومِي⁽⁹³⁷⁾

وكان المقرري قد ذكر لنا قبل قدومه مصر أنه زار بيت المقدس في شهر ربيع الأول من العام 1029هـ فدخل المسجد الأقصى فبهره جماله وسأل عن محل المعراج الشريف فأرشد إليه⁽⁹³⁸⁾، ثم عاد إلى القاهرة وكرر منها الذهاب إلى مكة وطيبة ومع قدوم عام 1037هـ (1627) كان المقرري قد دخل مكة خمس مرات، وأملى فيها دروسا عديدة كما وفد على طيبة سبع مرات وأملى فيها الحديث النبوي ليعود إلى مصر حيث لازم خدمة العلم الشريف بالأزهر وكان عوده من الحجة الخامسة في شهر صفر من عام 1037هـ⁽⁹³⁹⁾ وفي أوائل رجب من العام المذكور - أعني عام

⁹³⁴ ينظر: الحبيب الجناحي، (المقرري صاحب نفح الطيب)، دار الكتب لشرقية، (تونس)، 1955م/1374هـ، ط1، ص: 42

⁹³⁵ المقرري، (نفح الطيب)، م.م.س، ص: 4/1

⁹³⁶ أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م)، م.م.س، ص: 217/2

⁹³⁷ المقرري، (نفح الطيب)، م.م.س، ص: 74/1

⁹³⁸ المصدر نفسه، ص: 54/1

⁹³⁹ المصدر نفسه، ص: 4/1

1037هـ- عاد المقرئ إلى بيت المقدس فوصل إليه أواسط رجب وأقام فيه نحو خمسة وعشرين يوماً حيث ألقى عدة دروس بالمسجد الأقصى والصخرة المنيفة⁽⁹⁴⁰⁾

وفي منتصف شعبان من العام نفسه عزم على الرحلة إلى مدينة دمشق حيث دخلها أواخر الشهر المذكور وأقام بها إلى أوائل شوال من السنة المذكورة حيث استقبله مضيفه أحمد ابن شاهين بأن أرسل إليه مفتاح المدرسة الحقمقية- كما ذكرنا سابقاً- فأقام فيها واستوطنها مدة إقامته وأملى في جامعها صحيح البخاري⁽⁹⁴¹⁾

وقد جرى بين المقرئ وبين أدباء وعلماء دمشق آنذاك عدة مطارحات لاسيما مع المولى الشاهيني وقد تعلق قلب المقرئ بالشام وأهلها⁽⁹⁴²⁾

لم تطل إقامة المقرئ بدمشق، حيث إنه سرعان ما عاد إلى مصر في أوائل شوال من عام 1037هـ وبينما هو في طريقه إلى مصر عرج على مدينة غزة فأضافه فيها الشيخ الغصين⁽⁹⁴³⁾ قرابة الشهر⁽⁹⁴⁴⁾

ودخل المقرئ مصر واستقر بها ثم عاد إلى دمشق للمرة الثانية وذلك في أواخر شعبان سنة 1040هـ (1630م) ثم عاد إلى مصر واستقر بها مدة يسيرة، ثم طلق زوجته الوفائية ولما قصد العودة إلى دمشق للتوطن بها فاجأه الموت قبل نيل المرام⁽⁹⁴⁵⁾، وكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة 1041هـ (1631) ودفن بمقبرة (المجاورين)⁽⁹⁴⁶⁾

⁹⁴⁰ المصدر نفسه، ص: 4/1

⁹⁴¹ الحبي الحموي، (خلاصة الأثر)، م.م.س، ص: 302/1

⁹⁴² المقرئ، (نفح الطيب)، م.م.س، ص: 10/1

⁹⁴³ عبد القادر بن أحمد بن يحيى بن محمد بن إسماعيل بن شعبان المعروف بابن الغصين الغازي الشافعي. ينظر: الحبي الحموي، (خلاصة

الأثر)، م.م.س، ص: 437/2

⁹⁴⁴ المقرئ، (نفح الطيب)، م.م.س، ص: 6/1

⁹⁴⁵ الحبي الحموي، (خلاصة الأثر)، م.م.س، ص: 311/1

⁹⁴⁶ المصدر نفسه، ص: 311/1

وهكذا شاء قدر الله تعالى أن يصرفه عن العودة إلى وطنه الجزائر والمغرب الأقصى اللذين ظل يحلم طيلة حياته بالمشرق بالرجوع إليهما والاستقرار فيهما. رحم الله المقرئ رحمة واسعة وجزاه عن أعماله خير الجزاء فقد كان أديب الجزائر الأول وكان قبل ذلك محدث المغرب بلا منازع.

ج- آثاره:

ترك المقرئ تصانيف متعددة النواحي تتناول معارف عصره وتعد من أمات المكتبة العربية والإسلامية كان هدفه منها تقديم ما يسد حاجة أهل العلم من الأدب والتاريخ وقد أقرأ معظمها إلى حين وفاته ويمكنني أن أقسم هذه المصنفات من حيث توأجدها إلى أربعة أقسام:

مؤلفات مطبوعة وأخرى مخطوطة وثالثة مفقودة وأخرها كان في نية المقرئ أن يؤلفها ويمكنني أن أسرد هذه المؤلفات في قوائم وفق التقسيم المذكور متبعا في ذلك ترتيبا هجائيا:

أولا: المؤلفات المطبوعة:

أ- أزهار الرياض في أخبار عياض:

هكذا أورد المقرئ عنوانه في كتابه (النفح)⁽⁹⁴⁷⁾، وقد ألفه المقرئ أثناء إقامته بفاس وهو مطبوع كاملا في خمسة أجزاء بعناية الحكومة المغربية ودولة الإمارات لعام 1994م.

ب- إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة:

هكذا أورد الزركلي في (أعلامه)⁽⁹⁴⁸⁾، وهذا الكتاب عبارة عن منظومة بدأ بتأليفها في أثناء زيارته للحجاز والشام وقد طبع في مصر عام 1304هـ (1886م) بهامش شرح العقيدة السنوسية للشيخ عيش.

ت- حسن الثنا في العفو عن جنى:

هو مطبوع بمصر دون تاريخ ويقع في سبع وأربعين صفحة وهو كتاب يتناول أدب السلوك من خلال الأحاديث النبوية والآيات القرآنية.

⁹⁴⁷ المقرئ، (نفح الطيب)، م.م.س، ص: 10/1

⁹⁴⁸ الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 424/2

ث - روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراکش وفاس: طبع هذا الكتاب عام 1946م بالمطبعة الملكية بالرباط بتحقيق عبد الوهاب ابن منصور وهو كتاب يترجم فيه المقرئ لأربعة وثلاثين شخصية من العلماء والأدباء الذين جمعته معهم المجالس العلمية أثناء رحلته إلى مراکش وفاس.

ج- الغث والسمين والرت والشمين فتح المتعال في مدح النعال:

هكذا ورد عنوانه في (الأعلام)⁽⁹⁴⁹⁾ الزركلي، أما البغدادي إسماعيل باشا فأورده في (هديته) تحت عنوان فتح المتعال في وصف النعال⁽⁹⁵⁰⁾. وهذا الكتاب عبارة عن أدب نبوي أو هو رسالة نثرية تتخللها مقطعات شعرية في وصف ومدح نعال المصطفى عليه الصلاة والسلام، حيث كان المقرئ كثير الاهتمام بمدح خير البرية وقد طلب منه أحد الحاضرين في مجلسه أن يكتب في هذا الموضوع فترل المقرئ عند رغبة هؤلاء وبدأ في تحريره يوم الثلاثاء غرة شهر رمضان سنة 1033هـ واستمر في تأليفه خمسة عشر يوماً. والكتاب طبع مرة واحدة عام 1334هـ بمدينة حيدر آباد بالهند، مطبعة دائرة المعارف النظامية.

ح - المزدوجة:

وهي عبارة عن أكثر من خمسمائة بيت غرضها الغزل جمعها الشيخ محمد أفندي الجزائري مع مزدوجات أخرى لبعض الأدباء ثم طبع المجموع، ولهذا الكتاب ثلاث طبعات: 1274هـ- 1278هـ- 1280هـ.

خ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب.

ثانياً: المؤلفات المخطوطة.

وتجدر الإشارة هاهنا إلى أنني أخط هذه السطور وربما أحد هذه المصنفات المخطوطة يطبع في نفس الوقت وهذا ما أتمناه.

أ- إتخاف المغرم المغربي بتكميل شرح الصغرى:

⁹⁴⁹ المقرئ، (نفح الطيب)، م.س، ص: 9/1

⁹⁵⁰ إسماعيل بن محمد البغدادي، (هدية العارفين)، م.م.س، ص: 157/1

وهو كتاب في العقائد حرره المقرئ في أواخر سنة 1028هـ/1619م بالإسكندرية في عشرة أيام أما عن نسخ هذا المخطوط فيوجد منه نسخة بمكتبة (مدريد) بإسبانيا تحت رقم 317، وهناك نسخة منه في مكتبة تونس بخزانة جامع الزيتونة تحت رقم 2103 ضمن مجموع بمكتبة العطارين بتونس تحت رقم 480، وفي مصر هناك نسخة بدار الكتب بالقاهرة (مكتبة تيمور) تحت رقم 403، وفي المغرب الأقصى توجد نسختان بالخزانة الملكية بالرباط إحداهما تحت رقم 3544 والثانية تحت رقم 5928

ب- أزهار الكمامة في أخبار الإمامة:

هكذا أورده البغدادي في (هديته)، وهو أدب نبوي يحتوي 305 بيت، توجد نسخة من هذه الأرجوزة منفردة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 849⁽⁹⁵¹⁾

ت- أسئلة وأجوبة حوت رقائق لطيفة ودقائق منيفة:

وهي عبارة عن مجموعة من الأشعار في مدح دمشق وأغراض أخرى توجد نسخة منه بمكتبة (لبسيك) بألمانيا تحت رقم 863 كما توجد نسخة منه بدار الكتب المصرية بمصر (قسم المخطوطات).

ث - إعراب القرآن:

وهو تفسير وإعراب لسور القرآن الكريم توجد نسخة منه بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم 670 وهي نسخة وحيدة مبتورة.

ج- إعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس الواردة من سيدي محمد بن أبي بكر بركة الزمان وبقية الناس:

هو كتاب يحوي عقائد وفقها، حيث وردت فيه أجوبة عن أسئلة الشيخ الدلائي، التي وجهها إليه من الزاوية الدلائية في المغرب الأقصى، أيام كان مقيما بالقاهرة وألفه سنة 1041هـ (1631م)، توجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط ضمن كتاب (البدور الضاوية) لمؤلفه سليمان الحوات بيتدي من ورقة 71 إلى 164 تحت رقم 261 د.

⁹⁵¹ إسماعيل البغدادي، (هدية العارفين)، م.م.س، ص: 157/1

ح - تاريخ الأندلس:

تاريخ تأليف هذا الكتاب مجهول، توجد نسخة منه بالمكتبة الأزهرية بالقاهرة تحت رقم 4218.

خ - حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي:

وهي حاشية في العقائد، توجد نسخة منه بدار الكتب المصرية (مكتبة تيمور)، تحت رقم 212.

د - خلاصة فتح المتعال، والنفحات العنبرية⁽⁹⁵²⁾:

وهو أدب نبوي، جاء في شكل أرجوزة تحتوي على 190 بيتا، لخص فيها كتابه فتح المتعال، والنفحات العنبرية، وألحقها بهما وهي موجودة في آخرها.

ذ - رفع الغلط عن الخمس الخالي الوسط (منظومة):

وورد أيضا باسم: نيل المرام المختبط لطلب الخمس الخالي الوسط: وتاريخ تأليفه مجهول، أما عن موضوعه فهو في: خط الرمل، والزايحة، وعلم النجوم والطلاسم، توجد نسخة منه بدار الكتب المصرية تحت رقم 342

ز - شرح القصيدة المقرية:

وهو شرح أدبي سار فيها على منهج التبسيط، وتذليل الصعوبات.

ط - القَوَاعِدُ السَّرِيَّةُ فِي حَلِّ مَشْكَلاتِ الشَّجَرَةِ النِّعمانية:

وهو عبارة عن تنجيم وتنبؤ بالمستقبل، توجد منه نسخة بمكتبة بريل بهولندا تحت رقم 469⁽⁹⁵³⁾

ثالثا: الكتب المفقودة.

أ - إتحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة:

وهو كتاب في النحو، أو هو عبارة عن رسالة ذكرها المقري في كتابه النفع، في ختام ترجمة أبي محمد عبد المجيد بن عبدون الفهري اليابري.

ب - كتاب الأصفياء:

⁹⁵² المصدر نفسه، ص: 157/1

⁹⁵³ إسماعيل البغدادي، (هدية العارفين)، م.م.س، ص: 157/1

ذكره إحسان عباس، وقال: إن أحمد الشاهين ذكره في رسالة بعث بها إلى المقرئ (954)

ت- البداية والنشأة:

وهو في الأدب والنظم، وقد أورده البغدادي تحت عنوان: (أنواء النسيان في أبناء تلمسان) (955)،
أما إحسان عباس فأورده تحت عنوان: (البلدة والنشأة) (956)

ث - الجنابذ: هكذا ذكره عبد الحي الكتاني، موضوع الكتاب فهرس لأسانيد (957)

ح - حاشية علي مختصر خليل في الفقه المالكي: وموضوعه في الفقه.

خ - الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين (958): وهو أدب نبوي

خ - شرح مقدمة ابن خلدون (959)

د - الشفاء في بديع الاكتفاء: (960) ذكره أحمد الشاهيني في رسالته

ذ - علم الهيئة: هكذا ذكره: اليوسي (ت1102هـ) في كتابه (المحاضرات في الأدب واللغة) (961)

ظ - قطف المهتصر من أفنان المختصر: وهو شرح على حاشية مختصر خليل

س - عرف النشق في أخبار دمشق (962).

(954) المقرئ، (نفع الطيب)، م.م.س، ص: 462/2

(955) الخبي الحموي، (خلاصة الأثر)، م.م.س، ص: 302/1

(956) إسماعيل البغدادي، (هدية العارفين)، م.م.س، ص: 157/1

(957) محمد عبد الحي الكتاني، (فهرس الفهارس، والأثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات)، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي،

بيروت- لبنان، 1982م، ط2، ص: 313/1

(958) إسماعيل البغدادي، (هدية العارفين)، م.م.س، ص: 157/1

(959) المقرئ، (نفع الطيب)، م.م.س، ص: 8/1

(960) المصدر نفسه، ص: 9/1

(961) أبو علي نور الدين الحسن بن مسعود اليوسي المراكشي، (المحاضرات في الأدب واللغة)، تح: محمد حجي وأحمد الشرقاوي، دار الغرب

الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1402هـ/1981م، ص: 58

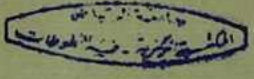
(962) الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 237/1. وينظر: الخبي الحموي، (خلاصة الأثر)، م.م.س، ص: 302/1

وقول السواحي

... في يوم الخميس ...
... في يوم الجمعة ...
... في يوم السبت ...
... في يوم الأحد ...
... في يوم الاثنين ...
... في يوم الثلاثاء ...
... في يوم الأربعاء ...

... في يوم الخميس ...
... في يوم الجمعة ...
... في يوم السبت ...
... في يوم الأحد ...
... في يوم الاثنين ...
... في يوم الثلاثاء ...
... في يوم الأربعاء ...

بأمر من الملك من آل سعود
وإمرانهم من آل سعود



عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري

أ- اسمه، لقبه ونسبه:

هو "عبد الرزاق محمد بن محمد المعروف "بابن حمادوش"، الجزائري الدار والمنشأ، الأشعري، عقيدة المالكي مذهبا الشريف نسباً"⁽⁹⁶³⁾. كذا صرح في أول رحلته. وجل المصادر التي أوردت اسم ابن حمادوش - وهي قليلة جدا- اکتفت بذكر اسمه واسم أبوه ولقبه فقط

ب- نشأته وثقافته:

عاش ابن حمادوش في القرن الثاني عشر للهجرة الموافق ل الثامن عشر ميلادي، وُلِد في مدينة الجزائر سنة 1107هـ (1659م) ، ونشأ بها وتعلم بها العلوم الشائعة في عصره، وكان من أسرة متوسطة الحال تلقب بأسرة "الدباغ" لأن والده وعمه كانا يشتغلان بالدباغة. وقد تزوج ابن حمادوش صغيرا من ابنة عمه حسب العائلات المحافظة، وكانت أسرته على صلة بطبقة التجار والحرفيين في مدينة الجزائر، لذلك تزوجت أخته من عائلة تشتغل بالحجارة، وتزوج هو مرة ثانية من عائلة تحترف صناعة النحاس وتلميعة. ويبدو أن والده قد توفي وهو ما يزال صغيرا فكفله عمه الذي زوجه ابنته وأسكنه منزله.

رُزق ابن حمادوش بتوأمين (الحسن والحسين) من زوجته الثانية، مات أحدهما صغيرا، ولم يذكر ما إذا كان له أطفال من زواجه الأول⁽⁹⁶⁴⁾.

تعلم ابن حمادوش عن طريق الدرس والإجازة والرحلة، وتقلد بعض الوظائف الدينية، ومن سوء الحظ أن المصادر التي ترجمت لابن حمادوش لم تتحدث عن ثقافته الأولى في الجزائر، ولكنه صرح فيما بعد أن كل العلوم تلقاها بالدرس إلا الكيمياء والسيمياء والموسيقى فقد أخذها بالإجازة. ومعنى ذلك أنه جلس للدرس في الجزائر وغيرها على مشايخ وعلماء وقته، أمثال المقي محمد بن

⁽⁹⁶³⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش)، م.م.س، ص: 29/2. وينظر: عمر رضا كحالة، (معجم المؤلفين)، مكتبة المشق، (بيروت- لبنان)،

دار إحياء التراث العربي، (بيروت- لبنان)، ص: 218/5. وينظر: محمد عبد الحَيّ بن الحَي الكناني، (فهرس الفهارس)، م.م.س، ص:

⁽⁹⁶⁴⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش الجزائري)، م.م.س، ص: 115/2

نيكرو، والقاضي مصطفى بن رمضان العنابي، والقاضي الأديب محمد ابن ميمون... وغيرهم⁽⁹⁶⁵⁾

وعندما بلغ العشرينات من عمره ارتحل في العالم الإسلامي، وأوّل رحلته كانت إلى الحجّ ثم إلى المغرب الأقصى فالمشرق، درس بالمغرب على يد كلّ من أحمد الورززي، ومحمد البّناي، وأحمد السرائري، وأحمد بن المبارك وتحصّل منهم على إجازات سجّلها في رحلته، وتتلّمذ في الطب على عبد الوهاب أدراق طبيب السلطان إسماعيل وأولاده.

حج ابن حمادوش سنة 1130هـ بالبر عبر تونس، وهذه الفترة التي قضاها في المشرق تبقى مجهولة لضياغ الجزء الأول من رحلته التي رجح الكثير من الباحثين أنه خصها برحلته إلى المشرق⁽⁹⁶⁶⁾.

ويبدو أن ابن حمادوش كان يتردد كثيرا على المغرب إما للتجارة أو لطلب العلم، فقد نزل فيها عام 1156هـ، حيث أطل فيها الإقامة ووصف نشاطها وجلس للتدريس، واشترى وطالع ونسخ الكتب الكثيرة، وعان الثورات السياسية والعادات الاجتماعية والتطورات الاقتصادية في المغرب ووصف وكتب عن كل ذلك. وبعد أكثر من عام عاد ابن حمادوش إلى وطنه وقد اكتسب علما غزيرا ولكن تجارته بارت وكسدت وأوشك على الهلاك كما صرح بذلك في رحلته.

ورغم أنه قد تتقّف ثقافة معاصريه من تصوف وفقه ولغة وأدب، فإنه كان بطبعه ميالا إلى الكتب العلمية، وقد روى -كما ذكرنا سابقا- أن درس تأليف القلصادي في الحساب، وشرح كتاب القانون والنجاح والطلاسم لابن سينا، ومقالات إقليدس، وشرح ابن رشد على منظومة ابن سينا، وتاريخ الدول للملطي، وكتاب السطي في ذوات الأسماء والمنفصلات، وطالع عمل عبد الرحمن الفاسي في علم القبلة أو البوبة كما سماها، كما ولع بكتب المنطق وألف فيه⁽⁹⁶⁷⁾.

اهتم ابن حمادوش بمجموعة من العلوم من بينها: الطب والفلك، كما كتب عن نفسه، وهو في عزّ شبابه سنة 1145م، حيث أصبح طبيبا وصيدليا وعشّابا، كما انه كان كثير الإطلاع على كتب الطبّ قديما العربية والأجنبية، قرأ ولخصّ ودرس تأليف ابن سينا وابن بيطار، كما ألف عدّة

⁽⁹⁶⁵⁾ ابن حمادوش، (رحلة ابن حمادوش الجزائري)، م.م.س، ص: 9/2. وينظر: أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي 1500-

1830م)، م.م.س، ص: 425/2. ينظر، أبو القاسم سعد الله، (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر)، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)،

1990م، ط3، ص: 423، 424/1

⁽⁹⁶⁶⁾ ينظر: المرجع نفسه، ص: 426/2

⁽⁹⁶⁷⁾ المرجع نفسه، ص: 427/2

رسائل وكتب في الفلك فقد وضع تأليفاً أضاف فيه ما تعلمه من كتاب عبد الرحمن الفاسي. وتُقل عنه تراجم غدا من الأطباء، مسلمين وغيرهم، أمثال: الرازي والفارابي والبيروني وابن سهل وأبو معشر البلخي ومحمد البتاني ومحمد البوزجاني وإقليدس.

وآخر تاريخ عُرف عن تحركات ابن حمادوش هو سنة 1161هـ. والغالب على الظن أنه غادر الجزائر إلى الحج في تلك السنة ولا يُعرف إن كان عاد إلى الجزائر أو مات في المشرق، فتاريخ ومكان وفاته مجهولين، إلا أنه مات وعمره تسعون سنة. لكن أبو القاسم سعد الله يرجح أن وفاته كانت بالمشرق بين 1197 و1200هـ (968)

ج- آثاره:

إن غالب أعمال ومؤلفات ابن حمادوش وردت دون عنوان، نذكر منها:

أ- تأليف في الرزنامة

ب- تأليف في علم الأعشاب

ت- تأليف في علم الفلك: جمع فيه التواريخ السبعة التي تعلمها، وقال في رحلته عنه: "وسميتها" ولكنه ترك بياضاً بعد هذه الكلمة

ث- تأليف في الأسطولات والرّبع المقنطر.

ج- تأليف في القوس لرصد الشّمس.

ح- تأليف من الرّخامة الظلية بالحساب.

خ- تأليف في سورة الكرة الأرضية: أشار أنه ساع في إكماله ولم يذكر له عنواناً.

د- تأليف في علم البلوط: في معرفة الملاحة والطرق البحرية.

ذ- الجواهر المكنون من بحر القانون: وهو تأليف في الطب، وجعله في أربعة كتب.

ر- بغية الأديب من علم التكعيب: أتمه سنة 1143هـ

ز- فتح الجيب في علم التكعيب: وهو تنقيح وتوسيع لكتابه (بغية الأديب)، أتمه سنة 1160هـ.

ط- تأليف في علم البونبة: أضافه إلى ما كان تعلمه من تأليف عبد الرحمن الفاسي في نفس الموضوع.

(968) أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي)، م.س، ص: 425/2

- ظ- تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج: أتمه عام 1161هـ بمصر.
- س- تأليف في الطاعون: كتاب ألفه في الطاعون الذي أصاب الجزائر في وقته.
- ش- شرح على قصيدة الربيع على كردفر⁽⁹⁶⁹⁾.

ولابن حمادوش، بالإضافة إلى هذه الكتب العلمية ورحلته (لسان المقال)، مؤلفات أخرى في الأدب والرحلة والمنطق والنحو والشعر، لكنها وللأسف أنما غير معروفة إلى الآن وهي في حكم الضائعة

⁹⁶⁹ أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي)، م.س، ص: 429/2، 430، 431. أبو القاسم سعد الله، (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر)، م.س، ص: 427/2



الصفحة الاولى من رحلة ابن حمادوش



الصفحة الاخيرة من رحلة ابن حمادوش

محمد أبو راس المعسكري

أ- اسمه، لقبه ونسبه:

هو محمد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل بن الراشدي المعسكري⁽⁹⁷⁰⁾ متصل إلى عمرو بن إدريس بن عبد الكامل بن الحسن السبط، بن علي بن أبي طالب، وفاطمة بنت الرسول ﷺ.

واشتهر أبو راس الناصر بلقب: "الحافظ" لقوة حفظه وقيل عنه "حتى كأن العلوم كتبت بين عينيه"⁽⁹⁷¹⁾ ولقبه الحفناوي ليث الدين أوثق أساس وأضوأ نبراس... وأنه درس وأفاد ورفع العلم وأشاد⁽⁹⁷²⁾. ويدعى كذلك بحافظ المغرب الأوسط ورحالته، قال عنه تلميذه ابن السنوسي: "كان حافظاً متقناً لجميع العلوم... حافظ عصره وإمام قطره، الشائع عنه أنه لا يزيد على مرة في مطالعة الدرس لما منحه الله من سيلان الذهن وسعة الحافظة"⁽⁹⁷³⁾

وقد قيل في وصفه بأنه كان متوسط القامة، نحيف الجسم، أبيض البشرة، خفيف اللحية، صغير العينين، طويل الأنف نحيفه كبير الرأس، ولعل كنيته "أبو راس" قد لصقت به لذلك⁽⁹⁷⁴⁾.

ب- نشأته وثقافته:

ولد أبو راس محمد بن أحمد بن الناصر المعسكري سنة 1165هـ بقلعة بني راشد قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري بين جبل (كرسوط) و(هونت) بغرب وادي التاغية⁽⁹⁷⁵⁾، يقول أبو راس عن مولده... "إني ولدت بين جبل كرسوط وهونت..."⁽⁹⁷⁶⁾

نشأ أبو راس في بيئة قاسية فقد عرف من خلالها الفقر واليتم منذ صباه حيث ماتت والدته بسهولة

⁽⁹⁷⁰⁾ عادل نويهض، (مُعجمُ أعلام الجزائر)، م.م.س، ص: 306. وينظر: عبد الحي الكتاني، (فهرس الفهارس)، م.م.س، ص: 150/1.

وينظر: الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 18/6

⁽⁹⁷¹⁾ أبو عمران الشيخ، (معجم مشاهير المغاربة)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، جامعة الجزائر، 1995م، ص: 531

⁽⁹⁷²⁾ أبو القاسم الحفناوي، (تعريف الخلف برجال السلف)، م.م.س، ص: 333/2

⁽⁹⁷³⁾ عبد الحي الكتاني، (فهرس الفهارس)، م.م.س، ص: 150/1، 151

⁽⁹⁷⁴⁾ أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م)، م.م.س، ص: 379/2

⁽⁹⁷⁵⁾ المرجع نفسه، ص: 377/2. وينظر: يحي بوعزيز، (الإنتاج الفكري والأدبي للشيخ أبي راس المعسكري)، المجلة التاريخية المغربية،

العدد: 53-54، تونس، جويلية 1989م، ص: 243

⁽⁹⁷⁶⁾ أبو راس، (فَتْح الإله)، م.م.س، ص: 18

(متيجة) ، ودفنت هناك، فرحل والده الشيخ أحمد إلى منطقة (مراجعة) بالشلف، وبعد ذلك تزوج ونشط في العلم وقراءة القرآن العظيم إلى أن مات ودفن بأم الدروع بمقبرة الشيخ أحمد بن عبد الله. وعلى إثر وفاة والده قام أخوه الأكبر ابن عمر، الذي أخذ مقام أبيه، بالتكفل بأبي راس وأخيه عبد القادر ليرحل بهما إلى الجهة الغربية من الجزائر، ثم اصطحبهما إلى المغرب الأقصى وكان أبو راس لا يقدر على المشي فحمله أخوه على عاتقه لصغر سنه أين حفظ القرآن الكريم وأتقن أحكامه فهما واستيعابا⁽⁹⁷⁷⁾.

بعد عودته من المغرب الأقصى، اتجه أبو راس إلى منطقة (القيطنة) بمعسكر التي كانت تمثل مركز إشعاع علمي لدراسة العلوم الشرعية، ليتوجه إلى مدينة مازونة، التي كانت هي الأخرى مركز إشعاع ثقافي وعلمي، حيث تلقى فيها العلوم الدينية واللغوية، مدة ثلاث سنوات.

بعد الرحلات العلمية المتعددة والشاقة التي قام بها أبو راس الناصر في مختلف العلوم والفنون، حيث أخذ العلم عن شيوخ أجلاء كان لهم الأثر الكبير في تكوين شخصيته، وتضافرت هذه العوامل مع اهتمام أبي راس بالتاريخ والكتابات التاريخية المختلفة وهو محاولة الرقي والوصول منه إلى درجة العلماء والأساتذة مثل أستاذه عبد القادر المشرفي الذي تأثر به كثيرا.

وقد كانت بداية أبي راس في مجال التدريس بمعسكر حيث مارس مهنة التدريس قرابة ثلاثين عاما وكانت هذه المبادرة من طرف شيخه عبد القادر المشرفي الذي رشحه ليكون خليفته في التدريس، ولما أحس أبو راس بفقر معلوماته في البداية دخل مدينة معسكر وقد عمل هناك لنشر العلم وتقديم كل جهوده من أجل تدريسهم ليل نهار، فكان يلتف حوله التلاميذ وأقبلوا عليه من كل ناحية حيث كان مجلسه يضم سبعمائة طالب علم، وهو ما دفع بالباي محمد بن عثمان الكبير أن يخصص كرسي يستعين به على إلقاء دروسه ومحاضراته نظرا لنحافة جسمه التي لم تكن تسمح له بالظهور في وسط الطلبة بسبب الازدحام عليه، ومن ثم سمي الشيخ ب: صاحب الكرسي الدوار⁽⁹⁷⁸⁾ كذلك كان يستدعى أبو راس من مختلف النواحي من أجل إلقاء الدروس حتى في بيوتهم من أجل

⁽⁹⁷⁷⁾ ينظر: أبو راس، (فتح الإله)، م.م.س، ص: 19

⁽⁹⁷⁸⁾ المصدر نفسه، ص: 22، 23

الانتفاع بعلمه الواسع⁽⁹⁷⁹⁾.

كما أسندت إلى أبي راس الناصر مهمة القضاء وهي وظيفة دينية حسب النظم الإسلامية لأن لها ارتباطات قوية بالدين وعلومه وكل من يتولاها في الدول الإسلامية يكون حتماً من الفقهاء وعلماء الدين. واشتغل في هذه المهمة لمدة سنتين، وقد كان يجلس للدرس فيبدأ من باب (الاعتكاف) ولا يقوم حتى يقف على باب الزكاة⁽⁹⁸⁰⁾ حتى ذاع صيته من خلال تقديمه للدروس في مصر والشام وتونس والعراق، ولكنه سرعان ما عزل من منصبه بسبب حادثة درقاوة من خلال موقفه اتجاهاً.

تمثلت مسيرة أبي راس وطلبه للعلم في رحلاته المتنوعة التي أثرت شخصيته وجعلته يتفتح على الثقافات الأخرى، حيث امتدت رحلاته العلمية عبر الجزائر وتونس والمغرب ومصر والشام والحجاز⁽⁹⁸¹⁾، حيث التقى خلالها مع أكابر العلماء والفقهاء وهي مرحلة علم واستطلاع لأخذ العلم من هؤلاء وجادلهم وأعطاهم.

أخذ أبو راس العلم على يد مجموعة من الشيوخ الأجلاء والفقهاء العلماء الذين كان لهم القسط الأكبر في تكوين شخصيته الفكرية و المعرفية، فأجازوه، وكان أولهم والده أحمد بن أحمد الناصري، والشيخ عبد القادر المشرفي...

وبعد كل هذه الرحلات عاد أبو راس إلى مسقط رأسه (معسكر) وتوفي بها بعد أن تجاوز عمره التسعين⁽⁹⁸²⁾ عشية يوم الأربعاء 13 جمادى الثانية سنة 1239هـ⁽⁹⁸³⁾. وقيل يوم الأربعاء 15 من شهر شعبان 1238هـ⁽⁹⁸⁴⁾، وكان ممن صلوا عليه تلميذه الدايج الملقب بالخرشي الكبير.

⁹⁷⁹ عبد الرحمن الجيلالي، (تاريخ الجزائر العام)، دار الثقافة، (بيروت- لبنان)، 1983 م، ط6، ص: 571/3

⁹⁸⁰ ينظر: أبو راس، (فتح الإله)، م.س، ص: 22

⁹⁸¹ خليل مروم بك، (أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع)، لجنة التراث العربي، (بيروت- لبنان)، د.ط، ص: 153.

154

⁹⁸² عمر رضا كحالة، (معجم المؤلفين)، م.م.س، ص: 25/9

⁹⁸³ عبد الحفي الكنانى، (فهرس الفهارس)، م.م.س، ص: 150/1

⁹⁸⁴ المزاري بن عودة الآغا، (طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر)، تح: يحي

بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1990م، ص: 349/1. وينظر: أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي)، م.م.س،

ص: 377/2

ج- آثاره:

عُرف أبو راس بكثرة مصنفاته، حيث قاربت الستين مصنفاً، يقول سعد الله - وإن كان فيه مبالغة- : "...وقد فاق جميع المؤلفين كثرة عدا السيوطي"⁽⁹⁸⁵⁾. إلا أن جل مصنفاته لا تزال مفقودة إلى يومنا هذا.

وقد عدد هذه المصنفات في رحلته وهي كآآتي:

1. القرآن الكريم:

- أ. مجمع البحرين ومطلع البدرين بفتح الجليل للبعد الدليل في التيسير إلى علم التفسير: في أربعة أسفار، في كل سفر خمسة عشر حزبا
- ب. الإبريز والإكسير في التفسير.
- ت. الجمع بين الإطناب والإيجازة في شرح الخراز⁽⁹⁸⁶⁾
- ث. إغاثة اللفهان في شرح مورد الظمان والتكلم مع صاحب عمدة البيان.
- ج. السيوف القوامع في شرح الدرر اللوامع
- ح. إزالة الألباز على كلام الطراز على الخراز.
- خ. توضيح المعاني في شرح النشر والتسيير.
- د. تكميل التبيان في ضبط الجواهر الحسان.
- ذ. تذييل الإتيقان في أحكام القرآن.
- ر. فتح المنان في ترتيب نزول القرآن.
- ز. سرّ الرحمن في جمع القرآن وسبب جمعه على هذا المنوال⁽⁹⁸⁷⁾.

1. الحديث:

أ. الآيات البينات في شرح دلائل الخيرات

⁽⁹⁸⁵⁾ أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي)، م.م.س، ص: 379/2

⁽⁹⁸⁶⁾ الخراز: هو محمد بن محمد بن إبراهيم، أبو عبد الله الأموي الشريشي، الشهير بالخراز: عالم بالقراءات، من أهل فاس، أصله من شريش، توفي عام 718هـ. له كتب، منها (مورد الظمان في رسم أحرف القرآن)، و (الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع). ينظر: الزركلي،

(الأعلام)، م.م.س، ص: 33/7

⁽⁹⁸⁷⁾ يحيى بوعزيز، (أعلام الفكر والثقافة في الجزائر الخروسة)، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص: 236/2، 237

- ب. مفاتيح الجنة وأسناها في الأحاديث التي اختلفت في معناها⁽⁹⁸⁸⁾
- ت. السيف المنتضى فيما رويته بأسانيد الشيخ مرتضى.
- ث. النور الساري في شرح صحيح البخاري.
- ج. السيل الفسيح الجاري في شرح صحيح البخاري
- ح. مختصر المعلم في شرح مسلم.
- خ. مناعم الشفا.
- د. نزهة الفضائل في شرح الشمائل

2. الفقه:

- أ. درة عقد الحواشي على جيد شرحي الزرقاني والحراشي في أربعة أسفار
- ب. الأحكام الجواز في نبد من النوازل.
- ت. العقود الجوهرية في النوازل العسكرية.
- ث. النظم العجيب في الفروع التي قل فيها مع كثرة الوقوع
- ج. الكوكب الدرّي في الرد بالجدري
- ح. وما رواه الواعون في أخبار الطاعون⁽⁹⁸⁹⁾
- خ. النبذة المنيفة في ترتيب فقه الإمام أبي حنيفة
- د. ذيل المدارك في ترتيب فقه الإمام مالك.
- ذ. عقد الجواهر النفيس في ترتيب فقه الإمام محمد بن إدريس.
- ر. القول الأكمل في ترتيب فقه الإمام أحمد بن حنبل⁽⁹⁹⁰⁾

1. الأصول:

- أ. السيف المحلي على شرح المحلي.
- ب. القول الجامع في شرح جمع الجوامع

⁹⁸⁸ ينظر: أبو راس، (فُتْحُ الإِلهِ)، م.م.س، ص: 179

⁹⁸⁹ ينظر: المصدر نفسه، ص: 179

⁹⁹⁰ يحي بوعزيز، (أعلام الفكر والثقافة في الجزائر الخروسة)، م.م.س، ص: 238/2

2. المذاهب:

- أ. رحمة الأمة في اختلاف الأئمة.
- ب. تنشيف الأسماع في مسائل الإجماع⁽⁹⁹¹⁾
- ت. جزيل المواهب في اختلاف الأربعة مذاهب.
- ث. قاضي الأوهاد في مقدمة الاجتهاد.
- ج. الأنوار المسطعة في جمع المذاهب الأربعة.
- ح. اللؤلؤ المنتشر في المذاهب الثماني عشر.
- خ. فتح الوهاب في الفرق بين مقدمة العلم ومقدمة الكتاب⁽⁹⁹²⁾

3. التصوف:

- أ. الزهر الأكم في شرح الحكم⁽⁹⁹³⁾
- ب. فتح الإله في التوصل إلى حكم ابن عطاء الله.
- ت. الكتاب الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى.
- ث. كفاية المعتقد ونكاية المنتقد على شرح الكبرى.
- ج. إيضاح الغميس العقيد النفيس في ذكر الأعيان من أهل غريس
- ح. أساس البنيان لشرح الجمان للشيخ عبد الرحمن.
- خ. كشف النقاب ورفع الحجاب على ترتيب حروف الهجاء للسان الدولة.
- د. التشوف إلى مذهب التصوف.
- ذ. القول الأنفع في مناقب الأئمة الأربع.
- ر. الفتح القدوسي في شرح كبرى السنوسي⁽⁹⁹⁴⁾

4. اللغة:

- أ. ضياء القابوس على كتاب القاموس.

⁹⁹¹ زريوح عبد الحق، (أبو راس الناصري ومؤلفاته)، مجلة التراث العربي، (دمشق، سوريا)، العدد: 98، أبريل 2005م، ص: 234

⁹⁹² يحي بوعزيز، (أعلام الفكر والثقافة في الجزائر الخروسة)، م.م.س، ص: 239/2

⁹⁹³ المرجع نفسه، ص: 239/2

⁹⁹⁴ المرجع نفسه، ص: 238/2

- ب. الضابط المختصر من الأزهرى على قواعد القاموس والجوهري.
ت. رفع الأثمان في لغة الولايم الثمان⁽⁹⁹⁵⁾

5. النحو:

- أ. الدرلة الليمة اللى لا يبلغ لها قيمة إلا وفيه على الماكودي على الألفية، حاشية كبرى.
ب. النكت الأوفية في شرح الماكودي على الألفية، حاشية صغرى.
ت. بغية المرئاد في كلا شيء وجمت بلا زاد.
ث. نفي الخصاصة في إحصاء تراجم الخلاصة.

6. الأدب:

- أ. التزهة الأميرية في شرح المقامات الحريرية، شرح صغير.
ب. اللل الحريرية في شرح المقامات الحريرية، شرح كبير.
ت. نيل الأماني على مختصر سعد الدين التفتزاني. (في علم البيان)
ث. الجوهر اليماني في توضيح ما صعب من علم المعاني
ج. عقد الدرر السطيع في تبين أنواع العلم البديع⁽⁹⁹⁶⁾.
ح. فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته.

10. القصائد:

- البشائر والأسعاد في شرح بانئ سعاد، لامية كعب بن زهير الصحابي.
- نيل الأرب في شرح لامية العرب للشنفرى الفاتك.
- إزالة الؤجم عن قصيدة لامية العجم⁽⁹⁹⁷⁾
- الوصيد في شرح لامية سلوانية الصيد
- الدرلة الأنيقة في شرح العقيقة (شرح أول)
- طراز شرح المرئاسي لقصيدة المرئاسي شرح ثاني

⁹⁹⁵ أبو راس، (فتح الإله)، م.م.س، ص: 180

⁹⁹⁶ المصدر نفسه، ص: 179، 180

⁹⁹⁷ يحي بوغزير، (أعلام الفكر والثقافة في الجزائر الخروسة)، م.م.س، ص: 242/2

- فتح الإله في شرح عقيقة ابن عبد الله، شرح ثالث.
- السعي الرابع السعيد في شرح عقيقة الشيخ سعيد، شرح رابع.
- الحلة السعيدة في شرح القصيدة السعيدية، شرح خامس.
- الجمان في شرح قصيدة أبي عثمان ، شرح سادس.
- نزهة الحبيب على نظم الأديب الحسيب الجامع بين المدح والتشبيب والتنسيب
- الأنوار الجليلية في شرح القصيدة الخليلية⁽⁹⁹⁸⁾
- الكلام المحكي في شرح لامية امرؤ القيس قفا نيك.
- قص الصيد في شرح مقصورة ابن دريد⁽⁹⁹⁹⁾
- الرياض المرضية في شرح الغوثية
- العناصر الأمليسية في شرح البدور الغريسية.
- القول الماطي في شرح لامية الذمياطي.
- النور الحراق في شرح رجز الأوفاق.
- جمع الموارد في شرح ما مدحت به من القصائد.
- الجواهر الأصفية في معرفة العوالم العلوية والسفلية على لامية رافع رأس الأندلس.
- درء كل عسير إلى معرفة السيميا والكيميا والإكسير، على لامية ابن راشد.
- القول المكفى في شرف ومناقب شيخنا المشرفي.
- منح الباري فيما وقع لي في أسفاري.
- تعجيل الأوبة وملء الغيبة في رحلتي لمكة وطيبة
- الفوائد المخبئة في الأجوبة المسكتة.
- لبّ فياضي في عدة أشياخي⁽¹⁰⁰⁰⁾
- انصباب رحمة الله في انعقاد ديون أهل الله.
- نبذة الزهر وأكمامه في بدء أمري واختتامه.

⁹⁹⁸ (زريوح عبد الحق، (أبو راس الناصري ومؤلفاته)، م.م.س، ص: 236

⁹⁹⁹ (يحي بوعزيز، (أعلام الفكر)، م.م.س، ص: 243/2

¹⁰⁰⁰ (أبو راس، (فَتْحُ الإله)، م.م.س، ص: 181

- شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التأليف⁽¹⁰⁰¹⁾

11. العــــروض:

- مشكاة الأنوار التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار على الخزرجية

12. التــــاريخ:

- زهرة الشماريخ في علم التاريخ

- المني والمئي والسول من أول الخليفة إلى بعثة الرسول

- نصرة الرحمن في أخبار الجان.

- تحفة الأخوان في بيان أرهاط وقبائل الجان.

- درء السحابة في من دخل المغرب من الصحابة.

- درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة

- المعالم الدالة على الفرق الضالة.

- الوسائل إلى معرفة القبائل.

- الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية

- قصص المغرب والخبر المغرب عن الحال المغرب بما وقع في الأندلس وثور المغرب

- عجائب الأسفار ولطائف الأخبار عما جرى بوهران والأندلس للمسلمين مع الكفار .

- روضة السلوان المؤلفة بمرسى تيطوان في أخبار الأندلس ووهران

- نباهة الغمر من أبناء العمر بأبناء ملوك ورؤساء ومن أحسن منهم ومن أساء

- ذيل القرطاس من ملوك بني وطاس⁽¹⁰⁰²⁾

- الزهرة الوردية في الملوك السعدية

- مروج الذهب في نبذة من النسب ومن إلى الشرف انتمى وذهب⁽¹⁰⁰³⁾

- الخبر المعلوم من كل من اخترع نوعا من أنواع العلوم.

⁽¹⁰⁰¹⁾ يحي بوغزيز، (أعلام الفكر والثقافة في الجزائر الخروسة)، م.م.س، ص: 244/2

⁽¹⁰⁰²⁾ الزركلي، (الأعلام)، م.م.س، ص: 18/6

⁽¹⁰⁰³⁾ عبد الكريم بوصفصاف وآخرون، (معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين)، دار مداد يونيفار سيتي براس، (

قسطنطينة- الجزائر)، 2015م، ص: 217

- المسلك المروم في أخبار الترك والروم.
- تحفة النفسا في ملوك إفرانسا.
- أقوال التأسيس عما وقع أو سيقع من الفرنسيين (1004)
- نور الاقتباس في ذكر ملوك كل جنس من الأجناس.
- فتح الرحمن في شرف بني زيان وذكر فروعهم إلى هذا الزمان.
- العز المتين في ذكر ملوك بني مرين (1005)
- فتح الجواد في الفرق بين آل زيان وآل عبد الواد وذكر ملوكهم الأطواد.
- لقطه العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان وأته من بني زيان ملوك تلمسان
- الزهرة السماوية في أخبار الملوك العلاوية
- النور الأثقب في طبقات العرب.
- القصص العماتة في ذكر البربر و زناة
- القول الأسرب في أخبار أصول وفروع العرب.
- الكلام الفشاش في أخبار سائر المدن والقرى والأعراش.
- إزالة الصمم في الفرق بين العرب والعجم.
- النقل الواضح المشهور من بدء الخليقة إلى النفخ في الصور.

13. الجغرافيا:

- الجواهر والعرض في وصف السماء والأرض.

14. علم النجوم:

- إزالة الحلك في إبطال صوم من يأخذ برأي أهل الفلك.
- القول السعيد في شرح مقنع ابن سعيد.
- قيس الأنوار في شرح روضة الأزهار (1006)

(1004) ذكر بأنه منسوب إلى أبي راس. ينظر: الزياتي محمد بن يوسف، (دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران)، تح: المهدي البوعبدلي،

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص: 29

(1005) يحي بوعزيز، (أعلام الفكر والثقافة في الجزائر الخروسة)، م.م.س، ص: 241/2

(1006) المرجع نفسه، ص: 242/2

15. المنطــــــــــــــــق:

- القول المسلّم في شرح السلم (1007)

(1007) زريوح عبد الحق، (أبو راس الناصري ومؤلفاته)، م.م.س، ص: 235

محمد أبو راس الجزائري

فتح الإله ومنتته

في التحدّث بفضل ربّي ونعمته

"حياة أبي راس الذاتية والعلمية"

حققه وضبطه وعلق عليه
محمد بن عبد الكريم الجزائري

المؤسسة الوطنية للكتاب

3، شارع بيروت يوسف

قائمة المصادر والمراجع

*** قائمة المصادر المراجع ***

أولاً: القرآن الكريم (رواية حفص عن عاصم)

ثانياً: المصادر والمراجع

1- المصادر:

- الأزرقي، محمد بن عبد الله (أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار)، تح: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة الأسدي، (مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية)، 1424هـ/2003م، ط1.
- الأزهرى، (تهذيب اللغة)، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربى، (بيروت - لبنان)، 2001م، ط1.
- الأعشى، (الديوان) تح: محمد حسين، مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية، (القاهرة - مصر)، د.ط.
- الإصطخري، إبراهيم بن محمد (المسالك والممالك)، د.ت، دار صادر، (بيروت - لبنان)، 2004م، د.ط
- الإفريقي، ليون (وصف إفريقيا)، تر: محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، (بيروت - لبنان)، 1983م، ط2.
- امرئ القيس، (الديوان) تح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، (بيروت - لبنان)، 1425هـ/2004م، ط2.
- الألوسي، محمود شكري (المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر)، تح: عبد الله الجبوري، دار العلوم للطباعة والنشر، (الرياض - المملكة العربية السعودية)، 1402هـ/1982م.
- الباباني إسماعيل باشا (هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون)، دار الكتب العلمية، (بيروت - لبنان)، 1992م، د.ط
- البخاري، أبو عبد الله (صحيح البخاري)، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، 1422هـ، د.ط
- البديري، أحمد بن بدير (حوادث دمشق اليومية)، تح: أحمد عزت عبد الكريم، الجمعية المصرية لدراسات التاريخية، (القاهرة - مصر)، 1959م، د.ط

- ابن بطوطة، (تُحْفَةُ النَّاطِرِ فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ)، تح: محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، (بيروت- لبنان)، 1407هـ/1987م، ط1.
- بشار بن برد، (ديوان)، تح: بدر الدين العلوي، دار الثقافة، (بيروت- لبنان)، 1981م، د.ط.
- البغدادي، الخطيب (تاريخ بغداد)، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1422هـ/2001م، ط1.
- البغدادي، عبد القاهر (الفرق بين الفرق)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، (بيروت- لبنان)، 1416هـ/1995م، د.ط.
- البلوي، خالد بن عيسى (تاج الفرق في تحلية علماء المشرق)، تح: الحسن السائح، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، (فاس- المملكة المغربية)، 1964م، د.ط.
- البيروني، (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة)، د.ت، دائرة المعارف العثمانية، 1377هـ/1958م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين، (دلائل النبوة)، تح: وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه : عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية - ودار الريان للتراث، 1408هـ/1988م، ط1
- // (السنن الكبرى)، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 2003م/1424هـ، ط3.
- التبريزي، الخطيب (شرح ديوان ذي الرمة)، تقديم: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، (بيروت- لبنان)، 1416هـ/1996م، ط2
- التجاني، أحمد، (رحلة التجاني)، تح: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، (ليبيا)، (تونس)، 1981م، د.ط.
- الترمذي، محمد بن عيسى (الجامع الكبير)، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1996م، ط1.
- ابن هطال التلمساني (رحلة محمد الكبير- باي الغرب الجزائري الى الجنوب الصحراوي الجزائري)، تح: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر السلسلة، (بيروت- لبنان)، 2004م، ط1.
- خير الدين التونسي (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك)، تقديم: محمد الحداد، دار الكتاب المصري، (القاهرة- مصر)، 2012م، د.ط
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم (التفسير الكبير)، تح: عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، د.ت، د.ط.

- // (جامع المسائل)، تح: محمد عزيز شمس، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، 1422هـ، ط1
- // (مجموع الفتاوى)، تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، (المدينة النبوية- المملكة العربية السعودية)، 1416هـ/1995م.
- الثعالبي، عبد الرحمن (غنيمة الواصل وبغية الطالب الماجد)، تح: محمد شايب شري، دار بن حزم، (بيروت- لبنان)، 2005م، ط1
- قدامة ابن جعفر (نقد الشعر)، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، د.ت، د.ط.
- الجاحظ، أبو عثمان (البيان والتبيين)، تح: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، (القاهرة- مصر)، 1418هـ/1998، ط7.
- ابن جبير، محمد بن أحمد (رحلة ابن جبير)، د.ت، دار بيروت، (بيروت- لبنان)، ط1.
- // (رحلة ابن جبير)، د.ت، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، (لبنان)، د.ط.
- الجرجاني، الشريف (التعريفات)، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، (القاهرة- مصر)، د.ط.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد (الصّحاح. تاج اللغة وصّحاح العربية)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، 1379هـ/1956م، دار العلم للملايين، (بيروت- لبنان)، 1379هـ/1956م، ط1
- ابن الحاج، إبراهيم بن عبد الله (فيض العُباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب)، تح: محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1990م، ط1.
- ابن حمدوش، عبد الرزاق بن محمد (رحلة ابن حمدوش الجزائري المسماة: "لسان المقال في النبيا عن النسب والحسب والحال")، تح: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، (الجزائر)، 1983م.
- الحموي، ياقوت (معجم الأدياء)، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1414هـ/1993م، ط1.
- // (معجم البلدان)، دار صادر، (بيروت- لبنان)، 1995م، ط2.
- ابن حَوْقَل، محمد (صورة الأرض)، د.ت، دار مكتبة الحياة، (بيروت- لبنان)، 1992م، د.ط.
- ابن خُرَدَازِبَه، عبيد الله بن أحمد (المسالك والممالك)، مطبعة بريل، دار صادر، (بيروت- لبنان)، 1889م، د.ط.
- الخطيب، أحمد بن مرزوق (المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن)، تح: ماريّا خيسوس بيغيرا، الشركة الورنية الجزائرية، (الجزائر) 1981م.

- ابن الخطيب، لسان الدين (الإحاطة في أخبار غرناطة)، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، (القاهرة- مصر)، 1394هـ/1974م، ط1.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (تاريخ ابن خلدون)، تح: خليل شحادة، دار الفكر، (بيروت- لبنان)، 1408هـ/1988م - ط2.
- // (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا)، دار الكتاب اللبناني، (بيروت- لبنان)، 1979م، د.ط.
- // (مقدمة ابن خلدون)، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، (دمشق- سوريا)، 1425هـ/2004م، ط1.
- ابن خلكان، أحمد بن محمد (وفيات الأعيان)، تح: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت- لبنان)، 1978م/1398هـ، د.ط.
- خَلِيفَةُ، الحَاجِّ (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)، تح: الغني محمد شرف الدين، رفعت بيلك الكليسي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت- لبنان)، 1941م
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن (المسند)، تح: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، (المملكة العربية السعودية)، 1412هـ/2000م، ط1
- أبو دلف مسعر بن المهلهل (الرسالة الأولى)، تح: مريزن سعيد مريزن عسيري، جامعة أم القرى، مكتبة الملك فهد الوطنية، (مكة- المملكة العربية السعودية)، 1415هـ/1995م، د.ط.
- // (الرسالة الثانية)، تح: بطرس بولغاكوف وانس خالدوف، عالم الكتب، (الرياض - المملكة العربية السعودية، د.ط.
- ابن قتيبة الدينوري (الشعر والشعراء)، تح: محمد شاكر، دارالمعارف، (القاهرة- مصر)، 1369هـ/1950م، ط1.
- الذهبي، شمس الدين (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام)، تح: الدكتور بشار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، 2003م، ط1.
- // (سير أعلام النبلاء)، تح: شعيب الأرنؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، 1417هـ/1996م، ط11.
- أبو راس، المعسكري (فَتْحُ الْإِلَهِ وَمِنْتَهُ فِي التَّحَدُّثِ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ)، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر)، 1990م، د.ط.

- ابن رجب، (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، تح: محمود بن شعبان بن عبد المقصود وآخرين، مكتبة الغرباء الأثرية، (المدينة المنورة- المملكة العربية السعودية)، مكتب تحقيق دار الحرمين، (القاهرة- مصر)، 1417هـ - 1996م، ط1
- ابن رُشيد الفهري (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجهة إلى الحرمين مكة وطيبة)، تح: محمد الحبيب خوجة، الدار التونسية للنشر، (تونس)، 1402هـ/1982م، د.ط.
- الزبيدي، مرتضى، (تاج العروس من جواهر القاموس)، تح: علي الهلالي، مطبعة حكومة الكويت، (الكويت)، 1407هـ/1987م، ط2، مادة: خطب
- الزركلي، (الأعلام قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، (بيروت- لبنان)، 2002م، ط15.
- زهير بن أبي سلمى، (الديوان) تح: حمدوس طماس، دار المعرفة، (بيروت- لبنان)، 1426هـ/2005م، ط2.
- الزباني، أبو القاسم (الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا)، تح: عبد الكريم الفيلاي، نشر وزارة الأبناء، (الرباط- المغرب)، 1412هـ/1991م، د.ط
- الزباني، محمد بن يوسف، (دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران)، تح: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.
- المتنبي، أبو الطيب، (الديوان) د.ت، دار بيروت، (بيروت- لبنان)، 1403هـ/1983م، د.ط
- السخاوي، (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع)، دار الجيل، (بيروت- لبنان)، 1412هـ/1992م، ط1
- السّمهودي، (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى)، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، ط1
- ابن سيده، (المحكم والمحيط الأعظم)، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1421هـ/2000م، د.ط.
- ابن سيده، (المخصص)، تح: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، (بيروت- لبنان)، 1417هـ/1996م، ط1
- السيرافي، أبو زيد (من أخبار الصين والهند)، الجمع الثقافي، (أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة)، 1999م، د.ط.
- السّيوطي، جلال الدين (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، (لبنان- صيدا)، د.ت، د.ط
- // (تفسير الجلالين)، تح: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، (دمشق- سوريا)، د.ط.

- // (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، (مصر)، 1387 هـ/1967م، ط1.
- // (نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار)، جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية)، 1424 هـ/2005م، د.ط
- الشهرستاني، (الملل والنحل)، تح: محمد بن فتح، مكتبة الأغلو المصرية، (القاهرة- مصر)، 1375 هـ/1956م.
- ابن شاكِر، محمد (فوات الوفيات)، تح: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت- لبنان)، 1973م، 1974م، ط1.
- الطَّبْرِي، ابن جَرِير (تاريخ الطبري) تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، (القاهرة- مصر)، 1960م، ط1
- // (تفسير الطبري)، تح: محمود محمد شاكر، وأحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، (القاهرة- مصر)، ط2.
- الطيالسي، (المسند)، تح: محمد بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث بدار هجر، دار هجر للطباعة والنشر، (القاهرة- مصر)، 1419 هـ/1999م، ط1.
- عَبْد الحَيِّ، الشَّرِيف (الإعلام بمن في تاريخ الهند من أعلام- المسمى: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والتواظر)، ط1، دار بن حزم، (بيروت- لبنان)، 1420 هـ/1999م، ط1
- العبدري، (رحلة العبدري)، تح: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق- سوريا)، 1999م، ط1
- ابن عبد المنعم، (الروض المعطار في خبر الأقطار)، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، (بيروت- لبنان)، 1980م، ط2.
- ابن عَبْد الوَهَّاب، محمد (الأصول الثلاثة وأدلتها)، تح: عبد المحسن القاسم، مكتبة الملك فهد الوطنية، (الرياض- المملكة العربية السعودية)، 1430 هـ/2009م، ط1.
- // (شرح صحيح البخاري)، تح: قسم التحقيق والبحث العلمي بالمكتبة الإسلامية، النبلاء للكتاب (مراكش- المغرب)، المكتبة الإسلامية (القاهرة- مصر)، 1428 هـ/2008م، ط1.
- ابن العدم، (بغية الطلب في تاريخ حلب)، تح: سهيل زكار، دار الفكر، (بيروت- لبنان)، د.ط
- ابن عذارى، (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب)، تح: ج. س. كولان/إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، (بيروت- لبنان)، 1983م، ط3.
- ابن العربي، أبو بكر (قانون التأويل)، تح: محمد السليمان، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1990م، ط2.

- العسقلاني، ابن حَجَر (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)، تح: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية (صيدر اباد- الهند)، 1392هـ / 1972م، ط2
- // (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، ترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي، إخراج وتصحيح، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، (بيروت- لبنان)، 1379هـ، د.ط
- // (لسان الميزان)، تح: دائرة المعارف النظامية، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت - لبنان)، 1390هـ / 1971م، ط1
- ابن عساكر، (تاريخ مدينة دمشق)، تح: عمر بن غرامة العمرأوي، دار الفكر، (بيروت- لبنان)، 1418هـ / 1997م، ط1.
- ابن عسكِر (مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار)، تقديم: الدكتور عبد الله المرابط الترغبي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت - لبنان)، دار الأمان للنشر والتوزيع، (الرباط- المغرب)، 1420هـ / 1999م، ط1
- العسكري، أبو الهلال (الصناعتين الكتابة والشعر)، تح: علي محمد البحاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، (بيروت- لبنان)، 1406هـ / 1986م، د.ط
- // (كتاب الصناعتين)، تح: مفيد قميحا، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1989م، ط2.
- ابن عمار (نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب)، مطبعة بيبير فونتانة، (الجزائر)، 1902م.
- ابن عَميرة (بُغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس)، د.ت، دار الكاتب العربي، (القاهرة- مصر)، 1967م، د.ط.
- علقمة الفحل، (الديوان) تح: السيد أحمد صقر، المطبعة المحمودية، (القاهرة- مصر)، 1353هـ / 1935م، ط1.
- الغرناطي، (المُغْرِب عَنْ بَعْضِ عَجَائِبِ الْمَغْرِبِ)، تح: إينغر بنجارانو، المجلس الأعلى لأبحاث العلمية ومعهد التعاون مع العالم العربي، (مدريد- إسبانيا)، 1991م.
- الغزّال، أحمد بن المهدي (نتيجة الإجتهد في المهادنة والجهاد)، تح: إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، (الجزائر)، د.ط.
- الغزال يحيى بن الحكم، (الديوان)، تح: محمد رُضوان الداية، دار الفكر المعاصر، (بيروت- لبنان)، 1413هـ / 1993م، ط1.
- الغزالي، أبو حامد (إحياء علوم الدين)، تح: زين الدين أبي الفضل العراقي، دار المعرفة، (بيروت- لبنان)، 1426هـ / 2005م، ط1.
- ابن فارس، أحمد (معجم مقاييس اللغة)، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (بيروت- لبنان)، 1399هـ / 1979م، د.ط.

- الفراهيدي، الخليل بن أحمد (العين)، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال ، 1424هـ، ط1.
- ابن فرحون، (الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب)، تح: محمد الأحمد أبو النور، دار التراث (القاهرة- مصر)، د.ط
- ابن الفقيه، (البلدان)، تح: يوسف الهادي، عالم الكتب، (بيروت- لبنان)، 1416هـ/1996م، ط1.
- القزويني، جلال الدين (الإيضاح في علوم البلاغة)، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، (بيروت- لبنان)، د.ت، ط3
- القزويني، زكريا (آثار البلاد وأخبار العباد)، د.ت، دار صادر، (بيروت- لبنان)، د.ط.
- // (عَجَائِبُ الْمَخْلُوقَاتِ وَغَرَائِبُ الْمَوْجُودَاتِ)، د.ت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت- لبنان)، 1421هـ/2000م، ط1
- القيرواني، ابن رشيق (العمدة في صناعة الشعر ونقده)، تح: محي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت، 1986م، ط5.
- ابن القيسراني، أحمد المقدسي (الأنساب المتفقة في الخط المتماثلة في النقط والضبط)، تح: دي يونج، طبعة: ليدن: بريل، 1282هـ/1865م.
- قيس بن الملوح "مجنون ليلي"، (الديوان)، تح: يسرى عبد الغني، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1420هـ/1999م، ط1.
- ابن قيم الجوزية، (بدائع الفوائد)، د.ت، دار الكتاب العربي، (بيروت، لبنان)، د.ط
- // (الصواعق المرسله في الرد على الجهمية والمعتلة)، تح: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، (الرياض- المملكة العربية السعودية)، 1408هـ، ط1
- الكتاني، (فهرس الفهارس، والأثبات، ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات)، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1982م، ط2.
- ابن كثير، (البدایة والنهاية)، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، (مصر)، 1424هـ/2003م، ط1
- // (تفسير القرآن العظيم)، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، (المملكة العربية السعودية)، 1418هـ/1997م، ط1.
- ابن دحية الكلبي (المطرب من أشعار أهل المغرب)، تح: إبراهيم الأبياري/حامد عبد المجيد، دار العلم للجميع، (بيروت- لبنان)، د.ط.

- اللغوي، أبو الطيب (مراتب النحويين)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة فحضة مصر، (القاهرة- مصر)، د.ط.
- ابن ماجة، (السنن)، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، د.ط
- المحيي، (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر)، دار صادر، (بيروت- لبنان)، د.ط
- محمد بن عمر التونسي، (تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان)، تح: خليل محمود عساكر/مصطفى محمد مُسعد، الدار المصرية للتأليف، (القاهرة- مصر)، 1965م، د.ط.
- المزاري بن عودة الآغا (طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر)، تح: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1990م.
- المسعودي، (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، (بيروت- لبنان)، 1393هـ/1973م، ط5.
- المعري أبو العلاء (شرح ديوان أبي الطيب المتنبي)، تح: عبد المجيد دياب، دار المعارف، (القاهرة - مصر)، 1413هـ/1992م، ط2
- المغربي، أبو الحسن بن سعيد (الجغرافيا)، تح: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، (بيروت- لبنان)، 1970م، ط1.
- المقدسي، محمد بن أحمد (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، د.ت، مكتبة مدبولي، (القاهرة- مصر)، 1411هـ/1991م، ط3.
- المقرئ، أحمد بن محمد التلمساني (أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض)، تح: مصطفى السقا - إبراهيم الإيباري - عبد العظيم شلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة- مصر)، 1358هـ/1939م، د.ط.
- // (نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، تح: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت- لبنان)، 1408هـ/1988م، ط1.
- المقرئزي، (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1418هـ، ط1.
- ابن منظور، (لسان العرب)، تح: عبد لله علي كبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، (القاهرة- مصر)، مادة: خطب.
- المولى محمد، (الإكسير في فكاك الأسير)، تح: محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، (الرباط- المغرب)، 1965م، د.ط.
- لييد بن ربيعة، (الديوان)، تح: حمدو طمّاس، دار المعرفة، 1425هـ/2004م، ط1.

- النابغة الجعدي، (الديوان)، تح: واضح الصمد، دار صادر، (بيروت- لبنان)، 1998م، ط1.
- ابن النديم، (الفهرست)، تح: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، (بيروت- لبنان)، 1417هـ/1997م، ط2.
- النووي، يحيى بن شرف (رياض الصالحين)، تح: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، (دمشق- سوريا)، 1412هـ/1992م، ط1.
- // (شرح صحيح مسلم)، المطبعة المصرية، (الأزهر- مصر)، 1347هـ/1929م، د.ط
- الهري، محمد أمين (شرح صحيح مسلم الكوكب الوهاج والروض البهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، تح: هاشم محمد علي مهدي، دار المنهاج، (جدة- المملكة العربية السعودية)، دار طوق النجاة (بيروت- لبنان)، 1430هـ/2009م، ط1، ص: 284/10 [باب الجمعة]
- الوارجلاني، (رحلة الوارجلاني)، تح: يحيى بن بهون حاج احمد، مطبعة الجيش، الجزائر، 2007م
- الورثاني، (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، مكتبة الثقافة الدينية، (القاهرة- مصر)، 1429هـ/2008م، ط1.
- اليعقوبي، (البلدان)، د.ت، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1422هـ، ط1.
- اليونيني، (مشيخة شرف الدين اليونيني)، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، (مصر)، 1423هـ/2002م، ط1.

2- المراجع:

- إحسان عباس (فن السيرة)، دار الشروق، (عمان- أردن)، 1996م، ط1.
- الألباني، محمد ناصر الدين، (سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، (الرياض- السعودية)، 1412هـ/1992م، ط1.
- // (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة)، دار المعارف، (الرياض - المملكة العربية السعودية)، 1412 هـ / 1992م، ط1
- // (صحيح وضعيف سنن أبي داود)، تنسيق: أحمد عبد الله ، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية - المجاني - من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة (الإسكندرية- مصر).
- // (صحيح وضعيف سنن ابن ماجه)، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة، (الإسكندرية- مصر)، د.ط.
- أحمد أمين، (زعماء الإصلاح في العصر الحديث)، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة- مصر)، 1971 م، ط3
- إلبا حاوي (فن الوصف وتطوره في الشعر العربي)، دار الكتاب اللبناني، (بيروت- لبنان)، 1967م، ط1

- أنساعد، سميرة (الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الهجريين - ق19/17م-)، الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقاف، (عين النعجة- الجزائر)، 2011م، ط1
- // (الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري - دراسة في النشأة والتطور والبنية-)، دار الهدى، (عين مليلة- الجزائر)، 2009م، د.ط.
- أنيس إبراهيم وآخرون، (المعجم الوسيط)، مجمع اللغة العربية- مكتبة الشروق الدولية- (القاهرة- مصر)، 1425هـ/2004م، ط4.
- الباردي، محمد (انشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة)، منشورات إتحاد كتاب العرب، (دمشق- سوريا)، 2000م، د.ط.
- // (عندما تتكلم الذات - السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث-) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (دمشق- سوريا)، 2005م.
- باشلار، غاستون (جماليات المكان)، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (بيروت- لبنان)، 1984م، ط2.
- بحراوي، حسن (بنية الشكل الروائي)، المركز الثقافي العربي، (بيروت- لبنان) ، 1990م، ط1.
- البستاني، بطرس، (دائرة المعارف العربية)، مطبعة المعارف، (بيروت- لبنان)، 1884م، د.ط.
- البشير الإبراهيمي، (آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي)، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، 1997م، ط1.
- أبو بكر، أسماء (ابن بطوطة- الرجل والرحلة-)، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1992م، ط1.
- البلادي، عاتق بن غيث (معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية)، دار مكة، (مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية)، 1402هـ/1982م، ط1.
- بيرم، محمد (صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار)، دار صادر، (بيروت- لبنان).
- التونجي، محمد (المعجم المفصل في الأدب)، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1419هـ/1999م، ط2.
- الجعفري، ياسين (اليقوي، المؤرخ والجغرافي)، وزارة الإعلام العراقية، دار الرشيد، (العراق)، 1980م، د.ط.
- الحبيب الجناحي، (المقري صاحب نفع الطيب)، دار الكتب الشرقية، (تونس)، 1955م/1374هـ، ط1.
- الجيلالي ، عبد الرحمن (تاريخ الجزائر العام)، دار الثقافة العربية، (بيروت- لبنان)، 1983م، ط6.
- جينيت، جيرار (خطاب الحكاية) ، تر: محمد معصم ، عبد الجليل الأزدي، عمر حلي، المجلس الأعلى لثقافة، 1997م، ط2

- الحاتمي، محمد (الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي)، مطبعة المعارف الجديدة، (الرباط- المملكة المغربية)، 2006م، ط1
- الحجوي، محمد (حياة الوزان الفاسي وآثاره)، المطبعة الاقتصادية، (الرباط- المغرب)، 1354هـ، د.ط.
- حسين، حسني (أدب الرحلة عند العرب)، دار الأندلس، (بيروت- لبنان)، 1403هـ/1983م، ط2.
- حسين، عبد الرزاق (فن النشر المتجدد)، دار العلم الثقافية، (المملكة العربية السعودية)، 1998م، ط1.
- الحفناوي، أبو القاسم (تعريف الخلف برجال السلف)، تقديم: محمد رؤوف القاسمي الحسيني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، (الرباط- الجزائر)، د.ط.
- // (تعريف الخلف برجال السلف)، طبع بمطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م.
- حليفي، شعيب (الرحلة في الأدب العربي)، رؤية للنشر والتوزيع، (القاهرة- مصر)، 2006م، ط1.
- حمادي، عبد الله (دراسات في الادب المغربي القديم)، دار البعث للطباعة والنشر، (الجزائر)، 1406هـ/1986م، ط1.
- حمود، خضر موسى محمد (أدب الرحلات وأشهر أعلام العرب ونتاجهم)، دار الكتب، العلمية، (بيروت- لبنان)، 2011م، ط1.
- الحميداني، حميد (بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي، (بيروت- لبنان)، 2000م، ط3.
- حميدة، عبد الرحمن (أعلام الجغرافيين العرب)، دار الفكر، (دمشق- سوريا)، 1416هـ/1995م، د.ط.
- // (أعلام الجغرافيين ومقتطفات آثارهم)، دار الفكر، (بيروت- لبنان)، 1389هـ، د.ط.
- خطاب، محمود (قادة فتح الأندلس)، مؤسسة علوم القرآن - منار للنشر والتوزيع، 1424هـ/2003م، ط1.
- الخطيب، مصطفى عبد الكريم (معجم المصطلحات والألقاب التاريخية)، مؤسسة الرسالة، (بيروت- لبنان)، 1416هـ/1996م، ط1.
- الدفاع، علي (رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية)، مكتبة التوبة، (المملكة العربية السعودية)، د.ط.

- ذاكر، عبد النبي، (المختمل في الرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا والبلاد الروسية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت- لبنان)، ودار السويدي، (الإمارات العربية المتحدة)، 2005م، د.ط
- // (عتبات الكتابة، مقارنة لميثاق المحكي الرحلي العربي)، منشورات البحث الأكاديمي في الأدب الشخصي، (المغرب)، 1998م، د.ط.
- رايد، عبد الصمد (مفهوم الزمن و دلالاته في الرواية العربية المعاصرة)، 1988م، الدار العربية للكتاب، (تونس)، د.ط.
- رمضان، محمد وآخر (إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر)، طبع داود بريكسي، (تلمسان- الجزائر)، 2005م، ط2
- الرويلي ميجان، (دليل الناقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي، (بيروت- لبنان)، (الدار البيضاء- المغرب)، 2002م، ط3.
- الريامي، كمال بن محمد (مشاهير الرحالة العرب)، كنوز للنشر والتوزيع، (القاهرة- مصر)، 1434هـ/2013م، ط1
- زروقة، عبد الرشيد (جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي 1913-1940م)، دار الشهاب، (بيروت- لبنان)، 1420هـ/1999م، ط1
- زيادة، نقولا (الجغرافيا والرحلات عند العرب)، الشركة العالمية للكتاب طباعة ونشر وتوزيع، بيروت- لبنان، 1987م، د.ط.
- أبو زيد، بكر، (طبقات النسابين)، دار الرشد، (الرياض- المملكة العربية السعودية)، 1407 هـ/1987م، ط1
- سعد الله، أبو القاسم (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر)، ج1، 4، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1990م، ط3 ، ط4.
- // (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر)، ج2، دار البصائر للنشر والتوزيع، (حسين داي- الجزائر)، 2007م، د.ط
- // (تاريخ الجزائر الثقافي- 1500-1830)، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1998م، ط1

- // (تجارب في أدب الرحلة)، المؤسسة الوطنية للكتاب، (الجزائر)، 1983م، د.ط.
- // (رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين - مجموع رحلات-)، المعرفة الدولية للنشر، (الحراش- الجزائر)، 2011م، د.ط.
- // (الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري)، عالم المعرفة، (الجزائر)، 2001م، د.ط.
- // (محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال-)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1410هـ - 1990م، ط3
- سمير، أبو حمدان (خير الدين التونسي "أبو النهضة التونسية")، دار الكتاب العالي، (بيروت، لبنان)، 1993م
- شاكر، أحمد محمد (عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير مختصر تفسير القرآن العظيم)، تح: أنور الباز، دار الوفاء، (الإسكندرية- مصر)، 1426هـ/2005م، ط2.
- شاهين، أسماء (جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا)، دار الفارس (الأردن)، 2000م، ط1.
- الشايع، ندى عبد الرحمن يوسف، (معجم لغة دواوين شعراء معلقات العشر)، مكتبة لبنان ناشرون، (بيروت- لبنان)، 1993م، د.ط.
- الشدياق، (الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوروبا)، تح:غادة خوري، دار كتب، (بيروت- لبنان)، 2002م، د.ط.
- شرشار، عبد القادر (تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص)، منشورات إتحاد كتاب العرب، (دمشق- سوريا)، 2006م، د.ط.
- الشرقاوي، محمود (رحلة ابن بطوطة)، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة- مصر)، د.ط.
- شفيق، البقاعي (أدب عصر النهضة)، دار العلم للملايين، (بيروت- لبنان)، 1990م، ط1
- شميسة غربي، (الذات والوعي بالتاريخ - قراءة في المنجز السردي لشُعيب حليفي)، تيمقاد للنشر، 1435هـ/2014م، ط1.
- شكيب أرسلان، (الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية)، منشورات مكتبة الحياة، (بيروت- لبنان)، د.ط.
- الشوابكة نوال (أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، دارا للمأمون، (عمان)، 1428هـ/2008م، ط1.

- بو صفصاف، عبد الكريم وآخرون، (معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين)، دار مداد يونيفار سيتي براس، (قسنطينة- الجزائر)، 2015م
- صلاح جرار (زمان الوصل)، المؤسسة العربية لدراسات والنشر، (بيروت- لبنان)، دار الفارس للنشر (عمان)، 2004م، ط1.
- صلاح الدين الشامي (الرحلة عين الجغرافيا المبصرة)، منشأة المعارف الإسكندرية، (القاهرة- مصر)، 1999م، ط2.
- شوقي ضيف (الترجمة الشخصية)، دار المعارف، (القاهرة- مصر)، 1956م، ط4.
- // (الرحلات)، دار المعارف، (القاهرة - مصر)، ط4.
- طالي عمار (آثار ابن باديس)، الشركة الجزائرية، (الجزائر)، 1388هـ/1968م.
- الطمار محمد (تاريخ الأدب الجزائري)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (الجزائر)، 1969م.
- الطنجي محمد (رحلة ابن خلدون)، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، 1425هـ/2004م، ط1
- الطهطاوي رفاعه، (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، (القاهرة- مصر)، 2012م، د.ط.
- ابن عاشور، محمد الفاضل (تراجم الأعلام)، الدار التونسية، (تونس)، 1970م.
- العاني، خالد عبد المنعم (مذكرات الرحالة يونس بحري)، الدار العربية للموسوعات، (بيروت- لبنان)، 1426هـ/2005م، ط1.
- العاني، السيد محمود آل غازي (بيان المعاني)، مطبعة الترقى، (دمشق- سوريا)، 1382هـ/1965م، ط1
- عبد الباقي، محمد فؤاد، (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن)، دار الحديث، (القاهرة- مصر)، 1364هـ/1945م ، د.ط.
- عبد الدايم، يحي (الترجمة الذاتية في الأدب العربي)، دار إحياء التراث العربي، (بيروت- لبنان)، د.ط.
- عبد السلام، أحمد (مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية)، الشركة التونسية للتوزيع، (تونس)، 1987م، ط1
- عبد العزيز، سعد (الزمن التراجيدي في الرواية المعاصرة)، المطبعة الفنية الحديثة، (القاهرة- مصر)، 1970م ، ط1.
- عبد الغني، حسن محمد (أحمد فارس الشدياق)، دار مصر للطباعة، د.ت، د.ط.
- // (التراجم والسير)، دار المعارف، (القاهرة - مصر)، ط3.
- // (معجم المؤلفين)، مكتبة المثني، دار إحياء التراث العربي (بيروت- لبنان)، د.ط.
- عبد الكريم، محمد (المقري وكتابه نوح الطيب)، دار مكتبة الحياة، (بيروت- لبنان)، د.ط.

- عبد الوهاب، حسن (العمر في مصنفات المؤلفين التونسيين)، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان).
- العثيمين، محمد بن صالح (شرح الأربعين النووية)، دار الثريا للنشر، (عنيزة- المملكة العربية السعودية)، 1425هـ/2004م، ط3.
- // (شرح رياض الصالحين)، دار الوطن للنشر، (الرياض- السعودية)، 1426هـ، د.ط
- ابن العجمي، (ذيل لب اللباب في تحرير الأنساب)، شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية (صنعاء- اليمن)، 1432هـ/2011م، ط1
- العدوي، ابراهيم (ابن بطوطة في العالم الإسلامي)، دارا المعارف، (القاهرة- مصر)، 1954م، د.ط.
- عزام، عبد الوهاب (رحلات)، مطبعة الرسالة، (القاهرة- مصر)، 1358هـ/1939م، د.ط
- عزي، عبد الرحمن (التواصل القيمي في الرحلة الورثيانية)، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع (الأبيار- الجزائر)، 2011م، د.ط
- بو عزيز، يحيى (أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة)، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، د.ط
- علوا، علي (معجم مشاهير المغاربة)، تنسيق: أبو عمران الشيخ، تقرير: ناصر الدين سعيدوني، جامعة الجزائر، د.ط.
- علوش، سعيد (إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي- دراسة مقارنة-)، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء- المغرب)، 1986م، ط1.
- العلوي، سعيد (أوروبا في مرآة الرحلة- صورة الآخري أدب الرحلة المغربية المعاصرة-)، مطبعة النجاح الجديدة، (الدار البيضاء- المغرب)، 1995م، ط1.
- عمر، أحمد مختار، (معجم اللغة العربية المعاصرة)، عالم الكتب، (القاهرة- مصر)، 1429هـ/2008م، ط1.
- عمر بن قينة (الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (دمشق- سوريا)، 1999م، د.ط
- // (في الأدب الجزائري الحديث)، ديوان المطبوعات الجامعية، (الجزائر)، 2017م- ط3.
- // (المعجم الموسوعي في ألفاظ القرآن الكريم وقراءاته)، مؤسسة سطور المعرفة، (الرياض- المملكة العربية السعودية)، 1423هـ/2002م، ط1.
- أبو عمران الشيخ (معجم مشاهير المغاربة)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، جامعة الجزائر، 1995م
- العموش، خلود (الخطاب القرآني)، عالم الكتب الحديث، (الأردن)، 2008، ط1.
- عيد محمد (النص والخطاب قراءة في علوم القرآن)، مكتبة الآداب علي حسن، (القاهرة- مصر)، 2009م، ط1

- غريب، جورج (أدب الرحلة، تاريخه وأعلامه)، دار الثقافة، (بيروت - لبنان)، 1979م.
- بو غلا، أحمد (الرحلة الأندلسية - الأنواع والخصائص)، دار أبي رقرق، (الرباط - المغرب)، 2008م، ط1.
- الفاخوري، حنا (الموجز في الأدب العربي وتاريخه)، دار الجليل، (بيروت - لبنان)، 1985م، ط1
- فتوح، عيسى (دراسات في الأدب و النقد)، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، (دمشق - سوريا)، 1991م، د.ط.
- فريد الدين، أيلان (الأزمنة في اللغة العربية)، دار العبر للطباعة، (اسطنبول - تركيا)، 1997م، د.ط.
- فوزي، حسين (حديث السندباد القديم)، دار الكتاب اللبناني، (بيروت - لبنان)، دار الكتاب المصري، (القاهرة - مصر) 1977م، ط1.
- القاسم، سيزا (بناء الرواية - دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة - مصر)، 1984م، د.ط.
- قنديل، فؤاد (أدب الرحلة في التراث العربي)، مكتبة الدار العربية للكتاب، 2002م، (القاهرة - مصر)، ط1.
- كحالة، عمر رضا (معجم المؤلفين)، مكتبة المنى، (بيروت - لبنان)، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - لبنان)
- كراتشكوفسكي، إغناطيوس (تاريخ الأدب الجغرافي)، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية (جامعة الدول العربية)، 1957م، د.ط.
- الكردي، عبد الرحيم (السرود في الرواية المعاصرة)، دار الثقافة، (القاهرة - مصر)، 1412هـ/1992م، ط1.
- كردي، علي إبراهيم (أدب الرحل في المغرب والأندلس)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، (دمشق - سوريا)، 2013م، د.ط.
- كيلاني، كامل (السندباد البحري - قصص من ألف ليلة وليلة-)، دار المعارف، (القاهرة - مصر)، د.ت، ط26.
- كيليطو، عبد الفتاح (المقامات، السرود والأنساق الثقافية)، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، (الدار البيضاء - المغرب)، 2001م، ط1.
- مال الله، علي محسن (أدب الرحلات عند العرب في المشرق، نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري)، مطبعة الإرشاد، (بغداد - العراق)، 1978م
- مؤذن، عبد الرحيم (أدبية الرحلة)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (الدار البيضاء - المغرب)، 1996م، ط1.
- مؤنس، حسين (ابن بطوطة ورحلاته - تحقيق ودراسة وتحليل-)، دار المعارف، (القاهرة - مصر)، ط1
- // (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس)، مكتبة مذبولي، (القاهرة - مصر)، 1386هـ/1967م، ط1
- محمد، حسن زكي (الرحالة المسلمون في العصور الوسطى)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، (القاهرة - مصر)، 2013م، د.ط.

- محمد، عاطف (رائد علم الفلك البيروني)، دار اللطائف، (القاهرة- مصر)، 2003م، ط1.
- محمد، محفوظ (تراجم المؤلفين التونسيين)، دار الغرب الإسلامي، (بيروت- لبنان)، 1982م، د.ط
- مرزوقي، سمير وآخرون (مدخل إلى نظرية القصة)، الدار التونسية للنشر، (تونس)، 1985م، ط1.
- مروم بك، خليل (أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع)، لجنة التراث العربي، (بيروت- لبنان)، د.ط
- المري، عبد السلام بن سودة (دليل مؤرخ المغرب)، دار الفكر، (بيروت- لبنان)، 1418هـ/1997م، ط1.
- مزاري، شارف (مستويات السرد الإعجازي في القرآن الكريم)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (دمشق- سوريا)، 2001م، د.ط.
- المسدي، عبد السلام (النقد والحداثة)، دار الطليعة للطباعة و النشر، (بيروت- لبنان)، ط1.
- مسعود جبران (الرائد - معجم لغوي عصري)، دار العلم للملايين، (بيروت- لبنان)، 1992م، ط7.
- مسلم، طاهر (عبقرية الصورة والمكان)، دار الشروق، (عمان- الأردن)، 2002م، ط1
- المغراوي، محمد (موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية)، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، (القاهرة - مصر)، النبلاء للكتاب، (مراكش - المغرب)، ط1.
- مفتاح، محمد (تحليل الخطاب الشعري- إستراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، (بيروت- لبنان)، (الدار البيضاء- المغرب)، 1985م، ط1
- المقدسي، أنيس (الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة)، دار العلم للملايين، (بيروت- لبنان)، 2000م، ط6.
- المواقي، ناصر (الرحلة في الأدب العربي - حتى نهاية القرن الرابع الهجري-)، دار النشر لجامعات المصرية، (القاهرة- مصر)، 1415هـ/1995م ، ط1.
- المويلحي، محمد (حديث عيسى ابن هشام)، كلمات الهنداوي للنشر، (القاهرة- مصر)، 2013م، د.ط.
- الملي، مبارك (تاريخ الجزائر في القديم والحديث)، المؤسسة الوطنية للكتاب، (الجزائر)، 1406هـ/1986م.
- بن نبي، مالك، (مذكرات شاهد القرن)، دار الفكر، (الجزائر)، 1984م، ط2
- نصار، حسين (أدب الرحلة)، الشركة العالمية للنشر، (القاهرة- مصر)، 1991م، ط1.
- النصير، ياسين (إشكالية المكان في النص الأدبي)، دار الشؤون الثقافية، (بغداد- العراق)، 1986م، د.ط.
- // (الرواية والمكان)، سلسلة الموسوعة الصغيرة، (بغداد- العراق)، 1980م، د.ط.
- نواب، عواطف محمد يوسف (الرحلات المغربية والأندلسية- دراسة تحليلية مقارنة-)، مكتبة الملك فهد الوطنية، (الرياض- المملكة العربية السعودية)، 1996م، د.ط.
- نور الدين، عبد الحليم (تاريخ وآثار النوبة)، مكتبة الإسكندرية، (الإسكندرية- مصر)، د.ط

- نويهض، عادل (مُعْجَمُ أعلام الجزائر - من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر-)، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف، (بيروت - لبنان)، 1400هـ - 1980م.
- وزناحي، مراد (حديث صريح مع أبي القاسم سعد الله في الفكر واللغة والثقافة والتاريخ)، منشورات الحر، (الجزائر)، 2008م، ط1
- الوشيلي، عبد الله (الرحلات والمخيمات وأثرها الدعوي والتعليمي والتربوي)، مؤسسة الكتب الثقافية، (بيروت - لبنان)، 1408هـ، د.ط.
- وهبه، مجدي (معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب)، مكتبة لبنان، (بيروت - لبنان)، 1984م، ط2.
- وهيبة، عبد الفتاح (جغرافية المسعودي بين النظرية والتطبيق - من الأدب الجغرافي في التراث العربي)، منشأة المعارف، (الإسكندرية - مصر)، 1995م، د.ط.
- وهيبة عبد الفتاح ، (مكانة الجغرافيا من الثقافة الإسلامية)، جامعة بيروت، 1979م، (لبنان). د.ط.
- يقطين، سعيد (تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي)، (بيروت - لبنان)، (الدار البيضاء - المغرب)، 1997م، ط3
- // (السرد العربي - مفاهيم وتجليات-)، دار رؤية للنشر والتوزيع، (القاهرة - مصر)، 2006م، ط1.
- // (الكلام و الخبر، مقدمة للسرد العربي)، المركز الثقافي العربي، (بيروت - لبنان)، 1997م، ط1.
- يوسف، آمنة (تقنيات السرد بين النظرية والتطبيق)، دار الحوار، (سوريا)، 1997م، ط1.
- اليوسي، (محاضرات في الأدب واللغة)، تح: محمد حجي وأحمد الشرفاوي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت - لبنان)، 1402هـ/1981م، د.ط

3- الموسوعات:

- (موسوعة الشعر الجزائري)، الربيعي بن سلامة، عمار ويس، محمد العيد تاورتة، عزيز العكاشي (جامعة تيزي وزو - الجزائر)، 2002م، ط1.
- الموسوعة الشعرية، (معجم الشعراء العرب)، موقع المكتبة الشاملة: <https://shamela.ws/index.php/book/2114>
- (موجز دائرة المعارف الإسلامية)، تر: محمد سمير سرحان، مركز الشارقة لإبداع العلمي، (الشارقة - الإمارات العربية المتحدة) 1418هـ/1998م، ط1.
- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، مكتبة الملك فهد الوطنية، (الرياض - المملكة العربية السعودية)، 1419هـ/1999م، ط2.

4- المجالات والحواليات:

- حوليات الجامعة التونسية، 1973م، العدد: 10.
- مجلة الأدب، جامعة منتوري، (قسنطينة - الجزائر)، 1421هـ/2000م، العدد: 5.
- مجلة الأدب الإسلامي، رابطة الأدب الإسلامية العالمية، (بيروت - لبنان)، ربيع الأول 1415هـ، العدد: 3.
- مجلة إفريقيقا قارتنا، أبريل 2014م، العدد: 12.
- مجلة البحث والبيبلوغرافيا، جامعة الحسن الثاني، (المحمدية - المغرب)، 1999م، العدد: 10.
- المجلة التاريخية المغربية، (تونس=)، جويلية 1989م، العدد: 53 و54.
- مجلة التراث العربي، (دمشق، سوريا)، أبريل 2005م، العدد: 98.
- مجلة دراسات أندلسية، 1415هـ/1994م، (تونس)، العدد: 12.
- مجلة دراسات العالم الإسلامي، فبراير 2012م، المجلد: 5، العدد: 1 و2.
- مجلة السرديات، جامعة منتوري، (قسنطينة - الجزائر)، جانفي 2004م، العدد: 1.
- مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، (الكويت)، يناير 1983م، العدد: 4.
- مجلة العربي، (الكويت)، 01 يناير، 1987م، العدد: 338.
- مجلة الغاؤون، (بيروت - لبنان)، كانون الثاني 2011م، العدد: 35.
- مجلة المنهل، (المملكة العربية السعودية)، جمادى الأولى وجمادى الثانية 1413هـ/نوفمبر وديسمبر 1992م، المجلد: 54، العدد: 500.
- مجلة الواحات للبحوث والدراسات، (غرداية - الجزائر) العدد: 16، 2012م.
- مجلة الشهاب، غرة جمادى الأول 1994هـ أوت 1935م. وغرة شوال 1334هـ جانفي 1936م.
- مجلة مصباح الفكر، 1992م، (اليونسكو)، العدد: 152/96

5- الرسائل والمذكرات الجامعية:

- إسماعيل زردومي، (فن الرحلة في الأدب المغربي القديم)، رسالة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، باتنة - الجزائر)، 1426هـ/2005م.
- بوكرموش ياسين نبيل، (الأساليب البلاغية في نفع الطيب للمقري)، مذكرة ماجستير، جامعة حسيبة بن بو علي، (شلف - الجزائر)، 2008/2007م
- جميلة روباش، (أدب الرحلة في المغرب العربي)، مذكرة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، (بسكرة - الجزائر)، 2015/2014م.
- حازم فارس علي أبو شارب، (فن السيرة في الأدب الأيوبي)، مذكرة ماجستير، جامعة الشرق الأوسط، (عمان - الأردن)، 2011/2010م

- حافظ محمد بادشاه، (الحجاز في أدب الرحلة العربي)، رسالة دكتوراه، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، (إسلام آباد- باكستان)، 2013/2009م.
- حفيظ حجوج بلعيد، (المقري شاعرا)، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، (الجزائر)، 1409هـ/1989م
- سهام سديرة، (بنية الزمان والمكان في قصص الحديث النبوي الشريف)، مذكرة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري، (قسنطينة- الجزائر)، 2006/2005م.
- شادي حكمت ناصر، (ابن بطوطة وصناعة أدب الرحلة- نسيج الواقع والخيال)، رسالة ماجستير، اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأمريكية، (بيروت- لبنان)، 2003م.
- الطاهر حسيني، (الرحلات الجزائرية في العهد العثماني - بناؤها الفني أنواعها وخصائصها-)، مذكرة دكتوراه، جامعة قاصدي مرباح، كلية الآداب واللغات، (ورقلة- الجزائر)، 2013/2014م، 1435/1434هـ
- عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي، (أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية)، مذكرة ماجستير، جامعة أم القرى، (المملكة العربية السعودية)، 1997هـ/1418م.
- عجوط محمد، (دلالة المشتقات في الشعر الجزائري خلال العهد التركي- محمد بن علي وأحمد بن عمار أنموذجا-)، مذكرة ماجستير، كلية الآداب واللغات، (شلف- الجزائر)، 2008/2007م.
- عيسى بخيتي (أدب الرحلة الجزائري الحديث- سياق النص وخطاب الأنساق-)، مذكرة دكتوراه، جامعة يلقايد أبي بكر جامعة، (تلمسان- الجزائر)، 2016/2015م.
- غني صكبان سلمان، (الزمان والمكان في العصر العباسي الأول)، رسالة دكتوراه، كلية التربية ابن رشد، (جامعة بغداد- العراق)، 2001م.
- مريم حماد عليان الحسنات، (السيرة الذاتية في الأدب الإسلامي)، مذكرة ماجستير، الجامعة الإسلامية، (غزة- فلسطين).
- مشعل نايف عايض الدهاس، (الحجاز من خلال كتب الرحالة المشاركة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين)، مذكرة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، (مكة- المملكة العربية السعودية)، 2008هـ/1429م.
- مقدم فاطمة، (الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش الجزائري)، مذكرة ماجستير، كلية الآداب واللغات والفنون، (السانية- وهران)، 2011/2010م.
- مليكة بوجفجوف، (بنية الوصف ووظائفه في ألف ليلة وليلة)، مذكرة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري (قسنطينة- الجزائر)، 2009/2008م.

- وفاء يوسف إبراهيم زبادي، (الأجناس الأدبية في كتاب "السّاق على السّاق في ما هو الفاريق" لأحمد فارس الشدياق- دراسة أدبية نقدية-)، جامعة النجاح الوطنية، مذكرة ماجستير، (نابلس- فلسطين)، 2009م.

6- موقع إلكتروني:

شميسة غربي، (سرديات من التراث الجزائري: قراءة تأملية في النصوص المتاحة)، 8/11/2017م/18/2/1439هـ،
https://www.alukah.net/literature_language/0/122482/#ixzz69zCvgGZH

فِي مِثْلِ الْمَوْضِعِ عَلَيْكَ

*** فهرس الموضوعات ***

الموضوعات	الصفحة
مقدمة.....	أ
مدخل.....	1
الفصل الأول: خطاب الرحلة. المفهوم، الدوافع والأقسام.....	30
المبحث الأول: ماهية الخطاب الرحلي.....	31
أدب السيرة الذاتية.....	36
أدب الجغرافيا.....	41
المبحث الثاني: دوافع الخطاب الرحلي ودواعي التدوين.....	47
دوافع الخطاب الرحلي.....	47
تدوين الرحلات.....	59
المبحث الثالث: أقسام الخطاب الرحلي ومكوناته.....	68
أقسام الخطاب الرحلي.....	68
- الرحلة النثرية.....	68
- الرحلة الشعرية.....	73
- الرحلة الواقعية.....	75
- الرحلة الخيالية.....	78
مكونات خطاب الرحلة.....	83
عناصر الخطاب الرحلي.....	85
الفصل الثاني: خطاب الرحلة في التراث العربي.....	87
المبحث الأول: خطاب الرحلة المشرقية في التراث العربي.....	90
المبحث الثاني: خطاب الرحلة المغاربية في التراث العربي.....	114
المبحث الثالث: خطاب الرحلة الجزائرية في التراث العربي.....	141

162.....	<u>الفصل الثالث: خطاب الرحلة الجزائرية في العهد العثماني</u>
163.....	المبحث الأول: خطاب الرحلة في كتاب: (نَفْحُ الطَّيْبِ مِنْ غُصْنِ الْأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ).
164.....	- عنوان الكتاب.
164.....	- سبب تأليف الكتاب.
166.....	- المصادر المعتمدة في الكتاب.
174.....	- منهج المؤلف في الكتاب.
181.....	- أهم جوانب رحلة المقرئ في الكتاب.
201.....	المبحث الثاني: خطاب الرحلة في كتاب: (لِسَانُ الْمَقَالِ فِي التَّبَايَعِ النَّسَبِ وَالْحَسَبِ وَالْحَالِ).
202.....	- عنوان الكتاب.
203.....	- سبب تأليف الكتاب.
204.....	- المصادر المعتمدة في الكتاب.
208.....	- منهج المؤلف في الكتاب.
214.....	- أهم جوانب رحلة ابن حمادوش في الكتاب.
242.....	المبحث الثالث: خطاب الرحلة في كتاب: (فَتْحُ الْإِلَهِ وَمِنْتَهُ فِي التَّحَدُّثِ بِفَضْلِ رَبِّي وَنِعْمَتِهِ).
243.....	- عنوان الكتاب.
244.....	- سبب تأليف الكتاب.
245.....	- المصادر المعتمدة في الكتاب.
251.....	- منهج المؤلف في الكتاب.
254.....	- أهم جوانب رحلة أبي راس في الكتاب.
286.....	خاتمة.
294.....	ملحق.
326.....	قائمة المصادر والمراجع.
350.....	فهرس الموضوعات.